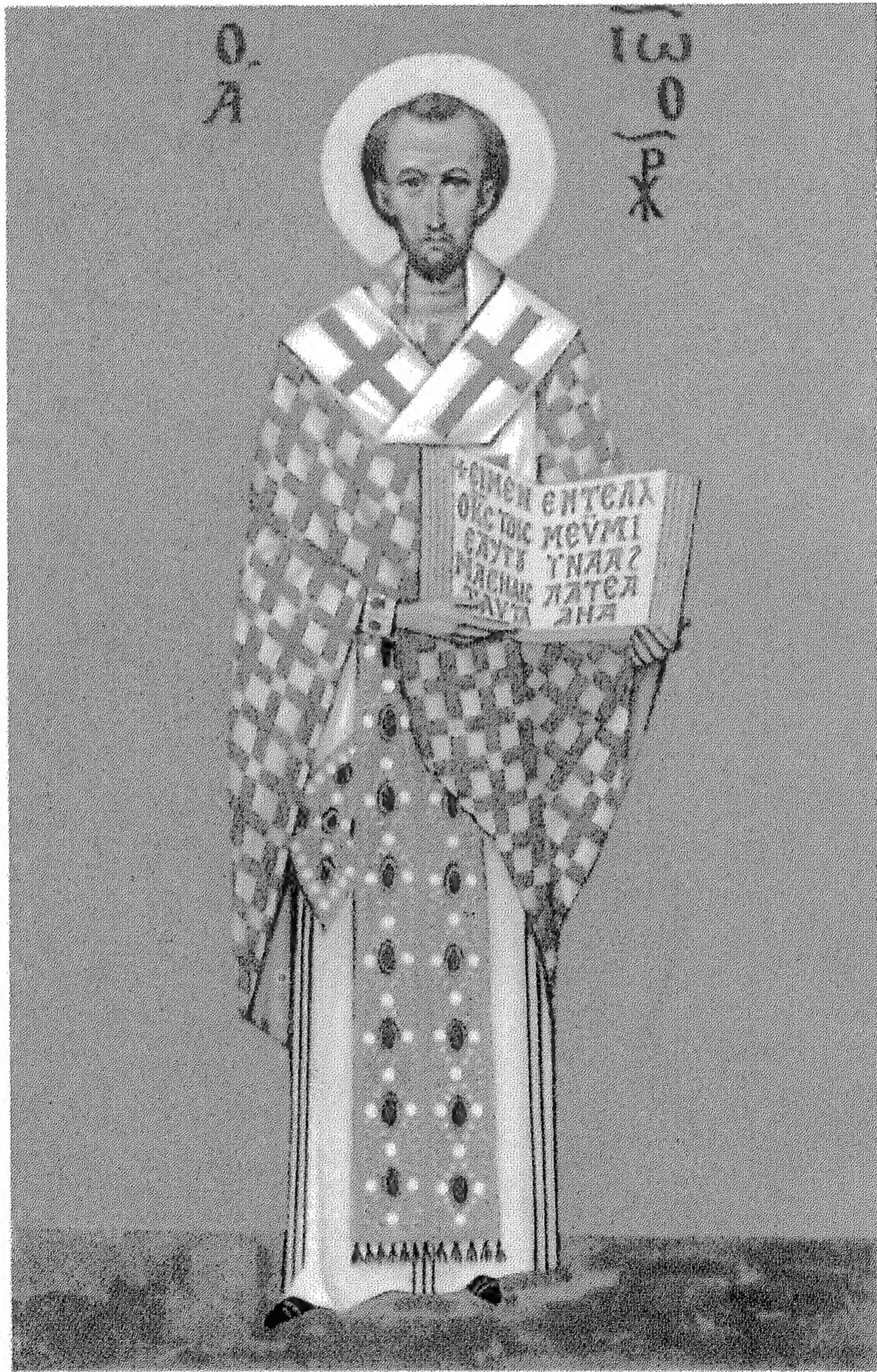


أقوال الآباء وكتاباتهم
(علم الباتولوجي)
[الكتاب الرابع]

الفيلسوف جينا الذهبى الفخر



القمص تادرس يعقوب ملطى

اهداءات ٢٠٠٢

القمص / تادرس يعقوب مالطي

كنيسة ماري جرجس

الكلية اللاهوتية
بجامعة القاهرة

أقوال الآباء وكتاباتهم

علم الباتولوجي PATROLOGY

٤

القديس يوحنا الذهبي الفم

سيرته - منهجه وأفكاره - كتاباته

الفرص نادرين يعقوب مطي

رقم الإيداع ٤٦١٢ / ١٩٨٠



ممنارة صاكن القلاية والغيط
البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية

مقدمة

الكنيسة في حياة الذهبي الفم

يرسم لنا هذا الاب — سيرته وعظاته وكتابات — أيقونة حياة لحياء الكنيسة تكشف لنا عن سر حياة الكنيسة التي لا يحدّها مكان ، ولا يحصرها زمان ، ولا يطويها تاريخ .

بمعنى آخر ، أود أن أقف معك في هذا الكتاب لا لنتابع أحداثا خارجية — عاشها القديس أو عاشتها الكنيسة في أيامه — انتهت وعبرت ، ولا لندرس عظات وكتابات نطق بها لسانه أو سجلها لنا قلمه ، بل لننطلق سويا بالروح القدس الى أعماق كنيسة المسيح ، نتعرف على سر حياتها ونقبل سماتها حية فينا !

ففى سيرته نختبر الكنيسة السماوية المتلهة ، المعاشة على الارض وسط الآلام . فقد أحب يوحنا الحياة الملائكية ، وعشق البتولية ، ومارس التسبيح والترنيم ، وانطلقت نفسه من يوم الى يوم نحو الابديات . لكنه في هذا كله لم يتجاهل واقع ، كائنات يحمل جسدا ويسكن على الارض بين البشر ، لذا مارس ايمانه بالابدية خلال واقع عملي ، سواء في بيت أمه ، أو دير أو وحدته أو في دار الاسقفية كشماس أو كاهن أو أسقف ، على منبره وسط استحسنات الجماهير أو في منفاه ...

انعكس ذلك على كرازته ، فقد جاءت عظاته انجيلية ، ففى بلاغة أسلوبه غالبا ما يقدم لنا تفسيرا واضحا وبسيطا للكتاب المقدس ، يحمل المسحة الروحية السماوية ، مطبقا في الحياة العملية ، متعرضا للمشاكل الواقعية ، مطالبا سامعيه بالسلوك العملي في المسيح يسوع ، فهو ليس بالواعظ الذي يسحب سامعيه الى تأملات عقلية كثيرة ، ولا يدخل بهم الى تفاسير رمزية مبالغ فيها ، ولا يحدثهم بفكر فلسفي عميق ، ولا يكلمهم بمصطلحات لاهوتية صعبة ، ولا يشغل ذهنهم بمناقشات وجيدال كثير مع الهرطقة ... لكنه يصب كل همه في الدخول بهم الى الانجيل العملي تسندهم نعمة الله الغنية ...

أما عن عظاته فقد دعم فمه الذهبي بحياته الذهبية ، فكان له قلب نارى وروح لا يهدأ ، يحب خلاص النفس في غير حدود ، مقدما حياته — بروح

الكنيسة الكرازة — مبذولة من أجل كل أحد . لقد انطلق بالكرازة يبعث في غيرة روح الكرازة والخدمة ... مؤمنا أن كل مسيحي في ممارسته لمسيحيته لابد أن يكون خادما للنفوس .

كشف لنا يوحنا في رعايته **روح الكنيسة التعبدية** ، لا يلهيه ازدحام الجماهير وتدفعهم لسماع عظاته عن النحيب عليهم من أجل قداساتهم ، ومطالبتهم بالروح التعبدية الهادئة المقدسة ليمارس المؤمنون حياتهم الكنسية السرائرية بخوف ورعدة! لقد درب شعبه على حياة «الشركة مع القديسين» ، يحتفل معهم بأعياد الشهداء مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ، يذكر عمل الله في حياتهم ويطلب صلواتهم ... كما كان يلذ له أن يقرأ رسائل الطوباوى بولس في هذه التذكارات ، حتى قال عنه « استولت على لذة سماع ذلك البوق الروحي (بولس الرسول) ... انى أعرف صوت صديقى ، ويكاد يخيل الى انى أراه أمامى وأسمع خطابه » ...

هكذا في حياة ذهبى الفم نرى الكنيسة متألثة ، تحمل طاقات نامية في العبادة والكرازة ... لكنها أيضا كنيسة متألمة ومجروحة ، يحاول الهراطقة والوثنيون صلبها ، كما يتعرض أولادها للضعفات (١) !

تكشف لنا حياته جانبا هاما من جوانب « الحياة الكنسية » هو (وحدتها) فقد هاجم ذهبى الفم بطريق أو بآخر ثنائية الغنوسيين ، الذين احتقروا المادة وخصصوا الجسد ... وأعلن ذهبى الفم الكنيسة بكونها كنيسة مؤمنين يعيشون على الأرض بأجسادهم ...

كما حطم ذهبى الفم كل ثنائية في الحياة الكنسية ، ليس هناك حياة تأملية وأخرى عاملة ، ولا حياة رهبانية وأخرى كرازة ، لكنها حياة واحدة . أحب الرهبنة وعشق الوحدة وسعى اليها لكن في غير اعتزال قلبه للبشرية أو تضيق أحشائه عن حملها . دخل الوحدة لا العزلة ، مارسا « وحدة مع الله » لا « عزلة عن الناس » . وعندما دعى للخدمة لم يبك وحدته بل نقل معه في قلبه روح الوحدة والنسك خلال بذله في الخدمة . وعندما استبعد الى المنفى نقل معه في غربته رهبنته الداخلية وكرازته !

هذه لمحات سريعة أرجو أن نتلمسها في دراستنا هذه ، لكي نعيشها ونحيها ، فنبدأ بسيرته ، ثم منهجه وافكاره الكنسية واللاهوتية ، وأخيرا كتاباته .

المؤلف

+ + +

(١) كثيرون في عرضهم لسير القديسين يخفون ضعفاتهم أو يحاولون تبريرها ، مع اننا لا نؤمن بالعصمة من الخطأ . على العكس فان كشف ضعفاتهم لا يقلل من كرامتهم بل يعطى للنفوس الضعيفة رجاء وقوة للجهد . هذا ما انتهجه الكتاب المقدس في عرضه لسير الآباء والانبياء والرسل .

الباب الأول

القديس يوحنا الذهبي الفم

ST. JOHN CHRYSOSTOM

سيرته

+ بدء حياته ٢٤٧ — ٢٧٠ م

+ رهبانيته ٣٧٠ — ٣٨٠ م

+ شموسيته وشموسيته ٣٨١ — ٣٩٨ م

+ اسقفيته ٣٩٨ — ٤٠٣ م

. الشماسه اوليباس

. طريق الالام

. مشكله الاخوة الطوال

. مجمع السنديان

+ نفيه ٤٠٣ — ٤٠٧ م

. في نيقية

. الى قيصرية

. في كوكوزة

الفصل الأول

بداياته

٣٤٧ - ٣٧٠ م

لله در النساء

في انطاكية اذ كان ليبيانيوس Libanius أعظم خطباء عصره يحتضر (١)؛
التف حوله تلاميذه يسألونه عن يخلفه فتنهد الفيلسوف الوثني قائلاً (٢)
« يوحنا لو لم يسلبه المسيحيون منا ! » . فقد اكتشف هذا الفيلسوف السوري
مواهب تلميذه يوحنا وفصاحته ، وكان يأمل أن يسلمه قيادة مدرسته من بعده
غير أن كنيسة بيته كانت أقدر على جذب قلبه !

لقد مات الوالي سكوندس Secundus قائد الجيش الروماني migister
militum بسوريا ، تاركاً زوجته أنثوسا Anthusa في السنة الرابعة من
زواجها ، وهي لاتزال في ريعان شبابها وبهجة الجبال مع وغرة الفنى . تركها
في العشرين من عمرها فحام الشبان حولها يطلبون ودها ، لكنها وضعت في
قلبها أن تكرس حياتها لخدمة طفلها : ابنتها التي سرعان ما انتقلت ، ورضيعها .
يوحنا (٣) .

لقد كرست أنثوسا حياتها في جدية لتربية طفلها ، لينشأ غصنا حيا
وفعلا في كرم الرب . وقد لس جميع معارفها من مسيحيين ووثنيين ما فعلته
هذه الام في حياة ابنها ، حتى اضطر الفيلسوف الوثني ليبيانيوس ان يشهد
عنها قائلاً « لله در النساء عند المسيحيين ! » .

يد الله الخلاصية :

تشرب يوحنا روح الحق على يدى امه التقية، التي ارضعته لبن تعاليمها
منذ الطفولة . لكنها لم تكف بهذا بل اجتهدت في تثقيف عقله بالعلوم والمعارف،

(١) Sozomen : Ecc. His 8 : 2 .

(٢) عام ٣٩٥ .

(٣) ولد يوحنا عام ٣٤٧م حسب تقدير Tillemont و Montfaucon
و Neander و Stephens و Venables و Schaff وغيرهم . بينما يحدد
Baur وغيره التاريخ ٣٥٤ أو ٣٥٥ ، أما Villemain فيحدده بـ ٣٤٤ .

فأودعته لدى ليبياتيوس يتدرب على البلاغة والمنطق ، ولدى اندروغاثيوس Androgathius يدرس الفلسفة (٤) .

نبغ يوحنا نبوغا فريدا ، وأعجب به الكثيرون ، فتنبا الكل له بمستقبل باهر ومركز سام . وأحس هو بذلك فأراد اظهار قدراته ومواهبه بممارسته المحاماة نحو عامين ، يرفع الى القضاء دعاوى المظلومين والفقراء ببلاغة وفصاحة ، حتى صار يوحنا محط آمال الكثيرين والكثيرات ، يتوقعون له منصبا قضائيا في وقت قصير . أما هو فاذا تبسمت له الدنيا انجذب الى ملاهيها ومسارحها وانديتها ، لكن تعاليم أمه بقيت حية في داخله ، فكان بين الحين والآخر يتوق لو كرس حياته للفلسفة الحقبة يمارس الانجيل ويعيش من أجل الابدية .

كانت يد الله تعمل في حياته ، فبعثت اليه صديقه القديم ، رفيق الصبا ، باسيليوس (٥) ، الذي كان يسلك بحياة انجيلية تقوية . . . الذي روى عنه يوحنا نفسه قائلا (٦) : « مال الميزان بيننا ، فعلت كفته ، وهبطت كفتي تحت ثقل شهوات هذا العالم والاهواء التي ينغمس فيها الشباب » .

بدأ باسيليوس يستميله نحو حب الله ، فانجذب يوحنا ، واشتاق لو كرس كل حياته للتعبيد ودراسة الكتاب المقدس ، فترك المحاماة وتلقفه مليتيوس Meletius أسقف أنطاكية الارثوذكسي ، وتلمذه ثلاث سنوات ، ثم منحه سر العمد حوالى عام ٣٦٩ أو ٣٧٠ م ، وهو في حوالى الثالثة والعشرين من عمره وكان العمد بداية انطلاق روحية جادة ، اذ يقول عنه بالاديوس Palladius انه منذ ذلك الحين (٧) « لم يحلف قط ، ولا افترى على احد ما ، ولا نطق

(4) Socrates : Ecc. His. 6 : 3 .

(٥) غير باسيليوس الكبير ، صار أسقفا على رغانيه Raphanèe بجوار انطاكية سوريا .

(6) De Sacerdotio 1 : 3 .

(٧) وصلت اليها سيرته عن طريق بالاديوس أسقف هيلينوبوليس ببثينية Palladius of Helenopolis ، وهو معاصر له وصديقه الحميم .
بالاديوس هذا أشهر مؤرخ للرهبنة المصرية ، تلميذ الاب أوغريس . ولد في غلاطية عام ٣٦٣ أو ٣٦٤ م ودرس العلوم الكلاسيكية . وفي عام ٣٨٨ ذهب الى مصر وتعرف على كثير من الرهبان والمتوحدين . التقى بالقديس مقاريوس الكبير عام ٣٩٠ في آخر حياته ، ثم بقى حوالى تسع سنوات يتتلمذ على يدى أوغريس ، واذا مرض نصحه الاطباء بالسفر الى فلسطين .
فألبا ما رسم أسقفا على هيلينوبوليس بواسطة ذهبى الفم عام ٤٠٠ م وقد انشغل كثيرا بالصراعات الخاصة بالأوريجانية

بكلمة باطلة ، ولا سب ولا حتى سمح بأى مزاح طريف .

= رافق ذهبى الفم ، وبسببه استجوب فى مجمع السنديان (البوط) عام ٤٠٣ كمتهم بالاوريجانية ، حيث حكم عليه بالنفى الى صعيد مصر .
نفذ الحكم عام ٤٠٦ م حيث بقى الى عام ٤٠٨ فى Syene بالصعيد ، مسجلا لنا عمله « حوار فى حياة القديس يوحنا ذهبى الفم » فى منفاه من أجله .
وفى عام ٤٠٨ ذهب انتينوه بالصعيد أيضا ليقضى بها حوالى أربعة اعوام اذ سمح له بالعودة من مصر عام ٤١٢ م ، وتسلم اسقفية أسبيونا Aspuna بفلاطية وقد تنيح بعد مجمع أفسس (٤٣١ م) بقليل .
أما أعماله فهى :

١ - التاريخ اللوزياكى Historia Lausiaca ، وضعه عام ٤١٩/٤٢٠ م وهو العمل الذى أعطاه شهرة عظيمة . قدمه الى احد حجاب البلاط فى عصر ثيودوسيوس الصغير يدعى Lavsus ، حيث وصف الحركة الرهبانية فى مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى فى القرن الرابع ، مقدما مصدرا أساسيا وأصيلا لتاريخ الرهبنة الاولى ، لا عن سماع من آخرين ، إنما خلال حياته بين الرهبان والنسك ، اذ أحبهم وتنقل بينهم وعاش وسطهم ، حتى لقب بهيرودوت آباء البرية « Herodotus of the Desert Fathers » لم يسجل دفاعا عن الرهبنة ، لكنه كتب ما رآه من فضائل دون أن يتردد عن ذكر ضعفات الرهبان .

لم يكتب لنا نظرية معينة يعتنقها ، لكنه أورد حقائق وروايات مسجلة بروح أبيه الروحى « أوغريس البنطى » .

جاء تاريخه يشمل سير آباء كثيرين وردوا فى كتاب « تاريخ الرهبان فى مصر The History of the monks in Egypt » الذى لا يعرف واضعه (حوالى سنة ٤٠٠ م غالبا بواسطة رئيس الشماس الاسكندرى تيموثاوس) يصف رحلة لجماعة من سبع اشخاص الى نساك مصريين عام ٣٩٤/٣٩٥ . كما جاء البعض فى التجمعات المتنوعة التى ظهرت تحت اسم « أقوال مأثورة للآباء أو أبو ثجماتا باتريم Apophthegmata Patrum » . . . وقد سجل لنا Meyer فى مجموعة Ancient Christian Writers مجلد ٣٤ ، مقدمة رائعة من « التاريخ اللوزياكى والدراسات الحديثة فيه . . . » .

٢ - حوار عن حياة القديس يوحنا Dialogus de Vita S. Joannis كتبه بمشاعر صادقة ، حيث سجل لنا حياة صديقه ذهبى الفم ، والكاتب فى منفاه Syene بصعيد مصر ، يعانى الآلام بسببه . جاء العمل فى شكل حوار بين اسقف وشماس ، يظهر فيه القديس يوحنا بطل الرواية ، اذ يختمه الشماس بقوله « ليذكر الله كل نبيحة ليوحنا ، فقد ثابر فى صراحة حتى الموت » .
يعتبر أهم مصدر لحياته فى سنته الاخيرة ، لكنه بلا شك يحمل تحيزا مرا ضد البابا ثاوفيلس الذى حكم عليه بالنفى .

الشرارة تلتهب !

يقول بالاديوس (٨) أن مليتيوس Meletias رئيس كنيسة أنطاكية قد لاحظ على هذا الشاب بهاء طلعه ، فأنجذب الى جمال شخصيته ، وسمح له بمرافقته على الدوام ، مدركا بعين النبوة ما يكون عليه . . . واذ عمده أقامه قارئاً أو اغنسطساً anagnostes عام ٢٧٠ م .

هكذا استطاع صديقه باسيليوس لا أن ينتشله من أمواج البحر الجائشة ، إنما كان يسنده على الدوام ، مشتاقاً أن يعيش معه على الدوام مكرسين قلوبهما للعبادة . . . ، فقد حثه على أن يعيشا معا في الحياة الرهبانية .

روى لنا ذهبى الفم بنفسه أحداث هذه الفترة ، قائلا (٩) :

« لم يكن يحتمل مفارقتى لحظة واحدة .

كان يحثنى على الدوام أن نترك بيتنا ونسكن معا .

واذ أقنعنى بذلك صار الأمر تحت التنفيذ ، لكن نحيب أُمى المستمر عاقبتى عن تلبية طلبه ، أو بالحرى أن أنعم أنا بهذه العطية على يديه .

لقد شعرت أُمى أنى أفكر فى هذه الخطوة ، فدخلت بى حجرتها الخاصة ، وجلست بجوارى على السرير الذى أنجبتنى عليه ، وسكبت سيولا من الدموع ، ثم نطقت بكلمات تستحق الرثاء أكثر من دموعها ، ففى نبرات الحزن قالت لى :
يا بنى ، لم تكن إرادة السماء أن أنتفع بقوة أبك طويلاً ، فقد ولى موته الآلام التى اجترتها من ولادتك ، تاركاً إياك يتيماً وأنا أرملة قبل الأوان ،

= جاء هذا الحوار على نبط كتاب « غيدون » لأغلاطون .

ويمكن الرجوع للنص الانجليزى فى كتاب :

H. Moore : The Dialogue of Palldius concerning the Life of Chrysostom (SPCK) , London , 1921 .

٣ — عن الهنود والبراهمة : On the People of India and the Brahmins

مقال صغير جاءنا تحت أسم بالاديوس يتكون من أربعة أجزاء ، يبدو أن الجزء الأول وجده من عمله ، حيث يقدم لنا سجلاً لخبرات دارسى مصر فى رحلته الى الهند .

جاء النص كله فى مخطوط "A" . 1711 . Alexander Novel, Codex Paris, Cr .

وفى ترجمة لاتينية منسوبة للقديس امبروسيوس . راجع :

Quasten : Patrology, Vol III. p 176 — 180 .

B. Altaner : Précis de Patrologie, ch 6 : 46 .

Ancient Christian Writers, vol 34, introd .

(8) Dial. 5. (9) De Sacerdotio 1 : 4 , 5.

أواجه كل مشاق الترميل التى لا يدركها بحق غير اللواتى اخترنهن . فان الكلام يعجز عن وصف العواصف والزوابع التى تجتاح صبية تركت بيت والديها منذ عهد قريب ، واذ هى عديمة الحنكة فى تصريف الامور يصيبها فجأة حزن لا يطاق ، وتجدها نفسها ملتزمة ان تتحمل اعباء اهتمامات أثقل بكثير مما يحتملها سننها وجنسها . فعليها ان تصلح كسل الخدام وتحذر خبثهم ، وتصد الفخاخ التى ينصبها لها الاقرباء ، وتتحمل بشجاعة اهانات جباة الضرائب .

اذا خلف الراحل طفلا ، ولو كان بنتا فان الام تعتنى بها كل العناية ، غير ان النفقات والمخاوف تكون أقل وطأة . اما الابن (الولد) فيسبب لها ربوات من المخاوف مع هموم يومية كثيرة ، بغض النظر عن النفقات الباهظة التى يتحتم على الام بذلها ، اذا أرادت ان تهذبه بما يليق بالاحرار .

ومع ذلك فان شيئا من هذه الامور لم يقدر ان يدفعنى الى زواج آخر ، ان ادخل بزواج آخر بيت أبيك ، فبقيت وسط الاعصار فى صميم العاصفة ، لا أحاول الخروج من حالة الترميل المتقدمة كفرن صاهر للحديد . وقد ساعدنى على ذلك — فى المقام الاول — النعمة النابعة من فوق . ولم تكن تعزيتى وسط هذه التجارب المرعبة قليلة ، اذ أنظر دوما وجهك فأرى فيك صورة الراحل ، حية وصديقة تماما . اذ كنت بعد رضيعا لم تتعلم الكلام ، فى سن يلهى فيه اصفر الاولاد والديهم ، كنت أنت سر تعزيتى !

أضف الى ذلك ، انك لا تقدر ان تلومنى انى احتملت ترملى بشجاعة لكنى انقصت ميراثك . الامر الذى يحدث لكثيرين عندما يتيمون . اما أنا فقد حافظت على ميراثك كاملا . لم احذف منه شيئا كنفقات لازمة لتهديك لتكون فى مركز لائق ، فقد دفعتها من مالى الخاص ، من مهر زواجى !

لست اقول هذا لتوبيخك ، انما اطلب منك مقابلة احسانى لك بأمر واحد : لا تدفعنى الى الترميل ثانية ! لا تحبى فى الحزن الذى القيتك لى أستريح .

انتظر موتى ،

لقد بقى لى قليل ثم أرحل .

حقا يتطلع الصبى الى عمر طويل ، أما نحن الذين كبرنا فليس لنا الا ان نترقب الموت .

عندما توارى جسدى التراب ، لا يوجد ما يعوقك .

لكنى مادمت حية فأقبل الحياة معى .

أتوسل اليك الا تعصى الله باطلا ، ولا تسىء الى بغير سبب ، غانى لم
أخطىء اليك فى شىء وسط هذه الشدائد الثقيلة .

لو كنت تشتكى على انى ألزمتك بالارتباك فى اهتمامات عالمية ، أو أجبرك
على العمل ، فلا تلتزم حتى بقوانين الطبيعة . . . بل اهرب منى كما من عدو!
لكن ، ان كنت على العكس ، اصنع كل شىء من أجل راحتك خلال رحلة
هزم الحياة ، فأسمح على الأقل بهذا الرباط ، ان لم يوجد شىء آخر يلزمك
بالبقاء معى .

حقا تستطيع ان تقول ان ربوات الناس يحبوك ، لكن ليس من يقدم لك
الراحة هكذا فى حرية مثلى ! ليس من يغير على خيك مثلى !

بهذه الكلمات وأكثر منها نطقت أمى ، غرويت هذا للشباب النبيل
(باسيليوس) . . . » .

فى طاعة أذعن يوحنا لتوسلات أمه الارملة التقية ودموعها ، اذ رأى من
الحكمة أن يخضع لها ويطيعها ، فقد تركته حرا يتفرغ للعبادة والتأمل والدراسة ،
ممارسا حياته النسكية الانجيلية بغير عائق . فان كانت ظروفه لا تسمح له
بالدخول فى الحياة الرهبانية الديرية ، لكن الرهبنة ليست مظهرا ، انما هى
فى جوهرها حياة داخلية يستطيع يوحنا أن يمارسها فى العالم حتى يشاء الله
له أن ينطلق فى الوقت المناسب !

للحال حول يوحنا بيت أمه الى شبه قلالية ، لا بالاسم او الشكل ،
لكن فيه انعزل عن الاهتمامات الزمنية ليمارس « وحدته مع الله » ودراسته
فى الكتاب المقدس .

عاش يوحنا ناسكا ، يحب الله ويهيم فى التسبيح له ، يكثر الصلاة ويقلل
الطعام . يفترش الارض وينام القليل ، ممارسا السكون فى بيته ليرتفع قلبه
نحو السماء ، مختبرا « الحديث مع الله » .

لعله فى هذه الفترة التقى بالاب تيودور الذى كان رئيسا لجماعة رهبانية
بجوار أنطاكية (١٠) ومعلما لمدرسة أنطاكية يدافع عن قانون الايمان النيقوى
ضد الوثنيين والهرطقة . . . مقتبسا منه منهجه فى تفسير الكتاب المقدس (١١)
. . . والذى انضم الى جماعته فيما بعد .

(10) Soc 6 : 3 , Soz 8 : 2 .

(١١) راجع الباب الثانى من هذا المجلد « منهجه الانجيلى » .

هروب من الاسقفية !

بلا شك كان يوحنا على اتصال دائم على الاقل باحدى الجماعات الرهبانية المقيمة بجوار انطاكية ، ينقل عنها الحياة الرهبانية . ليختبرها في بيته ... حيث بدأت رائحة المسيح الزكية تفوح في قلبه بقوة ، وانطلقت في بيته ، فانجذب الكثيرون اليه ، اما هو فكان حريصا على « الوحدة » واذ خلا كرسيان في سوريا اتجهت الانتظار حالا نحو يوحنا وصديقه باسيليوس ليتسلما عملا رعويا .

قال يوحنا (١٢) : « شاع بغتة خبر ازعجنا كلينا ، انا وباسيليوس ، وكان حديث القوم أن نرقى الى المقام الاسقفى . حين وقفت على ذلك النبأ ، أخذ منى الخوف والقلق كل مأخذ . كنت أخشى أن أقسر على قبول السيامة الاسقفية ، وبقيت مضطربا ، وسائلا ذاتى : لاي الاسباب خطر مثل ذلك الخاطر في شأنى ؟ » .

كان ذلك وهو بعد شاب في الخامسة والعشرين من عمره ، حين أخذ منه الخوف كل مأخذ ، لماذا ؟

لقد امتاز يوحنا بوضوحه وصراحته مع نفسه ومع من هم حوله ، لا يعرف التردد ، لا في داخله ولا في مظهره ... انن فلماذا الخوف والقلق ؟

امور كثيرة جالت في فكره ، فقد كان يوحنا يتهيأ داخليا — من يوم الى آخر — للانطلاق نحو الحياة الديرية متى سمح له الله بذلك ، كل ما يربطه بالمدينة امه الارملة التقية الوحيدة ! وفي نفس الوقت كانت الكنيسة بكل جراحاتها تملأ قلبه وتمتص كل مشاعره ، كانت نفسه مرة في داخله من اجل فساد حياة المسيحيين واغراءات اليهود والاعبيهم وسهموم الهراطقة ، هذا كله بجانب حياة البذخ والترف التى تعيشها انطاكية بأسرها ... كان قلبه يدمى كل يوما مشتتيا أن يرى خلاص الجميع ! هذان الاتجاهان — ميله الديرى وحبه لخلاص الناس — لم يخلقا في داخله يوما ما صراعا : الدير ام الاسقفية؟ أو بمعنى أصح : الرهبنة ام الخدمة ؟ فهو ان دخل الدير يتهلل بالحياة الملائكية ، وان خدم يفرح بالنذل كل يوم من اجل الخراف الضالة ... لا يشعر بصراع في محبته للطريقين ... فلماذا القلق ؟

لو أن يوحنا قد شعر بقدرته على تسلم العمل الاسقفى لما هرب ، وان هرب فهو لا يحمل تمنعا ظاهريا لعلة أو لآخرى ... يود الهروب ليس تفضيلا لحياة على أخرى ، ولا هربا من المسئولية ، لكن في احساس داخلى

(١٢) هنرى ترديف : القديس يوحنا الذهبى الفم (منشورات المعهد) ،

ص ١٩ .

بضعفه عن تسلّم مثل هذا العمل الرعوى السامى . وفى نفس الوقت ان هرب تبعه صديقه باسيليوس فيكون قد أفقد الكنيسة راعيا جليلا ، يشتهى ان يراه عاملا فى كرم الرب !

أمور كثيرة شغلت قلب يوحنا وفكره ، لكنه اذ التقى بصديقه باسيليوس لم يكشف له شيئا ، ليس خبثا لكن من أجل خير الكنيسة . ربما تحادثا معا فى « العمل الاسقفى وبركة البحث عن الخراف الضالة » فى صدق وأمانة ، فحسب باسيليوس فى هذا الحديث موافقة ضمنية على قبول السيامة . خاصة انه يعلم أكثر من غيره ما يكنه قلب يوحنا صديقه من شوق جاد نحو خدمة النفوس .

رضخ باسيليوس للسيامة متوقعا بفرح سيامة صديقه يوحنا ، ليعملا معا بروح واحد ، يسند أحدهما الآخر . لكن جاء دور يوحنا فاخفى فى الجبال ، الامر الذى احزن قلب باسيليوس ، فاضطر أن يكتب اليه يؤنبه على فعله هذا وخداعه له ، أو ما يسميه بخيانة العهد ...

لم يرد يوحنا أن يترك صديقه متألما ، فكتب اليه فيما بعد مقالا غاية فى الابداع ، يكشف له عن حقيقة موقفه بروح صريح واضح ، اتضاع مع محبة وعلم غزير ... الا وهو مقاله « عن الكهنوت De Sacerdotio » ، المؤلف الذى يغذى أجيالا من الكهنة والخدام .

كتب فى بلاغة ممتازة بروحانية صادقة ، فبكل اتضاع يروى فى غير خجل أن توقفه عن دخول « الدير » سره دموع امه ، ثم عاد يتحدث عن العمل الكهنوتى كعمل الهى فائق ، هو عمل السيد المسيح نفسه ، العامل فى كهنته ... وفى غير خجل يعلن شوقه للخدمة بل وشهوته لها ، فهو لم يهرب الى الجبال هربا من الاسقفية ، لكنه مع شوقه لها يشعر بعدم أهليته ! لقد عرف أن الاسقفية بذل والم ، لكنها تحتاج الى مؤهلات روحية عالية وقدرات !

لقد خط هذا الشاب مقاله فى ست كتب ، وكأنه كان يكتب دستورا يلتزم به فى حياته الكهنوتية ، أمام الله ونفسه .



الفصل الثاني

رهبانية

٣٧٠ - ٣٨٠ م

هدأت عاصفة رسامته أسقفًا فعاد الى الظهور في أنطاكية ، لكن سرعان ما تنيحت والدته فخلا له السبيل للانطلاق نحو الحياة الديرية بجوار أنطاكية ، يسعد بأربع سنوات من أعذب أيامه ، يقضيها في التأمل والصلاة والدراسة تحت قيادة شيخ مختبر يدعى ديودور (١) ، الذي يعتبر أحد مؤسسي مدرسة أنطاكية اللاهوتية ، وقد رسم أسقفًا على طرسوس فيما بعد . وكان يزامله صديقه منذ الدراسة عند ليبيانيوس وهما ثيودور (٢) الذي صار أسقفًا على موبسويست Mopsuestia ومكسيموس الذي صار أسقفًا على سيليكية .

على أي الحالات ، فهؤلاء في مجموعهم لا يمثلون مجرد جماعة نسكية بل وأيضا جماعة دراسية ، وضعوا على عاتقهم تفسير الكتاب المقدس بالمنهج الانطاكي ، الا وهو المنهج اللغوي أو الحرفي ، التاريخي . يقوم هذا المنهج على التفسير البسيط حسبما تشرحه اللغة ، لذا دعى « المنهج اللغوي أو

(١) الاب ديودور الطرسوسي Diodore of Tarsus يعتبر أحد أعمدة الكنيسة الانطاكية في أيامه ، اهتم بالرد على الهرطقات والبدع . قال عنه بوليانيوس الجاحد أن ديودور قد تزود بلسانه المملوء حقدا ضد الالهة القديمة بواسطة حكمة أثينا نفسها . دافع عن لاهوت المسيح في كتابه « صخرة عظيمة في المحيط » (Theodoret 4 : 22) .

نفى في عهد فالنر الى ارمينيا عام ٣٧٢ حيث قامت بينه وبين القديس باسيليوس الكبير صداقة ثم عاد الى أنطاكية ورسم أسقفًا على طرسوس . في القرن التالي (عام ٤٣٨) حمله القديس كيرلس الاسكندري مسئولية ظهور النسطورية ، الامر الذي ادى الى ابادته الكثير من كتاباته .

(٢) أب مثقف كمعلمه ، وهو معلم المبتدع نسطور ، الامر الذي ادى الى ادانته كمسئول عن ظهور النسطورية وكان مصير كتاباته كمصير كتابات معلمه .

الحرفي « ، كما قام على تأكيد الحقائق التاريخية كما وردت في الكتاب المقدس كحقائق واقعية وليست أعمالا مجازية رمزية ، لذا سمى أيضا بالمنهج التاريخي ...

أعماله الكتابية :

١ - اذ انطلق يوحنا الى الدير تهلت نفسه فيه ، أحس انه في السماء عينها ... وقد بقيت أحاسيسه هذه تلازمه كل أيام خدمته ، اذ نجده تارة يقول (٣) : « بالنسبة للتقيس اللجوء الى الدير هو هروب من الارض الى السماء ! » ، وأخرى يصف الراهب في قلايته (٤) : « كأنما يسكن عالما آخر ، هو في السماء بعينها . لا يتحدث الا في السمويات . عن حضن ابراهيم واكليل القديسين والطغمت المحيطة بالسيد المسيح » .

على أي الحالات غانه في فرحة قلبه أراد ان يجذب بعض أصدقائه من نطاكية ، خاصة ثيودور ، للحياة الرهبانية ، فسجل لنا مقاله الاول : « مقارنة بين الملك والراهب » (٥) Comparatio regis et monachi . جاء فيها أن الملك يتحكم في مدن وشعوب وجيوش ، أما الراهب فيتحكم في شهواته . الملك يحارب برابرة ليوسع رقعة أراضيه ووفرة غناه ، أما الراهب فيحارب الشياطين ويهدى نفوسا وينال من السيد المسيح اكليلا . الملك نهاره وليله مملوءان آلاما ومشكلات أما الراهب فبالفرح والسلام يقضى حياته . الملك يهدى ذهباً ، والراهب يقدم نعمة وتعزيات . الملك يصعب عليه استعادة امبراطوريته ان غدت ، لكن الراهب يسهل أن يقوم من سقطته . أما عن الموت ونتائجه ، فمن منا لا يرتعب خوفاً على الملك ، أما الراهب فالجميع يطمئن لمصيره .

في هذه المقارنة يبعث في أهل أنطاكية الانطلاق نحو الحياة الديرية اذ كان الشباب يتنافسون على مراكز القيادة والحكم والادارة .

يعلق A. Moulard (٦) على كتابه هذا أن ذهبى الفم كتبه بعد شهر من دخوله الدير ، اذ يرى كل شيء وروداً ، وان صح لنا القول أنه في « شهر العسل » ! .

على أي الاحوال بقي ذهبى الفم أميناً في حبه للرهبنة رغم تفضيله لخدمة النفوس والكراسة .

٢ - في عام ٣٧٣ كان غضب فالنز قد جاش على الارثوذكس ، فالزم

(3) 1. Tim PG 62 : 575 . (4) Mat. PG 58 : 643 .

(5) PG 47 : 387 — 392 .

(6) Anatole Moulard : Saint Jean chrysostome, sa vie, son oeuvre, 1949, p 34 .

نساكهم ورهبانهم على الخدمة العسكرية والمدنية ، واعتبر بعض المسيحيين في النسك ضربا من الجنون ، وقامت حملات عنيفة ضد الرهبنة مما اضطر يوحنا أن يخط كتباً ثلاث تحت اسم (٧) *Adversus oppugnatores vitae monasticac* يهاجم أعداء الرهبنة ويفند حججهم ، محمسا الآباء أن يرسلوا أولادهم الى الرهبان لينالوا تعليما علميا ويمارسوا حياة الفضيلة .

في هذه الكتب أعلن لنا بهاء الرهبنة وجمال حياتها النسكية ، كما قدم لنا صورة مشرقة لهذه الحياة كما كانوا يعيشونها في ذلك الحين . فالرهبان يسكنون القلاى المنعزلة ، يعيشون بنظام الشركة تحت قيادة اب *abbot* . كانوا يلبسون ثيابا من وبر الابل أو شعر الماعز ، فوق « تونية » من التيل . يستيقظون قبل الشروق ، ويبدأون يومهم بالتسبيح والصلوات المشتركة تحت قيادة الاب . عندئذ يذهبون الى أعمالهم الموزعة عليهم من قراءة ونسخ وأعمال يدوية تقدم اثمانها للفقراء . أما طعامهم فمن الخبز والماء وقليل من بعض الخضروات . . . يتأمون على مرقد من القش ولا يحتاجون الى شيء ، متحررين من كل قلق وهم لا يعرفون كلمتى « لى ولك » ، اللتين تسببان الكثير من المشاكل فى العالم . ان رحل أحدهم لا ينوحون عليه ، بل يقدمون شكرا لله . يحملونه الى القبر وسط تسابيح الحمد ، اذ هو لم يميت بل صار كاملا . لقد سمح له أن يرى وجه المسيح .

فى اختصار — بالنسبة لهم — الحياة هى المسيح والموت ربح (٨) !
لقد بقيت هذه الصورة حية فى داخله حتى بعد انغماسه فى الخدمة ، فنراه يحدث شعبه عن الحياة الديرية قائلا (٩) :

« كانوا يجلس على سرير من العشب كما كان السيد المسيح يجلس فى البر !

كانت الغالبية منهم يتناولون وجبتهم فى الهواء الطلق ، السماء لهم سقف ، والقمر سراج ، ليسوا فى حاجة الى زيت ولا الى خدم . وكانوا القمر يتلأأ بجلاله لهم وحدهم ! » .

مرة أخرى يرفع أنظارهم الى برية مصر مسجلا لنا احساسه الرهبانية . الصادقة ، قائلا (١٠) :

« هلموا الى برية مصر لتروها أفضل من كل فردوس ! »

(7) PG 47 : 319 — 386 .

(8) Cf N & PNF , s . 2. p 9 .

(9) Mat. PG 58 : 653 .

(10) Mat. PG 58 : 87 (hom 8 : 6) .

ربوات الطفمات الملائكية في شكل بشرى ، وشعوب من الشهداء ،
وجماعات من البتولين ... لقد تهدم طغيان الشيطان وأشرق ملكوت المسيح
ببهاءه !

مصر هذه أم الشعراء والحكام والسحرة ... ، حصنت نفسها بالصليب !
لم تفعل هذه الأمور الصالحة (الحياة مع المسيح) في المدن فحسب بل
وفي البراري أكثر من المدن . أينما خللت في هذا البلد تشاهد معسكر المسيح ،
القطيع الملوكي ، ودولة القوات العلوية !

لا نجد هذا بين الرجال فحسب بل وبين النساء أيضا ... فقد مارسن
طلب الحكمة في صورة لا تقل عن الرجال ، لا مثل قضاة اليونانيين وفلاسفتهم
الذين يتسلحون بأتراس وركوب الخيل ، إنما يخضن معارك أشد ضراوة ! ...
السماء بكل خوارس كواكبها ليست في بهاء برية مصر الممتلئة من قتلى
النساء » .

٣ — تحدث ذهبي الفم في المقالين السابقين عن مجد الرهينة في صورة
عامة ، لكن هناك حالتين فرديتين كادت أن تحطما أعمال الرهينة ، هما حالتا
نيؤدور وستاجر .

لقد انجرف صديقه نيؤدور وراء شهوته فأعجب بامرأة جميلة تدعى
Hermoine . فترك طريق الرهينة وأراد الزواج منها ، لكن يوحنا أسرع
فكتب مقالين لصديقه " Paraenesis ad Theodorum lapsum " يدعو بهما
للتوبة والعودة إلى الحياة الرهبانية .

لقد شعر نيؤدور باليأس ، كيف وهو راهب يهوى بشهوته إلى الزنا ،
وينخدع في الشهوات ... وهنا يبرز يوحنا كطبيب ماهر يعرف كيف يعالج
النفوس . فلا يوبخه على سقطته ولا يدخل به في أمجاد الرهينة في تأملات
عقلية عالية ، ولا يؤنبه كثيرا على كسره نذر الرهينة ، لكن بروح الحب
والترفق يسند ضعفه ويكشف له محبة الله وحنانه ... لقد برز يوحنا في
معالجته للنفوس المحطمة ... يدفعها نحو القيام من السقوط في رجاء .

وكانت خلاصة حديثه « من يخطيء يكون قد سقط في ضعف بشري ،
أما من يستمر في الخطأ فيبطل إنسانيته ليصير شيطانا » .

لقد أثمرت الرسالتان ، وتاب نيؤدور حيث عاد إلى الرهينة ، الأمر
الذي وجه الانتظار إلى شخصية يوحنا كخادم للنفوس .

{ — تهزية ستاجيريوس Ad Stagirium a daemone vexatum

كتب مقالته هذا في ثلاث كتب موجهة الى راهب شاب ، يشجعه في تجربة قاسية حلت به . لقد انهك ستاجير في ممارسة نسكية عنيفة ، أصيب بنوبة صرع وحكم عليه البعض أن به روحا نجسا .

نقل الراهب الى انطاكية للعلاج فتضاعف الهجوم على الرهبنة ، وأحس الراهب كأن الله لا يعتنى به ، فأنكر عناية الله وفكر في الانتحار . . فأسرع اليه يوحنا يكتب له يعزيه في شدته .

نحو الوحدة :

عاش يوحنا أربع سنوات في الدير يمارس حياة الشركة ، يحسبها أجمل فترات عمره . فقد أحب الرهبنة حبا لا يوصف ، وتغنى بتعزياتها ، وامتلا قلبه خلالها بحب السمويات . . . وقد حسب أن العالم قد نسيه كما نسي هو العالم لكن كتاباته الرهبانية التي سجلها لجذب أصدقائه نحو الدير أو لدفاعه عن الرهبنة والرهبان ، سحبت أنظار الناس اليه ، فأنفتحت قلايته لهم وأفقدوه فترات هدوئه . . . أما كتاباته لثيودور وستاجير فقد كشفت للكنيسة عن موهبته في الخدمة ، والتهاب قلبه بخلاص الآخرين ، وحكمته في رعايتهم . . .

سحبته كتاباته الرهبانية من غير أن يدري خارج الدير ، اذ لم يجد بدا الا أن يهرب من المجد الباطل الى « الوحدة » يمارس حياة اكمل .

انطلق الى الوحدة كما يقول بالاديوس (١١) — « ثلاث دفعات ، في كل مرة قضى ثمانية شهور حارما نفسه من النوم بصفة تكاد تكون مستمرة ، يدرس انجيل المسيح بشغف . . . خلال هذين العامين لم يستلق نهارا ولا ليلا ، فأنهت طاقتة وأصابه نوع من الفالج . . . فأحس بعجزه عن الاستفادة من هذه الحياة وعاد الى الكنيسة (بانطاكيا) .

عاد بعد عامين الى انطاكيا بعد أن مارس حياة الوحدة بنجاح ، وكان يد الله قد ألزمته خلال مرضه بالعودة للخدمة والكرارة في نضوج روحى وبغير ضجر أو تردد . أو لعل الله قد رأى ميوله الداخلية الدفينة في نفسه نحو خدمة النفوس ، بالرغم من حبه للنفس والوحدة فألزمه بالخروج . فهو نفسه الذى يقول :

« خير للانسان أن يكون اقل فضيلة ويهوى خلاص غيره من أن يسكن الجبال ويرى اخوته يهلكون ! » .

(11) Dialogue PG 47 : 18 .

« لو صنع الانسان كل التقشفات ، لو اقمع جسده بكل
نسك ، لو صام حياته كلها ، ونام على الحضيض ، لو وزع
كل مقتنياته على الفقراء والمساكين ، فهذه كلها لا توازي خلاص
النفس » (١٢) .

اخيرا نختم حديثنا عن هذه الفترة بأمرين ذكرنا عنه خلال حياته
الديرية (١٣) :

١ — اذ كان في دير الرهبان رأى ازيكوس مرشده رؤيا الهيبة : ان
شخصين بلباس أبيض اقتربا من تلميذه يوحنا وهو يصلى ، وامسكا بيديه
وقالا له : ان سيدنا يسوع المسيح قد أرسلنا اليك . ثم ناوله أحدهما كتابا
وقال له : انا يوحنا الرسول ، خذ هذه الهدية المرسلة اليك من قبل الله لكى
يساعدك على فهم الكتاب المقدس . ثم ناوله الآخر مفاتيح ، وقال له : انا
بطرس ، وقد أعطيتك هذه المفاتيح دليل السلطان المعطى لك من قبل الهنا .
وكان يوحنا جاثيا ووجهه الى الارض ، فأجاب : انا لست أهلا لذلك . فعانقه
القديسان وغابا عنه .

٢ — انا اسدا تسلط على اهل تلك النواحي واغترس كثيرين ، فلما شعر
القديس بذلك اقام صليبا ، فنظروا فى الغد واذا بالاسد ميت تحت الصليب !

+ + +

(١٢) للمؤلف : الحب الاخوى ، طبعة ١٩٦٤ ، ص ٧٣ .
(١٣) الاسقف اسيدورس : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، طبعة
١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٢٧٣ . قطف الازهار من مروج الاخبار ، طبعة
بيروت ١٨٩٥ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

الفصل الثالث

شموسية وقسوسية

٣٨١ — ٣٩٨ م

شموسية :

حوالى عام ٣٨١ عاد يوحنا الى انطاكية ، فتلقفه اسقفها مليتوس بفرح عظيم ، ورسمه شماسا رغم معارضته ، فقام بعمل الشموسية من توزيع الصدقات على المعوزين ، واقتقاد المرضى والحزانى ، والمحافظة على نظام الكنيسة وهدوئها ، ومعاونة الاسقف فى خدمة الاسرار الالهية ، وحمل التناول المقدس الى المرضى .

بين هذه الخدمات الطقسية والخدمات الاجتماعية الكنسية كان يوحنا يقتنص كل فرصة للدراسة والكتابة ، فان كان ليس من حقه كشماس ان يعظ انشغل بالكتابة فى نوعين : كتب دفاعية واخرى لها مسحة نسكية .

مقالان دفاعيان

١ — كتب مقاله عن « القديس بابيلاس وضد يوليانوس ، موجهها للامم :
De S . Babylas, Contra Julianum et Centiles » .

فى هذا المقال يمتدح ذهبى الغم القديس الشهيد بابيلاس اسقف انطاكية الذى نقل جسده الى داغينيه Daphné بجوار انطاكية . لقد حاول يوليانوس اقامة الوثنية بتقديم ذبائح للاله ابولون الذى رفض الكلام ، آمرا نقل رفات بابيلاس من جواره ، ففشلت محاولاته وانتهى الامر بحرق المعبد ...

لقد قارن بين الوثنية المنهارة بغير اضطهاد ، والمسيحية المجددة وسط الضيق والالام ... كما وجه الحديث نحو التوبة معلنا قوتها وانها افضل من المعجزات ...

٢ — المقال الثانى (١) « ضد اليهود والامم مبرهنا على لاهوت المسيح ،
Contr Judaeos et Gentiles quod Christian sit deus .

كتبه فى اواخر دياكونيته ، ويشك البعض فى اصالة نسبته لذهبى الغم . لجا

(1) PC 48 : 813 — 838 .

الى البرهنة على لاهوت المسيح من نبوات العهد القديم واقوال السيد المسيح ومعجزاته . لقد أوضح ان الصليب الذى كان علامة الموت المرعب قد صار بركة ، يخلع الملوك اكاليلهم لكى يلبسوا الصليب ... يوضع الصليب على ثيابهم الرسمية ، على تيجانهم . يوجد حيث تقام صلواتهم ، وعلى المنثدة المقدسة ، يشرق الصليب أكثر بهاء من الشمس ! » ...

مقالات عن الحياة المسيحية بمسحة نسكية

بدأ يكتب أثناء دياكونيته من الحياة المسيحية في اتجاه نسكى :

١ — عن البتولية (٢) جاء مقاله في جزئين : الجزء الاول يهاجم الهرطقة الذين يحتقرون الزواج ، والجزء الثانى المفهوم المسيحى للبتولية ، لا يمارسها غير « القادرين على الخوض في معاركها » من أجل الملكوت .

في مقارنته بين الزواج والبتولية ربما بالغ ذهبى الفم مفرطاً في وصف العراقيل التى تشغل الانسان ، كما تحدث عن الزواج انه لم يوجد الا بعد سقوط آدم وحواء كعاقبة من عواقبه . وهذه نظرية غير مقبولة .

٢ — عن الندامة (٣) De Compunctione في كتابين ، أحدهما موجه الى الراهب ديمتريوس والثانى الى الراهب ستلخيوس Stelechius ، حيث يظهر ذهبى الفم طبيعة لتوبة وأصالتها .

جاء فيه « هو مرض (عدم الندامة) أصابنا جميعاً ... ليس من هو ذو ايمان كامل السلامة . فان اصابة البعض اقل ، والبعض اخف ، لكن جميعهم مصابون ! ...

ان جاعنا غريب وعرف وصايا المسيح ولمس اختلال حياتنا ، أما يظن انه ليس للمسيح أعداء الدنا ، فان الطريق التى نسلكها تجعله يسأل نفسه : انريد أن نكون على عكس طريق وصاياها ؟! » .

٣ — مقال « الى أرملة شابة (٤) » يعزيها في زوجها ترازىوس ، ويبعث فيها روح الخدمة ، اذ يليق بها ان تتطلع الى عريسها السماوى يسوع ، تخدمه !

٤ — الزواج الوحيد (٥)

دون استهجان للزواج المكرر — يعبره اقل مقاما من حالة الترميل ، اذ هو دليل على الفهم في ملذات الجسد ، وفيه عدم أمانة للزوج الاول كما للثانى ، مع دخول الارملة في مشاكل كثيرة ان كان لها اولاد من الزوج الاول .

(2) PG 48 : 533 — 596 .

(3) PG 47 : 393 — 422 .

(4) PG 48 : 599 — 610 .

(5) PG 48 : 609 — 620 .

٥ — المجد الباطل وتربية الاطفال (٦) De inani gloria et de educandis

liberis . فيعالج الرذيلة الاولى في حياة شعب انطاكية وهي المجد الباطل الذي يدفع بهم الى الفجور والتنعيم ، بينما العمل المسيحى هو الاهتمام بتربية الاولاد . فالاتقال من الحديث عن المجد الباطل الى تربية الاطفال — فى رأى القديس يوحنا — انتقال طبيعى مادام الفساد هو جذور كل نقص فى تربية الجيل الجديد .

هذا الكتاب له اهميته كوثيقة تاريخية هامة عن التربية المسيحية فى ذلك الحين .

٦ — عن « الكهنوت (٧) De Sacerdotio » فى ست كتب يأتى الحديث عنه فيما بعد ان شاء الربوعشنا بشيء من التفصيل مع يقية كتابات القديس .

تسوسيته :

دعى الاسقف مليتيوس لحضور المجمع المسكونى بالقسطنطينية ، فاصطحب معه الكاهن غلافيان Flavian ، ووكل شئون الكنيسة بأنطاكية فى يدى شماسه القديس يوحنا . وفى اثناء انعقاد المجمع تنيح الاسقف مليتيوس فبكاه يوحنا بكونه اياه ومرشده .

اجمع آباء أنطاكية على رسامة غلافيان (غلابيانوس) خلفا له ، وهذا بدوره قام برسامة الشماس يوحنا كاهنا .

فى كنيسة القديس بولس عام ٣٨٦ ، بعد خمسة اعوام فى خدمة الدياكونية المملوءة ثمارا ، احنى القديس ركبتيه امام المنبح لكى توضع اليد عليه ، يحمل موهبة الكهنوت . . . ثم يقوم يقبله الاسقف واخوته الشمامسة قبله السلام !

كان يوما حافلا اكتظت فيه الكنيسة بالمصلين ، الكل يتزاحم ليرى الكاهن الجديد ، الناسك المتعبد ! لقد وقف بينهم لاول مرة يعظهم كاب يتحدث مع اولاده ، فيطلب صلواتهم عنه ، مقدما الشكر لله من اجل صنيعه معه ، مادحا الاسقف غلافيان ، مذكرا الحاضرين بالاسقف مليتيوس فى غير اسهاب ، خاتما حديثه باعلانه عن الحاجة لصلواتهم حتى يبدأ خدمته الجديدة كما يليق فى الرب

. 692 — 623 : PG 48 (6) .

سبق ترجمته الى العربية وتبويبه ونشره تحت اسم « رسالة تعزية : للقديس يوحنا ذهبى الفم الى ارملة شابة » : الناشر كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتنج .

. 692 — 623 : PG 47 (7) .

يليق بنا أن نقف قليلا لتفهم « الوعظ » في عيني الكنيسة الاولى ، أنه ليس وظيفة يمتنها من درس البلاغة ، ولا من حفظ نصوصا من الكتاب المقدس أو تعلم شرحه . . . لكنه تربية ، تنبع عن روح الابوة التي يتسلمها الراعى في سر الكهنوت ، فيمارسها الاسقف كأب يتحدث مع أولاده ، ليس فقط الذين قبلوا الايمان ، بل يتحدث مع الجميع .

عند الضرورة كان الكاهن يعظ ، فالشماس يوحنا مع شهادة الكثيرين عن بلاغته وفهمه لاحتة وجاذبية شخصيته وقوة كتاباته لم يعزل المنبر ليعظ الا عند تقبله روح الابوة برسامته كاهنا . . .

انطاكية في أيامه :

رسم لنا القديس يوحنا في عظاته صورة واضحة عن حال انطاكية وما اتسم به شعبها ، فقد قدر عدد سكانها بمائتى الف نسمة ، نصفهم من المسيحيين ، وقلة من اليهود الذين يحاولون خداع المسيحيين وجذبهم للشعائر اليهودية ، أما الوثنيون فمع ضخامة عددهم لكنهم فقدوا قوتهم وجبروتهم . أما المسيحيون فقد كان الكثيرون منهم يترددون على المسارح والملاهي والاندية في هذه المدينة التي كانت مضرب الامثال في ملاهيها وملذاتها ، يقصدها الشعراء والقواد والملوك للعجاب والتغزل في جمال معالمها . . .

هذا بجانب الانقسام الذي عاشت فيه كنيسة انطاكية قرابة خمسة وثمانين عاما (٣٣٠ — ٤١٥ م) ، تنقسم الى ثلاث جماعات ، كل يسندها عدد من الاساقفة المتحمسين لها :

أ — جماعة الارثوذكس المعتدلين تحت رئاسة الاسقف مليتوس ، يتمسكون بقانون الايمان النيقوى .

ب — جماعة الاربوسيين برئاسة اودكسيوس ، الذين سندهم الامبراطور فالنز ، وهم ينكرون لاهوت السيد المسيح .

ج — جماعة الاستاسيون Eustathians ، تحت قيادة الكاهن يولينوس Paulinus ، وهم ليسوا اربوسيين . لكن لهم اتجاهات اربوسية ، وقد استطاعوا أن يقيموا شركة مع روما (داماسيوس Damasus) ومع الاسكندرية (اثناسيوس) .

للاسف اتهمت روما الاسقف مليتوس بالهرطقة ، وايضا الاسكندرية ، واستبعد القديس عن كرسيه أكثر من مرة وأعيد اليه ، لكن لما رسم الذهبى الفم اسقفا على القسطنطينية كان غلافيان هو خليفة مليتوس ، فقام بالعمل على اعادة الشركة بينه وبين روما والاسكندرية . كما استطاع الكسندر خليفة

فلافيان أن يعيد الاستاسيين الى الكنيسة الارثوذكسية عام ١٥٠٠ ، فعادت الوحدة الى كنيسة انطاكية .

هكذا كانت صورة انطاكية عند رسامة يوحنا كاهنا ، آلام من الخارج (يهود ووثنيون) وضيق من الداخل (انقسامات وانحلال) ، لكن القديس قد تدرب على عدم اليأس ، اذ يقول عن نفسه انه لا يكف عن أن يعظ مرة ومرتين وعشرة ومئة من أجل خلاص نفس واحدة مشبها نفسه بحامل الفأس الذي لا ييأس من ضرب الشجرة مرة ومرات حتى يقطعها !

ظل القديس قرابة اثني عشر عاما ، فكانت له قدرة فائقة على جذب الوثنيين والهرطقة للايمان ، كما جذب كثيرين من المسيحيين الى الحياة المسيحية الحقّة .

توافدت عليه الجموع ، وكانوا يظهرون استحسانهم بتصفيق حاد غير منقطع الامر الذي أزعج نفسه جدا . فقد ذكر أنه أثناء وعظه اشتد حماس المصفيق وفي ضعفه البشرى تأثر بذلك لكنه اذ عاد الى بيته أدرك عدم استفادة المصفيق ، بل أفسد تصفيقهم البركات التي نالوها ، فوضع في قلبه أن يوقف هذه العادة (٨) . لقد عاد يقول لهم : « ان تصفيقكم يؤلني ، فأتوجه الى بيتي بقلب حزين كئيب ، تقودني افكاري الى البكاء والنحيب . اقول لنفسي : ربما بفخرك يا نفسي تتسببين في ضياع بعض النفوس ، وتكونين قد أضعت أوقاتك عبثا » .

افتتح القديس عظاته في الاسبوع الاول من الصوم الكبير بشرح سفر التكوين ، واذا اجتذب بعظاته بعض الهرطقة بدأ يظهر التساؤل عن طبيعة الله ، اذ كان البعض يؤمن بأن الانسان قادر على فهم جوهر الله بعقله ، فاضطر بعد القاء ثمان عظات على سفر التكوين أن يلقي تسع مقالات عن « استحالة الراك طبيعة الله » على مدار سنة كاملة ، خلالها القى ثلاث عظات ضد اليهود ، وميامر عن عيدى الميلاد والغطاس .

عظات التماثيل :

لعل بدء انطلاق شهرة ذهبى الفم مجموعة من العظات القاهها في انطاكية عام ٣٨٧م ، سميت « عظات التماثيل » لها قصة في حياة كنيسة انطاكية .

ففى عام ٣٨٧ شرعت الحكومة المركزية أن تتهيا للاحتفال بمرور عشر

(8) Cf . N & PNF , s 2, voi 12, p 22 u .

سنوات على حكم الامبراطور ثيودوسيوس الكبير وخمس سنوات على اشتراك ابنه الشاب اركاديوس معه في السلطة . ولما كانت مثل هذه الاحتفالات تحتاج الى بعض المال صدر امر امبراطوري بفرض ضريبة جديدة اضافية ، الامر الذى استاءت منه كل المملكة ، لكن لم يستطع احد أن يعترض . أما فى انطاكية فقد حدث أثناء قراءة القرار فى الميدان أن عبر بعض الحاضرين عن شعورهم بالاستياء ، لكن الوالى أبى أن يصدر امره للجنود بالهجوم على شعب أعزل . وقد انتهز بعض دعاة الفتنة هذه الفرصة فآخفوا يصرخون مطالبين الاسقف فلافيان بالتدخل لوقف القرار وغالبا كان هؤلاء من اتباع بولينوس أى من جماعة الاستاسيين ، يريدون اثاره خلاف بين الامبراطور والحكام مع الاسقف!

وسط جموع شعبية تضم من كل صنف سرعان ما سرت هذه الصرخات لذئمر بينهم هياجا فتورة وفى لمح البصر ، دون أى تفكير وبغير أى ضابط انطلق البعض يحطم تماثيل الامبراطور والامبراطورة وابنهما . ورموها فى الاوحال واثقادات .

كل هذا تم فى لحظات مملوءة ثورة حماسية تبعها هدوء حيث أفاقوا من سكرتهم وأحسوا ببشاعة جريمتهم ، وباتوا خائفين يتوقعون مصيرهم ومصير مدينتهم من عقاب شديد . فقد ارتبكت المدينة بأسرها ، كبيرها مع صغيرها ، ولم يعرف أحد ماذا يكون العمل .

وجد الاب الاسقف فلافيان نفسه ملتزما أن يتدخل لدى الامبراطور ، يهدىء من غضبه تجاه المدينة ، أما عظماء الوثنيين ووجهائهم فقد خافوا على انفسهم ولم يجسروا أن يفعلوا شيئا ، الامر الذى أساء الى نفوس الوثنيين .

أسرع الاب البطريرك الى القسطنطينية ، لكن الخبر كان أسبق منه ، بلغ الى الامبراطور غارسيل قائدين من عنده هما اللييكوس Allebichus وقيصريوس ، اللذين وصلا انطاكية وأعلنا سقوط امتيازات المدينة ونقل العاصمة الى اللاذقية ، كما أغلقا الاندية والمسارح ، وألقيا القبض على بعض وجهاء المدينة الذين حامت الشبهات حولهم ، فصدورت ممتلكاتهم وطردت نساؤهم من بيوتهن . كما أعلن القائدان اصدار الامر بحرق المدينة وقتل شعبها لولا تدخل بعض النساك والرهبان ، من بينهم الناسك مقدونيوس . فقد نزلوا من الجبال والاديرة والتقوا بالقائدين وطلبوا منهما الانتظار حتى يمكن تقديم شفاعاة لدى الامبراطور .

فى ذلك الوقت بينما كان الاب البطريرك (الاسقف) فى طريقه الى القسطنطينية رغم كبر سنه وارهاقه بالصوم اذ كان الوقت الاربعين المقدسة

وكان الرهبان والفساك يتضرعون لدى القائدين بانطاكية ، كان الناس مذعورين ، يسمعون من يوم إلى يوم اشاعات متعارضة ، تارة يتوقعون العفو ، وأخرى يهددهم الموت . . فهرعوا الى الكنيسة ليقتنصهم الكاهن يوحنا بعظاته ، فينثر من درر قلبه وفمه أحاديث فياضة تنعش قلوبهم المنكسرة وتشدد عزائمهم الواهية ، تدفعهم الى التوبة والرجوع الى الله ، ليس خوفا من موت الجسد أو خسارة الممتلكات الأرضية ، إنما شوقا الى نور الابدية خلال مراحم الله غير المتناهية .

لقد القى الاب في بداية خدمته الوعظية هذه السلسلة من العظات الخالدة (٢١ عظة) التي وجهت انظار أنطاكية بل وخارج انطاكية اليه . . . فقد استطاع أن يبعث من الظروف العصيبة فرصة للكراسة والتبشير ، وعوض الخوف الذي ملأ قلوب الانطاكيين اهتدى كثير من الوثنيين الى المسيحية ، وتذوق كثير من المسيحيين محبة الله وسلامه بالتوبة الصادقة ، فتحوّلت الكارثة الى بركة لكثيرين (٩) .

في ذلك الوقت كان الاب البطريك أو أسقف انطاكية قد بلغ القسطنطينية فأسرع الى البلاط رغم شدة تعبته ، والتقى مع الامبراطور ليقول له :

« انى لست رسولا لشعب انطاكية بل أيضا سفير الله . جئت اليك باسمه ائبئك : ان غفرت للناس سيئاتهم وهفواتهم يغفر لك أبوك السماوى سيئاتك وزلاتك . . . »

أذكر ذلك اليوم الرهيب حين نلتزم جميعا بتقديم حساب عن أعمالنا . . يمثل كل السفراء بين يديك بيهاء الذهب وكثرة الهدايا ووفرة المال ، أما أنا فلا أقدم لك غير شريعة يسوع المسيح المقدسة ، والمثال الذى أعطانا إياه على الصليب لكى نستحق غفران خطايانا . . . »

املاً قلب الامبراطور من مخافة الله عند سماعه هذا الخطاب فقال : « ان كان ربنا ومسيدنا يسوع المسيح قد صار لاجلنا عبدا واسلم ذاته للصليب وان كان قد سأل أباه المغفرة لصلبيه ، فكيف أتجاسر مترددا في المغفرة لاعدائي؟! » .

بهذا عاد الاب البطريك الانطاكى يحمل بشائر العفو ، فخرجت الجماهير تستقبله بفرح وتهليل . واحتفل مع شعبه بعيد الفصح المجيد ،

(9) N & PNF , s . 2, vol 9 , p 11 .

فبدأ الاب يوحنا يردد آيات الشكر والتسبيح ، لان شعب انطاكية كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد (١٠) ، مسجلا لنا ذلك في عظته الحادية والعشرين حيث لا ينسى أن يبرز الاسقف غلافيان كبطل مسيحي احتمل المشاق والاعتاب من أجل راحة اولاده . . . لكن الحقيقة أن الاحداث نسيت وبقي أمر واحد شد أنظار الشعب بل والعالم المسيحي في ذلك الوقت ، هو شخصية الكاهن يوحنا التي أعجب بها المسيحيون والوثنيون خلال عظاته التي سميت « عظات التماثيل » !

(10) Soz , 8 : 23 . Theodoret 5 : 20 .

الفصل الرابع

أسقفية

٣٩٨ — ٤٠٣ م

في سبتمبر ٣٩٧م رقد نكتاريوس Nectarius أسقف القسطنطينية أو بطريركها . فاجتمع الشعب مع الكليروس يتداولون أمر اختيار خلف له ، وتطلعت الانظار الى البلاط الملكي حيث كان الشاب أركاديوس قد تولى الحكم على الشرق خلفا لابيه ثيودوسيوس . وكان أركاديوس هذا ضعيف الشخصية نسلط عليه وزيره روفينيوس ثم قوى عليه أتروبيوس الخصى Eutropius ، الذي صار له وزيرا بل الحاكم الفعلي للملكة الرومانية الشرقية .

سمع أتروبياس الكاهن يوحنا يعظ في أنطاكية فاعجب به ، وفي غير ترو نطق باسمه خلفا لنكتاريوس دون أن يقيم حسابا لشخصية يوحنا ، فهو انسان لا يعرف المجاملات على حساب الحق ، يعمل بغير محاباة للوجوه ، عنيف (ان صح هذا التعبير) لا يخاف انسانا !

هكذا شاعت عناية الله أن يرشح أتروبيوس يوحنا بطريركا للقسطنطينية وبالتالي أعلن الامبراطور الاسم ، فطار الشعب فرحا وتهلل الكهنة به . . . ولكن كيف يمكن لشعب أنطاكية أن يتركه ؟ فقد عرف أتروبيوس ما يكون عليه شعب أنطاكية ان عرفوا بخروجه من وسطهم ، فأرسل الى فيكتور أستيروس قائد جيوش الشرق يخبره بأمر الامبراطور ، طالبا منه أن يرسل الاب الى القسطنطينية من وراء الشعب . وفعلا استدعى الوالى الاب يوحنا ، وسأله أن يرافقه في زيارة بعض المقابر للشهداء خارج المدينة وما أن عبر الاب خارج الاسوار حتى حمل قسرا الى القسطنطينية (١) . . .

ارتجت مدينة القسطنطينية وتهللت بحضوره ، ألا أن البابا الاسكندري ثاوفيلس حاول ترشيح صديق له ، كاهن تقى من الاسكندرية يدعى ايسيدورس (اسيدور) . وقد شهد المؤرخون بتقمواه وورعه (٢) . لكن لماذا حاول ثاوفيلس ذلك ؟

(1) Soz 13 : 2 . Palladius 5 : 19 . (2) Soz 8 : 2 .

راجع ص ٦٧ من هذا الكتاب (مشكلة الاخوة الطوال) .

يعلل بعض المؤرخين ذلك الى عدم راحة كنيسة الاسكندرية لقرار مجمع القسطنطينية أن يكون كرسى القسطنطينية الجديد الثانى بعد روما وقبل الاسكندرية. لان القسطنطينية قد صارت روما الثانية، حيث أصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ... لقد رفض أساقفة الاسكندرية هذا القرار ، اذ حول الكنيسة الى مركز كرامات تتدخل فيها السياسة . فان الاسكندرية وهى مستعمرة رومانية تخضع لمدينة روما مدنيا ، لكنها بعمالقتها الدارسين اللاهوتيين وجبايرتها الروحانيين خاصة الرهبان والنسك ، احتلت مركز الصدارة فى العالم المسيحى ، فجاء هذا القرار مثيرا لا للاسكندرية وحدها لكنه خلق مشاكل كثيرة مع أساقفة وبطاركة الشرق ... على أى الاحوال ربما خشى البابا ثاوفيلس من شخصية الاب يوحنا أنه يطالب بتنفيذ القرار، فرشح صديقه الذى امتاز بطيبة القلب والبساطة ولا يهتم بمثل هذه الامور هذا بجانب أنه اسكندري وصديق للبابا الاسكندري . لكن أتروبيوس — الحاكم الفعلى — ضغط على البابا أن يوافق على رسالة الاب يوحنا ، والا قدم للامبراطور الشكاوى المقدمة ضده . فمنا للمشاكل قبل الرسالة واشترك فى سيامته فى ٢٦ فبراير عام ٣٩٨ .

اذ تمت السيامة لم يحمل البابا ثاوفيلس للقديس يوحنا الا كل حب وتقدير ، اذ لم تكن بينهما احقاد كما صور بعض المؤرخين المتحاملين عليه بسبب سوء تصرفه مع القديس يوحنا فى مجمع السنديانة كما سنرى . لقد حاولوا تصويره بالرجل المملوء خبثا ، الذى وضع فى قلبه أن ينتقم لنفسه ويطرده . لكننا نقول مع هنرى شادويك (٣) H. Chadwick انه لم يكن ثمة خلاف بين الاسقفين ، بل كانت علاقة ثاوفيلس بيوحنا حسنة ، وقد ساعده فى مشكلة اوستاس Eustace بأنطاكية ، حيث أراد القديس يوحنا أن يعيد الشركة بين انطاكية وروما ، وبينها وبين الاسكندرية ، وأن يلم شمل انطاكية بعد انقسامات طال زمانها ... ولم يدب الخلاف بينهما الا بسبب مشكلة « الاخوة الطوال » كما سنرى .

رعايته لشعبه :

اذ وضعت عليه يد الاسقفية بدأ الراعى الجديد يعلن حبه لشعبه، ففى عظته الاولى يوم رسامته تحدث مع شعبه بروح صديقه بولس الرسول ، يشجعهم ويكشف لهم عن غيرتهم ومحبتهم لعلمهم ، كما حدثهم عن حبه هو لهم قائلا : « اتحدث اليكم اليوم : انى احبكم كائى مشيت معكم منذ البداية . هذا ليس بسبب حنوى نحوكم ، لكن انتم تستحقون كل حب ... فى انطاكية يوجد شعب كثير ، أما فى القسطنطينية فيوجد أناس مؤمنون يظهرون ثباتا

(3) H. Chadwick : The Early Church, p 187 .

عظيما واخلصا » . أخيرا أعلن لهم ان الكرازة « هي أعظم التقدمات وأسمائها وأفضلها » .

كان الهدف واضحا نصب عينيه ، انطلق منذ البداية يتحدث بروح الانجيل ، ساعيا الى خلاص الناس ، باعنا فيهم روح الكرازة والخدمة .

بمعنى آخر ، الاسقف الجديد لم تبهره عظمة عاصمة الشرق في ذلك الحين ، ولا مظاهر الحفاوة التي لاقاها ، ولا سمو مركزه ، ولا قربه من البلاط انما شغله امر واحد : الكرازة !

كان الثمر سريعا فبدأت النفوس تشفق الى كلمة الله ، وزحفت الجموع تتزاحم امام منبره ، وكما يقول سوزومين (٤) : « دبر يوحنا كنيسة القسطنطينية بحكمة مثالية ، فجذب كثيرين من الوثنيين والهرطقة للاتحاد به . كانت جماهير الشعب تلجأ اليه كل يوم ، البعض بقصد التعلم بالاستماع لمقالاته ، والآخرين جاعوا يجربونه . على أي الاحوال ، ابهج يوحنا كل الفئات وكسبهم ، وقادهم الى احتضان مشاعره الورعة . واذ كان الشعب يزحمه فلا يقدر على الاستماع لكلماته كما ينبغي كانوا يندفعون هنا وهناك يضغطون على بعضهم البعض ، معرضين أنفسهم للخطر . كل منهم يأخذ طريقه بالقوة ليقتررب منه ويسمع ما يقوله يوحنا بأكثر دقة . أما يوحنا فكان يأخذ مكانه وسطهم على المنبر ، واذ يجلس يعلم الجموع » .

ختم المؤرخ سوزومين حديثه هذا بقصة عجيبة ، ربما انتشرت في القسطنطينية في تلك الآونة، وكان لها أثرها في خدمة الاسقف يوحنا ، ملخصها ان رجلا من التابعين لهرطقة مقدونيوس كان يسمع عظات يوحنا فاجذب اليه ورجع الى الايمان الارثوذكسي ، أما زوجته فبقيت في انحراف ايمانها . هدد الرجل زوجته بالانفصال عنها وهجرها ان بقيت في هرطقتها ، فوعدها بقبول الايمان المستقيم . واذ دخلت الكنيسة وجاء وقت التناول من الاسرار المقدسة تظاهرت جاريته بالصلاة في خشوع ، فأخنت رأسها وناولت سيدتها قطعة من الخبز كانت قد أحضرتها معها وما ان وضعتها المرأة في فمها وحاولت مضغها حتى تحولت بين أسنانها الى قطعة من الحجر . للحال ارتعبت السيدة جدا ، وخشيت غضب الله ، فذهبت مسرعة الى الاب البطريرك يوحنا تعترف أمامه بكل شيء ، وقدمت له قطعة الحجر وآثار أسنانها عليه وكانت تبكي بمرارة تسأل الغفران .

يعلق سوزومين على الرواية بقوله : « من يظن في هذه القصة عدم صدقها يستطيع ان يختبر الحجر المذكور ، فإنه لا يزال محفوظا في خزانة كنيسة القسطنطينية » .

(4) Soz 8 : 5 .

رعايته للفقراء :

لم يكن القديس يوحنا مجرد كارز بالانجيل من على المنبر ، لكنه يشهد لحق الانجيل في سلوكه وتصرفاته . فقد تسلم القصر الاسقفى الذى أقامه سلفه الاسقف نكتاريوس ، وقد تبقى به بعض قطع من المرمر لم تكن قد استخدمت بعد ، فباعها وقام بتوزيع ثمنها على الفقراء . كما ألغى النفقات الباهظة في الولائم والاستقبالات الكبرى عايش في دار الاسقفية ناسكا متعبدا ، قليل النوم ، كثير الصلاة ، لا يحضر الولائم ، ولا يتألق في ملبسه ، غير محب للبذخ ، كل ما يتوفر لديه من أموال يقوم بتوزيعها على الفقراء او الانفاق بها على المستشفى الخ

نستطيع ان نلمس مدى عشقه للعطاء وحبّه للفقراء من تقديسه هذا العمل ، حيث يتصور نفسه وهو يمد يده للعطاء أنه يكسب ذبيحة حب على مذبح مقدس ، يتقبلها الله رائحة رضى . . . يرى في الفقراء مذبح الله المقدس لا بل يرى فيهم السيد المسيح نفسه يمد يديه ليتقبل عطية الحب من الانسان . . . اذ يقول (٥) :

« انها تقيم من البشر كهنة !

نعم انه كهنوت يجلب مكافأة عظيمة !

الرجل الرحوم (كاهن) لا يرتدى ثوبا الى الرجلين ، ولا يحمل أجراسا ولا يلبس تاجا ، لكنه يتقبط بتوب الحنو المملوء ترفقا ، الذى هو اقدس من الثوب المقدس !

انه ممسوح بزيت لا يتكون من عناصر مادية بل هو من نتاج الروح ! . . يحمل اكليل المراحم ، اذ قيل (٦) « يتوجك بالمراحم والراغبات » .

عوض الصدرية الحاملة اسم الله يصير هو نفسه مثل الله .

كيف يكون هذا ؟ انه يقول : لكى تكونوا مثل ابيكم الذى في السموات»

اتريد ان ترى المذبح ؟ انه ليس من عمل بصلليل (٧) ولا غيره من الناس هو من عمل الله نفسه ، ليس مصنوعا من حجارة بل من مادة اكثر لمعانا من السماء ، انها نفوس متقلبة ! . . . أعضاء المسيح نفسه . أعضاء المسيح تكون مذبحا لك !! . . . على جسد المسيح تقيم الذبيحة ! . . .

(5) In 2 Cor . hom . 20 (P . G 61 : 540) .

(٦) مز ١٠٣ : ٤ .

(٧) خر ٣١ : ٢ صانع خيمة الاجتماع .

ما هى رائحة البخور الطيبة التى تصعد على هذا المذبح ؟ انه الحمد والشكر ! تصعد (صدقتك) كما الى السماء ، لا بل تجتاز ما وراء السماء مينها ، الى سماء السموات ، حتى تبلغ عرش الملك ! اذ يقول (٨) : « صلواتك وصدقاتك قد سعدتنا امام الله » ...

وانت بالحقيقة صامت اعمالك تتكلم ! «

هذه احدى عشرات الالوف من القطع التى سجلها القديس يوحنا فى عظاته وكتابه . . . فغددعى بـ " Almsgiver " . . .

اهتمامه بالعذارى والارامل

كان فى مدينة القسطنطينية بيت خاص بالعذارى والارامل من بنات الاشراف ، وكان قد اعتراهن الكثير من الفتور الروحى ، فأعطاهن الاب البطريك اهتماما خاصا حتى سلكن فى حياة روحية سامية ، كما منعهن من التردد على البيوت والملاعب والحمامات العامة .

حرم الاب البطريك على الالباء الكهنة قبول العذارى فى بيوتهم حفظا لسمعتهم ، ومنعا من اثاره اى شك لدى الشعب .

أوجب على العذارى والارامل العمل ليحفظهن من الفتور والضعف الروحى بسبب الفراغ أو الملل ، فكن يقمن بنسج ثياب الفقراء ، والاهتمام بزينة الكنائس ، والخدمة فى المستشفيات . . . كما نصح الارامل والحدثات الغير القادرات على السلوك باحتشام أن يتزوجن ثانية ، فالتزمل فى ذاته ليس خيرا ولا شرا ، ان لم يتحول الى طاقات حب لله وخدمته . . .

اذ نتحدث عن خدمة العذارى والارامل لا نقدر ان نتجاهل الحديث فى شىء من التفصيل عن الارملة الشماسة اولبياذا أو اوليباس Olympias التى نالت شهرة فائقة فى ذلك الحين ، ارتبط اسمها باسم القديس يوحنا ، لايقدر احد أن يكتب عنه ويتجاهلها .

لقد أعجب القديس الاسقف بالشماسة الارملة من اجل حبها لله وسخائها فى العطاء مع نسكها واتضاعها ، فأعطاهها اهتماما خاصا ، واستغل طاقاتها فى الخدمة ، حتى أدركت القسطنطينية كلها ذلك ، لذلك عندما نفى الاسقف انصبت عليها اضطهادات كثيرة ، لكنها أيضا تقبلت رسائل تعزية من ابيها المتألم ، تعتبر مصدرا هاما لتاريخ حياته فى أيامه الاخيرة . . .

+ + +

(٨) أع ١٠ : ٤ .

الشماسة أولمبياس

برزت سيرة القديسة أولمبياس كشماسة في تاريخ الكنيسة بفضل توجيهات أبيها الروحي الاسقف يوحنا ، الذي التقى بها بعد رسامته أسقفاً ، فرأى فيها مثالا طيبا لمحبة الفقراء والصلاة مع النسك . . . دعاها القديس غريغوريوس النزينزي « مجد الارامل في الكنيسة الشرقية » .

تنتمي أولمبياس الى عائلة وينية غنية ، فقد استطاع جدها أبلافوس Ablavius أن يصير مقربا للملك ثيودوسيوس ، لا بسبب غناه أو شرف عائلته إنما بجهادته الشخصي (١) ، فصار واليا على القسطنطينية ، أما والدها سيليكوس Seleucus فلا نعرف عنه شيئا سوى أنه كان أحد الولاة .

ولدت أولمبياس حوالي عام ٣٦٨ وتيتمت وهي بعد صبية صغيرة ، فتكفل برعايتها عمها بروكوبيوس Procopius ، انسان مسيحي تقى ، صديق القديس غريغوريوس النزينزي (٢) .

نشأت أولمبياس في جو من الترف والتدلل ، لذا مدحها القديس يوحنا في إحدى رسائله لها (٣) قائلا لها انه لم يكن سهلا أن يخرج من هو مثلها تمارس منذ شبابها المبكر حياة التجرد والامانة مع ما تملكه من غنى وجاه وارتباط عائلتها بالبلاط .

أما عن تعليمها ، فقد كانت بحق سعيدة أن توضع بين يدي ثيودوسيا Theodosia أخت القديس أمفلوكوس Amphilocus أسقف Iconium ، سيدة تقية مثقفة شهد لها القديس أغريغوريوس النزينزي في رسالة كتبها الى أولمبياس يقول فيها (٤) : « لتكون مثلا حيا لك في كل قول وفي كل فعل » .

(1) Sources Chrétiennes, 13 bis, 1968, p 13 .

(2) N & PNF . s . 2, vol 9, P 287 .

(3) Epistle 8 : 5 .

(4) Idem : Carmen ad Olympiadem, v. 97 — 98 PG 37 : 1549 .

ولا يستبعد أن يكون القديس غريغوريوس نفسه قد ساهم في تربيتها الدينية أثناء أسقفيته على القسطنطينية . فهو يعلن سروره بدعوتها له « أباه » . . ويكتب اليها قائلا « ابنتى » ، بل يدعوها « أولمبياسة His own Olympias »

لقد تشربت أولمبياس بالكتاب المقدس ، اذ جاء في حياتها (٥) « كنت خاضعة لتعاليم الكتب الالهية في كل شيء » ونستطيع أن ندرك مدى تعرفها على الكتاب المقدس من رسائل الاسقف لها ، فقد جاءت تحمل الكثير من النصوص الكتابية يفهم منها انها على دراية بالكتاب . كما اهداها القديس غريغوريوس أسقف نيصص كتابه في تفسير نشيد الاناشيد بكونها قادرة على تقدير قيمته .

ذكر أيضا المؤرخ بلاديوس تأثرها بالام ميلانية الكبرى Milania the Elder التي يكتب عنها ممتدحا اياها بصورة غائقة في كتابه التاريخ اللوزياكى (٦) The Lausaic History . لقد كانت محبة للبتولية والرهبة في نسك عجيب مع قدرة غائقة على الاطلاع ، اذ يقول عنها (٧) : « حولت الليل نهارا ، تفتش كتابات المفسرين القدامى ، قرأت ثلاثة ملايين سطرا لاوريجين ، ومليونين ونصف لاغريغوريوس واستفانوس وبيريوس وباسيليوس وغيرهم — من العظماء لم تكن تقرا هذه مرة فقط ولا في عجلة ، انما تدرس كل عمل في دقة سبع أو ثمان مرات . وهكذا استطاعت بفضل هذه الكتب ، ان تتحول في رجاء صالح الى طائر روحى منطلق نحو المسيح » (*) .

(٥) مخطوط يونانى لا يعرف واضعه ، ربما يكون بالاديوس .

(6) Chap, 46 , 54 . (7) Chap . 55 .

(*) عرض القديس بالاديوس في كتابه « التاريخ اللوزياكى » لسيرة القديسة ميلانية الكبرى والتي يمكن تلخيصها في الآتى :

كانت ميلانية احدى شريفات روما ، اسبانية المولد تزوجت بفاليريوس مكسيموس الذى يحتل أنه كان واليا على روما عام ٣٦٢م . وفي سن الثانية والعشرين تزلت حيث كان معها ابنها الوحيد Publicola ، الذى لسبب او لآخر تركته مع اهله في روما ، وصار فيما بعد عضوا في مجلس الشيوخ وتزوج بالبانيا ، فتاة مسيحية ابنة كاهن وثنى اسمه البيثيوس . انجبت ابنة دعته على اسم جدتها « ميلانية الصغيرة » ، التى التهب قلبها بحب البتولية وتكريس حياتها للعبادة ، لكن والديها الزماها بالزواج في الرابعة عشرة من عمرها لشاب في السابعة عشرة انجبت طفلين في كل مرة كان يموت الطفل ، غير أنه أثناء ولادتها للثانى تألمت جدا بل قاربت الموت الامر الذى جعل زوجها يقبل تكريس حياته معها ان عاشت ، وفعلا أنقذت حياتها اما الطفل فمات ، فعاشت مع زوجها في البتولية . وقد استراح قلب والديها

=

على اى الاحوال كسبت اوليباس عنها روح القراءة والحكمة ، حتى قيل ان النساء الشريفات اللواتى كن يحطن بالامبراطورة تميزن بالخفة والاهتمام الزائد باللبس مع السلوك الشرير اما اوليباس فكانت تظهر بينهن الانسانية التقية الحكيمة .

هذه صورة اوليباس وهى بعد فى السادسة عشرة من عمرها ، تحمل سمات طيبة مع غناها كما اشتهرت بجمالها ايضا ، فتقدم لها نيبريدوس Nebridius والى القسطنطينية ليتزوجها (عام ٣٨٤) ، وكان بين المدعوين القديس غريغوريوس النزينزى ، الذى كتب اليهم يأسف لعدم حضوره مراسيم

وقلب زوجها للحياة النسكية . . . وبعد وفاة زوجها انطلقت من روما لتنشئ فى جبل الزيتون جماعة من المتبتلات .

اما جدتها ، ميلانية الكرى ، فلا تعرف سر ترك ابنها الوحيد بروما . . لكنها حملت الكثير من الاموال الخاصة بها وابحرت الى الاسكندرية ، وهناك استبدلت زيتها وذهبت الى جبل نقرى تقابل الآباء مثل بامبو واورسيسبوس وصرابيون الكبير وبفنوتيوس الاسقيطى واسيدور المعترف وديستورس (أحد الاخوة الطوال) ، وبقيت تجول فى البرية قرابة نصف عام تطلب اللقاء مع القديسين . واذ نفى الوالى بعض الآباء مع اثنى عشر أسقفًا وكاهنًا الى فلسطين سافرت وراءهم وصارت تخدمهم من أموالها الخاصة ، واذ لم يسمح لهم بدخول خادمها Hyias اليهم لكي يخدمهم تزييت فى شكل عبد وصارت تحضر لهم احتياجاتهم كل مساء . واذ علم الوالى أن سيدة تفعل هكذا ، دون أن يعرف شيئًا عنها أراد تشويه سمعتها فألقى القبض عليها وأودعها فى السجن . للحال أرسلت اليه خبره عن أصلها ونسبها ، فحجل واعتذر لها وأكرمها . واذ عاد الآباء الى بلدتهم لنفسها ديرا فى اورشليم ، عاشت فيه ٣٧ عاما اما لخمسین عزراء .

اما أعمالها الصالحة — فكما يقول بلاديوس (فصل ٥٤) — شهد لها الشرق والغرب ، الشمال والجنوب ، مارست خدمة الغرباء كل أيام حياتها وقدمت بسخاء للكنائس والاديرة كما اهتمت بالمساجين .

اذ سمعت بأخبار حفيدتها أبحرت اليها ، وهى فى الستين من عمرها تقضى عشرين يوما لتبلغ روما . . . تشجع حفيدتها على التكريس الكامل لله ، كما التقت بزوجة ابنها وكثيرات من الشريفات وأزواجهن ، فكانت بركة فى روما ، تأثر بها كثيرون ، تاب كثيرون ، وانطلق البعض الى حياة الوحدة . . جاء فى حديثها معهم : « يا اولادى الصغار ، لقد كتب منذ أربعمئة عام انها الساعة الاخيرة ، فكيف تشغفون بأباطيل الحياة ؟! احذروا لئلا تلحقكم أيام « الضد للمسيح » فلا تنعمون بثروتكم ولا ممتلكاتكم الموروثة عن أسلافكم »

الزواج بسبب شدة مرضه ، قائلاً لها (٨) « بالرغم من مرضى غانى اشارككم الاحتفال ، اذ اربط يدي الشابة والشاب معا في يد الله » ، كما ارسل للعروس قصيدة شعرية تحمل نصائح حكيمية تدور حول أفكار ثلاث رئيسية تخص المرأة المسيحية . ملبسها ، سلوكها مع زوجها ، عملها المنزلى .

فمن جهة الملبس اعترض بشدة على استخدام التجميل الصناعى والمبالغة الزائدة فى الملبس والتزين بالحلى الكثير الملفت للنظر دون أن يرفع من قيمة النفس لقد قال لها « ليكن الاتضاع هو همك ، فانه يجذب أنظار الناس اليك ، حتى ان كانوا مغمضى العين ! » .

أما عن سلوكها مع زوجها ، فقد كشف عن الدور العظيم الذى تستطيع أن تقوم به المرأة فى حياة زوجها ، فهى تقدر أن تسكب عليه التعزية والسلام . فان كان كالاسد تستطيع بلطفها أن تروضه ، تقدر بوجهها البائس المملوء هدوءاً أن تخلصه من الهموم . انها ملتزمة أن تشاركه أفراحه وأحزانه

أما عن عملها المنزلى ، فقد وضع لها برنامجاً للحياة المنزلية البسيطة ، البعيدة عن الانشغال بالملاهى والمسارح والاندية وكثرة الزيارات والولائم ، لتتفرغ للقراءة (٩)

يقول بالاديوس (١٠) انها لم تبق مع زوجها الا أيام ، وقد قيل انها ماتت عذراء ، اذ لم تكن زوجة لانسان بل لـ « كلمة الحق » وحده . لكن البعض يقدر فترة بقائها مع زوجها بعامين (١١) على أى الاحوال لقد أحست اوليبيا أن الله قد سمح لها بالترمل لكى لا ترتبك بعد فى اهتمامات العالم ، بل تكرر حياتها ومالها لخدمة الله . لذلك عندما أراد لها الامبراطور ثيودوسيوس أن تتزوج من أحد أقربائه الببيديس Alpidius الاسبانى رفضت بشدة ، قائلة : « لو كان الله يريدنى أن أعيش زوجة لما أخذ منى تبريديوس ! » واذ ضغط عليها استمرت فى الرفض ، فأمر أن توضع ممتلكاتها تحت الوصاية حتى تبلى الثلاثين من عمرها . أما والى المدينة فأراد أن يشدد الضغط عليها لعلها ترضخ لطلب الامبراطور ، فمنعها من رؤية الاساقفة أو الاشتراك فى العبادة الكنسية ، أما هى فكما جاء فى سيرتها (١٢) « مثل غزال قفزت متخطية فجح الزواج الثانى » .

(8) Epis 193 PG 37 : 316 .

(9) Carmen ad Olympiadem v. 27 — 28 , 38 , 43 PG 37 : 1544 fl.

(10) Laus : His, ch . 56 .

(11) N & PNF, p 287 .

(12) Vita III .

لقد كتبت الى الامبراطور ثيودوسيوس تشكره أنه رفع عنها نير تدبير أموالها ، وأنه بالحرى يكمل سرورها بالاكتر لو أمر بتوزيع أموالها على الفقراء (١٣) . كان لهذا الخطاب اثره على الامبراطور خاصة وأنها انطلقت في الشرق تقضى أربعة أعوام لتعود بعدها تمارس الحياة النسكية في غيرة متقدة . دهش الامبراطور فأعاد اليها ممتلكاتها (سنة ٣٩١) ورد لها حرية التصرف . أما هي فتقدمت للقديس نكتاريوس اسقف القسطنطينية تطلب تقديم كل حياتها لخدمة الله ، فرسمها شماسة وهي بعد صغيرة السن . فقامت بإنشاء بيت للعداري يقع ما بين كنيسة السلام وكنيسة أجيا صوفيا ، تجمع فيه العذارى والارامل اللواتي يردن خدمة الله .

تلاوات حياة الشماسة أولمبياس ، اذ فتحت قلبها لمحبة الفقراء بصورة أدهشت الكثيرين ، فقبل في مديحها : « تسمع الامبراطورة أفدوكسيا . آيات الاكرام والتبجيل من كل بقاع العالم ، أما أولمبياس فتسمع تنهدات العالم كله ودعواته ! » .

صارت محبوبة من الشعب ومكرمة أيضا من الأب البطريرك ، فتدأ خبرنا بالاديوس (١٤) أن الطوباوى نكتاريوس كان يكرمها جدا ويستشيرها في بعض شئون الكنيسة رغم صغر سنها . وقد لخص لنا حياتها بقوله (١٥) : « وزعت كل مقتنياتها على المحتاجين . صارعت من أجل الحق ، هزبت نسوة كثيرات ، تناقشت مع كهنة في وقار ، كرمت أساقفة ، واستحققت أن تكون « معترفة » في سبيل الحق ، فإن الذين يعيشون في القسطنطينية يحسبونها ضمن « المعترفات والمعترفين » ، اذ ماتت ورحلت الى الرب في كفاحها من أجل الله » .

شركة عطاء ، وشركة الم !

ما أن تسلم القديس يوحنا رعاية شعبه حتى فتح قلبه كله بالحب نحو الفقراء ، فالتقى خلال « محبة الفقراء » بأولمبياس بكونها « أماحنونا للفقراء » ولعل هذا هو سر الارتباط القوي الذي توطد بينهما ، وزادته الايام قوة بانفتاح قلبها بالحب نحو المساكين والمتألمين . ان كان القديس يوحنا قد دعى (١٦) « بالكارز العظيم للصدقة » ، الذي صمم ألا يكف عن ممارسة الصدقة والحث عليها كلما أعطيت له فرصة ، فقد وجد في أولمبياس قلبا لا يعرف للعطاء حدا ، حتى اضطر أن ينصحها بتقديم العطاء بحكمة في اعتدال . فأنها اذ وضعت في

(13) Butler's Lives of the Saints, Dc . 17 .

(14) Dial . 17 .

(15) Laus . His . 56 .

(16) N & PNF . p 27 .

قلبها أن كل ما تملكه هو للرب ، يليق بها ألا تقوم بتوزيعه في غير حكمة .
يقول لها (١٧) : « على أي الأحوال ، أنك تقدمين أموالك للقادرين ، وهذا
غير مفيد لهم ، كأنما تلقين بها في البحر . أما تعلمين أنك بارادتك قد كرست
كل ما تملكين للفقراء من أجل الله ؟! يليق بك إذن أن تهتمى بثروتك بكونها
ملك سيدك . اعلمى أنك تعطين حسابا عن توزيعها ! » .

كان الاسقف الجديد أباً ومرشداً لها ، أخذ يشجعها على توزيع ممتلكاتها
على الفقراء وإقامة مؤسسات خيرية بالقسطنطينية ، كما أعطته أن ينفق بسعة
في إرسال بعثات كرازية إلى الفينيقيين بقلال لبنان وسوريا وإلى بلاد القوط
والروس .

لقد فاحت رائحة حياتها المقدسة فاستراح لها كثير من القديسين . قال
عنها الاسقف بالاديوس « انها امرأة عجيبة . . . تشبه اناء ثميناً مملوء بالروح
القدس ! » .

حقاً كانت أوليباس سنداً قوياً للقديس يوحنا في كثير من خدمته ، خاصة
بين العذارى والأرامل والنساء والفتيات ، وبصورة أقوى في خدمة الفقراء
. . . من خلال هذه الخدمة توثقت روابط المحبة والصداقة بينهما كأسقف مع
شماسته ، أو كشماسة مع ابنها الاسقف ، لم يفصلهما شيء ، حتى جاءت
لحظات النفي ليفترقا بالقوة . التقى بها القديس مع زميلاتها قبيل خروجه
للنفي ، واذ أسلم حياته لسلسلة من الآلام ، ذاقته هي أيضاً من أجله الكثير
من الضيقات ، فتلاقيا معاً من جديد خلال « شركتهما في الألم » ، فصارت
بينهما رسائل محبة متبادلة ، مملوءة « تعزيات إيمانية حية » .

سر الصداقة

تعرف عليها القديس يوحنا في الرب ، التقى بها كأسقف بشماسته تخدم
أخوة الرب الأصاغر ، لذا كان يهتم أن يكتب إليها بلقبها الكنسي في مقدمة
رسائله ، أديفون لها :

« سيدتي الشماسة أوليباس ، جزيلة الاحترام ، المحبوبة جداً من
الرب . من يوحنا الاسقف ، سلام في الرب . . . » .

وقد جاءت رسائله إليها من منفاه تكشف لنا سر هذه الصداقة القوية
التي قامت بينهما خلال الخدمة في الرب ، انها تقوم على أسس ثلاث (١٨) :
محبتة لها ، وأعجابه بها ، وثقته فيها .

(17) Soz 8 : 11 .

(18) Sources Chret, vol 13 bis, Introd .

١ - محبته لها :

امتاز القديس يوحنا ، مع شدته وحزمه الذى كان أحيانا يصل الى العنف ، بمحبته العميقة لمن يلتقى بهم وبرقة مشاعره ، واتساع قلبه . نستطيع ان نلمس هذه الاحاسيس فى أغلب رسائله التى بعث بها الى اساقفة وكهنة ورهبان وشمامسة وعلمانيين ، فقد جاءت - وهو يطحن فى مرارة المر - مملوءة حبا ولطفا . على سبيل المثال نقتطف مما كتبه لبعض الكهنة بأنطاكية (١٩) :

« فى المال ، من يدفع يفتقر ومن يأخذ يغتنى . أما فى الطمع بالمحبة فالامر غير ذلك . فان من يدفع (حبا) لا يفقده كما فى المال بل يعود الى معطيه ! دفع الحب يجعل العاطى أكثر غنى عن ذى قبل !

اذ تعرفون هذه الامور ، أيها السادة المكرمون والورعون ، لا تكفوا عن ان تقدموا الى هذا (الحب) على الدوام ...

ومع انكم لستم فى حاجة الى نصيحتى هذه ، انما اذكركم بها من أجل تعطشى الشديد الى حبكم ... » .

هذه المشاعر ظهرت بصورة اعمق خلال علاقته المتبادلة مع شماسه اولمبياس ، يظهر ذلك من تلهفهما على الاطمئنان على بعضهما البعض ، كل منهما يود أن يعرف أخبار الآخر الروحية والنفسية والصحية بكل دقة . يكتب ليهنا قائلا :

ولا يمكن ان يضايقنى الا شئ واحد ، هو أن اكون غير متأكد تماما انك فى حالة طيبة (٢٠) .

« اذ لم استلم من سموك تأملت كثيرا (٢١) » .

« ابعثى الى اخبار صحتك دائما ، فانك تعرفين بالحقائق أن تعزيتى تكون كبيرة جدا فى وحدتى عندما أعرف عنك أنك دائما فى احسن حال » .

« ان أردت أن اكتب اليك رسائل مطولة اخبرينى ، لكننى أتوسل اليك الا تخذعينى بالقول أنك قد القيت منك كل قنوط ، وأنك تتمتعين بفترة من الراحة ، فان الرسائل هى علاج مناسب يهينى فرحا من جهتك .

سترين دوما رسائل مستمرة من جهتى !

(٢٩) كاستوس وفالبريوس وديوفانتوس وقرياقوس .

N & PNF , s . 2, vol 9 , p 304 .

(20) Ep 11 : 1 .

(21) Ep 10 : 1 .

عندما تكتبين الى ثانية لا تقولى « انى أجد راحة كثيرة فى رسائلك » ،
فأنا أعلم هذا من نفسى ، لكن أخبرينى انك تأخذين ما أتوقه لك : ألا ترتبكن
بالحزن ، ولا تقضى أوقاتك فى البكاء ، بل فى هدوء وفرح (٢٢) .

لم تقف هذه المحبة عند المشاعر المتبادلة ، لكنها فى جوهرها هى «تلاقى»
معا فى شخص السيد المسيح » ، كل يهتم بالآخر فى المسيح يسوع ومن أجل
الكنيسة !

كان القلبان مرتبطين معا فى انطلاقهما نحو الابدية ، لكنها كائنات
تخشى على «أبديتها» فوق كل اعتبار يبدو أنها أرسلت تسالها لئلا يكون حزنها
على فراقه ، واهتمامها بحالته الصحية والظروف المحيطة به ، فيه ضعف
روحى .

ربما سر هذا التساؤل الاقاول الكثرة التى أثارها بعض الاعداء ضدها
بسبب التصاقها به ، فأرسل اليها فى شىء من الاطالة يقول (٢٣) :

سيرونك شريكة فى الميراث السعيد ، مكلة ، ومترنمة مع الملائكة ،
تملكين مع المسيح ! أما هم فيصرخون كثيرا ويولولون نادمين على كلام الطيش
الذى أطلقوه ضدك . سيتضرعون اليك ويلجأون الى تقواك ومحبتك ، لكن
هذا كله يكون بلا جدوى . . .

أنا أعرف انك تتألمين ، لا بسبب هذا بحسب ، بل لاني انفصلت من
العدم الذى هو «أنا» ، وأنت تنتجبن بغير توقف ، قائلة للجميع : «لم نعد
نسمع هذا الصوت ، ولا نسمع بتعاليمه التى اعتدنا عليها . لقد أصابنا الجوع .
ما هدد به الله العبرانيين قديما نحتله نحن الآن وهو الجوع لا الى الخبز ،
والعطش لا الى الماء . . . بل الى التعاليم الالهية .

بماذا أجيب ؟ فى امكانك ان تعيش مع كتبنا اثناء غيابنا . وسأبذل كل
الجهد ان وجدت فرصة ان أرسل لك رسائل كثيرة مطولة . أما اذا رغبت فى
سماع صوتنا ، فربما يحين الوقت لتحقيق ذلك وتريننا أيضا بمفونة الله . . .

ان كان الانتظار يؤلمك ، فاعلمى ان هذا لا يكون بدون غائدة ، بل يهبك
مكافأة عظيمة ان احتملتيه بنفس قوية ، ان كنت لا تتفوهين بكلمة قاسية بل
تمجدين الله فى ذلك الامر .

(22) Ep 1 : 5 . (23) Ep 2 : 10 .

قامت الاخت المباركة عايدة حنا بسطا بترجمة النص الفرنسى .

حقا ان النضال في احتمال فرقة انسان عزيز علينا ليس بالامر الهين ، بل يتطلب نفسا مملوءة شهامة ، وغهما مملوء حكمة !

من يقول هذا ؟ ان كان الانسان يعرف كيف يحب حبا عميقا ، ان وجد الانسان الذي يعرف قوة الحب ، مثل هذا يفهم ما أريد أن أقوله .

ولكى لا نناخر في البحث عن أناس محبين بالحقيقة ، أذ هم حقا نادرين فانتفى أسرع الى بولس الطوباوي ، الذي يخبرنا ماهية هذا النضال ، وما هو سمو النفس التي تتطلبه ؟

بولس هذا العجيب ، الذي بذل لحمه ، وانكر جسده ، الذي جال في كل الأرض يحمل نفسه وحدها (كأنها بلا جسد) ، وقد ألقى عنه كل هوى ، وامتلأ بالقوات الروحية (العلوية) بإيمانه ، وقطن في الأرض كما في السماء وارتفع مع الشاروبيم ، واشترك معهم في التسبيح السماوي ، واحتمل الآلام ... تألم وكأنه يتألم في جسد غير جسده ، سجن ، وقيد بالسلاسل ، وقبض عليه ، وجلد بالسياط ، وهدد بالموت ، ورجم ، وألقى في البحر ، وذاق كل أنواع العذابات ، بولس هذا عندما ابتعد عن نفس عزيزة عليه اضطرب وتكرر ، حتى هرب من المدينة التي لم يجد فيها من كان يتوقع أن يراه هناك . لقد عرفت ترواس هذا الامر ، فقد تركها لذات السبب ، اذ لم تقدر أن تقدم له صديقه . « ولكن لما جئت الى ترواس لأجل انجيل المسيح وافتح لي باب في الرب ، لم تكن لي راحة في روحى لانى لم أجد تيطس اخي ، لكن ودعتهم فخرجت الى مكثونية (٢٤) » .

ما هذا يا بولس ؟ أنت الذي قيدت ... ودخلت السجن ، وحملت آثار السياط فكان ظهرك لا يزال ينزف دما ... أنت الذي كنت تعمد وتقدم الذبيحة ، أنت الذي لم تحتقر انسانا واحدا يحب أن يخلص ، عندما بلغت ترواس ورأيت الأرض صالحة للزرع ، ومستعدة للبذر ، والصيد كثير وسهل ، ألقىت من بين يديك هذا المكسب الهام الذي من أجله أتيت !

تقول « لأجل انجيل المسيح » بمعنى أنه لا يقف أحد في طريقك من أجل انجيل المسيح ، تقول « انفتح لي باب في الرب » ، ومع هذا تهرب سريعا ؟

نعم ، بالتأكيد لقد سقطت تحت سطوة الحزن ، فان غياب تيطس قد ألمنى كثيرا . غلبنى الحزن وسيطر على حتى وجدت نفسى مضطرا لهذا .

لقد شعر بذلك بسبب حزنه . لسنا نقول هذا توهما من أنفسنا انما

(٢٤) ٢ كو ٢ : ١٢ ! .

هو يعلمنا ذلك ، اذ كشف سر خروجه بقوله « لم تكن لى راحة فى روحى لاتى لم أجد تيطس أخى ، لكن ودعتهم فخرجت » .

هل نظرت صعوبة التجربة حينها نضطر أن نحتمل بهدوء الانفصال عن نحبهم ؟ ...

هذا هو نضالك الحالى ! ولكن كلما اشتدت الحرب زابت المكافاة ، وتلاآت الاكاليل ! ليكن هذا هو تعزيتك فى انتظارك ! ...

الذين يحبون بعضهم بعضا لا يكفيهم الارتباط بالنفس لتعزيتهم بل هم محتاجون الى وجودهم معا بلجسد . وان لم يوهبوا ذلك ينقصهم الكثير من سعادتهم ...

ان رجعنا الى بولس الطوباوى لوجدنا ذلك (اللقاء الجسدى) أسمى غذاء يسند الانسان أثناء المحن ، اذ يقول فى رسالته الى أهل تسالونيكي (٢٥) « وأما نحن ايها الاخوة اذ قد فقدناكم زمان ساعة بالوجه لا بالقلب اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى وجوهكم . لذلك أردنا أن نأتى اليكم أنا بولس مرة ومرتين ، وإنما علقنا الشيطان ... لذلك اذ لم نحتمل أيضا ان نحسن أن نترك فى أثينا وحدثنا غارسنا تيموثاوس اخانا وخادم الله ... » .

يا لقوة كل كلمة ! فهى تظهر شعلة حب كانت تشرق فى نفسه بقوة . فانه لم يقل « انفصلنا » أو « انتزعنا » أو « تفرقنا » أو « تركنا » ، بل يقول « قد فقدناكم » . لقد وجد الكلمة الصحيحة ليشير الى حزن نفسه (أنه فى حالة يتم) . فمع كونه يحمل أبوة للجميع لكنه يستخدم لغة الانسان اليتيم الصغير الذى فقد من وهبه الحياة مبكرا ، مشيرا بذلك الى غرط حزنه .

ليس أصعب على الاولاد من اليتيم المبكر ، اذ لا يقدر أن يصنعوا شيئا بمفردهم ، ولا يجدون من يحميهم من المهاجمين لهم فان جيشا من الناس يهاجمونهم وينصبون لهم الفخاخ ، فيصيرون كحملان وسط ثئاب ، ممزقهم من كل جهة ، وتقطعهم اربا . ليس من يقدر أن يصف بالكلام مقدار هذه الكارثة . لذلك تردد بولس باحثا عن تعبير يعلن به عن الترك وشدة الالم ، فاستخدم هذه الكلمة مظهرا ما تألم به بانفصاله عن يحبهم . وقد سند العبارة بقوله « اذ قد فقدناكم زمان ساعة بالوجه لا بالقلب » . فان كنا لا نحتمل الالم الناجم عن ذلك ، لكن لنا تعزية كافية اننا مرتبطون بالنفس ، نحمكم فى قلوبنا . لقد سبق أن رايناكم عن قريب (زمان ساعة) . لكن شيئا من هذا لا يقدر ان ينقذنا من الالم .

لكن ، ماذا تريد ؟ ماذا تشتهي بشدة ؟ رؤيتهم ! « اجتهدنا أكثر باشتهاء
كثير أن نرى وجوهكم » .

ماذا تقول ، أنت الانسان الكبير والعظيم ؟ أنت الذى صلب العالم لك
وانت للعالم (٢٦) ، أنت الذى تركت كل ما هو جسدى ، أنت الذى كمن بلا
جسد . بلغت هذه الدرجة من العبودية فى الحب حتى اندمجت بهذا الجسد
الترابى — المصنوع من الطين — الذى تراه !

يجيب : نعم ، انى لا أخجل من أن أعترف بذلك ، بل افتخر ، اذ أحمل فى
داخلى محبة عظيمة ، هى أم كل الفضائل .

هذا ما أبحث عنه ، فهو لا يبحث عن اللقاء الجسدى فحسب بل
ويشتهى بالاكثير أن يرى وجوههم .

« اجتهدنا أكثر . . . ان نرى وجوهكم » ! نعم يقول هكذا اذ فيه تتجمع
أعضاء الحس . فالنفس وحدها اذا ما ارتبطت بنفس أخرى لا تقدر أن تنطق
بشيء ولا تسمع شيئاً . أما اذا تمتعت بالوجود الجسدى ، فانى اتكلم بشيء
وأسمع من أحبهم . لهذا أشتهى رؤية وجوههم . فباللسان ينقل الصوت
الذى يعبر عن المشاعر الداخلية . والاذنان تستقبلان الكلمات ، وبالعينين
تترجم حركات النفس . بفضل هذا كله أستطيع أن أستمتع بالنفس المحبوبة
بطريقة أعظم باللقاء الجسدى . . .

ولكى يؤكد محبته أكثر من الآخرين عندما قال « اجتهدنا أكثر باشتهاء
كثير أن نرى وجوهكم » انفصل عن الآخرين وتقدم بمفرده قائلاً « أنا بولس
مرة ومرتين . . . » مشيراً بهذا أنه أسرع من غيره . . .

+ + +

٢ — اعجابه بها :

استطاعت اولمبياس أن تشد أنظار الكثيرين بجمال حياتها الروحية ،
وكان أول هؤلاء الاسقف يوحنا ، الذى عرفها عن قرب كشماسة صريحة
تتلمذت على يديه وكانت تعينه فى كثير من أعماله الرعوية .

لقد أعجب بها أشد الاعجاب كما شهدت بذلك رسائله لها ، خاصة
رسالته الثامنة . . . فقد كتب اليها يمدحها ، يتفجر كل سطر منها بالاعجاب
الفائق بها ، حتى ليكاد يضعها فوق كل مستوى بشرى ، ويرتفع بها الى
ملاك متشبه بالبشر .

(٢٦) غل ١ : ١٤ .

أما سر مديحه لها فهو ظروفها القاسية : فقد ذاتت الاضطهادات المتلاحقة بسببه والاهانات والشتائم ، كما حملت جسدا امتلأ بالامراض ، أما ما أحزن نفسها وأسقطها في أنين مستمر مغرط كاد أن يهلكها فهو احساسها بالظلم الجائر المتزايد ضد ابيها القديس المنفى والمستبعد عن شعبه ، كما انكشفت لها ضعفات أساقفة ورهبان وكثينة ورجال بلاط وعلمايين فأحست بهلاك كثيرين ...

أحس القديس يوحنا بالالتزام الروحي والادبي أن يكتب لها يحذرهما من « الحزن المفرط » على الكنيسة وعليه وعلى هلاك الآخرين ، مميزا بين الحزن المفرط أو القنوط وبين « المخافة المقدسة المملوءة رجاء » كما اضطر أن يمدح فضائلها لكي يغير نظرتها ويوجهها نحو المكافآت السماوية ...

سجل لنا القديس يوحنا اعجابه بها في بلاغته المعجودة ، غجاعت حياتها الروحية مبالغا فيها (٢٧) ...

« هذا الحزن ، علاوة على انه باطل ومفرط فهو ايضا ضار ومهلك . أما المخافة التي حدثتك عنها فهي هامة ونافعة وبناءة ، هي ينبوع فوائد كثيرة .

انى لم اکتف أن تيار الكلام قد جرفنى ، فقدمت لك نصائح لا تتناسب معك ، فان مثل هذا الحديث نافع لى ولغيرى ممن جرفهم تيار الخطية ... أما انت فقد تزينت بأعمال الفضيلة العظيمة . لقد لمست قبة السموات ، لذا فهذا الكلام ليس لك . انى سأغير الحديث لانطق بنعمة جديدة . فان الخوف لا يمكن أن يصل اليك الا بالقدر الذى يصل به الملائكة .

انى أغير طريقة حديثى ، وانت ايضا فلتغيرى الموضوع . تفكرى مكافئات أعمال فضائلك العظيمة ، والاكتليل المتلألئة ، وصفوف العذارى ، والقصور المقدسة ، وجمال العروش فى السموات ، والحياة مع الملائكة ، وصحبة العريس ، وموكب النور العظيم ... الامور التى تفوق اللغة والتفكير

لست أخطئ التفكير ان احصيتك فى مصاف العذارى الحكيمات مع أنك ارملة ... ليس من يقدر أن يمنعك عن المثول فى مصاف العذارى ، لا بل فقتيهن كثيرا » . فقد أظهرت فى مجالات أخرى حكمة عظيمة ، لذلك عندما عرف بولس البتولية أطلق لقب « عذراء » لا على من لم تعرف الزواج وابتعدت عن العلاقة برجل ، بل على تلك التى يتركز حبها فى أعمال الرب . وقد أشار السيد المسيح نفسه الى أفضلية العطاء فوق البتولية ، وها أنت تحملين لواء

العطاء وتلبسين تاجه . لقد اخرج السيد نصف العذارى لانهن لا يقدمن عطاء ... انه يقبل الذين غلبهم العطاء بمجد عظيم ، ويدعوهم « مباركى أبى » ... انه لا يتردد عن أن يقول لهم أمام الملائكة وقدام الخليقة كلها أنهم أطعموه وآووه .

انت أيضا ستسمعين هذا القول المحيى ، ستسعين بهذه المكافأة التى توهب لك بوفرة ...

يلزمك أن تبتهجى ، تثبى فرحا ، ترقصى طربا ، لا أن تمزقى نفسك لان هذا قد أسلم نفسه لعمل جنونى وذاك اندفع من العلو الى الحضيض ، لهذا بهذا تفتحى روحك الطاهرة ليدخل فيها الشيطان الذى لم تكفى عن محاصرته حتى اليوم .

كيف اصف صبرك فى أوجهه المختلفة ، واشكله المتباينة ، وصوره المتعددة ؟

اى مقال يمكن أن يكفى للحديث عن هذا كله ؟ غاته يطول بنا الحديث عن آلامك منذ نعومة أظفارك حتى الآن : آلام من الاقارب وآلام من الغرباء ، آلام من الاعداء ، آلام من الذين ترتبطين بهم منذ ميلادك ، وآلام من الذين لم ترتبطى بهم ، آلام من العظماء ، وآلام من الفقراء ، آلام من الحكام ، وآلام من المسئولين ، وآلام من رجال الاكليروس ...

ان الحديث عن كل تجربة من هذه التجارب بالتفصيل يكفى لتسجيل تاريخ كامل .

ان اردنا ، فلننظر الى هذه الفضيلة « الصبر » من جانب آخر ، وهو احتمال آلام فرضتها على نفسك وليست من عمل الآخرين ... لقد حاصرت جسدك الرقيق المشاعر ، الذى تربى فى يسر من كل جانب ، بالآلام المختلفة الاشكال ، حتى لم يعد اكثر من جثة هامدة ...

اى لغة يمكن أن يعبر بها من يود أن يسجل حزمك وسيطرتك على نفسك أمام المائدة والنوم ؟! ... لقد بلغت بالسيطرة على ذاتك حد الامانة . فلم يعد الترفه يحاربك ولا انت تتعبين فى السيطرة عليه بل لقد حطمتيه تماما ... لقد دربتى معدتك على الاكتفاء فى الماكل والمشراب بكمية تكاد تكون كافية لمجرد عدم موتك ... فانى لا أدعو هذا نسكا ولا سيطرة على النفس بل هو شىء أعظم .

هذا أيضا ما نراه فى سهرك المقدس ، فقد اخضعت الرغبة فى النوم باخضاعك الرغبة فى الطعام ، لان كثرة الطعام هى غذاء لكثرة النوم .

كذلك هدمتى الرغبة فى النوم بطريق آخر ، اذ تدريتى منذ البداية ان

تكونى قاسية على الطبيعة ، تمضين ليالى كثيرة بلا نوم وبالتمرين الطويل
صارت هذه العادة (السهر) طبيعية . فكما أنا النوم هو طبيعى بالنسبة
للآخرين ، هكذا السهر بالنسبة لك . . .

انى أود الا انحرف عن الموضوع الذى وضعت على عاتقى أن ابلغ اليه
وانا وسط بحر بلا حدود . فانه لو لم اهدف الى انتزاع الحزن من داخل نفسك
من جذوره ، لسعدت بالاطالة فى الحديث عن فضائلك ، اركب هذا البحر الذى
لا يعرف حدودا ، حيث تفتح لى طرق كثيرة لكل فضيلة ، كل طريق يدخل بنا
من جديد فى بحر آخر : صبرك ، اتضاعك ، صدقتك بأشكالها الكثيرة التى
انبسطت الى اقاصى الارض ، الرحمة التى اشعلتها كالف اتون ، الفهم
المتناهى المملوء نعمة فائقة للطبيعة . . .

اذ أختار بعض التفاصيل الخاصة بمظهرك وملابسك ، فانك تظهرين
بساطة بغير تأنق . هذه الفضيلة التى تبدو كأنها أقل من غيرها ، لكن من يدقق
فى الامر يجدها فضيلة عظيمة ، تكشف عن نفس مملوءة حكمة قد وطأت تحت
قدميها الامور الزمنية جميعها وتنطلق طائفة نحو السماء عينها ! . . .

يعوزنى الف لسان لانادى باسمك من أجل بساطة مظهرك . . . اذ
تعيشين هكذا ببسر وسهولة . . .

انى أعجب بهذه البساطة ، لا تحملين ما يلفت النظر ، لا فى ييايك ولا
فى حذائك ولا فى مشيتك . . . هنا تظهر كل الوان الفضيلة التى عبرت الى
الخارج ، تعلن عن الحكمة الكامنة فى داخلك . . .

من أجل هذا ندعوك مطوبة — نعجب لابتعادك عن كل هذه الامور
(الزينة الخارجية) . صرت مثالا للنسك بغير تزين . . .

كما سبق أن قلت أخاف أن ادخل بحر فضائلك غير المتناهى . لقد
وضعت فى نفسى لا أن أمدح نفسك المقدسة انما مجرد أقدم لك دواء التعزية .
لنرجع الى ما سبق أن قلناه قبلا . ماذا قلت ؟ امتنعى عن تساؤلاتك . ما هى
خطية هذا ، وما الذى اقترغه ذاك ؟ . . . انما اذكرى دوما فضائلك المستمرة :
صبرك واعتدالك وصلواتك وسهراتك المقدسة وسيطرتك على ذاتك وعطفتك
وحسن ضيافتك وتجاريك المتنوعة . اذكرى أنك منذ بدء شبابك حتى اليوم
لم تكفى عن تغذية السيد المسيح عندما يكون جائعا ، واروائه عندما يكون ظمأنا
وكسوته عندما يكون عريانا ، واستقباله عندما يكون غريبا ، والسهر عليه
عندما يكون مريضا ، والذهاب اليه عندما يكون مسجوناً .

تأملى عطفتك الذى هو كالمحيط ، انفتحت مصاريعه الى اقاصى المسكونة،
وانتشر بقوة عظيمة ، فانك لم تكفى بفتح بيتك لكل آت ، بل فى كل بقعة فى
الارض والبحر تمتع كثيرون بكرمك . . .

اذ تجمعين مثل هذه الافكار أفرحى وتهللى فى رجاء نوال هذه الاكاليل
والمكافآت .

٢ - ثقته فيها :

كشفت رسائله عن مدى ثقته بشماسته اوليباس أكثر من أفضل أصدقائه ، فهو يتحدث معها في أدق أموره الشخصية ، كما يوكل إليها بمهام متنوعة لأنها قادرة أن تتحمل المسؤولية .

لقد كتب إليها (٢٨) « اهتمى برسائلى بكل الطرق ، وان كان الكاهن هيلاديوس ليس في مكانه ، اعملى على ارسالها الى أصدقائى بيد انسان حكيم وواع » . فانه ليس سهلا في مثل هذه الظروف أن يوجد الانسان الشجاع والحكيم ، والذي يعرض نفسه للكثير من المخاطر باستلام وتسليم رسائل انسان منفى .

ولا يقف الامر عند هذا الحد ، بل نجده يوكل إليها أمرا دقيقا ، أن تهتم بالنفوس التى تحطمت أو انحرفت بسبب الضيق والاعداء ، فيقول لها في ذات الرسالة (٢٩) « لا تكفى عن الاهتمام بالاسقف ماروثاس Maruthas ، كأنها تهتمين بنفسك . انقذيه من الهاوية . . . ليكن هذا هو شغلك الشاغل » .

كما يعهد إليها في ذات الرسالة أمرا يراه في منتهى الخطورة ، وهو أن الاسقف الذى سبق أن رسمه على بلاد القوط قد تنيح وأن محاولات رسامة أسقف جديد كانت تسير بطريقة خاطئة ، فكتب إليها يحدثها في هذا الامر ببلاغته كصديق يحدث صديقه في أمر جاد وخطير حيث يستطيع الصديق أن يعمل الكثير ، فيكتب لها عن تفاصيل كثيرة تخص شروط الاسقف الذى يسام للقوط ، وخطورة سيامة أسقف غير مؤهل لهذا العمل . . . طالبا منها أن تبذل كل جهدها أن ترجىء الرسامة بطريقة خفية لا يشعر بها أحد .

لقد أظهر ثقته فيها بما سجله لها من تفاصيل عن تصرفات أسقف القيصرية غار تريوس Pharetrius ورهبانه معه ، وقسوتهم عليه ، دون أن يخشى عليها من العثرة .

كتب إليها أيضا عن تصرفات بعض كهنة الاسقف ، الذين أعلنوا ولاءهم للقديس يوحنا ، الامر الذى يعرض حياتهم للخطر . . . لذا يكتب إليها قائلا (٣٠) « لا يعلم أحد غيرك هذا » ، « احتفظى بهذا لك » .

أخيرا فانه يطلب منها أن تتكشف نيات خصومه وحيلهم لابطاط خططهم حتى يعود الى كرسيه ، ولما فشلت طرقها في أمر عودته كتب إليها يشجعها انها بذلت ما في وسعها ، وأن الله يريد له ذلك لمضاعفة جزائه (٣١) .

+ + +

(28) Ep . 14 : 5 .

(29) Ibid.

(30) Ep . 14 : 1 .

(31) Ep . 4 : 1 .

طريق الآلام

ان كان القديس يوحنا الذهبي الفم قد استطاع ان يجذب جماهير المؤمنين والهراطقة والوثنيين الى الكنيسة ببلاغته ونقاوة حياته الداخلية ونسكه ، فانه بدخوله « طريق الآلام » كتب لهذه الكرازة ان تحيا . نستطيع في غير مبالغة ان نقول ان ما كرز به القديس باحتماله الآلام ، خاصة وهو مستبعد في منفاه ، اعظم بما لا يقاس عن كل أعماله المنبرية والكتابية .

لقد أدرك القديس يوحنا ذلك ، فكتب الى شماسه اولمبياس يصف لها مرارة الاضطهاد والضيق الذي يعيشه في منفاه ، قائلا لها (١) « انى أطر فرحا ! انى أثب مبتهجا من أجل انى اخزن كنزا عظيما » .

سر نجاح القديس يوحنا دخوله طريق الآلام ، مختفيا في صليب سيده ، يجتاز من الم الى الم ، ويرتفع من ضيق الى ضيق ، لا ليعبر في أحداث عارضة في حياته ، بل ليعيش جوهر الحياة المسيحية الحية والعاملة ، حتى جاءت سنواته الاخيرة كتلة نيران الم ملتهبة ، تكشف جمال حياته الداخلية ، وتضفي عليها بهاء خاصا . . . حتى يشرق على العالم ببهاء الكرازة العملية الصادقة ، حتى وان كان مستبعدا عن شعبه وغنم رعيته .

لقد حاول البعض ان يتهم شخصيته كأحد العوامل التي دفعت به في هذه الآلام ، أو على الاقل اسرعت بالآلام اليه ، أو شددت من حدتها . . . فقد رأى البعض فيه كارزا ناجحا تعرف على الطبيعة البشرية ولمس ضعفاتها وترفق بها ، فكان حديثه مع شعبه ممتزجا بين الحب والواقع . . . لكنه غير قادر على التعرف على الافراد كأفراد ، فلم يكن — في رأى البعض موافقا في اعطائه كل ثقته للشماس صرابيون التقى الورع ، واعتماده عليه في أمور كثيرة تخص علاقته بالاكليروس . كما انتقده البعض لعجزه عن كسب صداقة

(1) Ep . 14 : 1 .

الامبراطور والامبراطورة ورجال الحكم والاكبروس ، فقد كان لاذعا في نقده لهم او توجيههم ، وكان متعجلا في اصلاحهم !

انتقده البعض في استخدامه المنبر لتعنيف الامبراطورة على وجه الخصوص وغيرها من المسؤولين المدنيين او الكنسيين ، فكان يمكن ان يلتقى بهم خارج دائرة المنبر ، ولا ينزل بكل مشكلة الى القاعدة الشعبية ، التي تثير الشعب وتملا المنتقدين حقدا . وان كان قد علل البعض سر استخدامه المنبر في مثل هذه المواقف بأنها مواقف تلمس حياة العامة ، وتؤثر على سلوكهم .

على اى الحالات لست اود الدخول في دراسة نقدية لهذه التصرفات قبلما نتعرض للاحداث ذاتها . . . اما ما اود ان الفت النظر اليه فهو :

١ — الكنيسة في تعلقها بالقديسين لا تؤمن بعصمتهم من الخطأ . . . هم مقدسون في الرب ، يسلكون بالروح ، لكنهم ليسوا بغير ضعفات . . . انهم في حالة توبة مستمرة !

٢ — الله في محبته يسمح باظهار بعض ضعفات كبار القديسين ، ربما ليكون هذا بمثابة شوكة تنحسهم على الدوام فلا يتعالون ، لكن في نفس الوقت يحول الله هذا الضعف لبنائهم ولخير الكنيسة ومجد اسمه القدوس .

لهذا نستطيع ان نقول انه اذا كان في بعض تصرفات القديس يوحنا ماقد اسرع به الى مرارة الالم . ان صح هذا القول — فان فترة آلامه دخلت به الى « شركة اعمق مع الله » مقدما لنا خيرة حياة في المسيح يسوع ، لم تستطع بلاغة لسانه او موهبة قلمه التعبير عنها .

لقد شعر القديس يوحنا بثمار الالم في الخدمة فكتب الى شماسه اوليباس يطمئنها انه وان كانت الآلام قد اشتدت جدا ، والظلام صار حالكا ، وامور الكنيسة صارت مؤسفة . . . لكن التجارب قد اثمرت كثيرا . . . يقول (٢) :

« ان كانت التجارب المتعاقبة قد ارجأت بناء الكنيسة ، لكن الذين كانوا يوما ما متعثرين صاروا يسلكون الآن باستقامة ، والذين كانوا ضالين قد رجعوا ، والاماكن التي كانت محطمة بنيت بأكثر ثبات عن ذي قبل ! » .

« انى ابتهج ، اثب فرحا ، أرغف من البهجة ! لم أعد أشعر بالوحدة ولا بكل المتاعب المحيطة بى . لقد صرت متهللا ومبتهجا ، صار لى فخر ليس

بقليل من جهة عظمة نفسك ونصراتك المتتالية ، لا لحسابك وحدك انما لحساب
تلك المدينة العجيبة المزدحمة (القسطنطينية) .

صرت (بالالام) تشبهين قلعة ، ميناء ، حصنا للدفاع ! صار حديثك بلغة
« المثال العملى » اللغة العظيمة !

بالامك قدمتى لكلا الجنسين طريق السير بخطوات ثابتة نحو النضال
لينزلوا حلقات المصارعة بكل شجاعة ، محتملين بفرح ما يلحقهم من آتاعاب
أثناء نضالهم

لذلك فانك يا سيدتى اللطيفة تستحقين اعجابا غائقا . . .

انى افرح ، اثب مبتهجا ! ولا اكف عن ان اكرر هذا القول ، حاملا معى
مادة فرحى فى كل موضع ، فان كن انفصالى عنك قد احزنك ، لكنك تقدمين
هذه التعزية العظيمة التى هى بفضل مآثرك الناجحة ، حتى اننى انا ايضا
الذى نفيت الى مسافة بعيدة هكذا اقتنى فرحا ليس بقليل من هذا الامر —
اقصد بذلك شجاعتك ! » .

هذا هو عمل الالم فى حياة اولاد الله ، لذا نود العبور على الالم التى
عاشها القديس يوحنا عبورا سريعا ، حتى ندخل معه الى منهجه فى الالم من
جهة طبيعته وبركاته .

+ + +

١ — القديس يوحنا ورجال الاكليروس

يقول المؤرخ سوزومين (٣) عن القديس يوحنا : « ما ان اعتلى المنصب
الاسقفى حتى كرس اهتمامه الاول لاصلاح حياة الكهنة . فقد اخذ يستنكر
طرقهم ومآكلهم وكل منهج سلوكهم ، مصلحا هذا كله . . . » .

ان كان الاسقف الجديد قد استطاع بغيرة قلبه ان يجذب الكثير من
شعبه لكن هذا الامر كان صعبا ان يحدث فى رجال الاكليروس ، بل على
العكس أدت شدة اهتمامه بهم ورغبته فى الاسراع باصلاح حياتهم الى فتور
علاقة الكثيرين به ، بل بلغ الامر احيانا الى الاحتداد بينهم خفية و احيانا
علانية . فقد جاء القديس يوحنا ليجد القصر الامبراطورى يناصر القصر
الاسقفى ، وقد انفتحت السياسة على الكنيسة ، واختلطت الاساقفة برجال
الحكم ، فتحولوا عن عملهم الروحى الرعوى الى حياة الترف والبذخ ،
مترددين على البلاط ، يتنافسون على التقرب والتودد لاصحاب السلطة . . .
هذه الصورة لم يحتملها الاسقف الجديد ، فبدأ فى اصلاح الموقف يوبغ وينتهر ،
بل و احيانا يطرد من الكنيسة ، الامر الذى سبب له الكثير من المتاعب .

(3) Sozomen 8 : 2 (Soc . 6 : 4 , Theod . 5 : 28 , Pallad : 5) .

عاب البعض عليه فضحه أخطائهم بطريقة علنية ، كما سمح أن يلتف حوله البعض مثل شماسة صرابيون الذى كان عفيفا ناسكا وغيورا على خلاص الناس ، لكنه أساء الى أسقفه فى بعض تصرفاته .

يقول المؤرخ القسطنطينى سقراط (٤) : « كان يوحنا فى مسلكه مع كهنته معتدا بنفسه أكثر من اللازم ، وذلك بقصد اصلاح سلوك من هم تحت سلطانه ، فآثار بذلك غضب رجال الكنيسة فأبغضوه ، وتباعد كثيرون عنه ، لأنه كان حاد الطبع ، كما تحول البعض الى أعدائه .

كان صرابيون ، وهو شماس من حاشيته ، علة تزايد تباعدهم عنه . فقد حدث مرة أن صرخ بأعلى صوته ، مخاطبا الاسقف فى حضرة كل الكهنة المجتمعين معا ، قائلا : لن تقدر يا سيدى أن تضبط هؤلاء الرجال ان لم تحكمهم بالعصا . وقد أثار هذا القول شعورا بالعداء نحو الاسقف ، وفعلوا لم يمض وقت طويل حتى استبعد الاسقف كثيرين منهم من الكنيسة ، البعض لسبب والآخر لسبب آخر » .

مشكلة عدم اكله مع الآخرين

كانت دار الاسقفية — قبل رسامته — أثبه بدار ضيافة ، يستقبل فيها الاساقفة والكهنة مع عظماء الشعب ووجهائه بولائم باهظة التكاليف ، لكن يوحنا المحب للفقراء منع مثل هذه الولائم لتنفق تكلفتها على اخوة المسيح اما هو فكان يأكل مرة واحدة فى اليوم بمفرده . وقد أثار ذلك زوبعة عنيفة بين رجال الاكليروس ، وشغل هذا الامر اهتمام المؤرخين القدامى ، وحاول كل منهم أن يجد تبريرا للموقف . فرأى البعض فى تعب معدته الشديد علة لهذا التصرف ، اذ كان محتاجا الى انواع زهيدة من الطعام لا يليق بتقديمها للآخرين ورأى البعض فى نسكه يلجئه الى هذا التصرف ، وآخرون عللوه بانهماكه فى الشئون الرعوية وعبادته الخاصة (٥) . . .

على أى الحالات فقد اتعب نيك القديس يوحنا نفسية الكثيرين من الاكليروس ، ففى الوقت الذى فيه جذب نسكه شعب القسطنطينية احس الاكليروس أنه بهذا يفضحهم ويكشف ترفهم . . .

ولعل سر تعب البعض منهم أن توقف الولائم بالاسقفية قد حرّمهم من اللقاءات المتكررة مع عظماء الدولة ورجال البلاط وأصحاب السلطة ، كما أغلق عليهم باب التردد المستمر على البلاط . . .

(4) Soc 6 : 4 .

(5) Soc . 7 : 4 , Pall . dial . 5 .

لهذا كله هاج بعض رجال الاكليروس واتهموه في عدم اكله مع الآخرين
بالكبرياء والاعتداد بالذات ، كما اعلنوا انه ما يليق بالاسقفية أن توقف الولايم،
ففى هذه واجبات الضيافة والكرم !

+ + +

٢ — القديس يوحنا وسقوط اتروبيوس (٦) Eutropius

ولد اتروبيوس كمبد فى حكم الميزوبوتاميا (دولة العراق القديم) واجتاز
من الطفولة والصبوة كمبد يقوم ببعض الاعمال الدنيئة الموكلة اليه بواسطة
ساده الذين كانوا يتاجرون به ، فبيعه سيد لآخر وأخيراً اشتراه أرنيثيوس
Arnithus الذى كان يقوم بعمل عسكري هام ، هذا قدمه هدية لابنته عند
زواجها . لكن السيدة تضايقت من تصرفاته بعدما صار شيخاً ، فلم تحاول
بيعه بل اطلقت سراحه . ذهب العبد الى القسطنطينية حيث صار فى عوز
شديد ، فرثى له أحد موظفى البلاط مهيناً له عمداً لاسيطا بين حجاب
الامبراطور . . . ومن هنا بدأ نجمه يتألق ومركزه يرتفع اذ استطاع أن يجذب
انظار الامبراطور ثيودوسيوس باجتهاده فى عمله ولباقة حديثه وسرعة
خاطره ، فوثق به واوكل اليه القيام بأعمال خطيرة وحساسة . بعد موت
الامبراطور ثيودوسيوس صار اتروبيوس رئيس الحجاب والمشير الخاص
لاركاديوس امبراطور الشرق ، والمساعد الدائم له . لكن هذه المهمة كانت
أصلاً فى يد روفينوس Rufinus الذى كان بحق هو المدير الفعلى لشئون
المملكة فى بداية حكم اركاديوس ، وقد كانت له دسائسه وطمعه الخبيث مما
أثار سخط الشعب عليه فاغتالته جماعة فى حضور الامبراطور . أما اتروبيوس
فكان يتوعد لروفينوس بخبيث ، واستطاع بدهائه أن يبطل تدابيريه فى تزويج
ابنته بأركاديوس ، مستبدلاً بها أفدوكسيا التى حفظت له هذا الجميل زمناً .
فلما اغتيل روفينوس صارت السلطة الحقيقية فى يد اتروبيوس الخصى تسنده
أفدوكسيا المسيطرة على زوجها بجمالها ودهائها .

هكذا استطاع الخصى العجوز أن يصير الحاكم الفعلى للامبراطورية
الرومانية الشرقية ، فتصلف على الشعب والكنيسة وأمتلاً تيها وتجبراً ، واذا
أراد أن يحفظ لنفسه مركزه احاط الامبراطور بجماعة من المتلقين ، وحاول
استبعاد العيانات الممتازة . . . ولكى يقطع خط الرجعة استطاع بسلطانه أن
يلغى حق اللجوء الكنسى رغم احتجاجات البطريرك يوحنا ، بهذا يقدر أن
يغتال من يغتاله ، ويقتله كما يشاء وينفى ويستبعد بلا عائق .

(6) Cf N & PNF, s. 2, v. 9, p. 245/7 .

Socrates 6 : 6 , Soz 8 : 4 , Theod . 5 : 32 .

للمؤلف : الكنيسة تحبك (مقالتان عن اتروبيوس) طبعة ١٩٦٨ ص ٣ — ٨ .
د . اسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى فصل ١٩ .

كان أتروبيوس هو علة سيامة يوحنا بطريركا على القسطنطينية ، وقد بدا يمد له يد المعونة مظهرا له مساندته في أعماله الرعوية ، خاصة في إرسال بعثات كرازية ... وكان يظن أنه بهذا يقدر أن يقتنص البطريرك يوحنا في جعبته ، فلا يرفع عينيه فيه ... لكن القديس يوحنا كان لا يعرف المداينة ولا يمارس الرياء ، فكان يتحدث بجرأة نادرة وعنف شديد ضد شرور الأغنياء في ذلك الحين ... وقد أحس أتروبيوس والشعب أيضا أن أول من ينطبق عليهم هذه الأقوال هو أتروبيوس ، خاصة وأن الواشين قد وجدوا في عظمات ذهبى الفم مادة للاثارة ... فصارت العلاقات بينهما غاية في السوء .

على أى الحالات ، في عام ٣٩٩م سقط أتروبيوس بمكيذة عسكرية دبرها غايناس Gainas ليحتل مركزه ، في الوقت الذى كانت فيه العلاقات بين أتروبيوس والامبراطورة قد ساءت أيضا الى أبعد الحدود في زمن قصير ، فأمر الامبراطور بقتله واعدامه .

لم يكن سقوط أتروبيوس نهاية لصراع بين يوحنا والوزير أى الحاكم الفعلى ، بل بداية دخول ضيقات وآلام جديدة . فقد هرع أتروبيوس الى الكنيسة وجرى نحو مذبحها وتعلق به مستندا الى حق اللجوء الكنسى الذى ألفاه هو ! وفى لمح البصر حاصر الجند الكاتدرائية دون التجاسر على دخولها طالبين تسليمه . وظلوا على هذا الحال طوال الليل يترقبون خروجه أو تسليمه ! أما الشعب فقد سمع بالخبر وتسلسل الكثيرون مسرعين نحو الكاتدرائية حتى اذا ما لاح الصباح صارت الكاتدرائية كتلة متراخمة من الجموع ، الكل متعطش الى النعمة من هذا المتصلف ، يريدون أن يشبعوا أعينهم بسقوطه ... فالامبراطورة والامبراطور لا يطيقانه ، والجنود في شماتة ينتظرونه ، والشعب يطلب اعدامه ، والكنيسة كان مضطهدا ! ... تركزت انظار المدينة بأسرها والبلاط الامبراطورى على وجه الخصوص تجاه الكاتدرائية ، ماذا يفعل به البطريرك يوحنا ...

دخل الاب البطريرك الكاتدرائية ، وبالكاد عرف أن يبلغ منبره بينما وقف أتروبيوس الوزير المتصلف والمقاوم للكنيسة ملتصقا بالمذبح لم ينم الليل كله منتظرا ماذا يكون مصيره !

بماذا ينطق الاب البطريرك ؟

لقد وجد الاب فرصة نادرة ربما لا تتكرر بهذه القوة وفى تلك الصورة ، لا لينتقم من خصمه أو يتشفى في مقاوم الكنيسة بل أن ينطلق بأنظار شعبه ليروا « حقيقة الامور الزمنية » فتحدث معهم في مقاله الاول عن أتروبيوس ، معلنا « باطل الاباطيل الكل باطل وقبض الريح » ، بدا يسأل أتروبيوس أين

عظمته وأمواله وسلطته وأصدقائه ومما لقوه ... ليؤكد أنه « قد صار الكل أشبه بخيالات الليل، وأحلام تبددت بيزوغ النهار ... كانت كنسيج العنكبوت الذى تهرأ (٧) » .

وبعد أن دخل بشعبه الى حقيقة زوال العالم وما فيه ، بدأ يوضح لهم مع أتروبيوس « حب الكنيسة » ، فهي ليست مملوءة خداعا ولا غاشية ولا منتقمة ، إنما طبيعتها الحب حتى أن جرحت أو انتهرت أو وبخت ! وهكذا دخل بشعبه الى « وصية الحب للاعداء » ، محدثا أتروبيوس قائلا له (٨) :

« أما كنت أقول لك انى احبك أكثر من هؤلاء الذين يتملقونك ؟ ... »

انى لن أتركك فى كارتك ،

لن أتركك الآن ،

وأنت ساقط أحملك واتحنن عليك .

الكنيسة التى عاملتها كعدو تفتح لك أحضانها وتستقبلك ... » .

سرعان ما رفع أنظار شعبه الى المذبح ليروا أتروبيوس وهو ممسك بقرون المذبح ، يلتجئ الى مراحم الله وحنان الكنيسة ، أنه « زينة المذبح (٩) عوض النعمة والتشفى أبهج قلب شعبه اذ يرون أتروبيوس مضايق الكنيسة قد صار معلما يشهد بحب الكنيسة لمضايقيها ، وهكذا أصبح « زينة المذبح » خلال حبهم له ، ورفقهم به رغم مقاومته السابقة !

خلق ذهبى الفم من الاثارة والقلق صورة عذبة مفرحة ، وجعل منها فرصة للتوبة وزهد العالم الحاضر ، مع ممارسة وصية الحب حتى للمقاومين .

ان كان أتروبيوس لم يثق فى الكنيسة ، فخرج منها وألقى القبض عليه حيث أعدم فى خلقونية ، فان القديس يوحنا استطاع أيضا ان يعود ليحدث شعبه بعظة أخرى عن أتروبيوس ، مقارنا بين عمل العالم مع محبيه أو أصدقائه ، وعمل الله مع محبيه .. لقد عبر القديس بفصاحة نادرة وأسلوب بسيط رائع عن « العرس الروحى السماوى الأبدى (١٠) » ...

لقد نجح الاب البطريك ان يحول اعدام أتروبيوس الى فرصة للكراسة بخلود المؤمنين والدخول بهم الى فرح أبدى لا ينتهى .

(٧) للمؤلف الكنيسة تحبك ص ١٤ .

(٨) المرجع السابق ص ١٦

(٩) المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

(١٠) المرجع السابق ص ٤٤ — ٧٩ .

هذا العمل اثار نفس الامبراطورة افدوكسيا ضده . . . فقد وقف بجوار اتروبيوس الذى لم تكن تطيقه في ذلك الحين . كما حسدته ، اذ شد انظار المدينة كلها والبلاط الامبراطورى ، ولم يقدر احد ان يتدخل في امر اتروبيوس لولا خروجه من الكنيسة « لقد رأت في يوحنا منافسا يقدر ان يقاوم حتى البلاط الامبراطورى ، فاشتيت لو تخلصت منه !

+ + +

٣ — القديس يوحنا وغايناس Galnas

ادخل الامبراطور ثيودوسيوس عددا كبيرا من القوط الى الجيش ، وكان من بينهم غايناس ، الذى ارتقى في الرتب ، وكان مهتما بشئون ابناء جنسه ، الذين لم يكن عددهم قليلا في العاصمة ، فصار غايناس احد زعماء السياسة ، لا ينافسه احد غير اتروبيوس ، فدبر مكيدة عسكرية يفتصب بها مركزه ، سجلها لنا المؤرخ سوزومين بشيء من التفصيل (١١) . فقاد رسل الى اهل بلده — القوط — ان يزحفوا على المقاطعات الرومانية ، وأشار الى احد اقربائه تيرينجيلس Tirbingilus القائد لعدد ضخم من الجنود في غيريجية بآسيا الصغرى ان يقوم بعصيان مسلح . اما هو فغظاها امام الامبراطور بان ينطلق ليخمد نار الثورة والعصان في غيريجية ، واذ جمع شمل عدد كبير من البرابرة انقلب مهاجما الاراضى الرومانية . أدرك الامبراطور الخطر الذى يلحق بالدولة . فان غايناس يحمل سلطات قوية ، ويجمع شملا داخل الدولة ، ويعرف كل اسرار الدولة وضعفاتها ، فارسل اليه يطلب التفاهم معه ومراضاته . طلب غايناس تسليم اثنين من متسرى الامبراطور هما ساتيرنينوس Saturninus واوريليان Aurilian الذين حسبهما معاديان له واذ سلما له عفا عنهما ، بعد ذلك اقيم مجلس صلح بينه وبين الامبراطور بجوار خلقدونية ، في موضع الصلاة الذى وضع فيه قبر الشهيدة اوفيميه . في هذا المجلس اقسام الاثنان ان يعيشا بروح الصداقة ، عندئذ التقى غايناس سلاحه امام الامبراطور ، واستعد ان يذهب معه الى القسطنطينية بعدما اصدر الامبراطور امرا بتعيينه قائدا عاما للمشاة وسلاح الفرسان ، فقال بذلك أكثر بكثير مما كان يتوقعه له احد . . .

طلب غايناس قتل اتروبيوس ليتخلص منه ، فهرب الى الكاتدرائية ، لكنه ما ان خرج منها حتى القى القبض عليه واعدم بخلقدونية . . .

كان غايناس مثل اكثر القوط في ذلك الحين اريوسيا ، فشجع الاريوسيين ، الذين اخذوا يجتمعون ليلا اجواقا ينشدون الترانيم الاريوسية . اما القديس يوحنا فلم يقف مكتوف الايدى ، لكنه استطاع ببلاغته وروحانيته ان ينظم — على الفور تسابيح وترانيم ارثوذكسية تعلن

(11) Soz 8 : 4 .

لاهوت السيد المسيح في أسلوب روحى عذب ، بها يحيون الليالى . لكن هذا الامر أدى الى اشتباكات بين الفريقين كانت تصل أحيانا الى سفك الدماء (١٢) اهتم أيضا القديس يوحنا بالقوط الارثوذكسى ، فرسم لهم كاهنا منهم . يصلى معهم بلغتهم .

اذ وجد غايناس ان البطريرك لم يشتبك مع الاريوسيين في مجادلات ومناقشات ، انما في ايجابية وصنع التسابيح اليمانية الروحية يسند بها شعبه وزدادت رعايته للقوطيين ، ظن انه يستطيع — مع احترامه العميق للبطريرك — أن يستغل نفوذه فيطلب احدى الكنائس الارثوذكسية يصلى فيها غايناس وجماعة الاريوسيين . وفعلا فاتح الامبراطور في الامر ، واذ كان يخشاه وافقه على طلبه وارسل الى البطريرك يخبره بالامر ، مذكرا اياه بسطوة غايناس ، كما المح له عن المؤامرة التى سبق أن دبرها لاغتصاب الحكم ، سائلا اياه أن يطفىء لهيب هذا البربرى بتنازله عن احدى كنائسه له هو وجماعته (١٣) . لكن البطريرك يوحنا لم يكن يعرف كيف يخاف انسانا أو يداهنه على حساب الحق ، بل بايمان يسلك في غير مهادنة للشر ، لذلك التقى بالامبراطور يقول له : « لا تعطه يا سيدى وعدا ، فانه لا يعطى القدس للكلاب (١٤) . انى لن اسمح قط ان يطرد العابدون والمسيحون للكلمة الالهى ليحتل مكانهم المجدفون عليه . لا تخف يا سيدى من هذا البربرى . استدعينا — أنا وهو — لنمثل بين يديك ، ولنسمع ما يقال في صمت ، فانى أشكم لسانه ، وأصده عن طلبه الخاطيء !

ابتهج الامبراطور بالاجابة ، وفي اليوم التالى دعاها في حضرته . فبدأ غايناس يطلب تحقيق ما وعد به ، لكن العظيم يوحنا أجاب أنه لا يحق للامبراطور الذى يؤمن حقا بايمان مستقيم أن يتجاسر فيصنع أمرا يخالف ايمانه .

قال غايناس أن من حقه أيضا أن يكون له موضع صلاة .
أجابه العظيم يوحنا : لماذا ؟ فان كل الكنائس هى مفتوحة أمامك ، ليس من يمنعك عن الصلاة أينما تميل .

قال غايناس : لكننى اتبع طائفة أخرى ، وأنا أسأل أن تكون لى كنيسة ، فانه يحق لى مثل هذا الطلب مقابل ما احتملته في الحرب من أجل الرومان .

(١٢) الدكتور اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، فصل

(13) Theodoret 5 : 32

. ١٩

(١٤) مت ٧ : ٦ .

أجاب الاسقف : لقد أخذت مكافئات عظيمة مقابل اتعابك . فانك الآن قائد ، ترتدى ثوب الولاية ! كان يليق بك أن تفكر ما كنت عليه وما صرت إليه الآن . تأمل ففرك الماضي ، وغناك الحالي . أى نوع من الثياب كنت ترتدى قبلا ، وما الثوب الذى ترتديه الآن ؟ ...

أقول ، أنكر قلة جهادك بجانب عظم المكافئات التى وهبت لك . لا تكن جاحدا جميل هؤلاء الذين وهبوك كرامة !

بهذا أبكم معلم المسكونة غايناس ، الذى خرج غاضبا ، واضمعا في قلبه أن ينتقم لنفسه من الامبراطور والبطيريك ، واذ كان غايناس يعرف كل اسرار البلاط أرسل جنودا يحرقونه ليلا ، لكنهم وجدوا حراسا على البلاط لم يتوقعونهم ، فرجعوا مرتعبين يخبرونه بالامر . دهش غايناس وذهب بنفسه يتحقق الامر ، فوجد ملائكة تحرس القصر ... غارتعب وخاف .

ونه يمض وقت طويل حتى خشى الروم سطوته ، فعهسوا الى قوطى آخر يدعى فلافيتا Flavita أن يقاتله ... فاضطر غايناس الى الهروب ، وانتهى أمره بقتله في تراس Thrace عام ٤٠١ م (١٥) .

+ + +

٤ — القديس يوحنا وافدوكسيا

تعلق الامبراطور اركاديوس وزوجته افدوكسيا بالبطيريك الجديد يوحنا الى أبعد الحدود . وقد بلغ التجاوب أشده عندما لعبت الامبراطورة دورا في احتفالات الشهداء . فعند نقل رفات بعض الشهداء حضرت بنفسها في ثيابها الرسمية ، يحوطها عدد كبير من رجال البلاط واشتركت في الاحتفال . ويبدو أنها بقيت حتى وقت متأخر من الليل ، اذ وقف الاسقف عندما بدأ الفجر يلوح يعظ معبرا عن اعجابه بالامبراطورة وتقواها .

ويرى البعض أن هذه الصداقة قد دامت في قوتها الى وقت سقوط أتروبيوس (١٦) عام ٣٩٩ حيث ظهرت شخصية ذهبى الفم في وساطته لدى الامبراطور عن أتروبيوس ، في الوقت الذى كانت فيه مرة النفس تجاه أتروبيوس تود الخلاص منه . كما تلات بالاكتر شخصيته في وقفته الجريئة امام غايناس القوطى !

(15) Soc . 6 : 6 , Soz . 8 : 4 .

(16) Wand : Doctors and Councils , p 64 .

هذا ولم يخل الجو من بعض النسوة الشريفات المهذرات اللواتى كن يحطن الامبراطورة وقد أحسن بهجوم ذهبى الفم عليهن فقمن بدور خطير فى الوشاية به لديها ...

واذ قتل غايناس القوطى الذى سبق فأطاح برأس أتروبيوس خلا الجو تماما لأفدوكسيا لتلعب دورها المنفرد على مسرح الامبراطورية الرومانية الشرقية . لقد تكشفت حقيقتها بوضوح وظهر خبثها وطمعها فى تدبير أمور الرعية ، فأذاقتهم من المظالم أضغاف ما فعله بهم أتروبيوس . واذ ضج الشعب لم يجد له ملجأ غير الاب البطريك ، يستغيثون به منها ليتدخل فى أمورهم ، الأمر الذى دفع به الى الاحتكاك بها والدخول معها فى سلسلة من الآلام .

سجل لنا التاريخ بعض تصرفات القديس معها ، فقد قيل ان بولاسيوس والى الاسكندرية كان قد ظلم أرملة واختلس منها خمسمائة دينار ، واذ اعتزل منصبه وقطن القسطنطينية جاءت الأرملة تشكوه لدى البطريك بعدما لجأت الى القضاء كما لجأت الى الامبراطورة التى ألزمتها بدفع ستة وثلاثين دينارا فقط . ترقب البطريك دخول بولاسيوس الكاتدرائية واحتجزه حتى يدفع مال الأرملة فأرسلت الامبراطورة تطلب إطلاق سراحه فرفض . ولما احتدم غضبها وأرسلت جندا يخرجونه بالقوة وجدوا ملاكا مرعبا ... الأمر الذى أربع الامبراطورة ، فدفعت المال للأرملة ليطلق سراح بولاسيوس .

لسنا نسأل الى أى مدى كان يحق للبطريك ان يفعل ذلك ؟ لكن الله قاضى الارامل تطلع الى القلب الابوى للبطريك فالزمها بالدفع للأرملة ... وان كانت بلا شك قد حملت فى قلبها ضيقا تجاه البطريك .

أما ما أشعل قلبها بنار الضغينة تجاهه فهو أنه أرسل اليها يرجوها أن ترد حقلا اغتصبته من أرملة ظلما ، فلم تجبه بشيء . عاد فأرسل اليها رسلا غازدانت تصلفا . وفى يوم عيد الصليب كانت الامبراطورة قادمة الى الكنيسة يسبقها الامبراطور مع حاشيته ، فأمر البطريك بغلق الباب فى وجهها . واذ بلغت باب الكنيسة بموكبها العظيم احتدت جدا وأخذت تقذف البطريك بأقصى الشتائم ثم أمرت الحرس بكسر الباب بالقوة . وما أن رفع أحد الجنود يده بسلاحه حتى بيست فى الحال ... غارتعب الحاضرون وامتلات أفدوكسيا خوفا ، وعادت الى القصر ترعد وتزيد وتهدد ! واذ انتهى الاب من الصلاة خرج ليمسح يد الجندى بماء مقدس بعدما أعترف بخطئه ، فعادت يده سليمة أمام الشعب ! أما أفدوكسيا فانتظرت زوجها توغر صدره أن ينتقم لها من البطريك ويعمل ما فى وسعه لاستبعاده من العاصمة ... وبقيت

أندوكسيا تغلى فى قلبها ، حتى وجدت فى مشكلة « الاخوة الطوال » فرصة لتحقيق مآربها ...

لكن سبق مشكلة « الاخوة الطوال » موقفها المملوء تنللا عام ٤٠١ فى نزاع الخصومة بين الاب البطريرك والاستقف سفريان المقيم بالبلاط والمعجبة به ليدفع بها الى التمرر من جهة البطريرك .

على اى الحالات كانت الاحداث فى الفترة الاخيرة قبل نفى القديس، تعمل معا من كل جانب لتدفع الى التوتر الشديد بين الامبراطورة والبطريرك . وتدخل به الى عمق الآلام ، ليكمل بقية غربته يتنقى فى أتون التجارب ويتزكى، شاهدا للرب بالآلامه وكارزا بحياته !

+ + +

٥ — القديس يوحنا وسفريان اسقف جبالة

ان كانت ضيقة القديس يوحنا الذهبى الفم قد وصمت تاريخ البابا ثاوفيلس الاسكندري ، فان الاب سفريان اسقف جبالة بسوريا Severian of Gabala ربما قام بدور اخطر وابلغ اثرا ، خاصة انه كان مقيما بالبلاط وعلى علاقة وثيقة بالامبراطورة .

يفكر لنا المؤرخان سقراط وسوزومين (١٧) ان سبب مجيء هذا الاب الى القسطنطينية هو حب المال، فقد رأى ان الاب انتيخوس اسقف Ptolemais بفينيقية قد زار القسطنطينية وكان يعظ بها ثم عاد الى كرسيه يحمل مالا كثيرا (١٨) ، لكن الاحتمال الأكبر ان هذا مجرد اتهام وصم به هذا الاب نتيجة أخطائه المتكررة فى حق الكنيسة بتدبيره المكائد لاستبعاد القديس يوحنا ذهبى الفم من كرسيه ، لكن ما يمكن قوله ان « الذات البشرية » هى سر بقاءه فى القسطنطينية تاركا كرسيه من أجل الكرامة البشرية ويحتفظ بصداقته مع الامبراطورة والامبراطور ...

قال عنه جيناديوس (١٩) « كان سيفريان (سيفريانوس) Severianus اسقف كنيسة جبالة متعلما فى الكتب المقدسة ، واعظا عجيبا ، لهذا كثيرا

(17) Soc 6 : 11 , Soz. 8 : 10 .

(18) غالبا ما كانت التقدّمات توزع بالمناسبة بين الكاهن الخادم والكنيسة . (N & PNF, S . 2, v 2, p 146.)

(19) De viris illust : ch 21 .

ما كان يدعوهُ الاسقف يوحنا والامبراطور اركاديوس للوعظ بالقسطنطينية .
لقد قرأت له « تفسير الرسالة الى اهل غلاطية » ، كما قرأت له « عن العماد
وعيد الفطاس » عملا صغيرا جذابا للغاية . وقد مات في عهد ثيودوسيوس
ابنه بالمعمودية » .

يقول عنه (٢٠) Quasten انه يمثل اهمية خاصة كمفسر اتبع طريقة
مدرسة أنطكية دون أن يحيد عنها . كان مدافعا عن الايمان النيقوي ضد
الهرطقة واليهود ، لكن تنقصه الاصاله ، مملوء كراهية . كان سانجا في
فهمه للعالم ، غير علمي ، لا يتردد في تفسير حتى القصائد الشعرية الخاصة
بالعهد القديم في أكثر تعبيراتها المجازية تفسيراً حرفياً ، مستخدماً إياها كمصدر
للعلم الطبيعي .

ارتبط بصداقة قوية مع القديس يوحنا ذهبي الفم ، حتى أنه في يناير
سنة ٤٠١ م اذ اضطر القديس يوحنا للسفر الى أفسس ليوفق بين الطرفين
المتعارضين في شأن ترشيح رئيس اساقفة أفسس كما عقد بها مجمعا حرم
فيه ست اساقفة رسموا بالسيمونية (٢١) ، ترك أمر الوعظ في القسطنطينية
لصديقه سفريان المقيم بالبلاط .

في اثناء غياب الاب البطريك يوحنا ساءت العلاقات بين سفريان
والشماس صرابيون الذي أوكل له البطريك تدبير ادارة الابروشية . بلغ
الاحتداد أشده ، اذ رأى صرابيون في الاسقف انه يحاول التفوق على أسقفه
يوحنا ليأخذ شعبيته في الوعظ ، وربما حسد الاسقف سفريان صرابيون
الشماس لانه قد أوكل اليه تدبير كل شئون الابروشية ...

غلبا عاد الاب البطريك الى القسطنطينية ، اشتكى له الاسقف سفريان
صرابيون انه كان يتعمد الاساءة اليه واهانتة ، فقد رآه ولم يقف له . وفي
نفس الوقت روى صرابيون لاسقفه ما قصده سفريان في وعظه اثناء غياب .
فتألم القديس يوحنا من الاسقف سفريان ، لكنه اضطر لارضائه أن يعقد
مجمعا ينظر في شكواه ، فيه عزل المجمع صرابيون أسبوعا عن الشموسية .
اما سفريان فأصر على عزله المطلق ، الامر الذي أغضب الاب البطريك جدا
وخرج من المجمع ، وبقي الامر معلقا وظل لا يلتقى مع سفريان في أى جلسة
خاصة ، بل وطلب اليه بشدة أن يرجع الى أبروشيته ، قائلا له (٢٢) : « لا يليق
بك أن تبقى أبروشيتك التي أوثمت عليها هكذا بغير رعاية ، محرومة من

(20) Patrology . vol 3 , p 484 .

(21) N & PNF , S . 2 , v . 9 , p 12 .

(22) Ibid , vol 2 , p 146 .

استقفا مدة طويلة . اسرع اهتم بكنائسك ، ولا تهمل الوزنات التي وهبت لك » .

لنحال بدأ الاسقف سفريان يعد نفسه للرحيل ، واذا سمعت الامبراطورة أفدوكسيا استدعته من سفره ، واسرعت الى البطريرك يوحنا في كنيسة الرسل ، وحملت ابنها ، ولى العهد ثيودوسيوس الصغير ، ووضعته على ركبتيه ، واستحلفته به ان يصطلح مع سفريان . فرضخ يوحنا لطلبها واصطلح معه ظاهريا (٢٣) اتقاء شر اعظم ، لكن بلا شك لم يكن سهلا على امرأة ، هي في عينها سيدة النساء في الشرق ، لا بل والمهيمنة على شئون المملكة لضعف شخصية زوجها ، ان تقف مثل هذا الموقف في الكنيسة قدام الشعب .

ربما كان يمكن ان تعبر هذه الاحداث بسهولة ويسر ، ولا تدفع به الى طريق الالم ، وكان يمكن للملكة ان تنسى هذا الموقف ان أجلا او عاجلا لكن سر تضخيم هذه المواقف كان نزولها الى القاعدة الشعبية ، اذ يبدو أن الاسقف سفريان قد افصح بطريق او بآخر بما يسىء الى الاب البطريرك في غيابه ، لذلك اضطر ذهبى القم بعد عودته ان يتحدث مع شعبه عن ارتباطهم به :
قائلا :

« ان كان يليق بالجسد ان يبقى متحدا مع الرأس هكذا تكون الكنيسة متحدة مع استقفا ، والشعب مع حاكمه .

وكما ان الاغصان ثابتة في الاصل ، والانهار في ينابيعها ، هكذا يرتبط الاولاد بالاب والتلاميذ بالمعلم ... » .

انطلق يشكرهم بطريق غير مباشر عن ارتباطهم به وعدم التفاتهم لاية اقاويل او مكائد ... ولعل الشعب قد أدرك ما يقصد القديس يوحنا .

ربما شعر الشعب او قد بلغه ما حدث في المجمع المنعقد لمحاكمة الشماس صرابيون كطلب سفريان ، وربما خرجت الاخبار مبالغا فيها ، الامر الذي اثار نفوس الكثيرين ، حتى أدرك القديس يوحنا انه ربما يفلت الامر من بين يديه فيثور الشعب ضد سفريان ، ويجد نفسه في مأزق يسيىء اليه ، لهذا اسرع بالحديث مع شعبه عن السلام والوحدة ويهدى نفوسهم تجاه الاسقف سفريان ، فاستراحت النفوس ، وظهرت علامات القبول على ملامحهم ... فأكمل خطابه قائلا (٢٤) :

« أشكركم لموافقتكم لى على ما أقوله ... »

(23) Soc 6 : 16, Soz 8 : 81, pall . 11 .

(24) De Recipiendo Severiano . PG 52 : 423 — 426

اذ انكر اسم سفرين لا اجد من يعارض ، انتم انن تقدمون لله مقدمة سلام حقيقى !

بحبكم قبلتموه ! بأنرركم المفتوحة استقبلوه ، ولا تنكروا احزان امس .

لنصل جميعا كى يحفظ الله كنيسة فى سلام راسخ غير منقطع ! » .

وفى اليوم التالى استطاع ان يقف سفرين بين الشعب على ... المنبر يتحدث معهم لكى يستريح قلبهم تجاهه . حدثهم ببلاغته المعهودة عن السلام قائلا (٢٥) :

« اليوم ، الكنيسة فى سلام والهراطقة فى حزن ... !

حملان الرب فى امان ، والذئاب فى هياج .. !

الكنيسة تشرق ببهاء السلام ، الذى هو شهوتنا ! ...

هو ذا اليوم نرى السلام حالا ، السيد المسيح يحتضنا على صدره المملوء حبا . انه يشهد للوحدة التى تضمننا بين ذراعيها ، فتجعل فى الجسدتين روحا واحدا ...

بالامس ، نادى أبونا — المعتبر الاول — بالسلام ، فى عبارات انجيلية ، واليوم هو دورى انا !

بالامس مد يده وقابلنى بكلام سلام ، واليوم افتح انا قلبى ، افتح ذراعى ! اقدم نفسى للرب ، ذبيحة سلام ...
لقد نزع الله الخصام وثبت الوثام ...

انى احدثكم عن حيل ابليس الذى لا تجهلون طريقه . فقد رأى صلب ايمانكم قد حمل ثمار الاعمال الصالحة فاحترق غيظا ، واراد ان يبدد الاتفاق ويهدم المحبة ، وينزع السلام ! »

بهذا استراح قلب الشعب ، وبقي الاسقف فى القسطنطينية يحمل فى اعماقه حسدا وغيرة تجاه البطريرك ، الى ان حلت ساعة التجربة فكشف سفرين عن عداوته الخفية حيث قام بدور رئيسى فى مجمع السنديان عام ٤٠٣ . محاكمة الاب البطريرك ، بل ووقف امام الشعب يبرر قرار المجمع بحرمان بطريركهم (٢٦) . وهو المسئول الاول عن صدور القرار الامبراطورى بتنقل البطريرك من منفاه بكونكوزه Cucusus الى بيتس Pitys حيث تتيح فى الطريق بسبب قسوة معاملة الجنود له .

+ + +

(25) Sermo Severisni de pace , PG 52 : 425 — 428 .

(26) Soc 6 : 11 .

٦ — القديس يوحنا ومشكلة الاخوة الطوال

دخلت « مشكلة الاخوة الطوال مع البابا ثاوفيلس الاسكندري » حياة القديس يوحنا ذهبى الفم ، فدفعت به دفعا الى عداوة البابا ثاوفيلس ، استغلقتها الامبراطورة أفدوكسيا لتحقيق مآربها ، ووجد فيها الاسقف سفيان وغيره من الاساقفة المضادين للبطريرك فرصتهم للتكيل به . . . فدخل الذهبى الفم الى الاستشهاد ، وتشوه تاريخ البابا ثاوفيلس !

لذلك وجدت نفسى ملزما الا اعرض المشكلة عرضا سريعا ، خاصة وأن اغلب المصادر التى اعتمد عليها التاريخ الكنسى فى هذه المشكلة جاءت عن مؤرخين اعداء للبابا ثاوفيلس ، صبوا كل غضبهم عليه من أجل ظلمه للبطريرك القديس يوحنا .

لست بهذا اود تخفيف أخطاء البابا ثاوفيلس ، لكننى اقول مع Quasten استاذ التاريخ الكنسى القديم وعلم الآثار المسيحية بجامعة أمريكا الكاثوليكية بواشنطن (٢٧) : « على أى الاحوال ، يلزمنا بكل عدل أن نذكر أن اغلب معلوماتنا قد جاءت اليها من اعداء ثاوفيلس خاصة بالاديوس وارنوبيوس (٢٨) وثيودوريت (٢٩) والبابا ليون الكبير (٣٠) . . . أما (الابوغثيماتا باتروم Apophthegmata Patrum ، فتؤكد سمعته الطيبة التى تمتع بها فى الدوائر الرهبانية . فقد كان على علاقة ممتازة بالابوين المشهورين : هورسييس Horsiessi وآمون الذى كان يكرمه على الدوام بكونه اباها الروحى » .

فالمؤرخ بالاديوس عاصر المشكلة وسجلها لنا فى كتابه « حوار عن القديس يوحنا » والذى يعتبر من أهم المصادر الاصلية . . . لكنه كان بلا شك متحيزا ، فهو الصديق الحميم للبطريرك المقترب عليه والمستبعد فى اقاصى ارمينيا محروما من شعبه (٣١) ، كما كان طرفا فى القضية اذ اتهم فى مجمع السنديان سنة ٤٠٣ بالاوريجانية وحكم عليه بالنفى . . . وما هو يخط عمله هذا فى منفاه !

وحين سجل لنا كتابه المشهور « التاريخ اللوسياكى Laus . His » حوالى عام ٤٢٠م كان العالم ساخطا على البابا ثاوفيلس بعد نياحة البطريرك فى منفاه !

(27) Patrology , vol III , P 101 ,

29) EP . 170 .

(28) Conflictus 2 : 18 .

(30) EP 53 , 63 : 74 .

(٣١) كتب بالاديوس حواراه هذا ما بين أعوام ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،

بينما تقيح القديس يوحنا عام ٤٠٧ .

ولا ننسى أيضا شغف بالاديوس نفسه بكتابات العلامة أوريجين ، يحب من يحبها ، ويزدري بمن يزدريها . فيكتب بحب حقيقى اعجابه بالاخوة الطوال (حيث كان أحدهم آمون يحفظ قرابة ستة ملايين قولا لأوريجين وغيره من الآباء) ، وأبيهم الروحى بامبو Pambo والقديسة ميلافية (التى درست بدقة وترو ملايين السطور لأوريجين) ومار أوغريس ... وعلى العكس اذا ما ذكر القديس جيروم يتحدث عنه فى استخفاف وازدراء ، كأن يقول عنه (٣٢) :

« جيروم ما ... وقف فى طريق (بولا Paula) ... »

بجسده اعاق نموها واقنعها للعمل لحسابه واغراضه .

« كاهن ، جيروم قد سكن فى هذا الموضع ... وقد عاش معه Posidonius عدة أيام طيبة ، هذا همس فى اذننى قائلا : ان بولا Paula المعتنى بها والتى تنزع خسته فى طريقها للموت » .

لهذا! لم يتورع المؤرخ بالاديوس عن وصف البابا ثاوفيلس — عدو كتابات أوريجين والمقاوم للقديس ذهبى الفم — فى أدنى صورة ، اذ يقول عنه (٣٣) :

« كان حاد الطبع ، عنيفا ، جسورا ، ميالا الى الخصام بشدة . ما أن يحدد هدفه حتى يضرب برأسه (كالثور) مندفعاً . ليس من يقدر أن يوقفه يأخذ قراراته فى عجلة ، دون ترو ، أو وزن للامور ، وبطريقة قاطعة . يضرب أعداءه بشدة ليفرض ارادته » .

مرة أخرى يصف نظراته الغاضبة نحو رهباته الثائرين عليه فيقول (٣٤) :

« كان ينظر اليهم بعينين محمرتين كالدم ، كالحيّة يلتفت من الجنب ، ومن اسفل كالثور ! » .

أينما تحدث عنه ينعته بأبشع الصور فيقول عنه أنه كلب مسعور (٣٥) .

« فرعون ، مصابا بداء القسوة ، يحطم نفسه ببناء قصور شاهقة فى الخيال (٣٦) » .

اتهمه بحب المال ، يحصل عليه بكل وسيلة ووسيلة ، يأخذ من أموال الفقراء ، ويتقرب من الشريكات ليحصل منهن على ما يرغبه بطرق دنيئة (٣٧) ...

(32) Laus . His 41 : 2 , 36 : 6 .

(33) Dialogue PG 47 : 30 .

(34) Ibid 47 : 23 .

(35) Ibid 47 : 22 .

(36) Ibid 47 : 22 , 46 — 47 .

(37) Ibid 46 — 47 , 57 .

الحق يقال ان البابا ثاوفيلس قد خسر سمعته بعداوته للقديس يوحنا
ذهبي الفم وظلمه اياه . . . فجاء تاريخه يحمل مبالغات كثيرة في ذمه ، بينما
تجاهل كثيرون — خاصة بالاديوس — أعماله العظيمة في مقاومة الوثنية
واهتمامه برعاية شعبه واهتمامه الزائد ببناء الكنائس وترفقته وطول اناته
مع الاوريجانيين (قبل مجمع السنديان) ، وموقفه المشرف في اعادة الشركة
بين انطاكية ومصر ، وانطاكية وروما ، وخطاباته المهدئة للقديس جيروم في
موقفه ضد الاوريجانيين (قبل تفاقم مشكلة الاخوة الطوال) ، كما تجاهل
المؤرخون الكشف عن الظروف المحيطة به في تصرفاته . . . فالامر يحتاج الى
دراسات جديدة غير متحيزة للتعرف على شخصيته كما يليق وفي غير تحيز ،
ودون الانفعال الحاد بخطئه الجسيم ضد القديس يوحنا ذهبي الفم وبعض
رهبان نتريا .

لسنا ندرس الآن شخصية البابا ثاوفيلس ، انما نكتفي بدراسة مشكلة
الاخوة الطوال معه ، وموقفه من القديس يوحنا ذهبي الفم .

+ + +

مشكلة الأخوة الطوال

الكتابات الاوريجانية في القرن الرابع

احتلت الكتابات الاوريجانية مركزا هاما في فكر آباء القرن الرابع وكتاباتهم . فقد وجد البابا اثناسيوس الرسولي فيها براهين تسنده في قانون الايمان النيقوي ، كما شغف بها كبار آباء الكبادوك مثل القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي . اما في الغرب فقد استوحى القديسان هيلاري اسقف بواتييه وامبروسيوس اسقف ميلان منها افكارها وتأملاتها . اما القديس جيروم والاب يوحنا الانطاكي فقد اخذا عنها منهج اوريجين التفسيري .

لقد انشغل آباء الكنيسة في نهاية القرن الرابع بكتابات اوريجين ، يأخذون افكاره ويستبعدون اخطائه ، مشيرين اليها دون ان يقلل ذلك من اهتمامهم بها (١) .

وفي حوالى عام ٣٧٣م بدا القديس ابيفانيوس (٣١٥ - ٤٠٣) اسقف سلاميسى بقبرص عمله العظيم « خزانة العلاج لشفاء كل الهرطقات » .

لقد كانت الهرطقات تهز نفسه بشدة ، يشعر في نفسه بالالتزام ان يرد على كل هرطقة حديثة وقديمة . واذ هو ناسك صارم احس كان العلامة اوريجين قد افسد نقاوة الايمان الحقيقى البسيط بسم الثقافة الوثنية . لقد اعتبر كتاباته هرطوقية دان فيها أولا وقبل كل شئ ميله لتفسيره العبارات الحرفية الواضحة برمزية روحية ، خاصة روحنة تعليم القيامة .

لم يقصد القديس ابيفانيوس ادانة اوريجين الراقد ، بل « مجموعة رهبان مصر » الذين شغفوا بالفكر الاوريجانى (٢) . لكن لم يهتم احد بذلك ، حتى جاء عام ٣٩٤ فيه قامت مناضلة بين يوحنا اسقف اورشليم ومعه روفينوس كاهن اكويلية ، وكان الاثنان معجبين بالعلامة اوريجين ، وبين جيروم الذى

(1) R . Moulard : Saint Jean Chrysostome , p 317 .

(2) H . Chadwick : The Early Church , ch . 13 .

اعتبر أوريجين هرطوقيا يؤينه في ذلك أبيفانيوس أسقف سلاميس ...

لا أريد الدخول في تاريخ الخلافات بين الاوريجانيين وأضدادهم ، انما ما أريده تأكيد أن العالم الكنسي كان مشدودا تجاه هذه المشكلة ... أما مركز عنقها فكانت « برية مصر » ، بسببها تصارع الرهبان ، بل سقطوا في تصرفات عنيفة غير لائقة ... ثار البعض ضد البابا ، وحاول البعض قتله ، واندفع البابا في تصرفاته مع رهبان طوباويين ، وأخطأ في حق بطريرك القسطنطينية ... وكنت النتائج مرة للغاية !

الأوريجانية والرهبانية

أثارت الكتابات الأوريجانية ثورة فكرية في الحياة الرهبانية ، وجدت لها عشاقا بين الرهبان كما أثارت عداوة مرة في قلوب آخرين . فالرهبة في بدء قيامها تأسست على الممارسة العملية للحياة الفاضلة ، أي دخول إلى « حلية الصراع في البرية ضد قوات الظلمة من أجل تنفيذ الوصية الانجيلية » . هذا ما أعلنه القديس أثناسيوس الرسولي في كتابه عن القديس أنبا أنطونيوس ، الذي لا نشتم فيه أي اتجاه تأملى عقلى ... لكن « الأوريجانية » تسالت إلى بعض الرهبان والنسك ليجد البعض لذتهم بل غايتهم في الانطلاق في تأملات الهية عميقة (٣) ...

نستطيع أن نقول أن « الكتابات الأوريجانية » هي سر التحول الرهباني من نسكيات مجاهدة لأجل الفضيلة إلى نسكيات مجاهدة من أجل التأمل أو التأوريا ...

غنى حوالى عام ٣٧٠م تكونت جماعة أوريجانية في منطقة نتريا ، تحت قيادة « الأخوة الطوال (٤) » : الأب أمونيوس وأخوته الثلاث . هؤلاء الأخوة اتسموا بالروحانية والنسك ، قاموا بنضال ضد الأريوسية بعد نياحة البابا أثناسيوس الرسولي ، وكانوا على علاقة طيبة بالبابا تيموثاوس الاسكندري ، وحتى عام ٤٠٠م مع البابا ثاوفيلس الـ ٢٣ . فقد أحبهم وأكرمهم كرامة زائدة ، فرسم ديسقورس أسقفا على هرموبوليس ، وأراد أن يرسم آخر منهم فاعتذر بعدم استحقاقه لهزم الكرامة السامية ، فرسم منهم كاهنين يساعدانه في الخدمة

(3) Lossky : Thé Vision of God , ch 6 .

(٤) دعوا كذلك من أجل طول قامتهم Soc 6 : 7 . أما أسماؤهم فهي : ديسقورس أسقف هرموبوليس ، ويونانيوس ، وأفثيموس ، وآمونيوس (آمون) الذي دعى باروتيس أي صاحب الأذن الواحدة . وذلك أنه طلب للاستشفية فبتر أذنه اليسرى للهروب منها ، واذ قبل البابا تيموثاوس رسامته من أجل عظم فضيلته هدهد بقطع لسانه ، فاضطروا إلى تركه .
Laus . His 11 , Soc . 4 : 23 , Soz 6 : 30 .

تعلق البابا بهم وأراد أن يستبقيهم معه في الاسكندرية ، أما هم فأحسوا
بضرورة العودة الى البرية، يمارسون نسكهم وعبادتهم الرهبانية كما يليق...
وعندما جاء مار أوغريس (أفجاريوس St. Evgarius) الى مصر
استرشد بالاب أمونيوس ، وجاءت كتاباته تفصح عن فكر الجماعة .

تحفز كثير من الرهبان ضد كتابات العلامة أوريجين من حيث أنها تدخل
بالفلسفة الى الرهبنة فتفقدوها ببساطتها ، تشغل فكر الناسك بتأملات قد تدفعه
الى الانشغال بها عن جهاده النسكى ... لكن ما هو خطر بحق أن رد الفعل
ضد الفكر الاوريجانى كان قويا في منطقة الاسقيط ، حيث رفض بعض البسطاء
التفسير الرمزي رفضا قاطعا ، حتى فسروا العهد القديم تفسيراً حرفياً ،
فتصوروا لله وجها وعينان وأيدي وأعضاء جسدية كما جاء في بعض عبارات
العهد القديم لتوضيح أفكار معينة بلغة يفهمها البشر ... كقول الكتاب (٥) :

« اسجدوا عند موطىء قدميه » ،

« عيناى على أمناء الارض . . المتكلم بالكذب لا يثبت امام عيني » ،

« شريعة فمك خير لى من ألوف ذهب وفضة » ،

« يداك صنعتانى وأنشأتانى » ،

« أضىء بوجهك على عبدك وعلمنى غرائضك » ...

هكذا سقطوا في بدعة «تصور شكل الله الانسانى Anthropomorphism» ،
وقد جروا وراءهم كثيرين... وحدث نزاع بين الاوريجانيين والانتروبومورفيت
حول السؤال : هل لله أعضاء جسدية ؟

وفي عام ٣٩٩ جاءت الرسالة الفصحية التى يحدد فيها البابا موعد عيد
القيامة تلمح بطريق غير مباشر أنه لا يليق بنا أن نفكر في الله بطريقة جسمانية
مادية ، اذ هو غريب عن الشكل البشرى . وقد روى لنا القديس يوحنا
كاسيان في كتابه « المناظرات (٦) » اثر هذه الرسالة على جماعات الرهبان ،
فقد رفضت المجامع قراءتها (٧) ، ماعدا القس بفتوتيس الذى كان ابا لمنطقة
شيهيت العليا ، فقد تلاها في مجمعه .

للاسف تزعم الناسك البسيط صرابيون حركة مقاومة هذه الرسالة
الفصحية ، وقد انضم اليه حشود من الرهبان بسبب بساطته ونسكه .

(٥) مز ٩٩ : ٥ ، ١٠١ : ٦ ، ٧ ، مز ١١٩ : ٧٣ .

(٦) مناظرة ١٠ ، فصول ١ - ٦ . (٧) فصل ٢ .

ومما يحزن قلب الانسان ، ان جماعات الرهبان التي خرجت الى البرية تتفرغ للصلاة والجهاد من اجل محبة الله والناس ، قد اخفقتهم الغيرة والحماس فتركوا الاسقيط وخرجوا حشدا غفيرا الى الاسكندرية ، حيث احاطوا بالبطريركية يصيحون ويتوعدون مهددين بقتل الكافر ثاوفيلس ! هذا ما سجله لنا المؤرخون القدامى (٨) ...

ربما لا اكون مبالغا ان قلت ان كثيرين منهم — في بساطة — خرجوا وراء قلة يثقون فيهم ثقة عمياء ، خرجوا وهم لا يعلمون ماذا جاء في الرسالة الفصحية ، او ربما شرحتها لهم القادة بطريقة مثيرة ... لكن هذا لا يبرر موقفهم الثوري الذي لا يحمل ترويا ولا روحانية !

اما البابا ثاوفيلس الذي عشق الجلوس مع الابرار الرهبان (٩) كلما ضاقت نفسه نزل البرية ينعم ببركة الوجود بين رهبان قديسين بل وكثيرا ما كان يستشيرهم وينتفع بهم ، فقد أدرك خطورة الموقف . فان كثيرين منهم بسطاء وعباد وروحانيين ، لكنهم يسهل قيادتهم بل يبذلون كل حياتهم من اجل طاعة مرشديهم الروحانيين ، ملوثين غيرة وحبا لله ... رأى ان الوقت ليس وقتا للجدال والنقاش بل اراد كسب صداقتهم حتى يعالج الامر بهدوء وسكينة .

بحكمة التقى بهم قائلا بلطف « اذ اراكم انظر وجه الله » . لم يتحدث في خبث لكن بحكمة ، فانه يرى الله في داخلهم كأولاد لله . اما هم فحسبوه يؤمن بوجود « وجه لله » جسماني ، فسروا قوله تفسيراً حرفياً كعادتهم . وفعلا خفت حدة غضبهم ، وأجابوه : « ان كنت تقول حقا بوجود ملامح لله مثلنا فاحرم كتب « أوريجين » ، فقد استخرج البعض منها أدلة تخالف قولنا . وان لم تفعل ذلك فتوقع منا معاملتك ككافر عدو لله » .

اجابهم ثاوفيلس « انى مهتم بهذا الامر ، ومستعد ان اجيب طلباتكم لا تغضبوا على . فانى لست موافقا على أعمال أوريجين ، وألوم من يقتنيها »

عاد الرهبان الى اديرتهم ، وكاد الموقف ان ينتهى عند هذا الحد كقول المؤرخ سقراط لولا ثورة الاربعة الاخوة الطوال . فقد رأوا في تصرف البابا جبنا واستهتارا بالعقيدة ومجاملة على حساب الحق ...

(8) Soc 6 : 7 , Soz . 8 : 11 .

(٩) يشهد بذلك كتاب بستان الرهبان ... فربما كان أكثر الابرار البطارقة حبا للتردد على الدير للاستجمام الروحي ونوال بركة النساك وطلب صلواتهم والاسترشاد بهم .

أما ما أشعل نيران المعركة بين الباب والاخوة الطوال ، الخلاف الذى حدث بينه وبين القس اسيدورس (اسيدور) .

بين اسيدورس والبابا ثاوفيلس (١٠)

بعد أن قام بتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء ، انطلق اسيدورس الى البرية يتنسك فى منطقة نتريا ، وقد حباه الله وجهها بشوشا وطبيعة سمحة ولسانا عذبا ، يحبه كل من يلتقى به .

أحبه البابا اثناسيوس الرسولى فرسمه كاهنا ، وأخذه معه فى سفره الى روما ، وقد قضى أغلب حياته كمسئول عن المستشفى بالاسكندرية . كان عجيبا فى نسكه ، يقتنع بالقليل من الماء والخبز .

هو أول من التقى بهم بالاديوس فى زيارته الاسكندرية ، أول ناسك مصرى يتعرف عليه ، فأحبه جدا وكتب يمتدحه كثيرا .

كان وجهه مضيئا ، حتى كل من يراه يتعجب ! أحبه البابا ثاوفيلس جدا ، وكانت بينهما صداقة قوية ، حتى رشحه للبطريركية على القسطنطينية عوض القديس يوحنا الذهبى الفم . لكن هذه الصداقة انقلبت الى عداوة سافرة ، اذ عاد الى منطقة نتريا يلتصق بالاخوة الطوال ، وكانوا يمثلون عنصرا أوريجانيا مضادا للبابا ثاوفيلس ، الذى — فى نظرهم — قد مالا الانثروبوموغليت الاسقيطيين . . وهو فى نظره اعتبر هذا التجمع تحديا له ومن هنا بدأت العداوة العلنية بين الاوريجانيين والبابا ثاوفيلس .

أما سر خروجه الى البرية فقد تضاربت فيه الأقوال غير أن المؤرخ سوزومين يرجح القصة التالية (١١) : قيل أن أرملة قدمت للقس اسيدورس ذهبيا ليشتري به ملابس للفقراء واشترطت ألا يخبر البابا ثاوفيلس بالامر حتى لا يبني به كنائس . لكن الخبر لم يخف عن البابا فتألم جدا واستدعاه يستجويه . أجابه القس فى صراحة « الاهتمام بأجساد المتألمين الذين هم بحق هياكل الله أفضل من بناء حوائط ، وأن المبلغ قد دفع لهذا الغرض » . ومن

(١٠) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ، بند ٤٦١ .

Palladius : Dialogue 6 , Laus . His . ch 1 .

Soc . 6 : 9 , Soz . 8 : 2 , Theod 4 : 21 .

Budge : paradise of the holy Fathers 1 : 89 — 91 .

Moulard : St . Jean Chrysostome , ch 16 .

Butler's Lives of the Saints , vol 1 , Jan . 15 .

(11) Soz . 8 : 12 ,

هنا كانت بداية الاحتكاكات التي انتهت بقطع الكاهن ، فهرب الى البرية يعيش حياة الوحدة والتأمل واستقبله الرهبان استقبالا حافلا اثار غضب البابا .

هذه العداوة بين البابا والاوريجانيين — ان صح التعبير — وجدت نعمة في عين الانثروبوموفليت ، الذين دخلوا مع الاوريجانيين في مناظرة انتهت بانقسام البرية الى جبهتين استخدمت فيها الالفاظ الجارحة ، بل استخدموا أعمال العنف (١٢) .

روى لنا المؤرخ سوزومين ان الاب آمون اخذ معه بعض الرهبان والتقوا بالبابا يتوسلون اليه ان يعيد اسيدورس الى الشركة ، فوعدهم بذلك . واذ انتظروا لم يفعل شيئا فاعادوا الكرة ولم يفعل شيئا . اخيرا ادركوا انه يماطلهم فذهبوا اليه وضغطوا عليه لعله يحقق ما وعدهم به وللأسف عوض ان يعيد الاب اسيدورس الى الشركة القى القبض على احدهم واودعه الحبس اما هم فذهبوا الى الحبس وتظاهروا بالرغبة في مقابلة اخيهم يقدمون له احتياجاته . واذ دخلوا الحبس اعتصموا هناك ورفضوا الخروج منه . ارسل اليهم البابا يدعوهم للتفاهم معه فابوا ، قائلين انه اساء اليهم علنا بحبس اخيهم الراهب ، فلا يخرجون سرا ، ان اراد غليات البابا بنفسه ويخرجهم من الحبس . لكنهم اخيرا رضخوا وخرجوا فاعتذر لهم عما حدث . .

هذا الحادث اثار نفس البابا ونفوسهم ، فتأزم الامر ، وجاءت الرسالة الفصحية لعام ٤٠٠م تهاجم الاوريجانية ، الامر الذي اثار هذه الجماعة ، خاصة انه يدعوها « هرطقة » او بدعة ، بينما في نظرهم (اوريجين) هو معلم المسكونة . . .

من هنا بدأت التحديات العنيفة ، وقد تحولت الاسكندرية ومنطقة نتريا الى صراعات واحداث مشينة لم يسجل المؤرخون تفاصيلها . . . ولذا فسنذكر أهم أحداث تلك الفترة :

١ — عقد مجمع بالاسكندرية حرم فيه آمون واخواه الراهبان وريما بعض الاخوة المحيطين بهم .

٢ — اعتصم الابهاء في كنيسة الدير بنتريا ، ومنعوا دخول أحد من الاساقفة وأوقفت العبادة الجماعية .

٣ — زار البابا ثاوفيلس المنطقة ، واستغل البعض ذلك فحاولوا الهجوم على الاخوة الطوال . . . مما اضطرهم الى الهروب والاختفاء في مقبرة ، واذ لم يجدوهم احرقوا قلايهم وأمتعتهم (١٣) .

(12) Moulard , Saint Jean Chrysostome , ch 16 .

(13) Moulard , ch 16 .

٤ - استخدم البابا سلطانه الكنسى فى الحرمان ، كما استخدم الشدة
ملجأ الى وسيلة النفى ...

وهكذا فقدت الكنيسة جمالها الروحى ، وتحولت البرية المقدسة الى
صراعات وتحزبات ...

الاخوة الطوال فى فلسطين

هرب الاربعة الاخوة الطوال وفى صحبتهم الاب اسينورس ومعهم
جماعة من الرهبان يقدرهم سوزومين بثمانين راهبا (١٤) وجاءوا الى اورشليم
لعلهم يجدون لهم ملجأ فى قلب الاسقف يوحنا الاورشليمى المعروف باعجابه
بأوريغانوس .

ترددت الاشاعات فى الاسكندرية أن الالباء الرهبان هربوا متوجهين الى
القسطنطينية يعرضون قضيتهم ضد البابا ثاوفيلس .

أسرع البابا غارسل خطابا مجمعا بعث به الى ١٧ أسقفا لفلسطين (١٥)
و ١٥ أسقفا لقبرص (١٦) ، جاء فيه (١٧) :

« الى السادة المحبوبين جدا ، الاخوة والاساقفة الشركاء ...

ثاوفيلس يبعث تحيات فى الرب .

لقد زرنا اديرة نتريا بأنفسنا ووجدنا هرطقة « الاوريجاتية » قد سببت
دمارا عظيما بينهم . لقد صاحبها تعصب غريب : بتر اناس أعضاءهم (١٨)
وقطع البعض السنتهم لكي يظهروا احتقارهم للجسد . لقد وجدت بعضهم
انطلق من مصر الى سوريا والى مدن اخرى ، حيث تكلموا ضدنا وضد الحق .

(14) Soz. 8 : 13 .

(15) Eulogius, John, Zebianus, Auxentius, Dionysius, Gennadius,
Zeno, Theodosius, Dictorius, Prophyry, Saturninus, Alan, Paul,
Ammonius, Hilanus, Eusebius, the other Paul and to all the
Catholic bishops gathered together at the dedication festival of
Aelid .

(16) Epiphanius, Marcianus, Agrapetus, Boethius, Helpidius,
Entasius, Norbanus, Meccedonius, Aristo, Zeno, Asiaticus,
Heraclidus, the other Zeno, Cyriacus and Aphroditus .

(١٧) قام القديس جيروم بترجمته الى اللاتينية (رسالة رقم ١٢) .

(١٨) الاب آمون بتر أذنه اليسرى .

لقد قرأت كتابات أوريجين أمام مجمع من الاساقفة ، فأجمع الكل بحرمانه . ان أهم أخطائه التي وجد أغلبها في كتاب ... هي :

- ١ — اذا قورن الابن بنا يكون « الحق » أما بالنسبة للآب فهو بطلان .
- ٢ — سينتهى ملكوت الله يوما ما .
- ٣ — يلزمنا الصلاة للآب وحده دون الابن .
- ٤ — ستكون اجسادنا بعد القيامة قابلة للفساد والموت .
- ٥ — ليس احد كاملا في السموات ، فان الملائكة انفسهم مخطئون ، وبعضهم يفتدى على الذبائح اليهودية .
- ٦ — تشعر الكواكب بحركاتها ، وتعرف الشياطين من دورانها المستقبل
- ٧ — السحر ، ان كان حقيقيا ، فهو ليس شرا .
- ٨ — تألم المسيح مرة من أجل الناس ، وسيتألم مرة أخرى من أجل الشياطين .

هذا ويحاول الأوريجانيون أن يقهروني للخضوع لهم ، فقد وشوا بي لدى الوثنيين في أمر خراب معبد السيرايوم (١٩) ، كما سنعوا في اخراج شخصين — متهمين بجرائم خطيرة — من القضاء الكنسي . أحدهما هو الامراة التي قيدها اسينورس خطأ في قوائم الارامل والآخر هو اسينورس نفسه ، قائد الحركة الهرطوقية ، الذي بثروته يمدهم بفيض لتنفيذ مشروعاتهم العنيفة لقد حاولوا قتلى ،

لقد اغتصبوا كنيسة الدير بنتريا ، ولفترة ما منعوا الاساقفة الدخول فيها وممارسة العبادة فيها .

انهم الآن مثل بعليزبول ، يجوبون الارض هنا وهناك .

انى لم أضربهم في شيء ، بل أنا حافظت عليهم .

انى لا أريد الصداقة (مع اسينورس) التي تفسد ايماننا ونظامنا .

أرجوكم ان تصدوهم اينما حلوا ، وتمنعوهم عن ان يلقوا الاخوة الذين

تحت رعايتكم .

(١٩) راجع موضوع حرق معبد السيرايوم في كتاب :

ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ .

اثر رسالة ثاوفيلس في فلسطين

اجتمع اساقفة فلسطين ويعثوا رسالة الى البابا ثاوفيلس وقام جيروم بترجمتها لللاتينية (٢٠) جاء فيها :

« لقد نفطنا كل ما نرغبه ، لكن فلسطين في غالبيتها لا تحمل وصمة الهرطقة . »

اننا نرغب لا في قمع الاوريجانيين وحدهم ، بل وايضا اليهود والسامريين والوثنيين .

لا وجود للاوريجانية بيننا ، فاننا لم نسمع هنا قط عن التعاليم التي تصفها لنا .

اننا نحرم المتمسكين بمثل هذه التعاليم ، كما نحرم تعاليم ابوليناريوس ، ولا نقبل قط احدا ممن تحرمهم انت .

كما بعث الاب ديوناسيوس اسقف اللد برسالة الى البابا ، يمدحه فيها على انتصاراته الواضحة على الاوريجانية ، ويحثه على الاستمرار في الجهاد ضد الهرطقة . وقد قام جيروم ايضا بترجمتها الى اللاتينية (٢١) .

اما القديس جيروم فقد اعجب بموقف البابا ثاوفيلس الحازم ضد الاوريجانية ، فانه منذ حوالي ست اعوام كان الصراع قد بلغ أشده ضد روفينوس ويوحنا اسقف اورشليم ، حتى اضطر الاخير ان يلتجئ الى البابا ثاوفيلس ، الذي بدوره ارسل القس اسيزورس (المحب لكتابات اوريجين) فسجل تقريره للبابا في غير صالح جيروم (وابيفانيوس) .

اخذ جيروم يكتب الى ثاوفيلس عدة رسائل يعاتبه فيها على تهاونه مع الاوريجانيين ويحذره من خطورة التراخي معهم ، لكن البابا لم يجب عليه ، واخيرا اجابه عام ٣٩٧ برسالة يهديء فيها قلب جيروم ، فكتب اليه جيروم يقول له (٢٢) :

« جيروم الى البابا الكلى الطوبى ثاوفيلس . »

تذكر قداستكم انه في الوقت الذي فيه صمت عن الكتابة لي ، انا لم اكف عن القيام بواجبي بالكتابة اليكم . . .

ان كانت لاجابة المرأة قد غيرت عزيمة القاضي الظالم ، كم بالاكتر التجائي المستمر اليكم يلين قلبا ابويا مثلكم ؟ . . .

(20) Jerome : EP . 93 .

(21) Ibid . Ep : 94 .

(22) Jerome, Ep . 63 .

أبرار كثيرون لا يسرون من طول أناتك بخصوص هذه الهرطقة المفزعة،
اذ تحسب نفسك قادرا بليتك أن تصلح هؤلاء الذين يهاجمون أعضاء المسيح
الحية . انهم يؤمنون أنه في انتظارك توبة هذه القلة من الناس ، تسند جسارته
أناس مهجورين وتعطى جماعتهم قوة .

وداعا في المسيح » .

هذه الرسالة التي كتبت حوالى عام ٣٩٧ قبل قيام مشكلة الاخوة
الطوال بحوالى ثلاث سنوات تكشف لنا عن موقف البابا ثاوغيلس الخفى .
يقول Moulard أنه كان شغوفنا بكتب أوريجانوس ، هذا أمر لا يشك فيه ،
لكنه كبقية الآباء يعرف أخطاءه ولا يقبلها (٢٣) . . . كان يدرك بعض الأخطاء
التي تسلت بين عشاق كتابات أوريجانوس، لكنه يؤمن أن كتاباته تحمل روحا
وفكرا ، يمكن للقارئ أن يتجاهل ما ورد بها من بعض أخطاء عارضة . . .
كان يؤمن بطول الأناة في معالجة الخطأ . لقد عاد بعد عامين يكتب لجيروم
(سنة ٣٩٩) مطالباً إياه بالتصالح مع الاب يوحنا أسقف اورشليم
(الاوريجانى) ، فأجابه برسالة طويلة يظهر فيها شوقه للسلام وموضحا
مضايقات الاوريجانيين له (٢٤) .

على أى الحالات ، اذ سمع بأخبار « منطقة نتريا » ومضايقات البابا
للاوريجانيين أرسل إليه يهنئه على نجاحه في جهاده ضد الاوريجانية ، محدثا
إياه عن الأعمال الصالحة التي قام بها رسوله بريسكوس Priscus وآيبيلوس
Eubulus . لقد طلب الصفح عن يوحنا أسقف اورشليم الذي قبل جماعة
الاوريجانيين المحرومين دون أن يعرف قضيتهم وعن غير قصد (٢٥) . .

« جيروم ، الى البابا الطوباوى ثاوغيلس .

تسلمت عن قريب رسائل من طوباويتك . . .

وانى اكتب اليك سطورا قليلة لاهنئك على نجاحك .

العالم كله بمجدك في انتصاراتك .

جموع من كل الامم تتطلع متهلة الى الصليب الذى رفعته في
الاسكندرية عاليا ، والى النصب التذكارية المشرقة فوق الهرطقة .

لتحل البركات على شجاعتك !

لتحل البركات على غيرتك !

لقد كشفت أن صمتك الطويل لم يكن انحرافا بل حكمة . فأننى أحدث

(23) Moulard, ch 16 .

(24) Jerome, p . 82 .

(25) EP 86 .

غبطتكم في صراحة تامة ، ان صبرك الطويل قد عذبنى ، ولم اكن أعرف خطة القائد ، فقد كنت اتوق الى هلاك هؤلاء المهجورين . لكننى كما أرى الآن ، لقد رفعت يدك عن الضرب لكى تضرب بأكثر عنف .

أما من جهة الترحيب الذى قدمه لهم البعض ، فليس لك ان تغضب على أسقف المدينة ، اذ لم تعط أى تعليمات عن هذا الامر فى خطابك ، فاته كان يحسب متهورا ان يأخذ قرارا فى قضية لا يعرف عنها شيئا .
انى اظن انه لا يود ان يضايقك فى شيء ، ولا يجرؤ على ذلك .

فرح البابا ثاوفيلس برسالة القديس جيروم ، فعاد يبشره بأخبار الكنيسة ، التى أرسلها مع الاسقف أغاثو والشماس اثناسيوس ، يعلن له طرد الاوريجانيين من أديرة نتريا، ويشجعه على اظهار غيرته على الايمان (٢٦) « هلم من جانبك اشترك فى هذه المكافأة بمقالاتك الكتابية (الانجيلية) ، مسرعا الى رد المخدوعين .

شوقنا هو ان نحفظ فى أيامنا هذه — ما استطعنا — ايمان الكنيسة الجامعة ، واحكامها بل ونحفظ الشعب الذى تحت رعايتنا ، ونبذل كل تعليم غريب ! » .

لقد افتخر انه حصد الاوريجانيين بمنجل النبى (٢٧) ، فأرسل اليه جيروم يقول :
« جيروم ، الى الكلى الطوبى البابا ثاوفيلس .

لقد أفرحتنى رسالتك فرحا مزدوجا ، فمن جهة فرحت بحاملها المكرمين والمعتبرين الاسقف أغاثو والشماس اثناسيوس ، ومن جهة أخرى انها تظهر غيرتك على الايمان ضد أثر هرطقة .

صوت قداسكم يدوى فى العالم ، وفرح كل كنائس المسيح قد أبكم ايعازات الشيطان المسمومة .

لم تعد الحية القديمة تنفث ، بل قطعت اربا ، واختبأت فى خباياها المظلمة ، غير قادرة على احتمال اشراقات الشمس !

(26) Jerome : Ep . 87 .

(٢٧) يوثيل ٣ : ١٣ .

لقد قمت ببعث رسائل الى الغرب فعلا قبل أن أخط لك هذه الرسالة ،
واشرت فيها لابناء لغتي (اللاتينية) بعض مراوغات الهرطقة .

لقد حسبتها عناية من الله أن تكتب الى البابا انسطاسيوس (٢٨) في
نفس الوقت الذي كتبت فيه الى ، فانه مع عدم معرفتي بذلك ، تصير
رسالتك هذه شهادة لي .

الآن اذ طلبت مني أن افعل ذلك (اكتب مقالات ضدهم) فاني سأكون
أكثر غيرة من الآخرين حتى أرد النفوس البسيطة ، القريبة والبعيدة . ان
احتاج الامر فاني لا أتردد حتى ان صبوا غضبهم على ، فانه ينبغي أن أسر
الله لا الناس (٢٩) ، وان كان بالحقيقة لهم الكثير يدافعون به عن هرطقتهم
أكثر مما لي ولغيري في الهجوم عليهم .

أيضا أرجوك أن ترسل لي قوانين المجمع الخاص بهذا الموضوع ان
كانت لديك ، حتى أستند بسلطان أسقف عظيم مثلك ، فاتحا فمي للمسيح
بأكثر قوة وثقة !

منذ يومين وصل الكاهن Vincent من روما ، وهو في اتضاع يسلم
عليك . لقد أخبرني مرة أخرى أن روما بل غالبا ايطاليا كلها قد أنقذتها—
رسالتك بعد المسيح .

لهذا فلتجاهد أيها البابا المحبوب جدا ، الكلي الطوبى ، واذا ما أتاحت
لك فرصة اكتب الى أساقفة الغرب بغير تردد لكي تقطع بمنجل حاد كل زوان
الشر .

هذه صورة للمكاتبات التي كانت بين البابا وجيروم . تكشف لنا عن
ظروف دفعت البابا بالاكتر نحو هجوم الاوريجانيين ، فقد ظهر البابا كبطل
يدافع ضد هرطقة يدعوها جيروم أشر هرطقة ، الحية القديمة ، زوان الشر!
وقد بقيت هذه الصداقة بينهما ترويهما كراهيتهما للاوريجانية، فحتى بعد صلح
البابا مع الاوريجانيين سنة ٤٠٣ بالقسطنطينية بقيت رسائله الفصحية تندد
بالاوريجانية ويقوم جيروم بترجمتها باللاتينية ونشرها في الغرب (٣٠) !

(٢٨) أسقف روما ٣٩٨ — ٤٠٢ . (٢٩) أع ٥ : ٢٩ .
(٣٠) راجع رسائل جيروم : رسالة ٩٨ (الرسالة الفصحية لعام ٤٠٢
تعالج الاوريجانية والابولينارية) ، رسالة ١٠٠ (الرسالة الفصحية لعام ٤٠٤
تذم أخطاء اوريجين) ، رسالة ١٠٩ (يعتذر لتأخيره في ترجمة الرسالة
الفصحية لعام ٤٠٥) يرسل الترجمة التي قام بها رغم شدة مرضه ووجود
اضطرابات من هجوم الاثوريين) .

أثر رسالة ثاوفيلس في قبرص

أرسل البابا ثاوفيلس الى القديس ابيفانيوس رسالة خاصة يحثه فيها على عقد مجمع بقبرص لادانة الاوريجانية ويرسل قراراته مع نسخة من رسالة ثاوفيلس الجمعية الى القسطنطينية ، حيث كان الاوريجانيون قد انطلقوا من اورشليم الى القسطنطينية يعرضون قضيتهم على القديس يوحنا ذهبي الفم

وقد قام القديس جيروم بترجمة هذه الرسالة الى اللاتينية ، جاء فيها (٣١) :

« ثاوفيلس ، الى السيد المحبوب جدا ، الاخ ، والاسقف الشريك ابيفانيوس .

قال الرب لنبيه (٣٢) « انظر . قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم . . . وتبنى وتغرس » .

في كل عصر يمنح الله كنيسة ذات النعمة ، لكي يحفظ جسده (٣٣) كاملا ، لا يقوى عليه سم الافكار الهرطوقية في اى موضع .

والآن ها نحن ايضا نجد الكلمات تتحقق ، لان كنيسة المسيح التي « لا دنس فيها ولا غضن او شيء من مثل ذلك (٣٤) » ، تقطع بسيف الانجيل الحيات الاوريجانية الزاحفة من جحورها ، وتنقذ جوقات رهبان نثرنا المثيرين من وبائهم المميت .

لقد بعث اليك صورة مختصرة لتصرفاتي معهم في الرسالة العامة (٣٥) التي وجهتها للجميع بغير تمييز .

ولما كنتم غبطتكم دائمي النضال في صراعات مثل التي امامي فان واجبكم يحتم عليكم اليوم ان تسندوا الایدى العاملة في هذا الحقل ، فتجمعون أساقفة جزيرتكم (٣٦) . جميعهم لهذا الهدف . كما يليق بكم ان تبعثوا رسالة جمعية الى الاسقف القسطنطينية وللأساقفة الآخرين الذين ترون ان ترسل لهم ، لكيما يدان اوريجين نفسه والهرطقة الشائنة التي اوجدها ، وذلك بنضال جامعي .

لقد رغا الى علمنا ان جماعة من المفترين ضد الايمان الحق ، يدعون

(31) Jerome : EP. 90 .

(٣٢) ار ١ : ١٠ . (٣٣) اف ١ : ٢٣ . (٣٤) اف ٥ : ٢٧

(٣٥) راجع جيروم : رسالة رقم ٩٢ . (٣٦) قبرص .

امونيوس ويوسابيوس وأفثيموس (٣٧) ملوئين حماسا زائدا لحساب الهرطقة قد ابحروا الى القسطنطينية لكي يلقوا بشباك خداعاتهم الى جماعة من المهتدين حديثا ما استطاعوا ، وأن يتداولوا من جديد مع أصحاب قدامى في شرهم .

أحرصوا على وضع الامور بين يدي الاساقفة في Isar وبمفيلية والابروشيات المجاورة .

علاوة على هذا ، تستطيع ان تضم رسالتى (الى قرار مجمعكم) ، ان رأيت ذلك ، فتجمع الكل معا بروح واحد ، وبقوة ربنا يسوع المسيح تسلم هؤلاء للشيطان لهلاك الشر الذى ملك عليهم (٣٨) .

ولكى تتأكد من سرعة وصول مراسلاتك الى القسطنطينية ابعث رسولا مجتهدا ، أحد الكهنة ، يقدر ان يروى الاحداث .

أطلب اليك فوق الكل أن تقدم للرب صلوات حارة ، حتى نستطيع أن نتنصر في هذا النضال ، فان قلوب الناس بالاسكندرية وفي كل بقاع مصر تفرح فرحا ليس بقليل ، من أجل استبعاد قلة من الناس عن الكنيسة ، حتى يبقى جسدها طاهرا .

سلام للاخوة الذين معك .

الشعب الذى معنا يحييك فى الرب .

جمع القديس أبيفانيوس مجمعا فى جزيرة قبرص ، حيث اجتمع عدد كبير من الاساقفة ، هاجم فيه القديس اعمال أوريجين (٣٩) . أرسل نسخة من قرارات المجمع الى الاساقفة خاصة القديس يوحنا اسقف القسطنطينية ، كما أرسل نسخة منها مع رسالة خاصة الى القديس جيروم يطلب منه ترجمة القرارات الى اللاتينية ، ويبشره بنجاح المجمع ، ويعتبر نفسه سعيدا أن يقوم بهذا العمل المجيد فى شيخوخته . لقد امتدح ثاوفيلس « الذى نكس لسواء الاوريجانية من مذهب الاسكندرية » ، وانه ليجد « فى شهادة هذا الاسقف العظيم تأييدا لما لم يكف عن اعلانه (٤٠) » .

فى بساطته الزائدة وغيرته سافر الى القسطنطينية — وقد ناهز الخامسة والثمانين من عمره — ليفند الآراء الاوريجانية ويقاوم « رهبان نتريا » الذين حملوا فى رايه الهرطقة الاوريجانية ، ويقاومون البابا ثاوفيلس .

(٣٨) ١ كو ٥ : ٤ ، ٥ .
(39) Soc . 6 : 10 .

(٣٧) الاخوة الطوال ما عدا الاسقف .
(40) Jerome : EP . 91 .

الاخوة الطوال في القسطنطينية

اذ كان البابا ثاوغيلس يلاحق الآباء الرهبان أينما حلوا ، لم يجدوا لهم موضع راحة ، فتركوا فلسطين وخرجوا يجولون من بلد الى آخر ، ويلتجئون من أسقف الى أسقف ، وأخيرا اضطروا للسفر الى القسطنطينية يلتقون بالبطريك يوحنا الذهبي الفم في أوائل عام ٤٠٢ م .

مهما قال سقراط (٤١) فان البطريك لم يكن يجهل المشادة التي قامت بين الاخوة الطوال وثاوغيلس (٤٢) .

اتجه الآباء الى دار الاسقفية حيث التقوا بالاب البطريك الذي كان محبا لرهبان مصر ، يتغنى بالبرية في مصر كما بفردوس النعيم ، ويتطلع الى رهبانها أكثر بهاء من كواكب السماء (٤٣) ! لقد أحب المصريين فقال عنهم أنهم يغذون أجساد القسطنطينية بالقمح كما يغذون قلوبهم بالايمان .

فتح قلبه للرهبان الذين كشفوا له عن جراحاتهم ، يشكون له تصرفات البابا ثاوغيلس ، طالبين الا يخيب رجاءهم فيه بل يضمد جراحاتهم ، والا اضطروا الى اللجوء للامبراطور ، الامر الذي لا يليق بالكنيسة . توسلوا اليه ان يعمل على مصالحتهم مع البابا ويتدخل في ارجاعهم الى مصر (٤٤) . واذ كان البطريك واثقا انه قادر على تهدئة غضب البابا عليهم اراح قلبهم وفتح لهم داره والتف الكل حولهم يسمعون لهم ويتعزون بكلماتهم وكانت الشماسات والارامل والعذارى التقيات يقمن بخدمتهم ، الامر الذي جلب عليهم تعيرات البابا ثاوغيلس (٤٥) .

ارسل القديس يوحنا الى بابا الاسكندرية يخبره بالامر ، طالبا الصفع عنهم ، مدافعا عنهم وعن العلامة أوريجين ، كما ارسل يخبره ان الرهبان قدموا شكوى ضده بالرغم من محاولته معهم على تهدئة خواطرهم ، وانه في موقف حرج لا يعرف كيف يتصرف (٤٦) .

ومن المؤلم اثارته رسالته غضب ثاوغيلس بدلا من رضاه ، خاصة وانه عرف ان البطريك قد سمح لهم بالشركة في العبادة العامة ، مع ان القديس يوحنا لم يسمح لهم بالشركة في الاسرار المقدسة حتى يأتي رد البابا - فارسل اليه رسالة مملوءة جفاء وتعنيفا . اتهمه بتحريض الرهبان للتمرد عليه ، كما اعطاه درسا لا يستحقه ، بقوله : أنت تعلم بلا شك قوانين نيقية التي تحرم

(41) PG 67 : 688 .

(43) In Mat .

(45) Ibid 25 , 26 .

(42) Moulard . p 324 .

(44) Palladius . PG 47 : 24 , 25 .

(46) Ibid 25 .

على الاساقفة ان ينظروا الدعاوى الخارجة عن حدود أبرشياتهم . ان كنت تجهل ذلك ، فاعلمه الآن وامتنع عن استلام شكوى مكتوبة ضدى . ان كان يجب ان احاكم ، تكون محاكمتى امام المصريين ، لا ان احاكم امامك ، انت الذى فصلنا عنك طريق يستغرق خمسة وسبعين يوما (٤٧) .

لقد تأثر البطريرك جدا ، لعله أشار لذلك فى تفسيره للرسالة الثانية الى اهل تسالونيكى ، عندما تحدث عن يوسف كعبد فى بيت قوطيفار المصرى ، اذ قال (٤٨) : « كان يقدم حساباته لمصرى . وانتم تعرفون ان هذا الجنس مندفع ، يثار لنفسه . اذا ما نال سلطة لا يمكن وقف غضبه » .

تعرف الرهبان على البلاط الملكى — غالبا عن طريق القديس يوحنا الذى احس بفشله فى تهدئة ثاوفيلس — وقد اعجب الكل بالآباء الرهبان خاصة الاب آمون ، الذى قدم شكواه الى الامبراطورة . لقد قالت له « باركنى . صل من اجل الامبراطور ومن اجلى ومن اجل اولادى ، ومن اجل الامبراطورية . انى اجاهد بعقد مجمع لمحاكمة ثاوفيلس (٤٩) » والقى القبض على مبعوثى ثاوفيلس حيث القوا فى السجن .

صدر الامر الامبراطورى بدعوة البابا ثاوفيلس للحضور الى القسطنطينية ليحاكم امام مجمع كنسى يرأسه القديس يوحنا ، الامر الذى أثار نفس ثاوفيلس معتبرا القديس يوحنا محرزا للرهبان ضده امام الامبراطور

ارسل ثاوفيلس الى القديس ابيفانيوس يعجله بالسفر الى القسطنطينية يهيبه له الجو قبل وصوله ، وفعلا قام القديس رغم شيخوخته الى القسطنطينية .

القديس ابيفانيوس فى القسطنطينية

استغل ثاوفيلس هذا القديس الذى تشهد كل الكنائس الرسولية بقداسته برغم شيخوخته لا يطيق ان يسمع عن هرطقة او بدعة ، قديمة او حديثة . وقد رأينا كيف انضم الى القديس جيروم يحاربان القديس يوحنا الاورشليمى وروغينيوس من اجل كتابات اوريجين .

لقد اعتبر ابيفانيوس « اوريجين هرطوقيا » وحسب « الاوريجانية » هرطقة الامر الذى نرجو ان نتحدث عنه فى كتاب آخر بأكثر توسع . لعله قد استغلت بعض عبارات او اخطاء عارضة ، خاصة ما ورد فى كتابه « المبادئ » !

(47) Ibid25 .

(48) PG 62 : 472 .

(49) Pallad PG 47 : 26 , Sôz . H.E.

على اى الاحوال ، لا نستطيع ان نفكر فى ابيفانيوس حسن نيته وغيرته خاصة وقد ناهز الخامسة والثمانين من عمره ، فحسبه شرفا عظيما ان يتحمل المشاق ليخمد — فى نظره — البدعة الاوريجانية ويقف جنبا الى جنب مع ثاوفيلس الذى يمثل فى عينيه بطلا يحارب من اجل استقامة الايمان .

لقد جاء فى بدء عام ٤٠٣ { متحاملا على القديس يوحنا الذهبى الفم ، لا لخلاغات شخصية ولا لمطامع ، لكنه فى نظره « انسانا يحمى بدعة ! » .

جاء القديس ليجد الموازين قد تغيرت فى القسطنطينية ، فقد انقلبت الامبراطورة على القديس ولم تعد تطيقه . . . اذ بدا الخصام بينهما فى صيف ٤٠٢ .

يذكر لنا المؤرخ سقراط (٥٠) بعض اعمال استفزازية قام بها القديس ابيفانيوس ، فقد نزل بجوار كنيسة القديس يوحنا المعمدان (٥١) ، فارسل اليه القديس يوحنا كهنته لينزل دار الاسقفية اجابه انه لن يقيم لديه ولا يصلى معه حتى يطرد ديسقورس واخوته عن المدينة ، ويوقع بيده على اداة كتب اوريجين ، فارسل اليه يوحنا انه لا يقدر ان يتصرف هكذا فى غير ترو قبل عقد مجمع عام . . . لذلك نزل الاب ابيفانيوس فى فندق .

جمع الاب الاساقفة الذين كانوا فى العاصمة ، وكان معروفا بتقواه وهيبته ، وقرا عليهم قرارات المجمع التى تدين اعمال اوريجين وطلب منهم التوقيع ، فوقع البعض ، وآخرون وقعوا خجلا منه ، لكن كثيرين رفضوا التوقيع منهم الاب ثيؤتييموس Theotimus of Scythia الذى قال (٥٢) :

« لا أقدر ان اسب انسانا انتهى حياته الورعة منذ وقت طويل يا ابيفانيوس ، ولا اتجاسر ان ارتكب كفرا كهذا ، ان ادين ما لم يدنه اسلافنا خاصة وانا اعلم انه ليس فى كتب اوريجين تعاليم شريرة » .

وتلا الاسقف ثيؤتييموس فقرات من كتب العلامة اوريجين ليكشف انها تتفق مع تعليم الكنيسة وعقيدتها .

قليل ايضا انه تعمد رسامة شماس فى كنيسة تتبع الاسقف يوحنا دون ان يستأذنه .

اخيرا حرضه اعداء يوحنا ان يذهب الى كنيسة الرسل حيث اعلن امام الشعب حرمة لكتابات اوريجين وحرمة لديسقورس واخوته كما اتهم القديس يوحنا بتشجيعه لهم .

(50) Soc 6 : 1214 .

(٥١) على بعد ٧ اميال من القسطنطينية (سقراط ٦ : ١٧) .

(52) Soc 6 : 12 .

سمع البطريرك بذلك ، فأرسل في اليوم التالي اليه رسولا عند دخوله الكنيسة يقول له : « لقد صنعت أمورا كثيرة تخالف القوانين يا أبيفانيوس . أولا قمت برسامة في كنائس خاضعة لى . بعد هذا — بغير استئذاني — أعطيت لنفسك سلطانا للخدمة فيها . أضف الى هذا انى دعوتك فرغضت الحضور ، وها أنت تعطى نفسك هذه الحرية . احذر لئلا تحدث ضدك ضجة بين الشعب ويصيبك منهم ضرر » .

اذ سمع الاسقف أبيفانيوس هذا التحذير ترك القسطنطينية ليعود الى جزيرته . وقد روى سقراط قصة محزنة — هو نفسه لا يعلم مدى صحتها — لكنها ان دلت على شيء فانما تدل على ضعفنا البشرى ، الذى قد يسقط فيه اى انسان ! قال سقراط ان الاسقف أبيفانيوس تضايقت نفسه فيه من تحذير الاسقف يوحنا ، وفي مرارة قلب قال له : انك لن تموت وانت على كرسي اسقفيتك . فأجابه الاسقف يوحنا في ضيقة نفسه أيضا « وانت لا تظن انك ترى وطنك » .

يعلق سقراط بأنه مع عدم تحققه من صدق الرواية ، فان النبوتين قد تحققتا ، اذ نفى يوحنا بعد عزله من الاسقفية ، كما لم يصل الاسقف أبيفانيوس وطنه بل مات في الطريق وهو على المركب .

ما ان انطلق الاسقف أبيفانيوس من القسطنطينية حتى سمع الاب البطريرك أن أفدوكسيا لعبت دورا خفيا في ثورة الاسقف أبيفانيوس ضده فوقف على المنبر يتحدث عن الرذائل التى تسببها النساء .

لقد أدرك العامة أن الحديث موجه كله ضد الامبراطورة ، فخرجوا يتحدثون عنها ، وقام بعض الوثاة بتبليغ الامر ، وهى بدورها شكت لزوجها بأن كل ما يمسها انما يمسها هو أيضا (٥٣) ، فانقلب ميزان القضية . . . لقد وجدت في حضور ثاوفيلس لمحاكمته الفرصة ليكون المتهم حاكما والقاضى متهما . . . انها فرصة لا تجد مثلها فقد كان ثاوفيلس في الطريق — حين سمع بهذا النبأ — وكان قلبه ملتهبا مرارة تجاه البطريرك يوحنا . . .

يخبرنا المؤرخ بالاديوس أن ثاوفيلس كان في الطريق حين بلغه نبأ طلبه لاقالة يوحنا كأمر أفدوكسيا (٥٤) وزوجها .

+ + +

(53). Soc : 6 : 15. Soz. 8 . 16. Theod. 5 : 34. Palladius 3 : 8 — 10.

(54) Palladius PG 47 : 26.

مجمع السندريان

SYNODAD QUERCUM

أخطأ البطريرك الاسكندري في قبوله دعوى الامبراطور لعقد مجمع عاجل لمحاكمة البطريرك القسطنطيني ، فما كان يليق به ان ينتقم لنفسه بهذه الصورة المحزنة . لقد تسرع في ذلك ، فجمع حوله الطاقات المضادة للبطريرك يوحنا ، التي لا تعمل لاجل الحق بل تحمل كل ضغينة وكراهية لهذا القديس .

غفى طريقه الى القسطنطينية عرج على سيرينوس Cyrinus أسقف خلقدونية ، الدعدو للذهبي الفم ، اذ يعتبره كافرا ومتكبرا ومستبدا . . . ثم دخل البسفور حيث استقبل في القسطنطينية وسط تهليل العمال المصريين الذين وغدوا اليها مع القمح (١) .

بالرغم من ترحيب البطريرك يوحنا به لكنه رفض الالتقاء به ، او التفاهم معه ، حاسبا اياه كانه قد اقبل فعلا .

يقول المؤرخ بالاديوس (٢) « جاء ثاونغليس محملا باطاييب مصر والهند ايضا ، محاولا ان يغطي بالمطر رائحة جسده النتنة ! » .

حاول ثاونغليس عقد المجمع بالقسطنطينية ، لكن الامبراطور اعتذر عن عقده بالعاصمة لسبب الشغب الذي بدأ يسرى وسط الشعب ، فعاد الاسقف يجر وراءه جماعة من الاساقفة المضادين ليوحنا الى قرية السندريان او البلوط (٣) The Oak ، حيث دعى المجمع باسمها .

لقد تجمعت الطاقات المضادة مثل سيرينوس والاسقف سفيان الذي قام بدور لا يستهان به في المجمع ، والاساقفة الذين عزلهم القديس في زيارته لانفسى بسبب رسالتهم بالسيمونية .

(1) Palladius PG 47 : 26. Soc PG. 67 : 79. Soz 67 : 1557 — 1560.

(2) Palladius PG 47 : 26.

(3) Soz 8 : 14 .

بدا المجمع أعماله في أوائل سبتمبر ٤٠٣م ، حيث عقدت جلساته الثلاثة عشر يقودها ثاوفيلس .

استدعى يوحنا أربع مرات للمحاكمة ولم يحضر (٤) ، محتجا بما جاء في رسالة ثاوفيلس نفسه أنه حسب قوانين نيقية لا يجوز لاسقف أن يتدخل في أمور خارج أبروشيته . . . لكن لم يكن هذا هو لسبب الحقيقي ، فقد أحس يوحنا بالمؤامرة التي يحركها الإمبراطور لاستبعاده ، فاختبأ وراء القوانين (٥) لا نستطيع أن نتنبأ ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الإمبراطورة لم تتضايق من القديس يوحنا ، وتمت محاكمة ثاوفيلس في مجمع يستصدره القديس يوحنا!

جلسات المجمع

في بداية الجلسة الاولى قرأ الشماس يوحنا ، الذي أقاله البطريرك لاتهامه في جريمة قتل أو شروع في قتل — الاتهام ، وكان يتلخص في ٢٩ اتهاما ينعته سقراط بالبله :

- ١ — طرد الشماس يوحنا طردا تعسفيا ، لأنه ضرب عبده الصغير .
- ٢ — ضرب راهبا يدعى يوحنا ، وقيد بالحديد بدعوى أنه به شيطان .
- ٣ — باع كثيرا من ممتلكات الكنيسة الثمينة .
- ٤ — باع الرخام الذي خصصه البطريرك السابق نكتاريوس لكنيسة القديسة أنسطاسية .
- ٥ — سب رجال الكليروس ووصفهم بالخسة والفساد وانهم غير مهذبين ، لا يستحقون الا ثلاثة شواقل .
- ٦ — اعتبر القديس أبيفانيوس مجنونا وشيطانا .
- ٧ — دبر مؤامرات ضد الاسقف سفيريان .
- ٨ — كتب كتابا يهين الكليروس .
- ٩ — اتهم ثلاثة شمامسة أمام الكليروس بسرقة معطفه .
- ١٠ — سام أنطونيوس أسقفا مع تأكده أنه سارق .
- ١١ — في شغب عسكري سام الكونت يوحنا بنفسه .
- ١٢ — لم يصل قط عند دخوله الكنيسة أو خروجه منها .
- ١٣ — سام قسوسا وشمامسة خارج المذبح .
- ١٤ — سام أربعة أساقفة دفعة واحدة .
- ١٥ — استقبل نسوة واتفرد معهن بعد أن استبعد الجميع .

(4) Moulard , ch 17 .

(٥) بجوار خلقيدونية بثينية .

- ١٦ — كلف Théodule أن يبيع ميراث Thècle .
- ١٧ — لم يعرف أحد أين يذهب عند دخوله الكنيسة .
- ١٨ — سام صرابيون رغم أنه متهم .
- ١٩ — سجن بعض أشخاص ، وعند موتهم بالسجن لم يأمر باعطاء أجسادهم لأقربائهم .
- ٢٠ — سب القديس العظيم اكنكيوس Acacius ولم يسبح له أن يتكلم .
- ٢١ — سلم الكاهن بورغيري الى أتروبيوس لينفيه .
- ٢٢ — سلم الكاهن بيرونيوس Beronius بعد أن سبه كثيرا .
- ٢٣ — كان يسخن الماء لنفسه وعند خروجه من الحمام يقوم صرابيون بقلقه كي لا يدخله أحد .
- ٢٤ — كان يأكل بمفرده ويعيش حياة ترف .
- ٢٥ — كان يتهم ويشهد ويقضى بمفرده ، كما حدث في أمر رئيس الشماسة مارتيريوس Proérèse أسقف Lyae
- ٢٦ — وجه ضربة قاسية الى Memnon ، غسل الدم من غمه ، وبعد ذلك خدم القداس الالهى .
- ٢٧ — كان يرتدى ملابس الخدمة ويخضعها وهو على كرسى الاسقف .
- ٢٨ — كان يرش بالمال الاساقفة الذين يرسمهم حتى يخضع الاكليروس له
- ٢٩ — قام بسيامات كثيرة بغير شهود .
- اتهم أيضا الراهب اسحق البطريرك يوحنا أنه تحدث بالفاظ نابية ضد الامبراطورة وكان هذا الاتهام عقوبته الاعدام .
- كما تقدم بعض الاساقفة المعزولين يشتكون ظلمه .
- كما وجهت اتهامات اخرى لا تخرج في جوهرها عن السابقة ، ووجهت اتهامات ضد المؤرخ بالاديوس وغيره بكونهم أوريجانيين . . غير أن مشكلة « الاوريجانية » لم تثر في المجمع اللهم الا بالتلميح .

مجمع السنديان والاخوة الطوال

لم تثر مشكلة الاوريجانيين في المجمع ، فقد خدمت الاحداث — ان صح هذا التعبير — البطريرك ثاوفيلس اذ تنيح الاسقف ديسقورس قبل انعقاد المجمع ، ودفن في كنيسة الشهيد موشتيس (٥) ، كما تنيح الاب امون

(5) Soc PG 67 : 716. Soz. 67:1560. Palladius PG 47:58. 59.

(أمونيوس) قائد الحركة ، بعد اصطحابه للجماعة ووصوله الى السنديان ، فبكاه ثاوفيلس ومدحه قائلاً أنه لا يجد راهباً نظيره في زمانه (٦) ، وقد دفن في مقبرة تسمى روفينيانا Rufiniana حيث تمت معجزات شفاء كثيرة من مقبرته ، وكان يحج إليه كثيرون . . .

بعد نياحة الاب أمونيوس انسحب الاب هيراكس الى البرية الداخلية يقضى حياته في العبادة ، اذ خشى أن يكون كمن وضع يده على المحراث في رهبنته ونظر الى الوراء (٧) .

وفي نفس العام (٤٠٣) تنيح الاب ايسيدورس . . .

هكذا وجد رهبان نترى أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه ، اذ يوحنا — ملجأهم — يحاكم ، وثاوفيلس صارت له كلمته في البلاط ، وقادتهم قد تنيحوا . . . فتألموا معتقدين أن يوحنا قد تخلى عنهم ، واشتاق أغلبهم ، أن لم يكن جميعهم ، أن يعودوا الى برية مصر لا ينشغلون بشيء الا بالحياة الديرية على أثر خطوات هيراكس (٨) .

ارسل اليهم البابا ثاوفيلس يقول أنه يفتح ذراعيه لهم وقد نسي الماضي ولن يفكر في أذيتهم ، وضغط عليهم الاساقفة المصريون أن يعتذروا حيث تظاهروا أنهم يشفعون لهم لديه . . . فجاء الآباء الرهبان الى المجمع وقد خجلوا من هيئة المجمع ولم يفكروا في اثاره أى ضجة بل فتحوا قلوبهم واعتذروا للبابا الذي قبل شركتهم وقال أن المشكلة قد انتهت (٩) .

لم يطلب منهم أن يعترفوا بالايمن الارثوذكسي ولا أن يتخلوا عن قراءة كتب أوريجانوس . . . فقد ظهر حقا أن المشكلة لم تكن « حول كتابات أوريجين » ، لكنها دوافع شخصية !

انتهت مشكلة « الاخوة الطوال » وعاد الرهبان مع البابا ثاوفيلس . . . لكن بعد أن لطخ البابا تاريخه بهذا المجمع الذي دعاه بالاديوس « مجمع المتوحشين (١٠) » . . . اذ صار ثاوفيلس أداة لتحقيق رغبات الامبراطورة الشريرة ، تجمع حولها طاقات معادية لروح الحق .

(6) Palladius PG 47 : 59 & Soz . 67:1560. Palladius PG 47:59.

(٧) لو ٩ : ٦٢ .

(8) Moulard. ch 18.

(9) Ibid.

(10) Palladius PG 47 : 36 .

قرارات المجمع

نكر المؤرخ بالاديوس النص الذي وجهه المجمع الى اكليروس القسطنطينية والبلاط الامبراطوري (١١) : « اذ اتهم يوحنا بجرائم كثيرة ، وقد رفض الحضور ، فان القوانين تأمر بحرمانه ، هذا ما فعلناه . لكنه ايضا اساء الى جلاله الامبراطور ، لذا نطلب عزله عن كرسيه ، ولو تم الامر قسرا . اما بخصوص اساعته للامبراطور فان عقوبته عنها ليس من شأننا » .

اجاب الامبراطور بالموافقة على عزله واستبعاده ، دون أن يشير الى الالهانة التي وجهت ضده ، فكان اركادايوس اقل قسوة من الاساقفة .

عرف البطريك قرار المجمع ، وفي هدوء قال أن الذي لم يغتصب الاسقفية يستطيع أن يعيش حرا ، لا يخاف الاستبعاد . لقد تحدث كثيرا عن الاضطهاد والضيق ... وقد جاء وقت الكرازة بالعمل .

ففي كتابه عن الكهنوت (١٢) أشار الى قول السيد (١٣) « طوبى لكم اذا اضطهدوكم ... معلقا عليها أن ذلك يتحقق عندما يطرد الاساقفة شريكهم في الاسقفية حسدا ، أو ارضاء للناس ، أو حقد لسبب أو لآخر ، وكأنه كان يتنبا عن نفسه الذي تحقق في شخصه هذا كله .

كان عليه كقبطان ماهر أن يطوى شراعه لان ساعة هبوب الريح قد جاءت ، كما سبق مقتل لشعبه (١٤) ... ليخرج في هدوء حتى لا يتسبب في حدوث ثورة شعبية في العاصمة !

وداعا !!

لقد عرف القديس يوحنا حب شعبه له ، فقد حدثهم مرة قائلا (١٥) « ان رايتموني في خطر الا تعطوني — ان أمكن — اجسادكم مبنولة ! » ، لكنه لم يشأ أن يموت واحد بسببه أو يتألم فأنه مع اعترافه بعدم قانونية المجمع ، مطالبا بعمل مجمع مسكوني بعيد النظر في القضية وجد نفسه ملتزما أن يخرج الى المنفى . فقد التف الشعب حوله ، وحاصر دار الاسقفية محاولا أن يمنع البوليس الامبراطوري من القبض عليه ، فخرج اليهم الذهبي الفم يتحدث معهم كلمة وداع مملوءة ايمانا ، تهدى نفوسهم . لقد قال (١٦) :

(11) Ibid. 47:30.

(12) De Sacerd. PG 48:648.

(١٣) مت ٥ : ١١ ، ١٢ .

(14) In Act. PG 60:232.

(15) Ibid PG 6:73.

(16) Cum de expuls. joan. PG 52:434—436.

قامت بالترجمة عن الترجمة الفرنسية الاخت عابدة حنا بسطا .

« المسيح معى ، ممن أخاف ! ان أمواج البحر ، الرؤساء في غضبهم ،
هذا كله لا يزيد عن خيوط عنكبوت ! » ثم أوصى شعبه بالثبات في الايمان ،
مطالباً اياهم ان يعودوا اليه في اليوم التالي ليصلى معهم .

وقف وسط شعبه يحدثهم بشجاعة نادرة بحديث عذب رائع ، يقول (١٧) :
هوذا الامواج تشتد والعاصفة تزداد عنفا ، لكنى لا أخاف الغرق فانى
أقف على صخرة !

ان هاج البحر لا يستطيع ان يطويها ! لترتفع الامواج فانها لا تقدر ان
تبتلع سفينة يسوع !

قل لى : ماذا أخاف ؟

الخاف الموت ؟ « لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح (١٨) » .

الخاف النفى ؟ « للرب الارض وملؤها (١٩) » .

أمصادرة الاموال ؟ « لم ندخل هذا العالم بشيء وان نخرج منه بشيء (٢٠) » .

ان ما يبدو في هذا العالم قاسيا لا يستحق منى سوى الازدراء ، انى
أهزأ بممتلكاته ، لا أخاف الفقر ولا أشتهى الغنى ! لا أخاف الموت ولا أرغب
الحياة الا لى انمو في القائمة الروحية ! ...

لقد أدرك القديس يوحنا انها ليست حربا بينه وبين الامبراطورة ، ولا
بينه وبين ثاوفيلس او سفريان او اكاسيوس او غيرهم ... لكنها حرب بين
الله والشيطان ... الله يحفظ كنيسته وقوة الظلمة تعمل على تحطيمها ...
لهذا يقول لهم تلك العبارات الروحية الرائعة :

« حقا ، ليس اقوى من الكنيسة ، من يحاربها يحطم قوته ، اذ لا يمكن
محاربة السماء ! » .

« هل اتى بى انسان الى هنا ، حتى يقدر انسان ان يحطمنى ؟ ! » .

« انك (محدثا الشيطان) لا تستطيع الانتصار على عذراء واحدة ،
فكيف تفكر في الغلبة على هذا الشعب الكبير ؟ ! » ...

أخيرا أسلم الراعى نفسه في يدى الجند من وراء شعبه وخرج مودعا
مذبحه وشعبه ...

(17) Antequam iret in exsil PG 52:427—429.

(١٩) مز ٢٣ : ١ .

(١٨) في ٢١ : ١ .

(٢٠) ١ تي ٦ : ٧ .

انطلق الاسقف سفريان الى الكتيبة ، حاسبا انها فرصة مناسبة لانتقاد
يوحنا ، قائلا (٢١) :

« ان كان يوحنا قد ادين بدون سبب ، فانه يكفى تعالىه جريمة تبرر
استبعاده !

يمكن للناس أن يغفروا كل الخطايا ، لكن « الله يقاوم المستكبرين (٢٢) »
كما تعلمنا الكتب المقدسة .

لقد الهب سفريان غضب الشعب وازاد ثورته . فقد اخذ الهياج كسل
ماخذ حتى خشي الامبراطور من حدوث مذابح في القسطنطينية فامر بعودته ،
خاصة وان زلزلة حدثت في تلك الليلة ارجعت الامبراطورة ، اعتبرتها — كقول
بالاديوس (٢٣) . علامة غضب الله يحل عليها بسبب ظلمها للراعى الامين .

اسرعت الامبراطورة الى زوجها تطلب سرعة عودة الراعى ، وفي نفس
الوقت كتبت بيدها رسالة تعتذر له عما حدث ، ارسلتها مع احد خصيانها يدعى
Briso ترجوه العودة .

عبر القديس البسفور ، لكنه رفض دخول القسطنطينية الى كرسيه مالم
تثبت براءته بجكم مجمى يبطل حكم مجمع السنديان ، لسكن الشعب خرج
اليه متهللا يحملون المشاعل ويقرنون بالزامير (٢٤) ، فالتزم امام محبتهم ،
ولاجل سلام المدينة وهدوئها ان يدخل « كنيسة الرسل » يشكر الله ويبارك
اسمه القدوس (٢٥) .

مبارك هو الله في كل شيء !

وقف الراعى بين رعيته المملوئين فرحا ، يشكر الله ويسبحه !
نكر المؤرخ سزومين (٢٦) أن البطريك القى خطبا على شعبه ، فيه
شبه اعتداء الاسقف ثاوفيلس بفرعون مصر الذى اغتصب سارية امرأة
ابراهيم ، كما مدح الامبراطور والرؤساء الذين ارسلوا اليه أن يرجع الى
كنيسته فصفق له الحاضرون حتى اضطر من شدة التصفيق أن يختم حديثه ..
توجد عظة للقديس يوحنا (٢٧) تحمل هذا التشبيه الذى تحدث عنه
المؤرخ سوزومين ، وفيها يمدح الامبراطورة مدحا غائقا ... لكنها لا تحمل
أحداث تلك الفترة ...

(21) Soc. 6:16.

(٢٢) ١ بط ٥ : ٥ ، يع ٦ : ٦ .

(23) Palladius PG 47—30.

(24) Soz. 8:18.

(25) Palladius PG 47:30.

(26) Soz. 8:18.

(27) Post reditum ad exsilis PG 52:443—448.

أقد أورد منى Migne (٢٨) العظة التى لقاهما القديس يوحنا ، فيها يقدم
لله ذبيحة شكر ، معلنا محبة الله وعنايته فى كل الاحداث ، فى الاستبعاد كما
فى الرجوع ، فى الفرح . كما فى الضيق . . . اذ يقول :

« ماذا أقول ؟ وبماذا أنطق ؟

مبارك هو الله ! هذا ما قلته عند رحيلى ، وهذا ما أردده الآن أيضا . .
اتذكرون انى تحدثت عن ايوب القائل : ليكن اسم الرب مباركا .
الى الابد !

انى اكرر نفس العبارة : مبارك هو الله ! لقد دارت الاحداث ،
فليتبارك الله ! فان الشتاء والصيف يتلاحقان من أجل اثمار الارض ، اى
يعملان بهدف واحد . هكذا فليتبارك الله الذى تركنى ارحل ، وليتبارك أيضا
لانه أرجعنى ! ليتبارك الله الذى سمع بالعاصفة ، وليتبارك الرب الذى
نزعها وهداها ! . . . »

مبارك هو الرب ! فقد شعر يوحنا بيد الله الخفية التى حولت الضيقة
الى بركة لكثيرين ، فانه اذ يتألم الراعى تزداد الرعية حبا له ، حتى الذين
كانوا لا يستريحون له أحبوه وجاعوا يسمعون له .

قبلا ، كانت الكنيسة وحدها مملوءة تسعبا ، اما الآن فقد تحولت
الاجور (٢٩) الى كنيسة انى اتطلع من اول الموضع حتى نهايته كائى ارى
راسا واحدة (من كثرة الازدحام) !

هو ذا الكل فى صمت يتعبدون !

البعض يترنم والاخر يبارك الله !

هو ذا اليوم تقام ألعاب السيرك ، لسكن ليس من يذهب اليها ، فقد
ركضتهم جميعا الى الكنيسة كالسيل . صارت الجموع كفيضان ، واصواتكم
ترتفع كالانهار ، تنساب نحو السماء ، وهى تلهج بحبكم للآب . . .

انظروا حقيقة ما اقوله لكم : أن احتمال الالم بشكر نافع ! هو ذا قد
جمعكم الالم بجوار الرسل (٣٠) . لقد عدت انا الذى طردت لكنى اكون بجوار
من طردوا قبلى !

(28) Post, reditum ad exilis PG 52:439—442.

(٢٩) مكان عام ربما صالة ملحقة بالكنيسة .

(٣٠) فى كنيسة الرسل .

لقد واجهتني مصاعب ، وهم أيضا احتملوا اضطهادات ! ... هنا تظهر
حكمة القديس يوحنا ، فلا يتحدث عن نفسه كإنسان قبل الألام بشكر فكافأه
الله بعودته الى شعبه بجوار رفات الرسل ... لكنه يبرز فضيلة شعبه ...
لقد تعلقوا به جميعا ، ليس بينهم خائن ولا إنسان غاش ، بل الكل قد تجمل
بالحب ... انه يقول :

« كان جميعهم حملانا ، ليس بينهم ذئب واحد !
كلهم سنابل ، ليس بينهم أشواك !
كلهم كرمة ، ليس بينهم ثعلب !
لقد هلكت الحيوانات المفترسة وهربت الذئاب ...
أنتم رعية ، يا لعظمة الحملان ! غفى غياب الراعى طردت الذئاب ! ..
يا لجمال العروس ! ، أو بالحرى يا لعفة العروس (٣١) !
في غياب العريس طرد الزناة (٣٢) !
يا لجمال العروس وعفتها !

لقد كشفت عن جمالها ونقاوتها : كيف طردت الزناة ؟
بحبك لعريسك ، كيف طردت الزناة ؟ لم تحملى سلاحا ، لا سيفا ،
ولا عصا ، لكن بعظم عفتك قد كشفت عن جمالك فلم يحتلوا ضيائه !
أين هم الآن ؟ انهم في خزي !
أين نحن ؟ في فرح ! لقد اتحد معنا البلاط الامبراطوري وأصحاب
السلطان أيضا .

ولكن ماذا نقول : ليكن الله معكم ومع أولادكم ، وليجمع الله في شبابه
عطفكم !

لنختم هذه العظة ، ولنشكر الله الرحوم على كل حال ، الذى له المجد
الى الابد آمين » .

البابا ثاوفيلس يغادر القسطنطينية

لم يكن ممكنا للبابا ثاوفيلس أن يبقى في القسطنطينية ، فغادرها الى
الاسكندرية ، حاملا معه جريمته في حق البطريك يوحنا ذهبى الفم التى لم
يغفرها له المؤرخون . مع انه قد أعلن في أواخر حياته ندمه على ما فرط منه
بخصوص ذهبى الفم ، بل كان هذا الامر هو الذى يشغل فكره في لحظات
انتقاله ، وقد وجد نص قبطى منقول عن البابا كيرلس الكبير (ابن اخته
وخليفته) يتضمن ما قاله البابا ثاوفيلس في لحظات انتقاله الى الفردوس ،

(٣١) رقصت العروس عريسا آخر غير يوحنا ذهبى الفم .

(٣٢) يدخلون كنيسة أخيهم يوحنا .

الامر الذى دفع البابا كيرلس ان يعتقد مجمعا يلغى به الحرم السابق ويعقد
ذهبى الغم قديسا تطلب الكنيسة صلواته اثناء الذبيحة المقدسة (٣٣) .

اما عن موقفه — بالنسبة لكتابات اوريجين فقد عاد الابهاء الرهبان الى
اديرتهم يتعبدون لله لا يشغلون انفسهم بمناقشات أو مجادلات ، اما هو فقد
جاءت الرسالة الفصحية لعام ٤٠٤ { تحمل ايضا هجوما ضد « الاوريجانية »
وان كان المؤرخ سقراط يقول (٣٤) انه وجد يقرأ فى كتب اوريجين فسئل :
لماذا تقرأ فى اوريجين ؟ اجاب « كتب اوريجين تشبهه مروجاً تقزين بزهور من
كل نوع . ان وجدت فيها زهرة جميلة قطقتها واما ما تبدو لى مملوءة اشواكا
نفانى اعبر عليها كى لا انضر بها ! » .



(٣٣) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ٦٦ .
مجلة نهضة الكنائس : نوفمبر ١٩٥٥ ص ٢٨٠ .

(34) Soc 6 : 17 .

الفصل الخامس

نفس

٤٠٣ — ٤٠٧ م

ان كان البطريرك القديس قد قضى حياته الاولى كجمرة نار ملتهبة بالحب نحو خلاص الآخرين كارزا بفمه الذهبى ، فقد التزم أن يقضى السنوات الاخيرة من عمره شاهدا بالامه واتعابه وكارزا بقلبه الذهبى افضل بكثير مما فعله كل ايامه السابقة ! لقد دخل بؤرة الالم ليحمل بشجاعة صليب سيده ، شاهدا للمصلوب لا بالبلاغة ينطق بها على منبر الكنيسة الرخامى ، وانما بالالام والتعب يدخل بها الى قلوب الكثيرين !

غفى خريف سنة ٤٠٣ اقام اركاديوس لزوجته أفدوكسيا تمثالا من النفضة (١) ، نصب على عمود من البرفير ، قائم على قاعدة مرتفعة نقشت بأجمل النقوش (٢) . اقيم هذا التمثال فى أكبر ساحات المدينة بجوار كنيسة أمنا صوفيا بنحاذاة مجلس الشيوخ ، وفى حفل تنصيب التمثال اجتمع الشعب فى الساحة النى تحولت الى مسارح وملاه وحفلات راقصة ماجنة . . ولم يطق ذهبى الفم هذا العمل بجوار الكنيسة فأخذ ينهى من هذه الاعمال ويحرمها . .

أثار ذلك مشاعر الامبراطورة ، فأدبت جراحاتها السابقة ، واشتد بها الضيق حتى فكرت فى عقد مجمع آخر فيه تستبعد ذهبى الفم من أمام وجهها . واذا سمع البطريرك لم يبال بالامر ، بل على العكس وقف يوم عيد يوحنا المعمدان يبدأ عظته بهذه الكلمات اللاذعة (٣) :

« هوذا هيروديا تثور من جديد ،

انها تعود فترقص ،

انها تطلب رأس يوحنا من جديد فى طبق ! » .

(1) Soc 6:18. Soz. 8:20, Pallad. 9—12.

(٢) وجدت هذه القاعدة عام ١٨٤٨ ووضعت فى متحف القديسة أيرينه S. Irene باسطنبول .

(3) Soc 6:18, Soz 8:20.

في هذه المرة اخفقت افلوكسيا في اقتناع البطريرك ثاوفيلس أن يحضر
ليجدد حكمه على يوحنا ، لكنها صممت الا أن تعقد مجمعا بالقسطنطينية ،
فاوعزت الى الامبراطور أن يدعو الاساقفة . فجاءوا يتوافدون الى العاصمة ،
كان من بين الذين قبلوا الدعوة :

سيفريان اسقف جبالة المقيم بالبلاط والمملوء حسدا وكراهية تجاه
البطريرك يوحنا .

ليونتيوس Leontius اسقف أنقرة ،

أكاكوس Acacus اسقف بيرية (حلب) ،

انتيخوس اسقف عكة ،

امونيوس اسقف لانيقية بسيدية ،

بريسو Briso اسقف غيلبي .

في أواخر عام ٤٠٣م التأم المجمع من حوالي مئة اسقف ، ولم يجسد
الاساقفة ما يشتكون به على البطريرك ، فأعلنوا انه ما كان له أن يتسلم
شئون رعاية كنيسة القسطنطينية دون أن يبرئه مجمع آخر ، وأن قرارات
مجمع السنديانة قائمة ، يجب تنفيذها . . . لكن لم يكن ممكنا نفى الاب
البطريرك ، اذ كان الامبراطور يعلم ما يجره عليه مثل هذا التصرف . . .

تحولت القسطنطينية الى كتلة من الجحيم ، الامبراطورة مع الاساقفة في
حالة غليان ، يودون الخلاص من يوحنا لكنهم عاجزون . والشعب يشتم
بالتيارات التي تجتازها الكنيسة ولا يعرف ماذا يفعلون . والبطريرك محصور
بين حبه لشعبه وخوفه عليهم . . .

وسط هذا الجو المتأزم جاء عيد الميلاد ، وعلى خلاف العادة لم يحضر
الامبراطور الاحتفالات الكنسية بالكاتدرائية ، ولا اشترك في تناول من
الاسرار المقدسة . . . معتبرا يوحنا معزولا عن كرسيه !

اقرب أيضا عيد الفصح لعام ٤٠٤ ، والبطريرك شبه معتقل في دار
الاسقفية ، لا يسمح بممارسة خدمته في الكنيسة (٤) . . . فاضطر أركاديوس
أن يأمره بالخروج من الكنيسة ، أما هو فأجابه قائلا (٥) : لقد تسلمت
الكنيسة من يسوع المسيح ، ولا أستطيع التقصير في خدمتها ، فان أردت لي
أن أترك هذه الحظيرة المقدسة أطرئ بالقوة . . . وجاء سبت النور ، وكانت
الكنيسة تستعد لتعميد طالبي العماد والسهر طوال ليلة العيد ، فطرد ذهبي

(4) Soc. 8:21 .

(٥) للمؤلف : كيرلس الاورشليمي .

النم من الكنيسة ، وحظر عليه الخروج من قلايته (٦) ، كما طرد رجال
الاكليروس الذين يميلون اليه من الكنائس .

التجأ الكهنة مع الشعب الى الحمام الكبير الذى شيده قسطنطين الكبير
وحولوه الى كنيسة يقضون فيه خدمة العيد . . . لكن سرعان ما دخل الجند
وهجموا على الشعب ، وتحول الحمام الى عويل وبكاء وضرب الكهنة
والشماسة ، وطردها بثياب الخدمة ، وتلطخت المعمودية بالدماء (٧) .

خرج المؤمنون خارج أسوار المدينة يقيمون الذبيحة في ميدان قسطنطين ،
ومنذ ذلك الحين صار الشعب يعقد اجتماعات — متى كان الوقت مناسباً —
تارة في موضع ، واخرى في موضع آخر . . . وصار اصدقاء البطريرك يسمونهم
باليوحناويين (٨) Johnites

تازمت احوال المدينة ، فقد روى المؤرخ سوزومين — أن عبداً كان
يجرى نحو دار الاسقفية ، واذا ما قابله احد ليسأله عن سر جريه ، يقطعنه
بخنجره . . . فالتف الشعب حوله ، وامسكوه ، واسلموه للقصر الامبراطورى
يتهمونه بمحاولة اغتيال البطريرك ، طالبين ادانته . وفعلوا هذا الوالى روعهم
والقى به في السجن ، معلناً لهم ان العدالة تأخذ مجراها . . .

هز هذا الحادث الشعب ، وخاف كثيرون على حياة بطريركهم المعتقل
داخل دار الاسقفية ، وتقاوب بعض المتحمسين حراسة الدار ليل نهار (٩) .

في ذلك الوقت كتب الاب البطريرك رسالة وجهها الى انوسنت Innocent
اسقف روما ، وفيريوس Venerius اسقف ميلان ، وكروماتيوس Chromatius
اسقف اكويلية ، يخبرهم بالامر ، طالباً ضرورة تدخلهم لتهدئة الاضطرابات في
القسطنطينية . . . وقد جاءت الرسائل الثلاث بنص واحد ، تحمل هدوءاً مع
وضوح في عرض قضيته .

لم يدم الامر طويلاً فقد دخل اكاسيوس واعوانه الى الامبراطور
اركاديوس وكان ذلك في الخميس بعد العنصرة مباشرة ، يتعجلون تنفيذ قرار
النفي من اجل سلام الكنيسة والشعب ، معلنين مسئوليتهم الخاصة في هذا
الامر .

(6) Bardy G. : Saint Jean de Const. 4 : 141.

الدكتور اسد رستم ، مجلد ١ ص ٢٧٩ .

(7) Soc 6 : 18. Pallad. 33. 34.

(8) Sox. 8 : 21 .

(9) Soc. 6 : 18. Soz. 8 : 22. Theod. 5 : 34 .

اقتنع الامبراطور براهم وارسل أحد كبار رجاله الى الاب بطريرك يسأله ترك الكنيسة من أجل السلام العام (١٠) ، فخضع للظلم الجائر ، اذ يخرج متألماً من أجل رعيته المتأللة .

خرج من دار الاسقفية الى الكاتدرائية يقبل المذبح قبلاته الاخيرة ، ويلتقى بشعبه الثائر الذي ملأ الكنيسة يريد أن يرى أسقفه للمرة الاخيرة .

قبل البطريرك الاساقفة الذين معه قبلاته الاخيرة وهو يقول لهم « انى اترككم الآن ، انتظروا رجوعى اليكم » . ثم دخل المعمودية حيث استدعى الشماسة اوليباس وزميلاتها حيث قال لهن : « تعالوا يا بناتى واسمعوا لى . فقد تحدد مصرى ... لقد انتهى طريقي ، فقد لا ارى وجوهكن مرة اخرى . رجائى اليكن ان لا تترك واحدة منكن خدمتها فى الكنيسة . فانه ايا كان الاسقف الذى يرسم بعدى اخضعن له كما ليوحنا تماماً ، مادام لا يعتلى الكرسي بالدسائس ويختار بتزكية جماعية ، فانه ينبغى أن يكون للكنيسة اسقف بهذا تجدن رحمة . اذكرونى فى صلواتكن » .

بكت الشماسات ووقعن على قدميه ... اما هو فاضطر أن يتركهن ويخرج من المعمودية خارج الكنيسة دون أن يراه الشعب ، وانطلق الى الميناء لكى تبحر به السفينة الى بيثينية ، مدركاً أنه لا يعود بعد يرى شعبه ، ولا يتحدث مع هؤلاء الذين احبهم ، الذين هم احشأؤه ، ولدهم فى المسيح يسوع ربنا !

احترق الكاتدرائية

خشى اعداؤه ان يركض الشعب اليه ويلحق به ويلزمه بالعودة قسراً ، فصدرت الاوامر باغلاق ابواب الكنيسة على من بداخلها ... لكن سرعان ما انتشر الخبر فى كل القسطنطينية ، وجاء من الشعب من كان فى الأماكن العامة يجرى يمناً ويساراً ، لا يدري ماذا يفعل . اسرع البعض نحو الشاطئ لعلهم يقدرّون ان يلحقوا بابيهم قبل ابحاره ، وآخرون صاروا يطيرون فى شنوارع المدينة ... وحدث رعب وسخط ضد الامبراطور . اما الذين كانوا داخل الكاتدرائية فقد شعروا بالخديعة ، فاتهموا نحو الباب المغلق وضغطوا عليه بعنف فانكسر ، واندفعوا تجاه الساحة ليجدوا جماعات من الاعداء يقذفونهم بالحجارة ويدفعونهم دفعا للعودة تجاه الكنيسة ... وفى لحظات ارتفع لهيب النيران فى الكنيسة من كل جهة ، ثم لحق بسقفها . فى وقت قصير دفعته

(10) Palladius . dial . 10 .

الرياح تجاه مبنى مجلس الشيوخ لياتى عليه تماما . . . وقد بقيت النيران مشتعلة طول الليل ، منذ العشية حتى الصباح . . .

الهب الحريق جو القسطنطينية ، فقد اتهم أتباع يوحنا أضدادهم أنهم دبروا خطة الحريق لكى يقتلوهم داخل الكاتدرائية ، وقال البعض أن النار قد خرجت من تحت المذبح تعلن غضب الله على ما حدث في الكنيسة تجاه الاسقف المظلوم يوحنا ، وقام أضداد يوحنا يتهمون أتباعه أنهم صنعوا هذا الحريق تنكيلا بالسلطات . . . فصار الحريق فرصة للتكيل بهم . . .

ثم تمض فترة قصيرة حتى رسم ارساكيوس Arsacius ، أخو البطريرك السابق ليوحنا « نيكتراريوس » ، ليكون اسقفا على القسطنطينية . وكان شيخا ابن ثمانين عاما ، طيب القلب ، يحمل سمعة حسنة افسدها بالتصرفات التى قام رجال الاكليروس فى عهده تحت اسمه . من ذلك انه اذ رفض أتباع يوحنا الاشتراك معه فى الصلاة ، ويبدو أنهم — فى ثورتهم الداخلية — بدأوا يقاومونه ، فأبلغ السلطات ، فهاجم الجند اجتماعاتهم ، وتعدوا الاوامر الصادرة اليهم — كما هى العادة فى مثل هذه الظروف — اذ سلبوا ونهبوا حلى النساء وضربوا الكثيرين . . .

لقد ذاق أتباع يوحنا الامرين ، وكما روى سوزومين أن بعضهم امتنع عن الظهور فى الاماكن العامة والاسواق ، بينما اضطر البعض الى الهروب من المدينة .

فكر سوزومين امثلة من الذين أصابهم الضيق بسبب الاسقف يوحنا ، نذكر منهم :

١ — الكنيسة نيكارتيه Nicarete ، وهى سيدة من بثينية ، تنتمى الى احدى العائلات الشريفة ، امتازت باتضاعها وصمتها وحسن سلوكها وتصرفها ، رفضت قبول اقامتها كشماسة أو كبتول تخدم الكنيسة وذلك لاحساسها بعدم الاستحقاق ، مع انها عاشت حياتها فى بتولية دائمة ، بسيرة فاضلة ، تفضل خدمة الله فى كل شىء أكثر من اهتمام ارضى . . .

٢ — القارىء (اغنسطس) أتروبيوس : استدعته السلطات وشددت عليه ان يعترف بأسماء الاشخاص الذين أشعلوا النيران فى الكنيسة ، اما هو فلم يذكر اسما رغم شدة العذابات التى وقع تحتها فقد جلدوه بعنف زائد ، كما مشطوا جنبه ووجهه بأمشاط حديدية ، ووضعت مشاعل بجوار أجزاء حساسة من جسمه واذ رفض الاعتراف بشىء القى فى جب ، حيث انتقلت نفسه هناك بعد قليل .

يقول سوزومين انه يليق به ان يروى قصة الحلم الذى راه سيسينيوس Sisinius اسقف أتباع نوفتيان ، فقد رأى فى نومه رجلا جميلا يجلس بجواره

مذبح الكنيسة التي دشنها أتباع نوغتيان باسم القديس اسطفانيوس أول الشهداء ، وكان الرجل يشكو ندرة وجود أناس اتقياء ، وأنه أخذ يبحث عن انسان تقى في كل المدينة فوجده ، واذ به أتروبيوس . قام سيسينيوس من النوم يبحث عن القارزى أتروبيوس من سجن إلى سجن حتى وجده أخيرا ، وتحدث معه يخبره بالحلم الذي رآه ، طالبا بدموع أن يصلى من أجله .

٣ - القديسة الشهامة اولمبياس Olympias ، سبق لنا الحديث عنها ، كانت المدينة كلها تعلم الكثير عنها فقد أوكل اليها بيت العذارى والأراهل . اتهمت ضمن المحرضات والمحرضين على اشعال النار في الكنيسة . هاجمها الوالى وحاول مضايقتها ، لكنها بجراتها وتصرفاتها الباسلة امامه ادهشت الكثيرين . لقد أعلنت له أنه يجب محاكمته هو . . . وبعد صراع مر معه اضطرت الى ترك القسطنطينية الى Cozicus ، ولم يعرف ان كان خروجها حدث بمحض اختيارها أم قسرا .

في وسط هذه الآتاعاب كان قلبها يحترق من أجل خدمة الكنيسة بالقسطنطينية ، من أجل العاصفة التي اجتاحت كل جوانب عملها ، كما كانت تتألم لأبيها المستبعد عن كرسبه وعمله الكرازى . . . لكن البطريرك يوحنا لم يتركها في آلامها بل أرسل لها عدة رسائل من منفاه مملوءة تعزيات . تحدث فيها عن فائدة الآلام والتجارب كما بشرها ببعض أخباره المفرحة ، مشجعا اياها على العمل والجهاد .

٤ - الكاهن تيجيوريوس Tigris : كان في أصله عبدا ، لكنه عتق بسبب تقواه وخدماته المملوءة اخلاصا فرسم قسا . . وكان يتسم بالوداعة ومحبة الفقراء والغرباء . بسبب الأحداث الأخيرة جلد على ظهره ، وقيدت يداه ورجلاه ، وشد جسده في عذراء (١١) rack .

الى المصنفين :

كتب القديس يوحنا الى الاساقفة والكهنة والشمامسة المضطهدين بسببه يقول لهم (١٢) :

« انكم تحسبون شهداء . لقد حسب شهيدا ذاك الذى قاوم الزواج غير الشرعى ، هذا الذى عاش في البرية ووضع في السجن وقطعت رأسه (١٣) . . . وانتم ايضا تدافعون عن قوانين الآباء التي وطأتها الأقدام ، وعن الكهنوت الذى أهين ودنس ، لقد تألمتم كثيرا من أجل الحق لكي تضعوا نهاية للنميمة الفاضحة .

اذكروا المكافأة التي ستنالونها » .

(١١) آلة تعذيب تمط الجسم .

(12 Ad. episc. presb. et diac. PG 52 : 541 .

(١٣) القديس يوحنا المبدان .

لنيقية

خرج القديس الى الميناء الى نيقية ، حيث بقى في السجن حوالى اربعين يوما او اكثر يذوق فيها المرارة ، اما هو فلم يشتك من ذلك ، بل ظلت نفسه تتقد غيرة نحو خلاص الناس في سوريا وفينيقية . لم يستطع السجن ولا المستقبل المجهول ان يلهياه عن رسالته ، فقد التقى في نيقية براهب تقى زاهد . . . ولم يكن حديثه معه الا في الخدمة والكرامة ، واذ وجد فيه استعدادا للخدمة في فينيقية ارسله الى كاهنه وصديقه قسطنديوس الذى يعمل هناك متكبدا مضايقات الكثيرين من الوثنيين والاخوة الكذبة (١) .

تستطيع ان تلمس روح القديس مما جاء في رسالته الى الكاهن قسطنديوس (٢) :

« انى اكتب اليك الآن لكى احثك على اتمام ما نصحتك به ، فان رأيت بحر هذا الاضطهاد قد هاج ، وتعالى أمواجه الى السحاب ، فلا تهمل شيئا واحدا مما انت ملتزم به .

اهدم نفاق الوثنيين .

شيد كنائس ، واهتم بخلاص النفوس .

ان رئيس المركب لا يترك الدفة بسبب صدمام الأمواج ، ولا يهمل الطبيب المريض من أجل خطر مرضه . انن لا نضطرب من الشرور الآتية ، فان الله لا يحاسبنا على ما يمسنا من شر ، بل يجازينا عليه ان احتملناه بصره . اما اذا تغاضينا عن خدمته واهملنا ما يتعلق بعبادته وخدمة كنيسته ، فانه لا يمكننا ان نعتذر لديه باضطرابات الزمن أو شدة الاضطهاد ، لان بولس الرسول الموثق بالقيود ، ويونان في يطن الحسوت ، والثلاثة غتة في أتون بابل كانوا يقومون بما يجب عليهم . اقتد اذن بهم ، مهتما بأمر الكنائس واكتب لى كم كنيسة قد بنيت هذا العام ! ومن هم الذين مضوا الى بلاد فينيقية ليخدموا هذا الكرم الجديد ؟ وماذا يرجون هناك من خير ؟ » .

(1) Theodoret 5 : 29 .

(٢) قطف الأزهار من مروج الأخبار .

هذه صورة من رسائله التي بلغت حوالى ٢٤٢ رسالة — طوال فترة نفيه — كلها تحمل مشاعر كرازة وتشجيع وتثبيت في الايمان بروح مسيحى حق ، تكشف عن قلب مملوء ايمانا وسلاما داخليا في رجاء عجيب .
تستطيع ان تدرك مشاعره الداخلية في اغلب فترة نفيه مما كتبه الى الاسقف قرياقوس Cyriacus (٣) .

« عندما استبعدت من المدينة لم اقلق ، بل قلت لنفسى :
ان كانت الامبراطورة ترغب ان تنقيني ، فلتفعل ذلك ، فانه « للرب الارض » !

وان كانت تود ان تنشرنى ، فانى ارى اشعياء مثلا !
وان ارادت اغراقى في المحيط ، افكر في يونان !
وان القيت في النار ، اجد الثلاث فتية قد تحملوا ذلك في الاتون !
ان وضعت امام وحوش ضارية ، اذكر دانيال في جب الاسود !
ان ارادت رجمى ، فان اسطفانتوس اول الشهداء امامى !
ان طلبت راسى ، لتفعل ، فان المعمدان يشرق امامى !
عريانا خرجت من بطن امى وعريانا اترك العالم .
بولس يذكرنى : ان كنت بعد ارضى الناس لست عبدا للمسيح » .

اودع البطريك في السجن بنيقية حتى يصدر الامر الامبراطورى بتحديد مكان النفى . . . وفي السجن كتب رسالته الاولى الى اوليبياش شماسته المتألمة لى يعزيها ويسندها ، قائلا (٤) :

« كلما قست التجارب ازدادت وسائل التعزية . . .

ان كنا نبحر في بحر كهذا — وسط دوامات وصخور ، في ليلة غير قمرية ظلامها دامس — لكننا افضل حالا من الذين هم في داخل الميناء يتأرجحون !
تأملى هذا يا سيدتى المحبوبة جدا: من قبل الله . ارفعى افكارك عن الاضطرابات ، وتكرمى علينا بارسال اخبارك .

فمن جهتنا ، نحن بصحة جيدة مملعون نشاطا . بالحقيقة جسدنا قوى ، نستنشق هواءا نقيا ، والجنود الامبراطوريون (٥) المرافقون لى في النفى يحبوننى للغاية ويتفنتون في خدمتى ، ولا يتركوننى معتازا الى شىء كأنما هم حرسى ! . . .

(3) N. & PNF, series 2, vol 9, p 14 .

(4) Ep 11 ad Olympias PG 52 : 609 . (كتبها في يونيو ٤٠٤) .

(٥) التعبير اليونانى يشير الى جنود تابعين للبلاط الامبراطورى . . .

شيء واحد يؤلمنى : انى غير مطمئن من جهتك ...

ان اردتى ان تكتبى لنا فالجئى الى — ابننا المحبوب جدا وسيدى.
برغاموس — فهو مضمون وملتصق بنا جدا ، وهو يحترمك جدا من اجل عفتك
وتقواك .»

اخيرا جاءت رسالة من الامبراطور اركاديوس الى المتعهد بالبطريك.
تأمره بالقيام به الى كوكوزه فى أقصى بلاد ارمينية ، كمقر نهائى لنفيه ، كما جاءت
الوامر مشددة ان يكون التعامل معه قاسيا ، وان يواصلوا السفر نهارا وليلا ،
اجهادا وتمجيلا ...

عبثا حاول البطريك ان يغير مكان نفيه اذ كتب فى إحدى رسائله (٦) !
« لم أستطع ان احصل على هذا الرجاء البسيط ، الذى لا يرغب للمجرمين .
ولكن ليكن اسم الله مباركا ! » .

وفى ليلة رحيله من نيقية ، فى الثالث من شهر يوليو كتب الى شماسه
اولمبياس رسالة يطمئنها بنفس العبارات التى سجلها فى رسالته الاولى ،
يطمئنها على صحته الجسدية واهتمام المرافقين له به ... مطالبا اياها ان
تكتب له فى صراحة لا عن صحتها الجسدية فحسب بل ان تؤكد له ان صحابة
الحزن قد زالت عن فكرها ... « ان كنت تخبريننا حقا بهذا ، فى رسائلك ،
فاننى اكتب لك كثيرا ما دامت هذه الرسائل تأتى بنتيجة عظيمة ... اثبتى
لى فى وضوح أنك تستفيدين برسائلى المتكررة فتجديننى فى خدمتك اكتب
بكثرة (٧) » .

اخيرا عاتبها معلنا شدة حزنه لوصول كثيرين اليه من القسطنطينية دون
ان يحملوا اليه رسالة منها .

+ + +

(6) Epistle 120. PG 52 : 674 — 675.

(7) Epistle 10 PG 52 : 608 — 609.

الى قيصرية

نستطيع أن نتتبع رحلة البطريق يوحنا خلال رسائله ، خاصة تلك التي بعث بها الى شماسته اوليباس . فقد وصف لها كل شيء بتدقيق .

انطلق الاسقف الأسير من نيقية في الرابع من شهر يوليو سنة ٤٠٤ يصحبه ركب من الجنود يقسون عليه ما استطاعوا . وقبيل وصولهم الى قيصرية كبدوكية كتب الى شماسته يصف لها رحلته قائلا (١) :

« انى اتصور ماذا تكون مشاعرك نحوى عندما ارى افواجا من الرجال والنساء يتدفقون علينا في الطريق ، وفي الفنادق ، وفي البلاد ، يروننا ويبكون !

ان كان الذين يروننى مرة يحطمهم الالم فيكون علينا دون أن يتمالكوا انفسهم ، بالرغم من رجائى وتوسلاتى اليهم ، اذ كانت دموعهم تنهمر باستمرار ، كم بالاكتر تكون عاصفة حزنك ؟! لكن اعلمى انه كلما اعددت العاصفة كثرت المكافآت ، ولكن بشرط ان تتحملى هذا بشكر وشجاعة ... لا تتركى نفسك للحزن ، بل اقبلى العاصفة بتعقل ... » .

وبعد وصوله قيصرية كتب اليها يقول (٢) :

« كلن الذين يقابلوننا في الطريق — الاتون الينا من الشرق أو من ارمينيا أو من أية بقعة في الأرض — تنساب دموعهم كالنهر كلما راونا ، كانوا ينوحون وهم يراغقوننا في الطريق فى انين !

اقول هذا لكى تعرفى ان لى احباء كثيرين ، يشاركوننا عذابنا ، وهذه تعزية كبيرة لنا . فلو أن الأمر على خلاف ذلك لكان الوضع ثقيلًا يصعب احتماله ، وهذا ما يشتكى منه النبى قائلا (٣) . « انتظرت انسانا يشاركنى آلامى فلم يكن ، ومعزين فلم أجد » .

(1) Epistle 9 ad Olympias PG 52 : 608

آخر يوليو ٤٠٤

(2) Epistle 8 ad Olympais PG 25 : 607 — 608 .

(٣) مز ٦٩ : ٢٠ .

بها لها من تعزية عظيمة أن يجد الانسان العالم كله يشتركه أحزانه !

اننا نجد أيضا في فكرى الآلام مصدرا للفرح المستهر .

اذ تفكرين في هذا انزعى عنك غيم الحزن واكتبى لى بأستمرار من
صحتك .

تأملى هذا ان الامور المفرحة والمحنة في الحياة الحاضرة تعبر جميعها .
فان كان الباب ضيقا والطريق كرياً ، فانه مهما يكن الأمر فهو طريق ! اذكرى
هذه العبارة التى كررتها لك كثيراً : ان كان الباب واسعا والطريق رحبا فانه
هو أيضا مجرد طريق (٤) .

عندما تتركين الارض وتنحليين عن الجسد ، ابسطى جناح الحكمة ،
حتى لا يهلكك سواد الدخان . انها أمور ارضية ، لا تنسحبى الى الارض !

ان رايتى ظلما كثيرا صنعوه بنا ، وقد سيطروا على العاصمة ، وتمتعوا
بكرامات ، وساروا في مواكب الحرس ، رددى هذه العبارة «واسع هو الباب
ورحب هو الطريق الذى يؤدى الى الهلاك» .

بالحرى ابكى عليهم . ونوحى من اجلهم !

انهم يصنعون آثام في العالم ، وعوض تفكيرهم في خطاياهم يتمتعون
باحترامات الناس . سيذهبون ومعهم احترامات الناس بكونها جزاءا قد
نالوه ! » .

ثورة في قيصريه كبادوكية :

في اواخر عام ٤٠٤ . اى بعد حوالى اربعة شهور من استقراره في منفاه
« كوكوزه » صور لنا القديس في رسالته الى اولمبياس (٥) الثورة العارمة التى
الهبها غارثريوس Pharetrius أسقف قيصريه ضده فعند دخوله الكبادوك
في يوليو ٤٠٤ قيل له ان الأسقف غارثريوس ينتظرك ، يذهب ويجىء من مكان
الى آخر ومن دير الى دير خشية الا تتاح له فرصة اللقاء معك . . . تعجب
القديس لذلك ، لكن لم يكن يتوقع ما حدث !

غفى الطريق الى كوكوزه عبر على قيصريه ، لكنه سمع أن الأشوريين
Isaurians قاموا بهجوم على قرية كبيرة بقيصريه واشعلوا النار فيها .
خرج الثريبيون (٦) ومعهم الجنود . . . ولكن المفاجأة المرة ان الهجوم لم يكن

(5) Epistle 14.

(٤) مت ١٣ : ٧ .

(٦) التريبيون Tribune هو المدافع عن حقوق الشعب ومصالحه عند
الرومان . قامت بالترجمة عن الفرنسية الاخت عائدة حنا ، وقد روجعت مع
نصوص أخرى .

من الاشوريين بل من جماعة من الرهبان ، اندفعوا نحو البيت الذى يقيم فيه
يوحنا يهددون باحراقه ان لم يخرج سريعا .

لقد ارسل الاسقف غارثريوس مجموعة من الرهبان الاشقياء يعلن لهم
ان يوحنا هو هرطوقى خطير يجب الا يبقى لحظة واحدة في قيصرية !

كان يوحنا مريضا ، ومنهك القوى ، لكن الجنود اضطروا ان يعجلوه
بالخروج من قيصرية قائلين له انهم يخشون على انفسهم من الرهبان اكثر
ما يخشون من هجوم الاشوريين !!!

خرج يوحنا وقلبه يدمع اسى ! لقد نفّض غبار رجليه على اعتاب قيصرية،
لينطلق رغم مرضه مع ركبه مسافرا ستة وخمسين يوما حتى يبلغ كوكوزة .

لقد سجل لنا بقلمه أحداث قيصرية فقال (٧) :

« ان كنت تنوحين بسبب ما حدث لى في قيصرية فان موقفك هذا لا يليق
بك . فان هذه الاحداث بالحقيقة قد ضفرت لى اكاليل نصره براقة ، حتى ان
الجميع يعلنون اسمى ويمدحوننى علنا ، مندهشين ومرتعين بسبب ما تحملته
من سوء معاملة .

على اى الحالات لا تخبرى احدا بهذا ، ولو ان هذه الامور قد صارت
موضوع حديث الكثيرين .

ان سيدى بينيوس Pœanius قد اخبرنى بان كهنة غارثريوس
Pharetrius نفسه قد وصلوا الى الموضع واعلنوا انهم متصدون معى في
الشركة ، وليست لهم شركة ولا اتصال ولا علاقة بأضدادى . لا تخبرى
احدا بشئ من هذا حتى لا نسبب لهم تعباً .

حقا كل ما جرى لى كان مؤلما للغاية ، غانى ان كنت لا اعسود احتمل
شيئا من الآلام بعد ذلك ، فان ما قد تحملته يكفينى لنوال مكافآت بلا حصر ؟
لقد اصابنى خطر بالغ جدا .

ارجوك ان تحفظى هذه الامور في سرية ، غانى اقدم لك صورة مختصرة
للاحداث لا لكى احزنك بل بالحرى لكى اسعدك غاته في هذه الامور بالحقيقة
يكمن ربحى ! هنا توجد ثروتى ! هنا اجد وسائل الخلاص من خطاياى !

في رحلتى اكتشفتنى مثل هذه التجارب من اناس لم اكن قط اتوقع منهم هذا .

اذ كنت على أبواب منطقة كبادوكية ، بعدما هربت من ذلك الرجل الذى فى غلاطية (٨) ، الذى كاد ان يهددنى بالموت ، التقى بى أناس كثيرون فى الطريق يقولون لى : ان السيد غارتريوس ينتظرك ، يذهب ويجىء فى كل موضع خشية الاتحاح له فرصة السعادة بلقائك ، وقد بذل كل جهد ممكن لرؤياك . انه يحتضنك ويظهر لك اهتماما وودا . لقد هيا كل أديرة الرجال والنساء لهذا الغرض .

اذ سمعت هذا الكلام ، ساورنى الشك فى نفسى ، ان يكون الامر على خلاف ذلك ، اذ لم اكن اتوقع هذا الاستقبال . لكننى لم اصارح احدا ممن بشرونى بهذه الرسالة بما يجول فى خاطرى .

الآن ، قد بلغت قيصرية فى احدى الامسيات متأخرا ، وانا فى حالة سيئة للغاية اذ كنت منهكا ، مبهوما فى حرارة مرتفعة جدا ، خائرا ، متألما جدا . عثرت على فندق فى مدخل المدينة ، وبعد عذاب شديد وجدت طبيبا يطفىء حرارة هذا الاتون ، اذ كانت الحرارة بلغت اقصى درجاتها وانا فى يومى الثالث من المرض . علاوة على هذا كنت متعبا من مجهود الرحلة : مشاق واجهاد مع عدم وجود معاونين لى ، صعوبة فى الحصول على الضروريات ، بلا طبيب ، ارهاق مع حر وعدم نوم . وهكذا دخلت المدينة اقرب الى جثة انسان ميت !

عندئذ جاعنى حقا كل هيئة الاكليروس والشعب والرهبان والراهبات والاطباء ، واولونى اهتماما عظيما . فالك كان يخدمنى لكل نوع ويقدم لى العون لكن ضغط الحمى الشديدة هدتنى فكنت فى غاية الخطر . اخيرا هذا الداء قليلا ثم زال .

اما غارتريوس Pharetrius فلم يظهر فى اى موضع ، انما كان ينتظر رحيلى ، دون ان أدري ما يقصده بذلك .

اذ رايت مرضى يزول تدريجيا بدأت افكر فى الاعداد لرحلتى حتى ابلغ كوكوزة واستريح قليلا من احوال الطريق . وبينما انا اتهيا لذلك اذ بنبا يأتينا فجأة ان الاشوريين Isaurians يرابطون فى جماعات بلا حصر لغزو منطقة قيصرية ، وقد احرقوا قرية كبيرة ويرتكبون اعمالا عنيفة واذا سمع الحاكم بذلك اخذ جنوده وخرج اليهم . لقد خشى لئلا يقوم العدو بهجوم على المدينة ايضا ، اذ كان الجميع فى اضطراب وضيق شديد مدركين ان ارض وطنهم ذاتها فى خطر ، حتى تعهد الشيوخ انفسهم بحماية الاسوار .

(٨) ربما قصد ليونتيوس Leontius رئيس اساقفة انقرا بغلاطية ، عدو ذهبى الفم اللدود .

اذ كانت الامور هكذا ، رأينا فجأة عند الفجر رعايا من الرهبان — يليق
بى أن أطلق عليهم هذا اللقب لكى أعبر عن مدى غضبهم — فقد اندفعوا نحو
المنزل الذى نقيم فيه ، وهددوا بحرقه واستخدام العنف الزائد معنا ان لم
نتركه . ولم يخفف من حدة غضبهم الخوف علينا من الاشوريين Isaurians
ولا شدة مرضى ، ولم يكن هناك شئ آخر يجعلهم يتعلقون ، فقد كانوا مصريين
فى غضب شديد حتى خاف الجند منهم . كانوا يهددون بالضرب بل يفتخرون
انهم نجحوا فى ضرب كثير من الجند ضربا مخزيا .

اذ سمع الجند ذلك لجأوا الى وتضرعوا متوسلين : « لو اضطررنا
نسقط فى يدى الاشوريين Isaurians ، انقذنا من هذه الوحوش المفترسة » .

عندما سمع الحاكم بهذا الخبر أسرع الى المنزل مريدا ان يقدم لى
عونا ، لكن الرهبان لم يعطوا توسلاته اهتماما ، حتى خارت قوته حقا .

لقد أدرك خطورة الموقف فلم يجرؤ أن يشير على بالخروج فأتعرض لخطر
محقق (من الاشوريين) ، ولا أن أبقي فى الداخل بسبب ثورة هؤلاء الرجال ،
فبعث الى (الاسقف) فارتريوس Pharetrius يرجوه امهالى أياما قليلة
بسبب مرضى والخطر المحيط بى ، لكن لم يكن لهذا العمل نتيجة ، بل على
العكس فى اليوم التالى وصل الرهبان فى اكثر ثورة ، فلم يجرؤ أحد من الكهنة
أن يقف بجوارى ويسندنى ، لكنهم كانوا فى خجل وخزى بسبب تعليمات
فارتريوس ، فكانوا يبتعدون ويختفون . حتى اذا ما دعوتهم لا يجيبوننى .

ما الداعى للاسترسال فى الحديث ؟ غته وأنا وسط هذه المخاوف
العظيمة ، والموت يكاد يلاحقنى — اذ لم أكن قد شفيت من الالام تماما ،
التيت بنفسى على « الحملالة » فى الظهيرة ، وحملونى الى الخارج . كان
الشعب يصرخ ويزار ، يصيب اللعنات على المتسبب لمثل هذه الافعال ، وكان
كل واحد منهم يبكى وينتحت !

اذ هرت خارج المدينة تسرب الى بعض الكهنة تدريجيا وكانوا يرافقوننى
وهم يكون طوال الطريق .

اذ سمعنا البعض يقول : أين تقتادوه ليموت موتا محققا ؟ إجابنى أحد
المحبين لى جدا « أرجوك أن ترحل ولتسقط فى أيدى الاشوريين ، ولكن ابتعد
عنا فأينما سقطت تكون فى أمان ما دمت بعيدا عن أيدينا ! » .

اذ سمعت السيدة الصالحة سيليسيا Seleucia ، زوجة سيدي
روفينوس الكريمة ، والصح صديقة الى ، ورات بعينها هذه الأمور ، رجتنى

وتوسلت الى ان ألجأ الى منزلها الذى فى ضاحية تبعد حوالى خمسة اميال
عن المدينة ، وارسلت الى رجالا يرافقتنى ، فرحلت الى هناك .

هناك أيضا لم تتوقف المؤامرة المدبرة ضدى ، فانه ما أن عرف غارتريوس
بما فعلته المرأة حتى هدها — كما قالت . بتهديدات كثيرة . أما هى فقد
خرجت تستقبلنى فى بيتها القروى وأنا لا أعلم شيئا اذ أخفت عنى ذلك ، انها
أخبرت وكيلها المسئول بالبيت عن الامر وامرته أن يهينى لى كل وسائل الراحة
الممكنة ، وانه ان جاء بعض الرهبان يهاجموننا ، يشتموننا ويسئون التصرف
معنا يلجأ الى العمال ، يجمعهم من المزارع المجاورة ويصدهم . علاوة على
هذا طلبت الى ان ألجأ فى بيتها الحصين الذى لا يمكن قهره ، فاهرب من ايدى
الاسقف ورهبانه .

على اى الحالات ما كنت اميل الى هذا ، انما بقيت فى المنزل لا أدرك
شيئا مما يدبر لاجلى . فانه حتى هذه الامور (خروجنا من المدينة) لم يكن
كافيا لتهديئة غضبهم على .

كان غارتريوس يزعم السيدة بتهديداته المستمرة — كما قالت هى —
فكان يلزمها باصرار ان تطرنا من ضاحيتها ، حتى انه فى نصف الليل — وأنا
لا أعلم شيئا من ذلك — لم تحتل السيدة مضايقات الاسقف ، وقد أعلمت
المحيطين بى — دون ان تخبرنى — بأن البرابرة على الابواب ، فقد كانت
تخجل ان تعترف انها التزمت بهذا الفعل .

فى نصف الليل جاعنى القس هيثيوس Evethios ، وايقظنى من نومى
وهو يصرخ بصوت عال قائلا : « ارجوك ، استيقظ فان البرابرة على الابواب
انهم قريبون منا جدا ! » .

تخيلى ماذا يكون جالى وأنا أسمع هذا الكلام !

اذ سألته : وما العمل ؟ فانتنا اذ لا نستطيع ان نختبئ فى المدينة لئلا
تكون نهايتنا افظع مما يفعلها بنا الاشوريون ، الزمنى بالخروج .

كان الوقت منتصف الليل ، ليلا مظلمة غير مقرر ، كئيبا وهذا ما زاد
موقفنا خطورة ! لم يكن من يرافقتنا ولا من يساعدنا بل الكل هجرونا ! مع ذلك
تحت ضغط الخوف ، وتوقع الموت العاجل انتصبت واضأت المشاعل ، محتملا
ما أنا عليه . لكن الكاهن امرنى باطفاؤها لئلا يهتدى البرابرة إلينا على ضوءها
ويهاجموننا كما قال ، فاطفأتها .

وسقطت الدابة (٩) على ركبتيها اذ كان الطريق ضيقا ووعرا وملينا
بالاحجار ، فسقطت « الحمالة » التى كنت فى داخلها وبالكاد نجوت من الهلاك
لقد خرجت من « الحمالة » وسرت على قدمي يشدنى الكاهن افيثوس Evethios
بسرعة ، اذ نزل هو أيضا عن دابته . كنت أسير بثقل ، كما كان يقودنى أو
يسحب يدي ، فقد كان السير مستحيلا فى طريق غاية فى الصعوبة ، وسط
جبال وعرة ، فى منتصف الليل .

تخيلى ماذا تكون آلامى وسط هذه المصائب ؟! الحمى تعذبنى ، ومع
جهلى بالخطط المدبرة ضدى كنت أخشى البرابرة وارتعش متوقعا السقوط
بين أيديهم !

الا تعتقدى أن هذه الآلام وحدها — حتى وإن لم أسقط تحت أى آلام
أخرى — تستطيع أن تمحو الكثير من خطاياى وتهبىء لى فرصة لنوال مديح
من الله ؟

إن سبب هذا كله — على الأقل كما أظن — أنه عندما بلغت قيصرية
احاط بى اصحاب المراكز والمثقفون الذين كانوا قبلا شيوخا أو حكاما أو
تريبونيين Tribunes (١٠) ، بل بالحقيقة زارنى كل الشعب يوما ، وأعطونى
اهتماما رائدا ، وعاملونى كحدقة أعينهم . هذا فى رأى ما أثار غارتريوس
بشدة ، فإن حسده الذى أخرجنى من القسطنطينية (١١) لم يتوقف بل تتبع
خطواتى الى هنا .

هذا على الأقل مجرد افتراض من جهتى ، لا أستطيع أن أعلنه بطريقة
إيجابية بل هو مجرد توقع منى .

ماذا أقول أيضا عن الاحداث الأخرى التى وقعت فى الطريق ، والمخاوف
والمخاطر ؟! عندما أذكر هذه الامور يوما غيوما ، اذ على الدوام أتأملها ،
أطير سعادة ، أثب بالفرح كمن وجد كنزا عظيما قد خزن له . هذا هو حالى ،
وهذه هى مشاعرى تجاه هذه الامور .

اذلك أسأل سموك أن تفرحى بهذه الامور ، أن تسعدى ، وتثبى فرحا ،
وتمجدى الله الذى حسبنى أهلا أن أحتمل مثل هذه الاشياء .

أتوسل اليك أن تحفظى هذه الامور لنفسك ولا تخبرى أحدا بها ولو أن
أغلب الجند سيملاون المدينة بهذه القصة اذ هم أنفسهم تعرضوا لخطر
عظيم . . . »



(٩) البغل .

(١٠) التريبون هو المدافع عن حقوق الشعب ومصلحه عند الرومان .
(١١) لم يحضر المجمع لكنه بعث الى الاساقفة برسالة يشجعهم على
نفيه قائلا لهم أن يعتبروه كأنه حاضر بينهم .

في كوكوزة

Cucusus

في أواسط سبتمبر سنة ٤٠٤م وصل الراكب الى كوكوزة حيث استقبل
المعظم يوحنا بكل وقار وتكريم ، اذ كان اسقفها اذلفيوس على جانب من
القداسة والتقوى . فاستراحت نفس البطريك المنفى هناك حيث وجد الهدوء
والراحة ، كما وجد في شعبها الفقير غنى الروح .

حدثنا الاب البطريك في رسائله عن المدينة وموقعها ومناخها وظروفها،
ووصف لنا مشاعره واحاسيسه في دقة بالغة ، وكتب لنا عن امراضه واتعابه
كما سجل لنا كرازته واعماله الرعوية .

فمدينة كوكوزة على حد تعبيره « يخيلى لى انى قد بلغت أقصى حدود
المسكونة » تقع بين سلسلتين من الجبال، خالية من الاماكن العامة والاسواق
التي تنبت الحياة الاجتماعية وتربطها بالعالم الخارجى (١) .

دخل الاب متفاه الاخير منهك القوى ، اذ يقول (٢) : « كنت في غاية
التعب بعد رحلة شاقة استمرت سبعة ايام لا تتصورى معنى سموك مقدار
ما قسيناها ! لقد امتلأنا خوفاً من الاشوريين ، واصابتنى حمى شديدة ،
واخيراً بلغنا كوكوزة اكثر اماكن العالم انعزالا » .

مع عزلة المدينة واتعابه الجسدية شعر القديس بجو من الراحة النفسية،
فقد دخل المدينة حيث يستطيع أن يتحصن الى حد ما من الاشوريين الذين
كان يتعرض لهجومهم في الطريق القفر ، كما استراحت نفسه من عداوة
الاسقف اثريبيوس وربهائه ، هذا وقد استقر في موضع يقدر أن يجد شيئاً من
الاستجمام لجسده الهزيل .

(1) Sources Chrétiennes, vol 79, p 8.

(2) Epistle 224 : PG 52 : 739.

انه يقول (٣) :

« لقد بلغنا كوكوزة في أحسن حال ،

وجدنا مدينة بغير متاعب ولا مضايقات ، وعشنا في راحة تامة ، ليس
من يشتمنا ولا من يسئ إلينا » .

« تمثل كوكوزة العزلة بعينها ، لكن هذه العزلة أهون عندي من الاعداء
والمتعاب . لذلك أقول انى بلغت هذه العزلة كمن يصل الى الميناء ! » .

لقد اعتبر نفسه في راحة خلال اسابيعه الاولى مع أنه لم يكن حرا يذهب
حيث يشاء (٤) .

لقد وجد في حاكم أرمينيا حبا واهتماما كما يظهر من رسالته الى الاسقف
قرياقوص (٥) ، اذ يقول له « ان سيدى سوباتير Sopater حاكم أرمينيا ،
التي انا سجين فيها ، يعاملنى كاب بل يخدمنى أكثر من أب . واذا ابحت عن
طريقة بها أعبر عن شكرى له أجد الفرصة سانحة في محبتك لى وذلك ان له
ابنا يعيش منذ فترة طويلة في مدينتك لاتمام تعليمه . فأرجوك ان تسرع برؤيته
وتظهر له خدمتك ، بهذا تدفع عنى ديونى لابيه ، وتكون نافعا لى . اعطه ان
يلتصق بالحكام وبعائلتك وبكل الذين يقدررون ان يجعلوه مرحا في غربته ،
فيكون كمن في وطنه . بهذا يصير هذا الشاب سعيدا ، وتسعدنى أنا أيضا
وتسعد نفسك ، بهذا تلزم الحاكم — في شخص ابنه — المملوء حنانا وسموا
ان يكون ميناء يلجأ اليه كل المحتاجين » .

العزلة تعلن حبه !

لقد شعر القديس يوحنا باليتم في كوكوزة — ان صح لنا هذا التعبير —
فقد حرم من رعيته التي تمثل أحشائه الداخلية وكل حياته بل امتصت كل
مشاعره وأحاسيسه . . . كان جسده وقلبه ولسانه وقلبه . . . كل طاقته
وتصرفاته تتفجر حبا !! على العكس مما اتهم به من اعدائه انه كان متكبرا
محبا للعزلة عن الناس !

في كوكوزة كان يشفق لو زاره اخوته وأحبائه ، لكن البلد بعيد والطريق
مملوء أخطارا والجو رديء للغاية . . . لهذا كان كثيرا ما يعلن لهم شوقه ان
يراهم ويسمعهم لكنه كان يعود يشدد عليهم الا يخاطروا بالحضور اليه . ولم
تكن لديه الا وسيلة الرسائل يبعث بها وينتظر ردها ، ولو ان البريد كان بطيئا
وكثيرا ما كان السعاة يرجعون بها بسبب الخوف من اللصوص .

(3) Ep. 84 , 236 . PG 52 : 652 , 740 .

(4) Ep. 74, PG 52 : 648 ,

(5) Ep. 64 PG 52 : 644 ,

تستطيع أن تلمس مشاعر الحب المرهفة للبطريق المتألم في كلماته التي وجهها الى الدوق ثيودوسيوس (٦) : « انك لم تكف عن تقبيل رسائلي ، أما أنا فقد قبلت كاتب الرسالة . حوطت بيدي حول عنقه وقبلت رأسه الغالية على . أية تعزية لي ، فانه لم تصلني رسالتك بل (كأنني) رأيتك بجوراي ، تحيا معي ! » .

لقد راينا في أكثر اسهوب كتاباته لشماسته أولمبياس المتفجرة برائحة الحب الروحي الحقيقي !

كان يهتم بكل صغيرة وكبيرة في حياة الناس . . . انه يحبهم ! فيكتب الى الطبيب Hymnetus يوصيه بالاستشف سيليكوس Seleucus قائلا (٧) : « لقد عرفت طبيعة مرض سيدي المؤقر ، فحاول ان تهديء آلامه مستخدما غنك في ابرائه من ضعفه ، هذا الفن الذي طالما أنقذ من الغرق كثيرين تعرضوا لعنف هذه الامواج » .

لم تقف رسائله عند حدود العلاقات الشخصية ، لكنه كن مهتما بأمور الخدمة ، يتعرف على أخبارها بواسطة الزوار (٨) ويكتب مشجعا ومعزيا وناصحا وموبخا أيضا فيكتب الى غالاتين ان يسند دومتيان المسئول عن خدمة العذارى والارامل الفقيرات قائلا له (٩) : « ألجأ اليك كمن يلجأ الى الميناء لكي تنقذهن من غرق الجوع . اتوسل اليك بشدة ان تسنده . أنت تعرف ان لي هبات عندك ، لقد تركتها لك كي تقدمها للفقراء » .

كما يكتب الى الكاهن ثاوفيلس يشجعه على الاهتمام بحياة المؤمنين الروحية ومعاونتهم في الجهاد ، وأن يبعث اليه يخبره بأحوالهم حتى يطمئن عليهم (١٠) .

كما كتب رسائل شديدة الى الكاهن ثاوفيلس وساكيس مساعده يوبخهما قائلا (١١) : « من يستطيع ان يبرئكما بينما قد حرم البعض ونفوا وطردها ، ولا تقدمان للشعب الذي حطمته العاصفة معونة وتعلينا !! » .

وأرسل الى العلماني ملخس يعزيه في وفاة ابنته قائلا له (١٢) : « تهلل فانك قدمت روحها لسيد المسكونة ، كما يقتم المزارع الصالح ثمرا ناضجا » .

(6) Ep. 58 PG 52 : 641.

(7) Ep. 38 PG 52 : 631.

(8) Ep. 63 PG 52 : 613.

(9) Ep. 217 PG 52 : 730 .

(10) Ep. 119 PG 52 : 673 - 674.

(11) Ep. 203 PG 52 : 723.

(12) Ep. 71 PG 52 : 647.

وكتب الى الحاكم Paeanius المحب للروحيات يقول له (١٣) :

« لقد وهبتنى جناحين ، وسببت لى فرحا عظيما ، لانك وانت تعلن لى عن الامور المحزنة ذياتها بكلمة تفرض نفسها على كل الاحداث « مجدا للرب فى كل شيء ! » .

هذه الكلمة تسبب لابليس جرحا مميتا ، وتهب لقاتلها هدوءا وسعادة وسط الضيقات .

اهتم ايضا القديس يوحنا — وسط ضيقاته — بالآلام التى تعرضت لها ارساليات الكنيسة فى فينيقية فأرسل الى الكاهن روفينوس فى صيف عام ٤٠٦ م يقول له (١٤) :

« لقد علمت أن النيران قد اشتعلت من جديد فى فينيقية ، وأن ثورة الوثنيين قد ازدادت ، وكثير من الرهبان قد ماتوا لذلك الزمك أن تسرع بما استطعت لتقف فى جبهة القتال ، انى أعلم ان مجرد وجودك وحده يجعل الاعداء يهربون ، وأن صلواتك وعذوبتك وصبرك وشجاعتك التى هى من صميم حياتك ، هذا كله يهدم ثورتهم ويسند أصدقائك ويسبب أعمالا صالحة كثيرة . اريد ان أعلم أنك قد وضعت قدميك على حدود فينيقية حتى يكف عني اضطرابى .

ان كان ممكنا ، فلتبعث الى خطاب فى كل فرصة حتى اتبع مدى ما وصلت اليه . وان كنتم قد اقتربتم من الهدف فانه فى حالة وجود معوقات اجاهد أن تغلب عليها . غانى أبعث بعشرة آلاف أسألهم أن يعاونوك . . . حتى لو كانوا فى القسطنطينية . ان كنت تعتقد بضرورة ارسال اخوة ، أطلب منى هذا .

اما عن رغبات القديسين الشهداء فاطمئن ، فقد أسرع وأرسلت الى سيدى الكاهن الكلى التقوى Geronce وسيدى أتريوس الكلى الورع أسقف أرابيسوس اللذين لديهما رغبات حقيقية وسيسلمونها لك بعد قليل فى فينيقية .

لا تهمل شيئا اذن ، فانك ترى غيرتى التى أظهرها لك . أسرع لى تتدر أن تنتهى من بناء الكنائس التى ينقصها السقف ، قبل حلول فترة الشتاء» هكذا أعلن اهتمامه بالخدمة وتشجيع الآلاف لمساندة المضطهدين بفينيقية مشجعا الكاهن روفينوس على بناء الكنائس والاستعداد للاحتفال برغبات الشهداء . .

(13) Ep. 193 PG 52 : 719 - 720.

(14) Ep. 126 PG 52 : 685 - 687.

بعث أيضا رسالة رائعة للمرسلين المضطهدين يقول (١٥) :

« الى الكهنة الرهبان فينيقية ، الذين يعلمون الوثنيين .

لا يترك القباطنة السفينة وهى تفرق ، ولا الاطباء المرضى وهم فى خطر . لماذا أقول لكم ذلك حتى لا تنسحبوا من فينيقية بسبب الاضطرابات التى قامت فيها ؟! فانه كلما ازدادت الاضطرابات وكثرت المشاكل وارتفعت الامواج بتسوء التزامكم بالاستمرار ومضاعفة مجهوداتكم مع ثباتكم وسهركم وغيرتكم ، لكي لا يهدم احد بناءكم الجميل ويفسد زرعكم .

أذكروا التعب الذى تحملونه والالم الذى تتعرضون له والصالح الذى تكملونه ، وغلبتكم على الكثير من العادات الوثنية التى نلتموها بنعمة الله ، وتحسن الموقف فى فينيقية ، فان هذا كله يزيد من مكافآتكم واكاليلكم . فى القريب العاجل يحل الله كل المشاكل ويكافئكم على صبركم .

اثبتوا اذن وتمموا عمالكم .

لا ينقصكم شيء ، فقد أعطيت الاوامر ان يقدموا لكم الملابس اللازمة والاحذية والمئونات وكل ما يحتاجه اخوتكم .

ان كنت وانا وسط برية كوكوزة ارى نفسى غارقا فى هذه التجربة المرة ، اهتم بارسائيتكم الى هذه الدرجة ، فكم بلخرى يكون اهتمامكم انتم وقد اخذتم كل ما تحتاجون اليه بوفرة فانه يليق بكم ان تبذلوا كل ما فى وسعكم . استحلفكم الا تجعلوا احدا يبتغى فيكم الخوف . فان الاسباب كثيرة التى تجعلنا نترجى موقفا افضل ، كما ستعرفكم رسائل سيدى الكاهن الكاى القسوى قنسطس ...

أرسلت اليكم يوحنا ليسند روحكم .

لقد قمت بواجبى وشجعتكم بكلماتى ونصائى ، وسهرت لى لا ينقصكم شيء ... فانه لم يعد شيء ما يوبخنى ان كنتم تتركون انفسكم للكذابين والمنافقين عوض الانصات الى » .

فى اختصار كتب القديس الكثير ، وكانت كتاباته تحمل فيضا من الحب مع التزام بالمسؤولية تجاه الكنيسة وخدامها واولادها ، حكام واسقفه وكهنة وشمامسة وشماسات ورهبان وعلمانيين ... لاجل الدخول بكل احد الى حياة « الشركة العملية العميقة مع المسيح يسوع » .

(15) Ep. 123 PG52 : 676 - 678.

أخيرا فان رسالته الى البيدوس (١٦) تكشف لنا المجهود الشاق الذى تحمله القديس فى كتابة كل رسالة ، اذ يعتذر له عن عدم رده على رسائله لوجوده فى مكان أشبه بسجن بل أكثر منه قسوة، مع ندرة الاشخاص الموثوق فيهم لحمل رسائله ، هذا بجانب مرضه الذى يهدده ، فقد كان ملقيا على الفراش طوال الشتاء انه يقول له « هذا هو سر سكوت قلمى لا قلبى فانى وأن كنت فى برية بعيدة أكثر من هذه التى انا أعيش فيها ، فان ذراكم تظل محفورة فى ذهنى » .

ولكى نتلمس ذلك نتعرض — ولو قليلا — لما احتمله القديس من آلام فى كوكوزة كما توحىه الينا رسائله .

آلامه فى كوكوزة

فى السنة الاولى تألم القديس كثيرا بسبب قسوة الجو التى لم يعتد عليها فى وطنه ، فشتاء كوكوزة قارس البرودة وصيفها شديد الحرارة ، وكلاهما ضاران بصحته المرهفة ، اذ يقول (١٧) « ان شدة الحر فى أثرها على لا تقل حدة عن شدة البرد » .

ففى ربيع سنة ٤٠٥ سجل لنا فى رسالته الى أولمبياس شماسه ظروغه القاسية التى يعيش فيها ، قائلا (١٨) :

« اذ أنقذت من أبواب الموت نفسه اكتب هذه الرسالة الى السيدة الحليفة ، وانا سعيد جدا للقاء مع خادمك فان الشتاء كان أشد من القسوة ، فجلب على عاصفة من المتاعب الداخلية تقلقك كثيرا .

ففى الشهرين الماضيين لم أكن افضل من ميت ، بل بالحرى اردا ! ان كل ما كان لى من حياة هو بالقدر الذى فيه اشعر بالاهوال المحيطة بى . كان النهار والفجر والقمر كل هذه هى ليلة واحدة بالنسبة لى ، اذ أقضى كل وقتى ملازما الفراش تماما . وبالرغم من كل الوسائل التى استخدمتها بغير حدود لم أستطع ان ازيل آثار البرد المميتة . فاذا احتفظت بالنار مشتعلة احتملت الكثير جدا من الدخان الكئيب وبقيت محبوسا فى حجرة واحدة ، ملتحفا بأكبر قدر من الاغطية ، لا أجسر أن أضع قدمى خارجا لقد تحملت الآلام مرة : قىء مستمر يلازمه صداد دائم ، فقدان للمزاج ، أرق بغير انقطاع !

هكذا اجتزت بحر آلامى المظلم المتسع بتعب ، لكننى لا أريد أن أذكر لك مأسى كى لا أحزنك ، فانى قد شفيت الآن من هذا كله . لقد اقترب الربيع وحدث تغير طفيف فى الجو ، لذلك انتهت أتعابى تلقائيا » .

(16) Ep 188 PG 52 : 695 .

(17) Ep 146 PG 52 : 698 .

(18) Ep 6 : 1 .

هذا عن متاعب البرد القاسى ، لكن تزداد بالاكتر آلامه بسبب هجوم
الاشوريين ، اذ يقول (١٩) :

« كنت أنتقل من مكان الى آخر فى قمة فصل الشتاء . فتد كنا تارة
نسكن فى المدن وأخرى فى المخابىء أو الغابات خوفا من الاشوريين .

كنا قبلا فى آمان فتركنا الاماكن المتفرقة واتجهنا الى ارابيسوس Arabissos
لأنها اكتر حصانة من غيرها ، الا ان الحياة فيها ثقيلة ، أقسى من حياة السجن
فان الاشوريين دائما يهددوننا . . . والطاعون متفش بين الناس ، نخشاه
لان المكان ضيق والازدحام شديد .

لقد مرضت فى الصيف بسبب هروبي فى الشتاء ، لكنه قد زال الكثير
وبقى القليل » .

مرة أخرى اذ تشتد عواصف الاشوريين حتى يلتجئوا للاماكن المحصنة
يقول :

« ما اكتر الآلام فى ارمينيا ؟!

نقد هبت العاصفة فخطمت كل شىء !

أينما توجهت لا ترى عينك الا ينابيع الدماء ، واشلاء الجثث ، والمنازل
مهدمة ، والمدن محطمة ! » .

واذ جاء الشتاء التالى كان الجو أفضل أو ربما يكون القديس يوحنا
قد تعود على الجو الجديد والظروف القاسية التى يعيشها ، اذ يقول فى
خريف عام ٤٠٧ (٢٠) :

« لم يغلبنى سوء احوال الجو ، ولا قفر الاقليم ، ولا ندرة المؤونة ،
ولا عدم وجود مرافقين ، ولا عدم مهارة الأطباء ، ولا الحرمان من الحمام ،
ولا الحبس فى حجرة واحدة كما فى سجن ، ولا عدم امكانية الحركة التى
اعتدت عليها على الدوام بسبب الحاجة ، ولا استخدام النار وخروج الدخان
ولا الخوف من اللصوص ولا حالة الحصار المستمر ، ولا شىء من مثل ذلك ،
بل على العكس انى فى صحة أفضل مما كنت عليه فى أى موضع . . . » .

« أنتى فى صحة جيدة وطمأنينة كاملة ، حتى انهش الارمن كيف يمكن
لإنسان ضعيف مثلى يشبه نسيج العنكبوت أن يحتمل البرد القارس ،
ويعيش بسهولة ، مع أن الذين اعتادوا على العيش هنا يحتملون قسوة
الشتاء بصعوبة » .

(19) Ep 68 ; 69 FG 52 . 646 .

(20) Ep 4 : 4 .

أخيرا نختم حديثنا عن هذه الفترة بأنها فترة آلام عاشها القديس لى يكتب لنا فى رسائله ومقالاته « خبرة حية » لحياة الآلام ، وتلامس حقيقى مع « عناية الله » وسط الضيق . . . فسجل لنا :

- ١ — كثيرا من الرسائل التى تحمل طابع مقالات عن الآلام وعناية الله بنا وسط الآلام .
- ٢ — مقالة عن « لا يستطيع احد ان يؤذى انفسنا ان لم يؤذ الانسان نفسه » .
- ٣ — مقالة عن « عناية الله » .

فى هذه المقالات نلمس تحولا جديدا فى حياة القديس ، اذ صار يكتب باسهاب عن « حبيب ايو ب » . . . حتى ان بعض كتاباته اذ يذكر اسمه ينسى الموضوع ويكتب عن ايو ب فى استطالة ، ليعود فيعتذر انه لا يستطيع ان يخلع نفسه عن « حبيب ايو ب » !

ان كان لم ينسى صداقته القديمة مع القديس بولس . . . اذ شرب منه روح الكرازة والحب ، فانه دخل فى صداقة قوية مع رجل الآلام ايو ب خلال ممارسته للآلام !

موقف أسقف روما

أرسل القديس يوحنا — قبل نفيه الثانى — الى ثلاثة أساقفة : أسقف روما ، وأسقف ميلان ، وأسقف أكويلىة ، رسائل ثلاث تحمل نصا واحدا ، دون أن يخص أسقف روما شيئا دون الاسقفين . وكان رد أسقف روما يحمل تشجيعا على احتمال الآلام مع محاولة السعى لعقد مجمع مسكونى عام لبحث القضية .

لم يكن ممكنا لأسقف روما ان يتخذ قرارا مفردا ، ولا حتى بالاتفاق مع أساقفة الغرب وحدهم ، ولا حتى بعقد مجمع مسكونى بأمر امبراطور الغرب هوناريوس وحده ، انما كل ما كان يقدر ان يفعله انه عقده مجمعا محليا برئاسة — بلا شك — لا للبت فى قضية بطريرك القسطنطينية ، فبان هذا ليس من اختصاصه ، انما للتشاور وتدارس ما يمكن عمله ، وفعلوا رأوا أن يطلبوا من امبراطور الغرب ان يرسل الى اخيه امبراطور الشرق لى يسمح بعقد مجمع مسكونى يضم أساقفة من الشرق والغرب لدراسة هذه المشكلة . واذا استصوب الامبراطور ذلك أرسل وفدا من أساقفة وكاهنين وشمامس يحملون رسالة من هوناريوس يترجى أركادىوس الموافقة على ذلك الطلب . لكن ما أن دخلوا حدود الامبراطورية الشرقية حتى اعتبر أركادىوس هذا

تدخلوا في أمور الشرق فألقى القبض عليهم وأسبأ معاملتهم وردهم إلى الغرب ... وهنا وقف كل عمل يمكن للكنيسة الغربية أن تقوم به !

هذا هو موقف الكنيسة الغربية ، وقبل أن نتحدث عن موقف كنيسة أنطاكية نود أن نسجل بكل فخر واعتزاز أن تلميذه « القديس نيل السينائي » بعث برسالتين إلى الإمبراطور أركاديوس يعاتبه بشدة على الظلم الحادث في مملكته ...

جاء في الرسالة الأولى (٢١) :

« كيف تقدر أن تترجى خلاص القسطنطينية من الزلازل المستمرة والصواعق ، مادامت الجرائم ترتكب بلا عدد في قسوة تفوق القانون ؟! لقد تجرأتم ونفيتم عمود الكنيسة ، ضياء الحق ، بوق المسيح ، الطوباوي يوحنا الأسقف !!

كيف تستطيع أن تطلب منى الصلاة عن المدينة المحطمة بسبب غضب الله ، فتعيش كل يوم تحت تهديد نيران السماء ، بينما تلتهمني حمى اليأس ، وأفكارى مضطربة وتفكرى محطم بسبب أحداث بيزنطة التي تخالف كل القوانين ؟! » ،

وفي رسالته الثانية يتعرض للإمبراطور مباشرة ، قائلا (٢٢) :

« لقد نعت يوحنا ، أكثر أنوار العالم إثراقا ، أسقف بيزنطة ، نعيته ظلما بضعفك الشديد متأثرا باصرار الاساقفة الذين لم يكن لهم التفكير الحق ، فحزمت الكنيسة الجامعة من تعاليمه التي بلا لوم ! لتعاقبك السماء !! » .

نعود إلى كنيسة أنطاكية ، فقد كان موقفها مؤلما ، لقد بلغ الأسقف فلافيان من العمر ما يقرب من المائة عام ، فكان الاساقفة المضادون ليوحنا يدبرون المكائد مثل أساقفة جبالة وحلب وعكة وطرسوس . وفي عام ٤٠٤م رقد فلافيان فهرع الاساقفة إلى رسالة بورغوريوس ضد ارادة الشعب . ولما قاومه الشعب صدر قرار امبراطوري يوجب الاعتراف بارساكيوس أسقفا للقسطنطينية وثاوغيلس للاسكندرية وبورغوريوس لانطاكية مع استبعاد غير الخاضعين لهم .

وفي عام ٤٠٥م توفي أرساكيوس فترجى الارثوذكس عودة راعيهم يوحنا من النفي إلى القسطنطينية ، لكن سفرين ومن حوله خشوا من ضغط الشعب على أركاديوس خاصة وأن أوغندوكسيا قد ماتت ، فأسرعوا باقامة اتيكوس

(21) Epistle II 265 PG 79 : 336.

(22) Epistle III 279 PG 79 : 521.

Atticus السبسطى أسقفا على القسطنطينية ، فابى بعض الاساقفة الاشتراك معه وتنحى عنه الشعب . . . فلكى يقطع المتآمرون خط الرجعة عليهم سعوا لدى الامبراطور ليصدر أمرا بنقله من كوكوزة الى بيتوس على الساحل الشرقى من البحر الاسود ، وقد أمر الجند بالأسراع فى التنفيذ . . . وقد وعدوا الجند بمكافأة أن اتخذوا التدابير اللازمة لموته فى الطريق ، حتى يتخلص الامبراطور من قيام أى ثورة تطالب بعودته .

انطلق الركب فى اواسط يونيو ٤٠٧م ، وكانوا يسرون به فى شدة الحر حتى اعترته حمى شديدة ، ومع ذلك لم يسمحوا له بالراحة . واذ راوا قوته قد خارت تماما نزلوا الى كنيسة صغيرة فى كومانة Comana ، دفن فيها الشهيد الاسقف باسيليكس ففضى البطريك المتالم ليلته فيها ، حيث ظهر له الشهيد يقول له : تشدد وتقو يا أخى يوحنا ، فاننا غدا نكون سويا ! وكان قد سبق فظهر لكاهن الكنيسة قبيل مجيء البطريك يقول له : أعد كل شيء لأخى يوحنا .

واذ لاح الصباح طاب يوحنا من الجند امهاله حتى الظهيرة فلم يقبلوا والزموه بالسفر فورا . ولم يطل بهم السير اذ راوه قد أشرف على الانتقال فعادوا به الى الكنيسة سريعا . واذ دخلها القديس يوحنا لبس ثوبا ابيض وتناول الاسرار المقدسة ونطق عبارته المفضلة دائما :

« ليكن الله مباركاً فى كل شيء ! آمين » .

قال هذا واغلق الذهبى الفم غمه وأسلم روحه فى يدى الله فى ١٤ سبتمبر سنة ٤٠٧م

عودة جسده

بعد حوالى واحد وثلاثين عاما من ثياعته ، فى ٢٧ يناير من السنة السادسة عشرة من تولى ثيودوسيوس الصغير الحكم (٤٣٨م) أرسل الامبراطور جماعة لنقل جسده من كومانا الى القسطنطينية .

ولما بلغوا خلقيدونية خرجت افواج الشعب تستقبل راعيها الذى استشهد بدون سفك دم ، باذلا حياته عنهم ، واحتفلوا به احتفالا مهيبا ، وحملوه الى كنيسة الرسل ، حيث خر الامبراطور أمامه فى انسحاق شديد والدموع تنفجر من عينيه ، طالبا الغفران عن نفسه وعن والديه أركاديوس وأفدوكسيا ! .

+ + +

الباب الثاني

القديس يوحنا الذهبي الفم

ST. JONN CHRYSOSTOM

شخصيته — منهجه — لاهوتياته وافكاره

- + شخصيته .
- + منهجه —
 - ١ — منهجه الانجيلي .
 - ٢ — منهجه الكرازي .
 - ٣ — منهجه الكنسي .
 - ٤ — منهجه السلوكي الايماني .
 - ٥ — منهجه الاجتماعي .
- + لاهوتياته وافكاره .

تقديم

يليق بنا بعد هذا العرض السريع لسيرة القديس يوحنا الذهبي الفم أن نقف قليلا لنتعرف على شخصيته ، عندئذ ندرس بشيء من التفصيل منهجه في دراسة الكتاب المقدس ، وفي الكرازة به ، ونفهم نظريته التعبدية والاجتماعية وننلمس لاهوتياته وأفكاره من واقع عظاته وكتاباتاته .

وان كان يصعب على جدا دراسة هذه الامور كوحدات مستقلة ، لانها في مجموعها تمثل « حياة واحدة غير مجزأة » ، تتضافر معا ، وتتداخل فيما بينها ، كل منها ليس الا جانب من جوانب الامور الاخرى ومحصلة لها .
شخصيته مثلا هي محصلة دراساته وخبراته الانجيلية والكرازية والتعبدية والاجتماعية مسلمة بين يدي روح الله القدوس الذي يعمل فيه . ودراساته الانجيلية هي خبرة مفاهيم وحياة لا تنفصل عن شخصيته او عبادته او كرازته او لاهوتياته وأفكاره ، وهكذا . . .

لكنني ، من أجل الدراسة التزممت أن أفصل بين هذه الامور في وحدات وان كنت أرجو — في المسيح يسوع ربنا — ألا أفقدها ترابطها معا ووحدانيتها، حتى لا أفسد حيويتها وأسييء الى الشخصية التي اكتب عنها .

+ + +

الفصل الأول

شخصيته

اذ نتحدث عن شخصية هذا الاب ، انما نذكر قديسا يتلألا اسمه في سماء الكنيسة ، شرقا وغربا . شهدت له الكنيسة بقداسة حياته فضمته الى « مجمع قديسيها (١) » ، وأدركت فاعلية كلماته فترجمت الكثير من عظاته وكتاباتهِ عبر كل العصور ، ينسخها الرهبان لنفعهم الروحي ، ويتلوها الكهنة اثناء العبادة الليتورجية لتثقيف شعبهم (٢)

ما هي سمات هذه الشخصية الفريدة ؟

١ — لم يكن القديس يوحنا رجل سياسة مثل القديس أمبروسيوس الذي دخل في صراعات مع السلطات المدنية، انتهت باصطياده قلب الامبراطور ثيودوسيوس التائب ، فانفتح له البلاط الامبراطوري بكل امكانياته لخدمة الكنيسة وتوطدت العلاقات بينهما فصارا رفيقين مخلصين وقد مات الامبراطور مستندا على القديس أمبروسيوس اعظم صديق له ، مرددا اسمه على شفثيه . لكننا نود ألا نتجاهل قدرة القديس أمبروسيوس — خلال هذه الصراعات او تلك الصداقة العارمة — الا ينحرف قط عن عمله الروحي الكنسي ، وقدرته الا يميل بالكنيسة نحو روح السلطة الزمنية فتطلب سلطانا ليس لها !

لم يقم القديس يوحنا الذهبي الفم بدور كهذا . حقا لقد رحب به الامبراطور أركاديوس بشدة ومعه أفدوكسيا زوجته وفتح له البلاط على مصراعيه ، لكن ظروف القسطنطينية في ذلك الحين أوحى إليه أن يضع حدا بين البلاط ودار الاسقفية وجاءت عظاته العنيفة ضد الاغنياء وهجومه — بطريقة او بأخرى — على تصرفات الامبراطورة وحاشيتها وبعض المسؤولين الخ . . . الى غلق باب البلاط في وجهه بل والى طرده من دار اسقفية !

٢ — لم يكن ايضا فيلسوفا مسيحيا على مثال العلامة أوريجين والقديس اكليمندس الاسكندري وغريغوريوس أسقف نيصص ، الذين رأوا الالتزام بالفلسفة المسيحية كطريق لتحطيم الفلسفة الوثنية . اما القديس يوحنا فقد خشي الفلسفة الممثلة في ذلك الوقت في الأفلاطونية الحديثة ، متطلعا اليها كآخر معائل الوثنية المحتضرة .

(١) كما في القداس الباسيلي لكنيسة الاسكندرية .

(٢) كادت هذه العادة تتلاشى تماما بعد ما شعر الكهنة بضرورة الوعظ لشعبهم كممارسة لابوتهم . . . دون الالتزام بعظات مكتوبة الا القليل النادر .

لقد آمن أن الفلسفة الحققة هي « التقوى » أو الحياة الإيمانية العملية،
وهي وحدها التي تقدر أن تشبع احتياجات القلب وتجذب غير المؤمنين إلى
الإيمان .

احتقر القديس يوحنا الفلاسفة فدعاهم « أطفالا نهمين في حب المجد
الباطل (١) » وأزدرى بأثينا مركز الفلاسفات اليونانية ، اذ لقبها
« مدينة الثرثرة (٢) » .

٣ — لا يعتبر القديس يوحنا « لاهوتيا » ، بالمعنى الذي فيه لم يقدم
مفاهيم لاهوتية جديدة ولا شغل نفسه بالبحث في اللاهوتيات ، فقد كان واعظا
قديرا أكثر منه لاهوتيا ، موجهها للنفوس أكثر منه صاحب نظريات ، متمسكا
بالتعليم الأرثوذكسي المستلم بكل أمانة لا بالبحث والمناقشة والحوار ، إنما
بتقديمه طعاما بسيطا سهلا خلال عظاته ومقالاته ، يشبع به قطيعه دون تعب.

٤ — عرف عنه أيضا أنه ليس مناضلا للهراطقة مثل القديسين
أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير وديسقوروس ، لكنه كان راعيا ساهرا
على رعيته لا بالجدال مع الهراطقة إنما بتقديم كل حبه لشعبه مع حكمة
وسهر دائم ... ولا يستخدم الجدل الا عند الضرورة القصوى .

لقد حدثنا عن فلسفة هذه بقوله (٣) « ما دام الرعاة ليسوا في مواجهة
وحش كاسر ، فإنهم يسترخون تحت شجرة سنديان أو أرز ، يعزفون الناي،
تاركين قطيعهم يرعى في حرية . أما اذا دبرت الذئاب هجوما فإنه للحال يقوم
الرعاة بحيوية ويلقون عنهم المزمار أو الناي متسلحين بالقلع . هكذا أنا
أفعل ! » .

٥ — كمن القديس ناسكا ، تكشف لنا ملامحه الجسمانية عن شخصية
رجل ناسك (٤) : « فقد كان من جهة مظهره انسانا نحيلًا ، قليل الجسم ، له
وجه مريح للنفس لكنه جاد ، له جبهة مجعدة ورأس صلعاء وعينان غائرتان
حادتان وثاقبتان . أما ميوله فبسيطة للغاية ، دائم النسك ، مرهف الحس ،
يحمل مشاعر رقيقة في كل أمر ، يعبر عنها بطريقة قاطعة .

كان لطيفا ، طيب القلب ، ودودا ، مرحا مع خواصه ، متحفظا جدا
في علاقته بالآخرين ... (٥) .

(1) In Act PG 60 : 48 .

(2) Ibid . 268 .

(3) Adv . Jud PG 48 : 871 .

(4) F . Gayré : Patrologie et Histoire de la Theologie . 1945, t 1
p 459 .

(5) J . Tixeront : Patrologie, p 264 - 265

كان ناسكا جادا في تقشفه دون أن يدخل به النسك الى الهروب من التزامات الرعاية أو المبالغة في الانشغال بالتأملات الالهية ... بل بالحرى يدفعه نسكه للبذل والجهد كل يوم بحب من أجل خلاص الناس ، دون أن يحرم نفسه من جلساته اليومية الهادئة مع كلمة الله وفي وسط تدبيره لخدمة اولاده المتسعة لم ينحرف قط عن الروح الرهباني ...

٦ — كان قديسنا رجلا انجيليا يتطلع الى الكتاب المقدس بعهديه بكونه « تذرا من قبل السماء » (٦) ، تتلقفه نفسه الداخلية ، وتجهزه ليلا ونهارا ، لا لتبلغ الى تأملات لاهوتية شاهدة ، ولا استعدادا للقضاء عظات منمقة ، أو تسجيل مقالات مكتوبة .. لكن غايته الاولى الدخول العملى فى « الحياة الانجيلية التقوية » ليعيشها هو ، وليعيشها شعبه معه ...

احب الكتاب المقدس ليمارس وصيته استعدادا عمليا للحياة الابدية ، دون أن يعزل هذه الخبرة عن اخوته الذين احبهم كنفسه !

كان الكتاب المقدس بالنسبة له « مرعى » تتغذى فيه نفسه ونفوس اخوته ، الامر الذى يفرح قلبه ، قائلا (٧) : عند تفسيرى الكتب الالهية اثب متهللا كمن هو فى مرعى ! » .

٧ — نستطيع ان نلقبه ايضا بالرجل الكنسى Churchman . فقد اكد روحه الكنسية لا بممارسة العبادات الكنسية ولا برهبنته ، ولا بنواله نعمة الشموسية والقسيسية فالأسقفية ، ولا بحديثه المستمر مع شعبه عن الكنيسة وأسرارها الالهية وعبادتها الجماعية ، انها بالاكثرو هو واعظ الجماهير الناجح لم يلهه اعجاب الجموع به ولا التفاف الكثيرين حوله عن الدخول بهم الى « الحياة الكنسية العملية » أو « الحياة السرائرية التقوية » .

كان هذا الكنسى العظيم لا ينفك عن التدريب مع شعبه على « حياة الشركة مع القديسين فى المسيح يسوع » باقامة احتفالات اسبوعية واحيانا مرتين وثلاث مرات فى الاسبوع ، يمجسده الله فى شهادته وقديسيه فى اعيادهم ، حيث يحضر بنفسه ويشترك معهم فى الصلاة والتسبيح ، متحدثا معهم عن حياة الشهادة والشهداء وفعالية صلواتهم عنا . احيانا ينسى نفسه وسط هذا التجو السماوى فيقضى من الليل أغلبه ، واحيانا يستمر الحفل الروحى حتى قرب الفجر أو الصباح المبكر .

(6) In Is . PG 56 : 13 : In Gen . PG 53 : 28, 41 , 176 .

(7) Adv . Jud . FG 48 : 871 .

٨ — اتسمت شخصيته بالواقعية العملية في تعبدته وكرازته . فقد عشق الابديات وتذوق السمويات ، كقوله (٨) « لنمش على الارض كمواطنين سمائيين » . ولكنه كانسان واقعى لايشغل ذهنه بالتعرف على اسرار السماء او طلب رؤية الله وهو بعد على الأرض ، إنما يعطى كل اهتمامه كيف يتها عمليا مع اخوته للقاء الرب وجها لوجه في الحياة الأخرى .

الدخول فى السمويات — فى رايه — ليس انطلاقا فى التأملات بل حياة جهاد ، حياة عمل وأمانة يومية . فرسالة المؤمن على الارض ممارسة الفلسفة الحقيقية ، أى التقوى العملية ، يجاهد بروح ايمائى عملى لكى يتها للمكافأة العلوية ...

بمعنى آخر ، يؤمن قديسنا بالمسيحية كحياة سمائية ممارسة على الارض ، خلال الواقع الذى يعيشه المؤمن ... كقوله (٩) :

« لنمش على الارض كمواطنين سمائيين ،

كمصارعين تتجه أفكارهم نحو المباراة ،

غير مباليين بالآلام ... واطنين بأقدامهم على الفحم المشتعل كمن يسرون فى حديقة مملوءة زهورا ! » .

٩ — اما سر عظمة القديس فهو ايمانه بالكراسة ..

يقول عنه بالاديوس (١٠) « كان كاهنا مشهورا بسيرته وقدرته الخطابية ، استخدمه المخلص كأسا ثمينا يسكب فيه نعم الخلاص لاجباء اللوغوس » .

أروع ما فى الذهبى الفم ايمانه بقيمة النفس البشرية مقدما ايمانه بـرجاءه ومحبه ونسكياته ودراساته وعباداته ... بل كل نسمة من نسمات حياته لاجل « خلاص النفس البشرية » .

بمعنى أدق بسط القديس كل نسكياته ودراساته وعباداته ومواهبه وطاقاته الجسمائية وأحاسيسه وعواطفه لخدمة الآخرين ، مشتها لو استطاع أن يحمل بالنعمة الالهية العالم كله معه الى احضان الله مخلص البشرية !

(8) In . Gen . PG 53 : 259 .

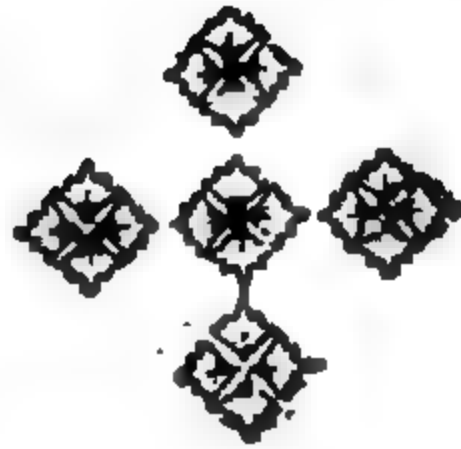
(9) Ibid .

(10) Dialog . PG 48 : 42 .

أما سر نجاح هذه الخدمة فهو نظرتة لها على أنها ليست مجرد وظيفة يمارسها الأسقف أو الكاهن ، بل هي « عمل أسقفى » ينبع عن روحه الأبوى المحتضن في قلبه العالم كله ، يبعث بروح الكرازة والحب وخدمة الآخرين في كل أحد : الكاهن والشماس والعلمانى ... الكرازة - في نظره - هي عمل الكنيسة كلها متحدة مع أسقفها في المسيح يسوع بالروح القدس !

« حب خلاص النفس ونموها الروحى ، ليس عملا رسميا يلتزم به أناس معينون يمارسونه بجوار عبادتهم الشخصية ، لكنه اشعاع طبيعى ينبعث من كل قلب عرف خلاص المسيح المجانى ... حتى وإن كان طفلا . هو ثمرة طبيعية للقاء النفس مع الله شمس البر ، ينعكس نورها على من حولها ، ويتسع قلبها بالحب للبشرية كلها .

لقد عاش ذهبي الفم لهدف واحد هو خلاص الناس ، كقوله (١١) :
« ان أعظم فرحى هو ان أراكم نامين في الحياة الروحية » ،
« شغلى الشاغل هو ان تصيروا جميعا كاملين » ،
« لا اعيش الا من أجلكم ومن أجل خلاصكم » .



(11) In Gen . PG 53 : 293 . 252 , Ad Pop . Ant . PG 49 : 103 .

الفصل الثاني

منهج

منهجية الانجيلي

- مفهومه للكتاب المقدس .
- منهجه الدراسي .
- ملامح عظمته التفسيرية .

« لقد سمعتم الصوت الرسولي :
انه بوق سماوى ! هو قيثارة الروح !
نعم . ان قراءة الكتب المقدسة هي روضة ،
بلى ، هي فردوس ايضا لايقدم زهورا عطرة فحسب ، بل وثمارا تقدر
(ان تقوت النفس ! ...
نحن نشبه اناسا يصهرون ذهبيا مستخرجا من المناجم الرسولية لا بالقائه
في فرن ، بل بايداعه في اذهان نفوسكم ، لا باشعال نار ارضية بل بالتهاب
الروح ! ...
فلنجمع منه اجزاء صغيرة بجد واجتهاد ... غان اللالىء لاتقيم حسب
حجمها بل بجمال طبيعتها (١) » .

+ + +

هذه عينة من احاديث القديس يوحنا عن الكتاب المقدس ، تكشف لنا
كيف سحب الكتاب كل قلبه واحاسيسه وعواطفه وافكاره وبلاغته فاحس
بالعجز عن التعبير عنه . تارة يرى في الكتاب المقدس بوقا سماويا مميذا عن
بقية اصوات الفلسفات الكثيرة ، ينفذ النفس ويعددها لحرب روحية لاتهدأ
مع عدو لاينام ! واخرى يحتضنه داخل نفسه بكونه « قيثارة الروح » التى
تسحر النفس بعذوبة الحانها وتهز كيان القلب بالفرح السماوى وسط هموم
هذه الحياة !

يرى الكتاب روضته التى تنعش العالم برائحتها العطرة ، لابل فردوسا
تسلسل اليه النفس لتاكل وتشبع !
تارة يراه منجما ثمينا تتوغل داخله النفس بالجهاد والتعب لتقتنى لها
ذهبا سماويا مصفى بنار الروح ، واخرى يمسك به ويخفيه داخله كلؤلؤة كثيرة
الثمن !

هذه خبرات قديسنا كما قدمها لشعبه وعاشها في حياته ... لذلك .
فتسأل : ١ — ما هو مفهومه للكتاب المقدس ؟
٢ — ما هو منهجه في دراسة الكتاب ؟ ٣ — كيف قدم الكتاب لشعبه ؟

(1) Conc . Statues hom 1 : 1 . 2 .

مفهوم الكتاب المقدس

الكتاب المقدس ... حياة معاشة

ما أكثر الذين كتبوا عن الكتاب المقدس كأنجيل معاش ودخول عملى الى مقدسات الله ، فى تلاق مباشر مع الله خلال كلمته . أما القديس يوحنا ، فسر قوته لا يكمُن فى مجرد بلاغته أو فصاحته فى الكشف عن مفهوم الكتاب المقدس أو تفسير نصوصه ، لكنه قدم لنا حياته مثلا حيا لفهم الكتاب ... كانت حياته :نجيلا مفتوحا !

فمنذ صباه أعطى ظهره لفصاحته وشهرته ، واضعا فى قلبه مع صديقه باسيليوس أن يكرس حياته بكاملها « الحياة المقدسة الانجيلية » . بعيدا عن الاعين . وجاءت حياته الديرية تظمه الى جماعة هى اقرب الى « مدرسة تفسيرية » منها الى « جماعة ديرية » ... مع هذا لم يفكر قط أن يجعل من كتابه المقدس مادة للمعرفة البحتة أو التعليم أو الكتابة أو الجدل ... بل احتضن « فكر الجماعة التفسيرية » لى يدخل به الى « حياة الوحدة » يمارس « الفضيلة الانجيلية » .

اخيرا خرج للخدمة ، واعدلى المنبر وبدأ يفسر ، فأحس الشعب بعذوبة الكتاب لا من خلال منبره وبلاغته وفصاحته بل بالاكتر فى نسكياته وحبه ورعايته وأبوته الصادقة . لقد غسر الكتاب بقلبه وتصرفاته الخفية والظاهرة قبلما يفسره بلسانه وشفتيه !

لقد عرف الشعب فى الكتاب مادة حياة وشركة ، لا مادة معرفة نظرية أو بحث وحب استطلاع .

هذا المنهج العملى الذى لمسسه الشعب فى أبيهم ، أعلنه هو لهم فى أكثر من موضع ، فقد شبه الكتاب المقدس بالانهار التى لانعرف أعماقها ، لكن يكفيننا أن نميل ونشرب منها ونرتوى ، ونبحر فيها ، عوض أن نفسد أوقاتنا فى قياس أعماقها ونحن نموت ظمأ (١) !

مرة أخرى يحث شعبه قائلا (٢) :

« من يعرف الكتب المقدسة كما ينبغى لا يتعثر فى شيء ... علامة المعرفة الحقة ألا تكون محبا للاستطلاع فى كل شيء ، ولا ترغب فى (مجرد) التعرف على كل شيء ! » .

(1) In Tim , hom 8 .

(2) Ibid .

الكتاب المقدس ... لقاء عملي !

اذ بدأ القديس يوحنا يفسر لشعب أنطاكية انجيل معلمنا متى البشير في السنة الاولى من قسوسيته اخذ بكشف لهم ما هو الكتاب المقدس ؟ انه لقاء مع الله واهب الحياة !

تعرف آدم على « الكتاب المقدس » ، ليس ككتاب مسجل بحبر على ورق ، لكن « كشركة مع الكلمة الالهى » وتلاق مباشر معه .

حتى بعد السقوط ، اذا لم يكن الاباء قد انحرفوا الى شدة الضعف الذى بلغه جماعة اليهود ، كانت تكفيهم الكلمة الشفاهية .

« فبالنسبة لنوح و ابراهيم ونسله وايوب وموسى ايضا ، تحدث الله مع هؤلاء لا بالكتابة بل حديثا (شفاهيا) ، تحدث معهم بنفسه اذ وجدت عقولهم نقية . ولكن اذ صار الشعب اليهودى كله ساقطا في هوة الضعف وجدت الكلمة المكتوبة والالواح وقدمت النصائح بهذه الكيفية (٣) .

فالكلمة الالهية جاءت مكتوبة من اجل الضعف البشرى ، لهذا يليق بالمؤمن ان يترجم « الكتابة » الى عمل ... عذا ما انتهى اليه القديس ، قائلا : (٤)

« يليق بنا حقا لا ان نطلب معونة الكلمة المكتوبة فحسب ، بل ان نظهر حياتنا نقية هكذا ، فتكون لنا نعمة الروح عوض الكتب بالنسبة لنفوسنا . فكما كتبت بالحبر في الكتب تسجل بالروح في قلوبنا » .

قوة الكلمة

جاءت عظمته التالية تعلن قوة الكلمة في حياة الناس وفاعليتها في النفس قائلا (٥) : « كلمة واحدة من الكتب الالهية هي اكثر فاعلية من النار ! انها تلبين تساوة النفس ، وتهيئها لكل عمل صالح » .

يهمس ابليس قائلا : « لا قيمة لسماع الوصايا الالهية » . وهو يفعل هذا خشية ان نسمع الوصايا ونطلب ممارستها .

اقواله في قوة الكلمة

« معرفة الكتب المقدسة تقوى الروح ، وتنقى الضمير ، وتنزع الشهوات الطاغية ، وتعمق الفضيلة ، وتتسامى بالعقل ، وتعطي قدرة

(3) In Mat . , hom 1 : 1 .

(4) Ibid .

(5) Ibid , hom 2 : 9 .

لمواجهة المفاجآت غير المتوقعة ، وتحمي من ضربات الشيطان ، وتنقلنا الى السماء عينها ، وتحرر الانسان من الجسد ، وتهبه أجنحة للطيران (٦) .

« عظيم هو نفع الكتب الالهية !

عونها يحمل الينا كل كفاية :

هذا ما أعلنه بولس قائلا (٧) « لان كل ما سبق فكتب كتب لاجل تعليمنا ، نحن الذين أنتهت الينا أواخر الدهور » . .

الاثوال الالهية هي كنز ، هي مصدر غنى بالادوية ، بها يستطيع الانسان — ان اراد — ان يطفىء الكبرياء ، وينعم بالهدوء في نومه ، ويطأ محبة المال تحت قدميه ، ويستهن بالالم ، وينعم بالثقة ، ويقتنى الصبر (٨) .

« لايمكن لمن أنعم عليه بفاعلية كلام الله ان يبقى هكذا في هذا الانحطاط الحاضر ، بل بالحرى يطلب له جناحين ينطلق بهما حالا الى الارض العلوية ، مكتشفاً نور الصالحات غير المحدودة (٩) » .

« ان كن الشيطان يعجز عن الاقتراب من بيتنا مادام قد وضع فيه الكتاب المقدس ، فكم بالاولى لا يقدر روح شرير او قوة خاطئة على الدخول في نفس تحمل مشاعر انجيلية ، او حتى الاقتراب منها !

اذن فلنقدس نفسك وجسدك ،

ليكن لك هذا في قلبك وعلى لسانك (١٠) »

« اهتموا بدراسة الكتب المقدسة ، فانكم ان فعلتم هذا ، ينزع الكتاب عنكم قنوطكم ويولد فيكم السرور .

يستأصل الرذيلة ويعمق الفضيلة ،

يخلصكم وسط ضوضاء الحياة من الامواج الشائرة ضدكم فالبحر يهيج ، اما انتم فتبحرون كما في جو هاديء مطمئن ، اذ تكون دراسة الكتاب المقدس أشبه بتبطان يقود حياتكم ، ومرساة لاتقدر تجارب الحياة أن تكسرها (١١) .

« اوراق الشجر التي تحتوى القطعان تحتها وقت الظهيرة من أجل الظل وطلب النعاس ليست في قيمة الكتب المقدسة وهي تهب النفوس الحزينة عذوبة وسط الالم (١٢) » .

(٧) رو ١٥ : ٤ ، ١٠ : ١١ . De Stud . paes . PG 63 : 485 . (6)

(8) In Joan . , hom 37 : 1 . (9) Ibid hom 1 : 6 .

(10) Ibid . , hom 32 : 3 . (11) De Eutrovius , hom 2 : 1

(12) De pæn PG 49 : 299 .

« أن حل بك الحزن تعمق في الكتب المقدسة كما في خزانة الادوية ،
تستجد راحة من اتعبك ، سواء كانت بسبب خسارة أو موت أحد الاقرباء
أو حرمانك منه ... »

ستن الكتب وادعها في ذاكرتك .

عدم معرفة الكتب المقدسة هو علة كل الشرور ، أذن دخل المعركة عزلا
من السلاح ، فكيف نقدر أن نغلب ؟ ! (١٣) .

الكتاب المقدس في حياة الرهبان

الكتاب المقدس هو سر « الحياة الرهبانية » أيضا ، كحياة إيمانية
كنسية تجيلية عملية فالراهب في دير أو مغارته يلتقي بالله مخلصه خلال
سلوكه الانجيلي .

لقد وصف الكاهن يوحنا لشعبه الحياة الديرية — أسعد أيام حياته —
فقال عن الرهبان (١٤) :

« انهم يغتذون بطعام كأي السمو ، فلا يجلسون أمام بعضهم البعض
يطهون لحوم حيوانات ، بل يعدون اقوال الله قوتا لهم .

يضعون أمامهم عسلا وشهدا ، عسلا عجيبا أسى من الذي اغتذى به
يوحنا في البرية. لان هذا العسل لا يجمعه نحل البرية من الازهار ، ولا يضعونه
في خلايا ، إنما هو عمل نعمة الروح التي تلتقيه في أرواح القديسين ...
فيأكلون منه بغير انقطاع في أمان !

يحوم هذا النحل (الرهبان) حول الكتب المقدسة ، يجمعون لهم منه
سعادة عظيمة ! » .

وحدة العهدين القديم والجديد

اذ يتحدث من غاوية الكتاب المقدس في حياة المؤمنين يؤكد لنا أنه يقصد
بذلك الكتاب المقدس كوحدة واحدة ، فان « العهدين مترابطان معا ومتضافران
كل منهما مع الآخر (١٥) » .

في بدء خدمته الكهنوتية عندما وقف يعاتب شعبه لعدم اكتراثهم بالكتاب
المقدس لم يفصل بين عهديه ، بل على العكس كان يبدأ بالزامير قبل أن

(13) In Col... hom 9 .

(14) In Mat , hom 68 : 5 .

(15) Ibid . 47 : 4 .

يذكر الكتاب المقدس ككل ، اذ يقول لهم (١٦) « اخبروني ، ان سألت أحد الحاضرين أن يتلو مزمورا واحدا أو جزءا من الكتب المقدسة عن ظهر قلبه ، هل أجد من يقدر ؟ لا أجد ... »

« كل الكتاب المقدس يهب تعزية للذين يصفون اليه (١٧) »

« تستطيع أن تنال تعزية وفيرة لا من العهد الجديد وحده ، وإنما من العهد القديم أيضا (١٨) . »

+ + +

(16) Ibid , hom 2 : 9 .

(17) Statues . hom 7 : 2 .

(18) De Paralyt .

منهج الدراسة

١ - بين الرمزية والحرفية

أحب القديس يوحنا العلامة أوريجين ، ويسبب دفاعه عنه في مشكلة « الاخوة الطوال » عرض نفسه للدخول في خصومة مع القديس أبيفانيوس كما تعرض لغضب البابا ثاوفيلس الاسكندري ، ودخل في سلسلة من الضيقات أدت الى نياحته . ومع هذا كله لم يتلمذ قط على منهجه التفسيري الرمزي ، بل على العكس تتلمذ على يدى ديودور الطرسوسى أشهر لاهوتى مدرسة أنطاكية ، منتهجاً منهجه في دراسة الكتاب المقدس وتفسيره ، المضاد لمنهج الاسكندرية الرمزي .

جاءتنا عظاته تحمل طابع مدرسة انطاكية ، الذى يتركز في شرح النص الانجيلي في معناه البسيط كما توحى اللغة ، مطبقاً اياه على حياة ان سامعين . لهذا سمى بالمنهج الحرفي ، لانه يأخذ بالمعنى البسيط حسب المفهوم اللغوى العادى دون الدخول في تأملات رمزية عقلية مختفية وراء السطور . ويسمى ايضا **بلمنهج التاريخي** . لانه يأخذ الحقائق التاريخية الواردة في الكتاب المقدس خاصة ما جاء في العهد القديم ، كحقائق واقعية ، بعكس المنهج الرمزي الذى يتجاهل قيمتها التاريخية ، بل وأحياناً — لدى المبالغين في المنهج — ينكر وفوق بعضها ، متطلعا اليها مجرد رموز معنوية لاغراض روحية ...

على أى حال ، لقد حفظت لنا شهرة الذهبى الفم عظاته وكتاباتاته التى حملت الينا صورة حية للمنهج التفسيري الانطاكي ، ولم يكن مصيرها كمصير أى كتابات آباء انطاكية ، التى أبيدت لكونها دفعت الى ظهور المبتدع نسطور ، خاصة كتابات ثيودور أسقف مؤيسويست ، معلم نسطور (١) .

لكن ما نود الإشارة اليه هو أن كثيرين يتطلعون الى الذهبى الفم على أنه هو الذى أصبح على طريقة انطاكية التفسيرية مسحة جمالية ، وليس العكس أى ليست طريقة انطاكية هى التى أعطته شهرته .

(1) Hans von Compénhausen : The Fathers of the Greek Church , trans . Stanly Godman , N . Y . , 1959 , p 144 .

صراع بين المنهجين

لست أود الدخول في تفاصيل هذا الصراع وتاريخه الا بالقدر الذى يكشف عن منهج الذهبى الفم في تفسيره .

على سبيل المثال نورد نصا لاحدى كتابات القرن التاسع تستطيع من خلاله ان تكتشف مدى بغض اتباع المدرسة التاريخية الحرفية للتفسير الرمزي (٢) :

« يسأل الناس : ما هو الفارق بين التفسير الرمزي والتفسير التاريخي؟
نجيب : فرق عظيم ، وليس فارقا بسيطا . فالاول يقود الى الكفر والتجديف والبطلان ، اما الآخر فيتفق مع الحق والايمان .

لقد ابتدع هذا الفن الشرير اوريجانوس الاسكندري ، مثله مثل الشعراء والمهندسين الذين يقدمون لتلاميذهم نظرة خاطئة نحو ابدية الجسديات والذرات غير المنظورة ، بقصد رفعهم عن المادة والمنظورات الى الامور غير المنظورة الخفية . فيقولون لهم : كما اننا لا نقرأ الاشكال والعلامات المنظورة (الحروف) بل ما تحمله هذه من معان خفية ، هكذا يليق بالانسان ان يرتفع فوق الطبائع المخلوقة بالتصورات الفكرية لطبيعتها الابدية .

هذا ما علم به اوريجانوس . . . فقد شرح المزامير والانبياء التي تحدثت عن السبى ورجوع الشعب على انها تعليم عن سبى النفس بابتعادها عن الحق ، ثم رجوعها الى الايمان ثانية . . .

انه لا يفسر الجنة كما هي (كحقيقة تاريخية) ولا آدم وحواء ولا شيئا من الموجودات » .

وقد دافع الرمزيون عن انفسهم بحجج كثيرة (٣) ، منها استخدام الرسول بولس الرمزية في تفسيره قصة سارة وهاجر (٤) .

دافعوا ايضا عن انفسهم بأن الرمزية هي وسيلة الرد على الهرطقة ، خاصة الرمزيين منهم . فبالرمزية يحطمون الهرطقة الرمزيين . وقد رأى بعض الدارسين واللاهوتيين المحدثين في الرمزية أهمية خاصة ، حتى قال الكاردينال نيومان Newman (٥) ان الرمزية والتفسير السرى (الروحي) يقومان معا ويسقطان معا ، كأن الرمزية أساس الايمان المستقيم .

(2) Ish'odad's " Introduction to the Psalms , quoted in R.M Grant : The Bible in the Church , N . Y . 1948 . p 75 .

(٣) راجع للمؤلف : نفس السلسلة [١] ص ٣٩ — ٤٤ .

(٤) غلا ٤ : ٢١ — ٣١ .

(5) John H. Newman : An Essay on the Development of Christian Doctrine .

غير أن القديس يوحنا الذهبي الفم قد برهن بحق أنه يبقى أرثوذكسياً في المعتقد دون استخدام الرمزية ... حقا لقد أظهر أنه تلميذ ديودور ، لا يقبل التأملات الرمزية ، خاصة في أعمال العهد القديم ، وذلك كعمل مضاد لمدرسة الاسكندرية التي روحت Spiritualized المادة التاريخية للعهد القديم أكثر من تطبيقها لذات المنهج في أحداث العهد الجديد . ففي عظمته على سفر التكوين والمزامير ... نجده مثلاً يؤكد نبیحة أبينا ابراهيم كحقيقة تاريخية وفي نفس الوقت يؤكد أنها رمز للصليب (٦) .

امتاز الذهبي الفم بعدم هجومه على مدرسة الاسكندرية علانية أو خفية ، بل على العكس أحبها وأحب مصر ورهبانها ومعلميها خاصة المتعلمين على كتابات أوريجانوس ... أحب روحانياتهم وجهادهم لكنه لم يقبل الرمزية .

ولعل سر كراهيته للرمزية ما تشربه من أبيه الروحي أن الرمزية هي علة الهرطقات ، إذ لم تستطع مدرسة أنطاكية أن تميز بين رمزية الهرطقة والرمزية الارثوذكسية المهاجمة للهرطقة .

يقول القديس يوحنا (٧) « خرجت معظم الهرطقات عن التصورات المصطنعة » .

أمثلة :

آمن القديس يوحنا « أن كل الأمور في الكتب المقدسة واضحة وصريحة الأمور الضرورية كلها واضحة (٨) » . فلا يحتاج الأمر في دراسة الكتاب المقدس إلا إلى فهم النص ببساطة كما توحيه اللغة في معناه الظاهري . من أمثلة ذلك :

١ — في تفسيره المزمور المئة والخمسين يقول (٩) :

« إذ يسمع البعض نص المزمور « سبِّحوا الله بالطبل والمزامير » يشرحونه بطريقة روحية ، فيشير الطبل إلى أمانة الجسد (١٠) ، والمزامير إلى التأمل في السماء . أما أنا فأعتقد أن النص يعنى تنازل الله لقبولنا بضعفنا البشري أن نسبح مجده بفرح مستخدمين هاتين الآلتين » .

(6) In Ps , PG 55 : 209 .

(7) In Ps . PG 55 : 490 .

(8) In Gen . PG 53 : 213 — 216

(9) In thes . , hom 3 .

(١٠) لان الطبل يصنع من جلد الحيوان الميت . لذلك فالجسد الميت — في نظر أوريجين — يشير إلى أمانة الجسد (راجع تفسيره في سفر التكوين في خلق موسى لنعليه الاثني من جلد الحيوان الميت) .

٢ — في تفسير « طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض (١١) » ، يقول القديس أغسطينوس (١٢) ان « الارض » تعنى « الميراث الدائم الذى فيه تستريح الروح » . اما القديس يوحنا غيرغز كل تفسير رمزى ، ولا يقبل الا المعنى المادى الواقعى ، قائلا (١٣) : « اخبرنى أى نوع من الارض هذه ؟ يقول البعض انها أرض رمزية . ليس كذلك ! فانتا لا نجد فى الكتاب المقدس أدنى إشارة الى أرض رمزية ... فهو لا يحثنا بالبركات المقبلة وحدها ، بل وبالبركات الحاضرة أيضا » .

٣ — فى العبارة « كن مراضيا لخصمك ، سريعا ما دمت معه فى الطريق ، لئلا يسلمك الخصم الى القاضى ، ويسلمك القاضى الى الشرطية فتلقى فى السجن (١٤) » ، يقول القديس أغسطينوس (١٥) ان الخصم لن يعنى انسانا بل هى وصايا الله التى تسلمنا للقاضى ، أى الله الديان ، وذلك ان لم نخضع لها سريعا ، ونراضىها مادمنا فى أرض غريتنا . اما القديس يوحنا الذهبى الفم فيقول (١٦) « يبدو لى أنه يتحدث عن قضاة فى هذا العالم ، والطريق الى محكمة العدل ، وعن هذا السجن » .

٤ — فى العبارة « خبزنا كفافنا اعطنا اليوم » يرغز العلامة أوريجين (١٧) التفسير الحرفى ، فلا يقبل الخبز هنا بالمفهوم المادى العادى ، اما القديس يوحنا غيرغز غير التفسير المادى ... فان الله يقدم وصايا لاناس يحملون جسدا تتطلب احتياجات جسدية (١٨) .

+ + +

٢ — بين الرمزية Allegorism والتأويل Theoria

سبق أن تعرضنا للتفسير الرمزى المدرسة الاسكندرية ، الذى وضع منهجه القديس اكليمندس الاسكندرى ، ثم جاء بعده أوريجين يستخدمه على نطاق اوسع ، حتى رأى معان رمزية عميقة تخفى وراء كل سطر من الكتاب المقدس لا يفهمها الا الكاملين . اما المعنى الحرفى ، غفى نظره ، يقتل النفس ويناسب الذين عاشوا قبل المسيحية او البسطاء من المسيحيين (١٩) .

(١١) مت ٥ : ٥ .

(١٢) للمؤلف : الموعظة على الجبل طبعة ١٩٦٨ ص ٤٥ .

(١٤) مت ١ : ٢٥ . (13) In Mat., hom 15 : 5 .

(١٥) للمؤلف الموعظة على الجبل ص ٨٦ — ٨٧ .

(16) In Mat., hom 16 : 13 .

(17) Origen : On prayer 27 : 1 . (18) In Mat., hom 19 : 8 .

(١٩) للمؤلف نفس السلسلة [١] ص ٣٩ — ٤٣ .

كان لهذا المنهج جاذبيته في الكنيسة شرقا وغربا ، كما كان رد الفعل قويا خاصة انطاكية حيث تزعم لوقيانوس مؤسس مدرستها حركة التفسير التاريخي الحرفي ، مكرسا كل طاقاته لهذا العمل ...

لقد رفض اللاهوتيون الانطاكيون الرمزية Allegorism بكونها غير جديرة بالثقة ، ولا هي وسيلة مقبولة في تفسير الكتاب المقدس ... هذا الرفض نسبي ، يختلف من لاهوتي الى آخر ، او من دارس الى دارس . فالقديس يوحنا مع رفضه للرمزية دان مدرسة انطاكية لمبالغتها في ذلك مطالبا بالاعتدال ...

في الحقيقة ظهر لدى آباء انطاكية ما أسموه بالتاوريا أو الثيوريا Theoria وهي نوع من الرمزية أو التأمل ، قام على نوع من الرمزية وهو الـ Typology يقوم على أساس نبوات صادقة وصريحة وأصيلة تعلن الرمزية ، وليس على اجتهاد شخصي ... دون تجاهل الحقيقة التاريخية . فعلى سبيل المثال « نهر الاردن » يشير الى المعمودية ، لكن حقيقة عبوره حقيقة تاريخية لها قيمتها . وهكذا « ذبح اسحق » كرمز للصليب . والصخرة التي تابعت الشعب القديم ، والحية النحاسية التي أقامها موسى ، ودخول أرض الموعد ... كلها حقائق وفي نفس الوقت رموز .

لقد حذر ديودور الطرسوسي (٢٠) ؛ لا تزيل الثيوريا الاساس التاريخي فتقلب الى الرمزية .

هذا أيضا ما أكده سيفريان أسقف جبالة عند تفسيره المخلوقات الحية الخارجة من المياه عند الخلقة (٢١) كرمز للمسيحيين الاحياء الذين يتجددون في مياه المعمودية ، قائلا (٢٢) « استخراج الرمزية (الثيوريا) من التاريخ هو شيء ، أما بقاء التاريخ كحقيقة لا تمس أثناء ادراك التاوريا فهو شيء آخر » .

أذن نستطيع أن نلخص منهج انطاكية للتاوريا في التفسير في النقاط التالية (٢٣) :

١ — لا تجد في كل عبارة من عبارات الكتاب المقدس معنى باطنيا غير المعنى الحرفي ، لكنها تقبل التفسير بالتاوريا في بعض القصص المقدسة والاحداث التاريخية دون أن تجعل من القصة أو الحدث أمرا مجازيا .

(20) Praef in Ps .

(٢١) تك ١ : ٢١ .

(22) Severian of Gabala : De Creat , 4 : 2 PG 56 : 49 .

(23) J . N . D . Kelly : Early Christian Doctrines, 1960, p 75 — 78

٢ — وجود تطابق حقيقي ظاهر — وليس اجتهدا — بين الحقيقة التاريخية والتأوريا الروحية ، بل أن بعض الآباء الانتطاكين يطالب بضرورة وجود نص صريح في الكتاب المقدس يعلن هذا التطابق لكل قصة أو حدث ، كتقول الرب (٢٤) « كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان ، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » .

٣ — يفهم الموضوعان معا — التاريخي والروحي — وان حملا طريقين مختلفين .

هذه صورة عامة مبسطة لمنهج انطاكية التفسيرى الذى انتهجه القديس يوحنا بكل امانة ، لكنه قام بتطبيقه فى أكثر مرونة . فمع تفضيله الواضح للمعنى الحرفى لكنه لا يتورع عن استخدام المعنى الرمزى — فى حدود ضيقة — ان وجد ذلك لائقا (٢٥) .

قسم الذهبى الفم عبارات الكتاب المقدس الى ثلاثة أصناف (٢٦) :

١ — عبارات تفهم حرفيا فقط ، لا يجوز شرحها رمزيا .

٢ — عبارات تسمح بالتفسير التأورى Theoretic بجانب المعنى الحرفى أو التاريخى كما رأينا فى عبور نهر الأردن ونبح اسحق الخ ...

٣ — عبارات رمزية مثل تشيد الاناشيد وبعض العبارات الواردة فى العهدين ، غالبا ما يقوم الكتاب نفسه بـلتنويه عنها كتعبير « كرمة الرب » اشارة الى « كنيسة أو شعبه (٢٧) » و « النهر المتدفق علينا » اشارة الى ملك الاشوريين (٢٨) .

هناك تعبيرات كثيرة فى العهد القديم — ان شرحت حرفيا — تضلنا كلقول « يد الله ، عينا الرب ، وجه الرب ... نزل الرب » ، هذه كلها رموز تشير الى قدرة الله وعنايته وتدبيره واحساناته الخ ...

أكثر من هذا ، فى بعض المواقف تفهم بعض الشرائع الموسوية بمفهوم رمزى ففى تفسيره « مكتوب فى ناموس موسى : لا تكلم ثورا دارسا . العمل الله تهمة الثيران ٤ (٢٩) » ، بقول : نعم ، الله تهمة الثيران فهو خالقها والمهتم بها ، لكنه ليس بالمعنى الذى به يشرع وصايا للإنسان عنها هكذا . فنان وصاياه بخصوص الثيران وبرص المنازل وبرص الثياب ... هذه الشرائع جميعها رموز (٣٠) .

(٢٤) يو ٣ : ١٤ ، ١٥ .

(25) Cf. In Is , hom 1 : 22 , 6 : 6 .

(26) In Ps . , hom 9 : 4 .

(27) In Is . PG 56 : 59

(28) Ibid 93 .

(30) In 1 Cor , hom 21 .

(٢٩) ١ كو ٩ : ٩ .

ملاحـ عظامـ النفسـ

اذ عرفنا مفاهيم القديس يوحنا للكتاب المقدس وعبرنا الى منهجه الدراسي في التفسير ، بقى لنا أن نتساءل : كيف قدم هذا الفهم الانجيلي لشعبه ؟

١ — اذ تعرف على الكتاب المقدس كمصدر حياة وينبوع قوة للدخول في الحياة الانجيلية الفاضلة ، وفيض تعزيات وسط هموم الحياة وضيقات المؤمن وتجاريه . . . لهذا وضع في كل خدمته أن يدخل بشعبه الى « الكتاب المقدس » ليجعل منهم شعبا كتابيا biblical أو انجيليا . فقد حدثهم كثيرا عن الكتاب المقدس وفاعليته في حياة الكنيسة وحياة كل عضو منها ، بل قدم أغلب عظماته سلسلات تفسيرية لبعض اسفار الكتاب المقدس بصورة تكاد تكون منظمة . . وفي تفسيره للكتاب استخدم نصوص الكتاب لتفسر بعضها البعض مع تعليقات بسيطة عملية من الواقع الذي يعيشون فيه . . وبهذا مزج واقعهم بالروح الانجيلية .

أما مقالاته ورسائله فقد حوت الكثير من نصوص الكتاب المقدس مفسرة كما شملت في داخلها شخصيات وأحداثا من الكتاب هي مشاعل تنير البحث الذي يكتب فيه .

٢ — في تفسيره للكتاب المقدس لا يسعى لجرد حفظهم الكثير من نصوصه أو تعريفهم على تفسير أكبر قدر منها ، بل بالحرى كان يشترك الى دخولهم العملى في « الحياة الانجيلية » .

ففى السنة الثانية من رسامته كاهنا على أنطاكية وقف بين شعبه يذكرهم أنه لم يقدر أن يشرح لهم طوال هذه الفترة مئة سطر من الكتاب المقدس ، معللا ذلك الى تقديمه لهم بالقدر الذى يلزمهم ممارسته عمليا (١) .

مرة أخرى يقول (٢) « ان أفضل طريقة للتعليم هي ألا نمل من تكرار نفس النصيحة حتى نراها مطبقة عمليا » . كما يقول (٣) « اعتدت ألا أقيس مقالاتى بكثرة الكلام بل بحرارة المستمعين الى » .

(1) Statues , hom 16 . (2) De Dav. et Saul PG 54 : 677.

(3) Daem nom Gup . mund PG 49 : 246 .

لقد حدد لنا هدفه في تفسير الكتاب المقدس بكل وضوح بقوله (٤) « لم تعط لنا الكتب المقدسة لكي تكون مكتوبة في كتب بل منقوشة في قلوبنا » .

ومن كثرة تكراره لبعض النصوص الكتابية والأمثلة كان البعض يكمل النص عند بداية نطقه به أو يظهرون علامات معرفتهم لما يقوله ... فكان يقول لهم (٥) « مثابرتكم على العظات تجعلكم معلمين ، لكن لا تجروا غفياً وسطكم مستجدون . انتظروا العرج ! » .

٣ — لم يكن التفسير هدفاً في ذاته ، إنما غايته الدخول بسامعيه الى حضرة الله وتهذيبهم والتحدث معهم في مشاكلهم اليومية ، لهذا كثيراً ما كان **يهمل الاجزاء الصعبة** في الكتاب المقدس ، ونادراً ما تعرض للملاحظات تفسيرية ... فقد كان مفسراً واعظاً كل ما يهمه استخراج المعاني الروحية وتقديمها في صورة نافعة للتعليم والتهذيب ، من أجل التمتع بخبرة حياة القداسة التي بها يكمل رجل الله في كل عمل صالح .

٤ — كان يؤمن أن « مسيحياً بغير معرفة الكتب المقدسة — العهدين — كعامل بغير ادوات » ... مهتماً بشرح **العهد القديم** في صورة جادة ، يكون دراسته أفضل السبل للرقى في الحياة المسيحية .

والتطرق الى العهد القديم ، أمر له خطورته في ذلك الحين ، فكما شرح القديس بنفسه في كتابه الرابع من مقال الكهنوت (٦) حين تعرض للكاهن وهو يتأهب لحرب متعددة الجوانب والجبهات . لقد قال « الذي يشهر سيفه بغير خبرة يجرح نفسه بسيفه فيصير أضحوكة بين أصدقائه كما بين أعدائه » ولكي أوضح قولي هذا أذكر مثال أولئك الذين يتقبلون تعاليم مارغريون وغالنتينوس الغريبة ، فإن جميع المرضى بتعاليم أمثال هذين المبتدعين يسقطون الشريعة التي سلمها الله لموسى من قائمة الكتب المقدسة . أما اليهود فيقدسون هذه الشريعة (تقديساً حرفياً) حتى بعد أن جاء الزمن الذي أبطلت فيه ، ولا يزالون يتمسكون بكل ما جاء فيها مخالفين إرادة الله . أما كنيسة الله فتنتهج مسلكاً وسطاً لتجنب المتطرفين ، فلا هي تخضع تحت نير الناموس ولا هي تحتقره أو تنقص من قدره ، بل توصي به رغم انقضاء عهده بكونه نافعاً ...

حرى بالذي يناضل العدوين (٧) أن يسلك الطريق الوسط ، فإن انتقد اليهود لتمسكهم بالناموس القديم يسقط في خطأ جسيم إذ يعطى فرصة للهراطقة

(4) In Joan , hom 32 : 3 .

(5) De Laz . PG 48 : 1032 ..

(6) De Sacer . 4 : 4 .

(٧) الغنوصيون واليهود .

الذين يرغبون في تمزيق الناموس ، وان سعى في حماسه الى افهام الهراطقة
ممجدا. الناموس بافراط ومتحدثا عنه باعجاب بكونه مفيدا في الوقت الحاضر.
يعطى فرصة لليهود .

٥ — نعود الى منهجه في تقديم الكتاب المقدس لشعبه لنجد قديسنا قد
امتاز بالبساطة في التفسير ، في مشاعر رقيقة قادرة على جذب السامعين .
اذا ما شرح نصا وضع نفسه موضع الكاتب ، بشعر بأحاسيسه ويعظ او
يكتب من واقع تاريخه .

٦ — جاءت كتاباته وعظاته التفسيرية في القسطنطينية اقل قوة من
تلك التي قدمها في انطاكية ، ولعل ذلك يرجع الى قلة الوقت اللازم للتحضير
بسبب مشغوليته الرعوية والمشاكل الكثيرة التي شغلتها

٧ — ان كان الذهبي الفم قد استخدم « المنهج الحرفي » الانطاكي في
التفسير ، كما أعلن عن وضوح الكتب المقدسة ، فان هذا لا يعنى سطحيته
في فهمه للكتاب المقدس او تفسيره اياه فدراسة الكتاب — في رايه —
تحتاج الى مهارة خاصة واستعداد روحي معين يلتزم بها المعلم والعلماني حتى
يقدر كل منهما ان يدخل الى « المعنى الحقيقي » للنص ، ويتعرف عليه ،
ويعيش به .

في هذا يقول (٨) : « ان كان احد يعمل في منجم بغير خبرة في هذا الفن،
فانه يخلط بين الاشياء (المعدن النفيس والتراب) بغير هدف ، ولا يستخرج
ذهبا ، بل يضيع عمله هباءا ، بل ويكون مهلكا . هكذا الذين لا يفهمون الكتاب
المقدس ، ولا يطلبون خصوصياته وقوانينه ، بل يسرون في كل نقطة من
محتوياته باهمال ، بطريقة واحدة (في غير حكمة) ، يمزجون الذهب مع
التراب ، ولا يكتشفون الكنز المخفي داخله

يليق بنا ان نصل الى المعاني الحقيقية خلال التنقيب والتنقية ! »

يقول ايضا (٩) : « من يريد ان يتعلم الاعمال العسكرية يلزمه ان يعرف
قوانينها ، ومن اراد الابحار او التجارة او أى شيء آخر يلزمه ان يتعلم أسس
الفن . اما في هذا الامر (دراسة الكتاب المقدس) فلا يريدون ان يفعلوا
شيئا من هذا مع انه « علم » يحتاج الى اهتمام يقظ »

لقد كان يحث شعبه على الدوام ان يتفهموا الكتاب لا في رنخاة او اهمال
ولا في سطحية وانما بالبحث والتنقيب المستمرين فهو كنز مخفي لا يجده
غير الباحثين عنه باجتهاد .

(8) In Joan , hom . 40 : 1 .

(9) In Hebr . , hom 8 : 10 .

له في ذلك قول جميل (١٠) : « الله لا يريدنا ان نصغى الى كلمات الكتب المقدسة وعباراتها باهمال بل في انتباه شديد . لهذا السبب كثيرا ما يصدر الطوباوى داود مزاميره بالعنوان « للفهم (١١) » كما يقول (١٢) : اكشف عن عيني فأرى عجائب من شريعتك . ومن بعده يعلن لنا ابنه أنه يلزمنا أن « نطلب الحكمة كالفضة ، ونتاجر بها أكثر من الذهب (١٣) » ، وينصح الرب اليهود قائلا « ففتشوا الكتب ... » ولكي يحثنا على البحث دعاها « الكنز المخفى (١٤) » .

قلت هذه الكلمات لنا لكي لا نطلب كلمات الكتب المقدسة باهمال أو بطريقة عشوائية ، بل بدقة عظيمة . فان من يصغى اليها دون أن يطلب المعنى الحقيقي ... بل المعنى الحرفي ، يسقط في أمور لا تليق بالله إما اذا عرف المعنى الخفى فسيتحرر من كل عدم لياقة .

ولكن ، كيف ندخل الى المعنى الحقيقى لنصوص الكتاب المقدس ؟

ان كان قد دعا دراسة الكتاب المقدس فناله أسسه وخصائصه وقوانينه فان هذه الأمور تحمل اتجاهين متلازمين ومكملين أحدهما للآخر :

(أ) الجانب الاول هو الحكمة والتمييز ، كيف افسر النص ؟ هل بالمعنى الحرفى البحث ، أم الرمزى وحده ، أو كليهما معا ؟!

(ب) الجانب الآخر ، هو الجهاد الروحى ... فكلمة الله هى روح وحياة ، لا يتفهمها الا السالك بالروح ...

يقول القديس يوحنا (١٥) « بالروح القدس يتمتع المؤمنون بمهارة النظر الى المعانى المخزونة فى الداخل » .

الروح القدس الذى أوحى بالكلمة هو وحده الذى يفتح مخازنها امام النفس لكي تنهل منها ، فتشبع وتفيض دسما .

والروح مستعد أن يعطى بسخاء ... ويعطى الجميع ان تقدمنا اليه نطلب عمله فينا بانسحاق قلب فى اتضاع ، مع جهاد مستمر فى الصلاة (١٦) : « لا نقدر أن نكتشف معانى الكتب الالهية ونحن مهملون أو نائمون . يحتاج الامر الى بحث دائم وصلاة حارة حتى نقدر أن نجد لنا طريقا بسيطا فى أسرار الاقوال الالهية » .

(10) In Joan ., hom . 15 : 1 .

(١٢) مز ١١٨ (١١٩) : ١٨ .

(١٤) مت ١٣ : ٤٤ ، أم ٢ : ٤ .

(15) In 1 Cor , hom 7 : 2 .

(١١) مز ٣١ (٣٢) .

(١٣) أم ٢ : ٤ ، ٣ : ١٤ .

(16) In Joan ., hom 32 : 3 .

« لنتنقى . . . وهكذا نصفى للاقوال الالهية ،
لننصت اليه ، ما يتلى علينا بقلب منسحق . . . » .

٨ — في تفسيره للكتاب المقدس يرى في كل كلمة وردت في الكتاب المقدس نفعا يلزم للمؤمن أن يبحث عنه .

« في الكتب المقدسة ، لن نتردد تاركين مثقال ذرة او نقطة ، انما يلزمنا أن نبحث كل شيء ، فان الروح القدس قد نطق بالكل ، وليس شيء من المكتوب جاء بغير فائدة (١٧) » .

هذا الاهتمام اصبح على تفسيره مسحة جمالية وعملية عذبة ، لكن تدقيقه في كل كلمة يجره احيانا الى اسئلة وتفسير غريبة . ففي خلقه ابونا مثلا نجده لا يعبر على نعاس آدم بل يتساءل : لماذا ارسل الله سببانا على آدم في لحظة خلقه حواء ؟ فيجيب « لكى لا يتألم فيكره فيما بعد من خرجت منه (١٨) » .

٩ — أخيرا من أهم ملامح تفسيره (ومقالاته أيضا) ارتباطه ببعض شخصيات من الكتاب المقدس ، بل تعلقه بهم خاصة معلنا بولس الرسول وأيوب البار .

لقد عشق شخصية الرسول بولس وسجل لنا تفاسير كل رسائله . . . أحبه ككارز مملوء حبا تجاه البشرية كلها . . . اذا ما تحدث عنه يصعب عليه العودة الى موضوعه الاصلى . . .

« في تعليمي أكثر الاستشهاد بنفس بولس المقدسة . . . (١٩) » .
« ماذا يحدث لى ؟ لنهرب سريعا ، فان بولس يستولى على ، ويبعد بى خارج الموضوع !

انتم تعلمون اننى كثيرا ما اطارد فكرة معينة ، واذا بى اسقط فجأة على بولس فيحتجزنى بقوة عن كلامى ، ولا أقدر أن انفصل عنه حتى النهاية (٢٠) »
وفي اول عظة على رسالة الرسول بولس الى اهل رومية ابتدا بعبارات الاعجاب بالرسول ، قائلا :

« انى احرص على قراءة رسائل الطوباوى بولس مرتين اسبوعيا ، وغالبا ثلاث دفعات أو أربع كل اسبوع عند الاحتفال بذكرى الشهداء

(17) Ibid ; 36 : 1 .

(18) In Ps PG 55 : 324 .

(19) Non ad grant PG 50 : 656 .

(20) In Ego Don PG 56 : 146 .

والقديسين . انعم بالبروق الروحي بسرور ، انهض متقددا بالرغبة في التعرف
على الصوت العزيز على .

يخيل لى انى اهواه تماها ، بل كانه حاضر امام بصيرتى .
امسك به ، واتحدث معه .

لكننى احزن متألما لان كل الناس لا يعرفون هذا الرجل كما ينبغي . . .
انى اعرفه هكذا ليس بسبب استعداد خاص بى او ذكاء حاد ، انما
ان كنت اعرف عنه شيئا فبسبب التصاقى الدائم مع هذا الرجل وميلى
الشديد نحوه » .

وختم عظاته على نفس الرسالة (٢١) بعبارات رائعة تكشف عن مدى
ولعه بشخصية الرسول ، نعود اليها فى الحديث عن كتاباته ان شاء الرب
وعشنا .

ولقد قال انيانوس من Celeda فى القرن الخامس ان القديس يوحنا لم
يصف الرسول العظيم بولس ، بل كان كمن يقيمه من الاموات ليجعل منه مثلا
حيا للكمال المسيحى .

اما فى الفترة الاخيرة من حياة القديس يوحنا ، حيث دخل فى لجة
التجارب ، فقد وجد فى ايوب البار صديقا . . . تعلقت نفسه به كشريك معه
فى الآلام ، متى كتب عنه نسي نفسه . . .

جاءت كتاباته الاخيرة لا تخلو من حديث عنه . وفى احدى رسائله
لشماسته اولمبياس اذ بدأ يتحدث عنه ترك موضوع الرسالة تماها ليعود
معتذرا : « يبدو لى ان حبنى للبطل قد جرفنى بعيدا عن الموضوع المائل
امامى (٢٢) .

هذه ملامح انسان يعيش فى الكتاب المقدس مع الابرار والأنبياء والرسول
ويصادقهم فى المسيح يسوع ، ليحيا معهم كما هم فى الرب .

+ + +

(21) Hom 32 .

(22) Ep . ad Olympias 2 : 9 .

(٢)

منهج الكرازي

العمل الكهنوتي الرعوي الكرازي

مدرسة الخدمة

الخدمة في حياة القديس يوحنا ليست أعمالاً رسمية يلتزم بها ولا واجبات تقتضيها وظيفته الكهنوتية ، لكنها هي كل حياته . فقد جاءت سيرته تكشف لنا عن شخصية أسقف يعشق الرعاية ولا يكف عن الكرازة ، حبه لشعبه بل أقول حبه للبشرية قد امتص كل طاقاته وأحاسيسه وعواطفه ، حتى أعلن في أكثر من موضع أنه لا يعيش إلا لأجلهم !

أقول بكل صدق أن كتاباً كهذا يعجز عن أن يسجل لك منهجه في الخدمة أو يكشف لك أعماله الكهنوتية الرعوية الكرازية ، إذ حمل وراء أعماله « روحاً » لا تترجمها حروف ولا تعبر عنها كلمات ! لكن ما أرجوه في الرب ، أن ندخل سوياً بروح الخدمة إلى تلك الحياة التي عاشها لا لنسجل منهجه بل لنمارس معه « حياة الخدمة » وأن اختلفت ظروفنا عنه أو لم نتسلم درجة كهنوتية مثله !

ولكى نتذوق هذا المنهج ونعيشه يلزمنا أن نتعرف على «مدرسة الخدمة» التي نشأ فيها لينطلق بهذه الطاقات الداخلية الفريدة .

في غير تحفظ يمكننا أن نقول أنه بدأ يتدرب على روح الخدمة في مدرسة الإنجيل ، لا في مجرد دراسته ، وإنما خلال ممارسته «الحياة الإنجيلية التقوية» فقد سحب الإنجيل قلب الشاب يوحنا نحو « الحياة النسكية الإنجيلية » كأفضل مناخ يلتقى فيه عملياً مع الإنجيل ، فترك مهنته ومجتمعه وأصدقائه ، وكان يود أن يترك والدته ، معتكفاً في داره يطلب الوحدة من أجل الجهاد في تنفيذ الوصايا الإنجيلية . لقد أتهمه أصدقاؤه بالانعزالية والانطوائية ولم يدروا أن « الحياة الإنجيلية النسكية » هي خير مدرسة لتدريب النفس على روح الحب الباذل . لست أعني بهذا أن الحياة النسكية الرهبانية طريق للخدمة لكنها هي طريق التعبد والوحدة مع الله تخلق قلباً ملتهباً بحب البشرية في

المسيح يسوع : أنها تهب روح الخدمة ، لا خدمة الوعظ أو التدابير
والقنظيمات والاداريات ، لكن خدمة الحب البازل : اتساع القلب بالروح
القدس لكي ان أمكنه يحمل العالم كله بالحب فيه !

من خلال الانجيل ، ولأجل الانجيل ، انطلق قديسنا نحو « الحياة
النفسية الانجيلية » المنفتحة لله وللناس . . . لا يكونها انعزالا عن الناس بل
اتحادا مع الله خلال الوصية ، وانفتاح القلب بالحب نحو البشرية كلها (١) .

مارس « النفسك الانجيلي » بكونه التصاقا بالله محب لجميع بنى البشر
. . . فبدأ يمارس خدمته ليس بالتدرب على خبرات كلامية أو تصرفات رعوية
خارجية ، لكن خلال لقائه العميق مع « الراعى الاعظم » وهو منجذب بالانجيل
نحو البرية .

في غير مبالغة يمكننا ان نقول ان الذهبي الفم بدأ خدمته الحق منذ فتح
انجيله في داره ورغع قلبه بالحب في مخدعه مشتتيا خلاص نفسه وخلاص
العالم كله كانت عيناه الخارجيتان تتطلعان الى البرية مشتتيا ان يهرب من
الناس ليكون على الدوام بين يدي الله يتعبد ، وكانت بصيرته الداخلية
ترتفع نحو الصليب ليرى البشرية تتقدس بالدم الكريم لتعبر نحو المجد الابدي !

لم يعاني القديس صراعا بين حب الوحدة وبين حب البشرية ، بل رأى
فيهما انسجاما واتفاقا ، فهو يدخل الى البرية حاملا حبه للبشرية معه ، يدخل
الى الله وهو هارب من محبة اهتمامات العالم ، حاملا العالم (البشر) في
قلبه !

لست أقول هذا من عندياتي ، انما جاءت الاحداث كلها تؤكد ذلك .
فعلى سبيل المثال ، أحس المؤمنون بنيران حبه لخلاص اخوته تشتعل في
قلبه بالرغم من عزله ، فتهافتوا على سيامته أسقفا مع صديقه باسيليوس ،
أما هو فقلق شعوره بضعفه وعدم استحقاقه اضطر ان يهرب من الاسقفية ،
لكن حبه المتقد بخدمة النفوس جعله يزج بصديقه نحو السيامة معرضا نفسه
للوم الزائد ولمتاعب كثيرة .

أكثر من هذا ، هروبه من الاسقفية فضح بالاكتر أعماق قلبه ، اذ لم
يحتمل ان يترك نفس الاسقف باسيليوس متألما فكتب اليه يعتذر ، مسجلا

(١) راجع مفهوم « الوحدة » و « النفسك » في هذه السلسلة (١)
ص ٥٤ - ٥٥ . للمؤلف أيضا : سر الالم (سر الوحدة) ص ٨ - ١٠ .

لنا مقالته العظيم « عن الكهنوت (٢) De Sacerdotio » الذي أعلن في نهايته بكل وضوح تفضيله لحياة الخدمة لولا عجزه وضعف إمكانياته ، لا بل سجل لنا في هذا المقال خبرات رعوية دقيقة ، مع أنه لم يكن بعد قد مارس الخدمة بمفهومها الظاهري . لقد خط بيده دستوراً قيماً للعمل الكهنوتي الرعوى الكرازي .

بعد ذلك جاءت « حياته الديرية » أيضاً تؤكد هذه الحقيقة : اتساع قلبه بالحب لخلص اخوته ، كما سئرى في « منهجه الرهباني » ان اراد الرب .
أخيراً غان خدمته الكهنوتية تعتبر كتاباً عملياً ترجم لنا كل ما حمله قلبه من حب منذ بداية حياته الروحية ...

أما منهجه فنستطيع ان نعرضه في الخطوط العريضة التالية :

- ١ — وحدة العمل الكهنوتي الرعوى الكرازي .
- ٢ — إيمانه بخدمة الكلمة كعمل كنسى .
- ٣ — الكرازة : دخول في التوبة .
- ٤ — الرعاية : أبوة وتدبير .
- ٥ — الكهنوت : مسئولية وبذل .
- ٦ — حياة مسيحية .
- ٧ — الكرازة والحفاظ على الإيمان .

+ + +

(٢) قامت كنيسة العذراء بالفجالة بترجمته ونشره تحت اسم « الكهنوت المسيحي » .

وحدة العمل

الكهنوتي ، الرعوي ، الكرازي

نظرة سريعة على مقاله « عن الكهنوت » تكشف لنا حقيقة كنسية هامة عاشتها الكنيسة الاولى، هي وحدة العمل الكنسي ، الممثل في شخص الاسقف .
فلاسقف كراس الكنيسة يقوم باعمال ثلاث ، او قل عمل واحد مثلث الجوانب :

العمل الكهنوتي السرائري

العمل الرعوي ،

العمل الكرازي .

هذه الاعمال الثلاثة : الكهنوت والرعاية والكرازة ، ليست الا عمل السيد المسيح نفسه ، فهو رئيس الكهنة الاعظم واسقف نفوسنا ، والراعي الصالح ، وكلمة الله المتجسد . وفي عمله الخلاصي على الصليب لم يفصل عملا عن الآخر ، بل ظهرت وحدة هذه الاعمال ، بكونها عملا الهيا واحدا ، فيه قدم الكاهن الاعظم حياته ذبيحة عن العالم ، وفيه اعلن الراعي الصالح اعماق رعايته الباذلة ، وفيه تحدث عن كلمة الله كارزا بالحب والعمل .

والاسقف بكونه كاهنا وراعيا وكارزا ، انما يختفي في شخص السيد المسيح ، لكي يقدم بالروح القدس «عمل الحب الكهنوتي الرعوي الكرازي» كعمل واحد متكامل ، مستمد من عمل المسيح الخلاصي .

هذه الحقيقة كشفها مقال القديس « عن الكهنوت » بصورة او باخرى، حتى لنجدده يتنقل من عمل الى عمل او من جانب الى جانب في اعمال الخدمة دون تحفظ، اذ لم يفصل بين المعمودية والمذبح والهيكل والمنبر والانجيل وخدمة الارامل والفقراء ...

فخدمة الكلمة مثلا ليست عملا مستقلا عن الكهنوت او الرعاية ، انما تنبع عنهما وبهما وتسير معهما . يقف الكاهن يركز وسط شعبه لا كإنسان موهوب في البلاغة ولا كدارس للكتاب المقدس وانما يالحرى كأبيهم الروحي

الذى يدخل بروح الأبوة الى مرمى الكنيسة الاقدس . يقف على المنبر
طيسكب حياته بالحب عن اولاده ، مشتتيا أن يجتاز بسامعيه الى المعمودية
فهنعم الموظون بالميلاد الجديد ويتذكر المؤمنون عضويتهم في جسد المسيح ،
ثم يعبر بهم الى المذبح الالهى لكى يشبعوا بالذبيحة الحية ... هكذا يرى
القديس يوحنا الكرازة بالكلمة هى من صميم الرعاية الكهنوتية .

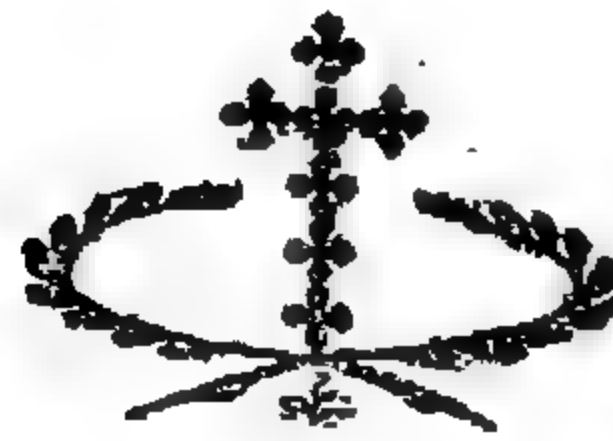
• ما اقله عن الكرازة اكره بخصوص الرعاية والعمل الكهنوتى ...
كل يقوم على غيره من أجل غاية واحدة ، هى تمتع الانسان بمقدسات الله
السموية .

على العكس ان سر الضعف الذى تعيش فيه كنيسة الغرب هو
مبالغتها فى جانب من الخدمة على حساب الآخر أو اهتمامها بعمل مع تجاهل
الآخر .

قاهتم البعض بالكرازة بالكلمة خارج الرعاية الكهنوتية فجاءت كلماتهم
جوفاء وصار الكارزون أصحاب كلام لا يحملون روح الأبوة لابنائهم .

وبالغ آخرون فى الرعاية ، خاصة الأعمال الاجتماعية ، فتحولت طاقات
الكنيسة الى أعمال بشرية بغير تفاعل مع الجانب الايمانى الروحى !

واهتم فريق ثالث بالعمل الكهنوتى منعزلا عن الكرازة والرعاية .
فجاءت الأعمال الكنسية شكليات جافة ومملة !



خدمة الكلمة

إيمانه بخدمة الكلمة :

الكرازة بالكلمة عمل أبوى من صميم الرعاية الكهنوتية . آمن بها القديس يوحنا وأدرك خطورتها ، ففى أول عظة القاها يوم رسامته كاهنا أكد أن الكرازة هى أعظم الذبائح وأقضىها وأسمائها (١) .

وفى إحدى عظاته أعلن (٢) « أن ممارسة خدمة العماد يكلف بها كهنة أقل فى المواهب ، أما خدمة الوعظ فينط بها من هم أكفا (٣) . فان الاعداد لسر العماد أصعب من اتمام خدمته » .

إيمانه بهذا العمل جعله يداوم عليه بغير انقطاع ، اذا ما اشتد به المرض وتوقف عن الوعظ ، فسرعان ما يعود يستأنف كرازته قبل اتمام فترة النقاهة (٤) .

وعندما اضطر للاعتذار عن الوعظ لمقابلة الامبراطور وغايناس القوطى عاد مسرعا الى منبره يعتذر لشعبه قائلا (٥) : « لقد تركتكم لحظة حتى أزيل متاعب سادة العالم خلال اتصالاتى وصلواتى . واذا نجحت فى العمل عدت الى المياه الهادئة التى تبحرون انتم فيها » .

فالكرازة بالنسبة له جانب حى من جوانب رعايته لشعبه من أجل خلاصهم ونموهم الروحى ، اذ يقول لهم :

« انى أعرف اننى أثقلت عليكم ، ولكن ليس هناك علاج آخر (٦) » .

(1) Cum prespo . PG 48 : 694 .

(2) In 1 Cor . PG 61 : 26 .

(٣) كان الوعظ عملا استقيا يسمح به للكهنة عند الضرورة وللأكفاء منهم

(4) Ad Pop . Ant , PG 49 : 188 .

(5) Cum Saturn PG 52 : 415 .

(6) In Propter form . PG 51 : 216 .

« لن أكف من القيام بواجبي مهما تكن الاسباب ، فقد وجدت هنا من أجل هذا العمل (٧) » .

مخلال المنبر التقى بأولاده وأحبهم وتعلق بهم ، حتى شبه نفسه بالطفل الذي لا يقدر أن يحرم من ذراعى أمه . . . فقد مرض يوما ولم يقدر أن يعتلى منبره ، فجاءهم في اليوم التالي يحدثهم في حب أبوى صادق ، قائلا (٨) :

« لقد حرمت منكم يوما واحدا ، فبدا لى كأنه عام !

كنت غارقا في الحزن كطفل انتزعوه عن حضن أمه ، فياتفت بعينيه من بعيد إلى ذراعيها . هكذا كنت أطلب صحبتكم ! » .

أظن أنني لا أستطيع بعد أن أتكلم عن مفهوم قديسنا للمنبر والكراسة . . . فأنه لم يحب البلاغة أو الفصاحة ولا إعلان أفكار روحية جديدة ، إنما أحب لقيها لقاءه بشعبه في كلمة الحياة خلال الحب ! هذا ما فقدته الكثيرون في العالم حيث تحولت الكرازة إلى فن جذب الناس حول الكارزين لا دخولهم معا بروح الحب في كلمة الله الحية .

+ + +

(7) In 1 Cor. PG 61 : 354 .

(8) In faciem PG 51 : 371 .

منهج الرعنى

أن كنا قد تحدثنا عن منهجه الوعظى كحياة عاشها القديس ، لكننى أود أن أقدم فى اختصار صورة مبسطة عن ملامح منهجه من جهة غايته وأسلوبه وروحه ما استطعت ، ولا يخفى على الدارس أنه لكى يختبر هذا المنهج لا يتمثل به فى تقليد أعمى ، اذ يوجد اختلاف بين ثقافة أنطاكية والقسطنطينية فى القرن الرابع وفكرهما وظروفهما الاجتماعية والسياسية وتلك التى نعيشها نحن فى هذا القرن .

أما أهم ملامحه فهى :

١ — منهج أنجيلى عملى : جاءت عظاته انجيلية عملية ، فى أسلوب سهل بسيط ، بعيد عن الاصطلاحات اللاهوتية العويصة والفلسفية المعقدة . . . فهو لا يريد أن يقدم لسامعيه أفكارا بل يطلب عملا فى حياتهم ، اذ يقول : « عظمة هى الحكمة الاخلاقية (العملية) التى جبلها المسيح بين البشر ! (١) » .

« ابنى أعرف أن الكل يرغبون فى الطيران من الآن نحو السموات ، لكن يليق بكم أن تظهروا هذه الرغبة بالأعمال (٢) . . . » .

هكذا أعلن غاية منهجه هو الانطلاق بهم نحو السماء خلال الحكمة العملية السلوكية ، فيقول (٣) : « أحيانا أهاجم حب المال وأحيانا النهم ، ثم أناقش العفة ، وبعد ذلك أمدح الصدقة وأدفعك فى طريقها ، ثم أنظر بالتتابع الى فضائل أخرى » .

٢ — أذ انتهج الطريق العملى فلا يقدم فى عظاته كل ما يريد قوله بل ما يقدر السامعون أن يحتملوا ويسلكوا به ، اذ يريد بنيان نفوسهم لا تقديم مبادئ نظرية . « فان المعلمين لا يقولون كل شيء كما يريدون ، بل على وجه العموم يقدمون ما يقدر ضعف المستمعين أن يحتمل ، وذلك كقول بولس (٤) : لم أستطع أن أكلكم كروحانيين بل كجسديين ، كأطفال فى المسيح سقيتكم لبنا لا طعاما (٥) » .

(1) Statues , hom . 17 : 5 .

(2) In Joan , hom 1 : 5 .

(3) Ibid , PG 59 : 138 .

(٤) ١ كو ٣ : ٢٠١ .

(5) In Joan . , hom 30 : 2

٢ — دفعه منهجه العملى الى التكرار بصورة مبالغ فيها جدا ، يقضى سنوات يتحدث فى كل عظة عن « الصدقة » ، ويكرس سلسلة من عظاته يحثهم على « عدم القسم » الخ ...

فى عظته الثانية عشرة « عن التماثيل » يقول : (٦)

« اود ان احدثكم من جديد عن « القسم » ، لكننى اشعر بالخجل .
فبالنسبة لى لا اعتبره أمرا ثقيلا على نفسى ان اكرر ذات الشئ نهارا وليلا ،
انما اخاف عليكم لئلا يصنيعى هذا اياما كثيرة ادينكم على توانيكم العظيم ...

من جهتى لا اكف عن ان اكرر هذه الامور ، لكننى — على اى حال —
اخاف لئلا يقال لى فى ذلك اليوم (٧) « ايها العبد الشرير والكسلان ... كان
ينبغى ان تضع مالى عند الصيارفة ...

انظروا . انى اضعها عندكم ليس مرة ولا مرتين بل مرات متعددة !
انى اودعكم اياها لى تريحوا بها ! » .

غير ان تكراره لم يدفع سامعيه الى الملل . أولا بسبب التعاطف
الشديد الذى يربط بين القديس وشعبه فينقل روح المتكلم اليهم ، يقول
ما يريد ليسمعوا له فى غير ملل . ثانيا ، خياله الباهر للغاية الذى اصبغ على
أسلوبه بريقا خاصا يشد قلوبهم الى الجو الذى يريده .

٤ — القديس يوحنا كاسقف روحانى يتحدث مع اولاده فى ثقة وبسلطان
فيقول لهم :

« انى طبيب واقدم الدواء :

انا معلم واعلم (٨) » .

« تخيلوا ان اعينكم مصابة وانا طبيب ، سألقى العلاج والمراهم والدهان
والزيوت الخ ... بحجة انها لا تأتى بثمر . فانكم تأتون الى وتقرعون بابى
وتوبخوننى على كسلى ... فاعود لأحدثكم عن الصدقة من جديد ، اذ ارى
من واجبى ان أعيد الحياة لأيديكم المشلولة واستمر فى علاجها حتى تلين
وتتبسط للعطاء (٩) . »

(6) Statues , hom 12 : 16 .

(٧) مت ٢٥ : ٢٦ ، ٢٧ . (8) De Laz . PG 48 : 1029 .

(9) Ad Pop Ant . PG 49 : 118 — 119 .

سلطانه المملوء حبا يجعله يتحدث معهم بكل دالة وثقة ، أحيانا في عنف
وأخرى في لطف ، فكمثال يختم حديثه السابق بتحذير قاس هو أنهم ان لم
يكفوا عن ردائلهم فلن يكف هو أيضا عن مطاردتها بالسياط !

ومع هذه القسوة لا يتحدث معهم كما من المنبر الى أناس ضعفاء ، بل
ينزل معهم في وسطهم ويكشف لهم ضعفاته كأنسان محتاج معهم الى نعمة الله

فمن أقواله (١٠) : « بالحقيقة أيها الاخوة انى كاهن الله ، لان الله أراد
لى ذلك . انى خاطيء معكم ، أقرع صدرى !

معكم اطلب الصفح !

معكم اترجى مراحمه !

اخبرونا ايها الرسل القديسون : هل بعد قيامة الرب من الاموات
وثبوتكم بالروح القدس الذى حل عليكم انقطعت عنكم الخطية تماما ؟ ...

لننصت الى اجابتهم حتى لا ييأس الخطاة ... ان قلنا اننا بلا خطية
نضل انفسنا وليس الحق فينا . ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى
يفقر إنا خطايانا ويظهرنا من كل اثم (١١) ... » .

مرة اخرى يقول (١٢) : « أما تعلمون ان أصحاب الرتب الكنسية الذين
يخدمون المذبح المقدس ليسوا أبرارا بالكلية ، بل هم بشر ، ذوو أجساد
ترابية !

حتى نحن انفسنا الجالسون على كرسى رئاسة الكهنوت ونعظكم على
الدوام مرتبكون بالخطايا ، لكننا لا نياأس من محبة الله للبشر ولا نظهر
تساوة . لقد جعل الله الكهنة تحت اعراض الآلام حتى يشفقوا على الغير ... »

« من قبيل حب الله للبشرية ان يكون المتكلم والسامع كلاهما تحت حكم
هذه الطبيعة بالتساوى ، فان كليهما مذنب وعاص لاوامر الله . فان قلت :
لماذا ؟ أجيبك : لكى اذا ما حكم المعلم الروحى يأخذ في اعتباره ضعف الخاطئين
فيضع لهم القوانين المناسبة برفق ، اذ يعرف ضعفهم ونقص قوتهم فلا يشدد
عليهم بقوانين ثقيلة » .

(١٠) الحب الرعوى ص ٣٢٦ .

(١١) ١ يوا ١ : ٩ ، ١٠ .

(١٢) الحب الرعوى ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

أكثر من هذا نجده أحيانا يعلن ضعفاته علنا ، كان يسكوههم غضبه
كوحش غير قادر عليه ، اذ يقول :

« تقولون لى ان القلب يتألم (أى يغضب) بسبب لدغات الالهانة . انى
اعرف ذلك جيدا ، فانى أدهش من الذين يقدرّون على ترويض هذا الوحش » .

وفى أكثر من موضع يطالبهم بالصلاة من أجل نفسه ، لان « الاسقف
محتاج الى مثل هذه الصلوات أكثر منكم . . . فبمقدار ما تكون منزلة الانسان
عظيمة هكذا يمكن أن تكون مفاسده عنيفة أيضا . فضيلة واحدة فى الاسقف
كافية أن ترفعه الى السماء ، وزلة واحدة قادرة أن تلقيه فى جهنم (١٣) » .

٥ — صراحته فى غير محابة :

ان كان فى اتضاعه ينزل الى شعبه يحدثهم عن ضعفاته الشخصية
طالباً صلواتهم عنه ، لكن وضوح الهدف أمام عينيه جعله لا يعرف المجاملة
على حساب الحق ، انما ينطق به بكل قوة دون أى اعتبار آخر سوى
الدخول بالكل الى « الحياة الانجيلية العملية » ، فمن أقواله (١٤) :

« ليضحك من يضحك ! وليتهكم من يتهكم ! هذا لن يشغل ذهنى ، فانى
لم أشغل هذا الموضع الا لآكون مرفوضاً وأضحكة !

انى مستعد أن أحتمل كل شيء .

من يصر على تصرفاته ولا يسمع لتحذيرى أمنعه من الدخول فى الكنيسة
كما بصوت بوق ، حتى ان كان أميراً او امبراطوراً .

أعفونى من عملى والا فلا تلزموننى ان آكون تحت اللعنة !

كيف أجلس على هذا الكرسي ان لم أفعل ما يليق به ؟ خير لى أن أنزل
عنه ، لانه ليس شيء أمر من وجود أسقف لا يفيد شعبه (١٥) .

٦ — كثيراً ما يستخدم التفضيم فى الكلام من أجل التوضيح . فعلى
سبيل المثال حين يمدح الرسول بولس يقول (١٦) : « آه لو أعطيت أن ألقى

(١٣) الحب الرعوى ص ٩٨ ، ٩٩ .

راجع أيضاً أقواله فى « الحب الرعوى » عن الضعفات التى تهاجم
الكاهن ومخاطر حياته الروحية وخطورتها كقوله « الرجل العلمانى
إذا زل ينتصح بسهولة ، وأما الكليركى فإذا صار رديئاً يضحى غير
قابل للنصح !! » ص ١٦٤ .

(14) In Act PG 60 : 74 .

(15) De mut Nom PG 51 : 135 — 138 .

(16) In Rom . hom 32 .

بنفسى على جسد بولس ، والتصق بقبره وانتطلع الى تراب ذاك الجسد الذى اكمل نقائص (شدائد) المسيح ، وحمل السمات وبذر الاتجيل فى كل موضع؟! نعم ! تراب ذلك الجسد الذى تكلم المسيح خلاله !

يا لسرورى ان انظر تراب العينين اللتين عميتا بالمجد ثم استردتا بصيرتهما مرة أخرى من أجل خلاص العالم ! هاتان العينان اللتان وهما بعد فى الجسد استحققتا معاينة المسيح ! رأتا الامور الارضية وفى نفسى لم تنظراها رأتا الامور التى لا ترى ...

اود لو انتطلع الى تراب قدميه اللتين جابتا المسكونة بلا كلل ... « وفى حديثه عن لعازر المسكين يقول (١٧) : « كان مدينة مستديمة للسن الكلاب ! » .

اما وصفه لشماسته اوليباس فقد علا بها فوق طغيات الملائكة ، وجعل منها اقرب الى الخيال فى عفيتها ونقاوتها ونسكها واحتمالها وحكمتها ...

٧ — أكثر من استخدام التشبيهات والامثلة الواردة فى الكتب المقدس او المستقاة من واقع الحياة فى عصره معتبرا أن العظة بدون تشبيهات أو امثلة كالجسد بدون رأس .

فعندما يتحدث عن الناموس الموسوى يقول :

« انه يشبه تدينى الامم اللذين يصبحان بلا نفع للطفل متى استطاع أن يجلس على مائدة أكثر دسما (١٨) » .

« هل يفيد ضوء شمعة عندما تشرق الشمس ١٤ (١٩) » .

« هل هناك حاجة لتعلم النحو عندما يصير الانسان فيلسوفا ١٥ (٢٠) » .

وعندما يتكلم عن اليهود يقول « انهم يختبئون فى اليهودية كما فى الاحراش لو سمعوا صوت بولس لسقطوا سريعا فى شباك الخلاص (٢١) » .

« لنفرد سويا شباك التعليم ونقف فى دائرة كمثلك كلاب الحراسة ونحيط بالمتهورين وناسرهم من كل جهة فى قوانين الكنيسة (٢٢) » .

صارت اورشليم اليهودية « هارورة مكسورة (٢٣) » .

(17) Quod nems PG 52 : 741 , De Laz . PG 48 : 980 .

(18) In Mat . PG 57 : 261 .

(19) In Philip PG 62 : 269 .

(20) Cum in Col . PG 61 : 762 .

(21) Adv . Jud PG 48 : 857 .

(22) Ibid .

(23) Ibid 880

واذا تكلم عن الفلاسفة يشبههم بالاطفال (٢٤) قائلا « اذا رأى الاطفال لصا يدخل المنزل ليسرقه لن يعترضوه في لصوصيته بل ربما يبتسمون له ، لكنه ان بدا يستولى على الحايهم يعضبون ويحنقون ويتمرغون في الارض . لعل اليونانيين لا يختلفون عنهم في شيء . فانهم يرون الشيطان ينتزع ميراثهم وغذاء حياتهم فيضحكون ويجرون اليه كما الى صديق ، لكن ان جردناهم عن غذائهم فانهم يكونون (ويفركون) أيديهم . وكما لا يدرك الاطفال عريهم ولا يخجلون منه ، هكذا يتمرغ اليونانيون في فسادهم وزناهم دون النظر الى أية قوانين حتى الطبيعية » .

« تسألوننى : لماذا لم يضع السيد المسيح بصماته على اغلاطون . أو فيثاغورث ، فأقول : لان نفس بطرس كانت أكثر تقبلا للفلسفة (التقوى) منهما . فانهما لم يكونا في أعماقهما الا طفلين شرهين محبين للمجد الباطل (٢٥)

أحيانا يحمل في تشبيهاته شيئا من السخرية الهادئة ، ربما لكى لا يمل السامع من طول العظة . فيسخر من اليهود قائلا (٢٦) : « تصوروا رجلا يبلغ من العمر عشرين عاما ولا يزال يرضع من مربيته ؟! » . ويسخر من الانسان النهم قائلا (٢٧) : « لماذا تزداد بدانة يا صديقى ؟ انى نيتك ان تذبح وتقدم على مائدتنا ؟! » .

٨ — كان خصب الخيال ، اذا تحدث عن أيوب البار يقول (٢٨) : « امراته الشريرة لم تستطع ان تهز هذا البرج ، ولا ان تحطم هذا التمثال ، ولا ان تغلب هذه الصخرة ، ولا ان تقطع هذه الشجرة او تحطم هذه السفينة »

وفي وصفه للكنيسة بعد خروجه الى المنفى يقول لشماسته (٢٩) : « لماذا أنت حزينة ومكتئبة ؟ هل بسبب العاصفة الشديدة المحزنة التى تجتاح الكنيسة ، والتى عكست سوادا على كل شيء كما فى ليلة غير قمرية . تمتد حتى النهاية كل يوم ، وتتمخض لكى تنجب خرابا ودمارا متزايدا ؟!

هو ذا البحر يجيش من أعماق أعماقه ،

والبحارة قد صار بعضهم جثثا ميتة تطفو على الامواج ، والآخرين ابتلعتهم الامواج .

(24) In 1 Cor . PG 61 : 38 — 40 .

(25) In Act PG 60 : 47 — 49 .

(26) In Tim PG 62 : 559 .

(27) In Mat PG 57 : 470 .

(28) In : Vidi Dom PG 56 : 123 — 124 .

(29) Ep . ad Olymp . 1 . PG . 52 .

دعائم السفن قد تحطمت ،
والشراعات قد تمزقت كخرق بالية ،
وصواري السفن قد نزعت تماها ،
والمقاذيف قد فلتت من أيدي البحارة .

المرشدون الجالسون على ظهر السفينة يخطئون بأيديهم على ركبهم
عوض امساكهم بالدفة ، يندبون بأسهم مع صرخات مدوية عالية ونحيب مر ،
السما والبحر لا يريدان ان يظهرأ واضحين ، بل صار الكل ظلأا حالأا
لا تميز فيه شيئأا ،

لا يرى أحد قربه ، بل يسمع ضجيج أمواج عالية ، واهوال البحر
تجتأح البحارة من كل جانب !! ... » .

لم يكن القديس يوحنا مجرد بليغ أو كاتب يعرف كيف يعرض أفكاره في
بلاغة وفصاحة مع خيال متسع ، إنما حمل مشاعر صادقة ، يتكلم ويكتب من
واقع قلبه وأحاسيسه ، لهذا يعلن :

« ان تنميأ الكألم لا يليق بالفلاسفة ولا حتى بالرجال إنما هو لعبة
صبيان يلهون (٣٠) » .

٩ — الاطالة في بعض العظات يصل بعضها الى ساعتين في القائها .
لكنها كانت حبة ، تحمل عواطف جياشة ، تدخل بالمستمعين الى أحاسيس
عذبة فلا يملونها .

كثيرا ما كان يعتذر لشعبه بسبب الاطالة ، معلنا أنه لم يفعل هذا
بغير هدف ، كأن يقول : « ربما تظنون اني ابتعدت كثيرا عن موضوعي .
كلا . فاني لا أهدف الى مجرد تلاوة قصة بل قصدت ارشادكم بخصوص
الشهوات، المسيطرة عليكم (٣١) » .

« أعود مرة أخرى الى موضوعي بعدما اعترضت حديثي بهذه
الملاحظات . لم أفعل هذا جزأا إنما لأجل اراحة نفوسكم التي قد يرهقها
حديثنا الطويل (٣٢) » .

(30)Adv . op . PG 47 : 296 .

(31) Ad Pop . Ant PG 49 . 149 .

(32)Adv Jud PG 48 : 893 .

١٠ — كان يخرج أحيانا عن الموضوع الذى يتحدث فيه ثم يعود اليه . . .
مشبها نفسه بـ « الفنان الذى يريد عرض لوحته فى صورتها الحقيقية فيبعد
عنها المتفرج الى مسافة معقولة حتى يبصرها بوضوح (٣٣) » . . . لكنه
لا ينكر أنه أحيانا ينجرف الى خارج الموضوع بغير قصد ، فنراه يقول (٣٤) :
« حقا ، لا أعرف كيف بلغ بى الحديث الى هنا خلال تيار كلماتى . فلنعد
سريعا الى موضوعنا » .

١١ — أحيانا يعرض عليهم بعض المشاكل ولا يضع لها حلا ، لكى
يعينهم على التفكير الجدى فى حل مشاكلهم ، فيجعل منهم أناسا ناضجين .
« تقولون لى : لماذا توهمز الينا بمشاكل ولا تقدم لها حلا ؟ أجيب : لكى
تتعودوا ألا تتكلموا على الطعام المجهز تماما فى كل مرة ، بل تبحثون بأنفسكم .
هذا ما تفعله الحمامة ، فانها تقوت صغارها مادامت مستكنة فى عشها ،
أما اذا صار للصغار أجنحة قوية . وتأتى اللحظة التى تقدر فيها على الانطلاق
للخارج فان الحمامة الأم تترك الحبة على الأرض حتى يتعود الصغار على
الالتقاط . . . هكذا ادعوكم أن تلتقطوا بأنفسكم . فانى آخذ القوت الروحى
فى غمى وأودعه فيكم ، لكن اذ تجتمعون لتتقبلوه مجهزا أتركه أمامكم حتى
تصلوا بمجهودكم الشخصى الى مفتاح المشكلة المعروضة (٣٥) » .

١٢ — كثيرا ما يختم عظاته بملخص يجمع به شتات العظة ، مشبها
نفسه بالأم التى تجمع الحلوى فى ثوب ابنها .
« يلزمنا أن نلخص ما قلته فى أيجاز . فعندما تضع الأمهات الفاكهة
أو الحلوى فى ثياب الطفل ، يرفعن ذيل ثوبه ويربطنه فى وسطه بزئار حتى
لا يفلت . هكذا أفعل أنا أيضا حيث أختم العظات الطويلة فى كلمات أودعها
فى ثنايا ذاكرتكم (٣٦) » .

+ + +

(33) De S ; Bal PG 50 : 529 .

(34) In Gen PG 53 : 102 .

(35) De Mut Nom PG 51 : 119 .

(36) In Vid Dom PG 56 : 119 .

الكسرازة بالتوبة

يعتبر القديس يوحنا ليس واعظا مقديرا فحسب بل بالحرى طبيبا ماهرا في علاج النفوس . لقد عرف قيمة النفس البشرية وأدرك عظمة خلاصتها فكرس حياته كلها لخدمة المنبر بل بالحرى لخدمة أولاده وللدخل بهم — ما استطاع — الى حياة التوبة العملية .

« التوبة » هى الطريق الانجيلي الذى تجتازه النفس عابرة الى الملكوت السمائي . كيف دخل بهم هذا الطريق الموكى السماوى ؟

١ — يطلب اعمال التوبة لا الاعجاب

احتشدت الجماهير حول منبره وأعجب الكثيرون به، أما هو فكان واعيا في كرازته ، يعرف كيف لا تخدعه الذات ، فيلهيه اعجاب الكثيرين بشخصه او بلاغته او فصاحة لسانه عن حقيقة رسالته فكان اذا ما انطلق الحاضرون بالتصفيق ينتهرهم ، طالبا اعمال التوبة لا تصفيقاتهم :

« انا لست في حاجة الى مدح او تصفيق او صخب او صجيج ؛ انى اطلب شيئا واحدا ، ليتكم تصفون اليه في هدوء وتعقل : افعلوا ما أقوله ! هذا هو مديحكم لى ، هذا هو ثنائوكم على ... »

نحن لسنا هنا في مسرح للتمثيل ، ولا ترون امامكم ممثلين تصفقون لهم . هنا مدرسة روحية ، تظهر فيها طاعتنا بأعمالنا (١) .

« تصفقون لى بحماس شديد ، وتهللون ... لكننى اتوسل اليكم ان تكونوا رجالا ، فان كنا لا نزال اطفالا ، كيف نعلم (الوثنيين) الرجولة ؟! كيف ننزع عنهم جهالة الطفولة ؟!

لنكن رجالا ، وبلغ حد القامة التى وضعها لنا السيد المسيح فنحصل على الخيرات العتيدة (٢) . »

« ما حاجتى الى هذا التصفيق ، علامة الفرح والاعجاب ؟!

(1) In Mat . , hom 17 : 6 .

(2) In I Cor . , hom 4 : 11 .

المديح الذي أرجوه منكم أن تظهروا أقوالى معلنة فى أعمالكم ، فأصير
إنسانا سعيدا ... (٣) » .

لقد أوضح بكل دقة موضوع كرازته « حياة التوبة العملية » التى لا
تهب المؤمنين نضوجا روحيا، بل وتبعث غير المؤمنين أيضا على رفض جهالات
طفولتهم وقبول الحياة الايمانية الناضجة الجادة ، الامر الذى يفرح قلب الكاهن
الكارز ويجعل منه انسانا سعيدا .

لم تقف غيرة القديس عند هذا الحد ، بل كان يوبخ شعبه لانهم مسؤولون
عن الكارز باظهار علامات الاعجاب وكلمات المديح والثناء عوض التوبة
الصادقة ... فقد انتقدهم بأنهم لا يطلبون كارزا جادا يدخل معهم طريق
التوبة المر والجهاد الصعب لكنهم يطلبون « مغنيا أو موسيقارا (٤) » ،
يمدحون فيه بلاغته وعذوبة صوته . وبهذا يفقد الكارز أبوته الحققة، اذ يرضخ
لطلبات اولاده الضارة ، فيصير كأب يستجيب لدموع ابنه المريض فلا يقدم له
العلاج المر الشافى ...

« هذا مايفعله من يطلب مقالا جميلا منمقا عوض أن يكون المقال نافعا!
فيطلب (الكارز) اعجاب الناس عوض تهذيبهم ، يرائى ولا يبكت ، يستحسن
التصفيق عن اصلاح السلوك (٥) » .

ان مثل هذه الكرازة لا تأتى بثمر حقيقى ، ثمر التوبة الحققة ، وأن اثر
فذلك يكون بفضل نعمة الله وصلوات الكنيسة (٦) .

٢ — بمثابة فى بعث روح التوبة

ان أعجب ما فى القديس يوحنا ليس هروبه من المجد الباطل طالبا ثمر
التوبة فى حياة شعبه ، بل حكمته وايمانه فى تحقيق غايته ... فقد برع فى
تحويل كل الاحداث التى عاشتها الكنيسة أو المجتمع كفرص حية للتوبة ، مثل
احداث التماثيل كما رأينا ... أما ايمانه فيظهر فى مثابرتة فى تحقيق الهدف
حتى ولو لم يجد استجابة من سامعيه ... وله فى ذلك قول رائع (٧) :

« لا أتوقف عن التحذير لمجرد تشتيت البعض بأخطائه ، فان الينابيع
والانهار تستمر فى فيضها وجريانها حتى وان لم يشرب منها أحد ، هكذا يليق

(3) Statues , hom 2 : 10 .

(4) In Act , hom 30 , PG 60 : 225

(5) Ibid 226 .

(6) De Incomp . PG 48 : 802 , 811

(7) De Laz , PG 48 : 963 , 5 .

بنا أن نعظ وإن لم يكثر أحد بالوعظ . فقد وضع الله علينا ، نحن المكلفين بالوعظ ألا نستسلم صامتين ، إلى أن يسمعوا ويسلكوا في الطريق .

أما أنا فقد عزمت أن أستمع في عملي حتى أن وجد من يحطم ذراعي ، بالقول : ما الداعي لهذه النصائح ما داموا يريدون الاستماع ؟ !

ماذا ؟ هل اقسمت أن أصطادهم جميعا في شبكي في يوم واحد ؟ !
فإن لم أفز إلا بعشرة أو خمسة أنفس أو حتى بنفس واحدة ، أما يكون لي في هذا تعزية كافية ؟ !

ولنفترض المستحيل ، وأذهب إلى أبعد من هذا ، اني لا أكسب نفسا واحدة فاني أعتقد أن كلامي لن يضيع هباءا ، بل ينجل الخاطئون ، وهذه خطوة أولى في طريق التوبة . . . وهي تزيد الحكماء حكمة .

سأقول لنفسي : ألم أهد اليوم أحدا ؟ ربما غدا ، أو بعد غد ، أو في يوم آخر .

لقد شبه نفسه برجل يضرب شجرة الرذائل بالفأس ، فإن لم تسقط من الضربة الأولى يضرب الثانية والثالثة والعاشرة والمئة ، ولا يكف عن ضربها حتى يهتز كيانها وتسقط كأسقف ملتزم أن يعمل ويعظ وينذر ، أما التوبة الداخلية والامتناع ففي حينه من قبل الله إذ يقول « الله لم يأمرنا بالامتناع بل بالتعليم فقط (٨) » .

أخيرا نسجل ما كتبه عن الراعي في ماثبرته (٩) : « يجب أن يتمتع الراعي بروح عالية . فلا يخور عزمه ولا ييأس من خلاص الضالين ، إنما على الدوام يباحث نفسه قائلا : عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ إبليس . . . » .

٣ - أكثر من التشجيع لا التهديد :

أعجب القديس بمنهج سيده الذي اتسم بإيجابيته في حديثه وأمثاله ، يشجع البشر للتوبة بالكشف عن الأبدية والمكافآت العلوية ، ونادرا ما يحدثهم في سلبية عن العقوبات . فإن جاذبية الحب للتوبة أسمى من التوبة بدافع الخوف ! .

يقول (١٠) « أننا على وجه الخصوص نعجب من تعليم السيد المسيح إذ يضع في أمثاله مكافآت الجهاد بكمال عظيم مثل أن « نعاين » ، « نرث ملكوت السموات » ، « نصير أولاد الله » ، « نصير مثل الله » ، « نرحم » ، « نتعزى » ، « ننال مكافأة عظيمة » الخ . . . وإن استدعى الأمر إلى ضرورة الإشارة إلى أمور محزنة يوضح ذلك في نغم خفيف .

(8) Ibid 965 / 6 .

(9) De Sacer . 2 : 4 .

(10) In Mat . , hom 18 : 9 .

بهذا الروح الانجيلي كرز القديس وسط شعبه بأفكار يظنها بعض علماء التربية أنها حديثة من عندياتهم ... لقد عرف أن النفس تحتاج بالأكثر إلى من يشجعها ويسندها ويحبها ، وعند الضرورة القصوى تحتاج إلى التخويف والتهديد .

٤ — ترفقه بالضعفاء :

كان القديس يوحنا مرييا حكيما ، غيورا غيرة متقدمة للدخول بشعبه إلى حياة التوبة ، مدركا مقدرا سلطان الشر المحيط بهم . واذ تعثر كثيرون منهم في الملامى والملاعب والأندية شعر بضعفهم فترقق بهم في عظاته إلى أبعد الحدود .

(١) فعلى سبيل المثال لا يطالب شعبه في انطاكية بأمور غثثة بل يتدرج معهم في اعتدال حتى يبلغ بهم إلى هدفه .

يقول (١١) : « لهذا السبب اطلبكم بأقل الأمور . نعم أنا أعلم أن « الفقر الاختياري » ثقل عليكم جدا ، فإن السماء ليست ببعيدة عن الأرض . كبعد بذل الذات عنكم » .

(ب) ما أن أحس بأن بعض أولاده قد بدأوا ينفذون ما أوصى به ، أي يسلكون في طريق التوبة العملى حتى أخذ يشجعهم معلنا لهم أن ما قدموه لهو مكافأة عظيمة تستريح بها نفسه وسط كثرة أتعاب الخدمة ومشاق الرعية ... قائلا (١٢) :

« بسبب هذا أنا احتضنكم في قلبى على الدوام .

ولهذا السبب أيضا لا أعود أشعر بأتعاب التعليم ، بل يصير الحمل سهلا ما دام المستمعون ينتفعون !

بحق ان هذه المكافأة لكافية لتجديد قوتى ،

تهبنى أجنحة وترفعنى ،

تحثنى بالأكثر أن أحتمل الأتعاب القاسية لأجلكم ! » .

مثل هذه العبارات إنما تعلن اقتداءه بسيده الذى قيل عنه « غفيلة مدخنة لا يطفىء ، وقصبة مرضوضة لا يقصف » ، يعرف كيف يسند ويترفق بالضعفاء ، متقبلا كل محاولة لتوبة — هما كانت المحاولة — بروح التشجيع والفرح !

(11) Ibid . 21 : 6 .

(12) Conc Statues , hom 9 : 1 .

(ج) أما ابرز ما شد انظار معاصريه المحيطين به والغريباء عنه .
والكتاب المحدثين فهو « سمة الرجاء » التي اصطبغت بها عظاته وكتبته ،
فجذبت النفوس المحطمة ودفعت بهم بكل ثقة الى « حياة التوبة » .

تحدثنا قبلنا عن رسالتيه الى صديقه الراهب الساقط ثيودور ، اللتين
تكشفان عن حنانه على الساقطين واهتمامه بهم حتى يرتفع بهم بجناحي
الرجاء والثقة فوق كل تحطيم (١٣) !

عرف كيف يبعث بروح الرجاء وسط شعبه بطريقة فريدة ، فستبهم
وهم خائرون تحت مرارة الخطايا وانطاق بهم الى حيث العشار ، وقد جاء
— على حد تعبيره — مثقلا بالآلاف الخطايا التي اقترفها ، وبرجائه في مراحم
الله خرج مبررا ، معلقا على هذا المشهد بقوله (١٤) :

« ليست كثرة الخطايا هي التي تجاب اليأس للبشر ، انما فساد
ذمتهم ... »

ليس السقوط في ذاته خطيرا ، انما بالحرى يكن الخطر في البقاء
في حالة السقوط !

الجرح في ذاته لا يميت انما بالاكتر اهمال الجريح للعلاج !
لا اقول هذا لكي تهملوا ، انما لكي تكفوا عن اليأس .
له ايضا تعبير رائع في التشجيع على الجهد في طريق التوبة والفضيلة
بغير يأس :

« عندما تبدأون في الاصلاح فانكم وان كنتم تعصون شريعتكم مرة
ومرتين وثلاثا وعشرين مرة ، لا تياسوا . قوموا من جديد استعيدوا نشاطكم
مرة اخرى ، فانكم بالتاكيد منتصرون » .

هـ — اهتمامه بخلاص الجميع :

اذ نتحدث عن منهجه في التوبة انما نتحدث عن ابوته ايضا ، التي
لا تستريح بخلاص الكثيرين بل بخلاص كل ابن . كآب لا يستريح قلبه لو نجح
جميع اولاده الا واحدا ، فهو يحمل حبا لاولاده لا كجماعة فحسب بل ويحمل لكل
واحد منهم حبا شخسيا ... هذه هي احساسيس الاب القديس يوحنا ،
اذ يخاطب شعبه قائلا (١٥) :

(١٣) راجع الحب الرعوى ، ستعود بقوة اعظم : وهي ترجمة
الرسالتين ...

(14) In 1 Cor , hom 88 .

(15) De terrae motu PG 50 : 713 — 714 .

« جماعتكم هي اكليلى ،

كل واحد منكم — فى عينى — يساوى المدينة كلها ! » .

لقد امتثل فى ذلك بالرسول بولس ، اذ يقول عنه (١٦) :

« اذ وضع العالم بين يديه لم يهتم بالأمم ككل فحسب بل وبالأفراد ، فبيعت برسالة لصالح أنسييموس ، وأخرى من أجل الشخص الزانى من أهل كورنثوس ... ناظرا اليه كإنسان له تقديره فى عينى الله ، فمن أجله لم يضمن الأب عليه بالابن الوحيد !

لا تقل هذا عبد هارب أو ذاك لص أو قاتل أو إنسان مثقل بخطايا غير معدودة ، أو متسول أو حقير ... بل تأمل أنه لأجله مات المسيح ! أما يكفى هذا ليكون أساسا لنعطيه كل اهتمام ؟! » .

هذه الأبوة المملوءة غيرة جعلته لا يتوقف عن الجهاد طالبا توبة الكل ونموهم الروحى ، فبعد رسامته قسا خاطب شعبه قائلا (١٧) :

« لا يقل لى أحد أن كثيرين قد نفذوا الوصية ، فأننى لا ابتغى هذا ، بل أريد الكل أن يفعلوا هكذا .

فأنى لن أستطيع أن التقط أنفاسى حتى أرى ذلك قد تحقق ! فانه ان كان واحدا قد ارتكب الزنا بين أهل كورنثوس لكن بولس كان يتنهد كما لو ان المدينة كلها قد ضاعت » .

+ + +

(١٦) الحب الرعوى ص ٦٧٨ .

(17) Statues , hom 13 : 12 .

الرعاية أبوة وتدبير!

الكرازة أبوة :

جاءنا كلمة الله يكرز ويبشر بحياته المبذولة عنا ! جاءنا يسكب حبه
فينا ، لكي نحياه ومعه ...

هذه هي الكرازة ، انها حب الهى عملى لا ينطق به !

هذا ما تسلمه الرسل من السيد المسيح ، فتقدموا للعالم لا كأصحاب
فلسفات أو كرجال كلام وبلاغة ، لكن كأباء يحملون «روح الكرازة» ، أى روح
الأبوة فى المسيح يسوع . يحتضنون العالم المجروح بالضعف ، ويترفقون
بالخطاة والأثمة مقدمين لهم أبوة الله الحانية المخلصة !

تلمذ الرسل الأساقفة ليسلكوا بنفس الروح ، فكان لهم وحدهم حق
الكرازة ، مع بعض الكهنة عند الضرورة ...

فالأسقف أو (الكاهن) اذ « أؤتمن على العالم كله وصار أبا لجميع
الناس (١) » ينجح فى كرازته لا بجذبه الجماهير لسماع كلمة الكرازة وانما
بأن يعرف أولا كيف ينحنى بروح الأبوة ليحمل شعبه على كتفه ويدخل بهم
— بالروح القدس — الى اعماق الكلمة ، يتفاعلون معها ويتعرفون على
أسرارها ويتذوقون عذوبتها !

هذا هو مفهوم القديس يوحنا ذهبى الفم للعمل الكهنوتى الرعوى
الكرازى ، فهو فى مجموعه عمل أبوة « الكاهن الراعى والكارز » فى حياة
أولاده .

لم يعتمد القديس يوحنا على فصاحة لسانه أو بلاغته ولا على قوة
شخصيته ، انما أولا وقبل كل شئ مارس فى كرازته أبوته الحانية على شعبه
انطلق الى المنبر من خلال مذبح الحب الأبوى ... ونطق بعظاته بعدما تسلم
روح الأبوة فى سر الكهنوت !

(1) De Sacerdotis 6 : 4 .

١ - يتأثم لآلام أولاده :

كأب لا يحتمل الا ان يضعف لضعفاتهم ويبيكى على خطاياهم كأنما قد ارتكبها هو ، مقتديا في ذلك بالأب « القديس بولس » الرسول الذى أعجب به ، اذ يقول (٢) :

« لا نعجب من الرسول بولس في اقامته الميت ولا تطهيره الأبرص ، انما نعجب من قوله (٣) « من يضعف وأنا لا أضعف ، من يعثر وأنا لا ألتهب » . لو كُنْ في قدرتك صنع آلاف المعجزات فأنها لن تعادل هذا القول . . . كلماته هذه أثبتت من اللآلئ ! » .

مرة أخرى يعلن الحب الأبوى للكاهن الكارز ، قائلا (٤) :

« ان كان يلزم للانسان ان يحب أولاده الجسديين (٥) حتى يدعى أباً حسب الطبيعة ، فكم بالأكثر يليق بالانسان ان يحب أولاده حسب النعمة ، الروحانيين المعمدين ، حتى لا يهلكوا في جهنم ! » .

لقد كشف أبوته لشعبه في أكثر من موضع معلنا مرارة نفسه من أجل ضعفاتهم ، نذكر منها قوله (٦) :

« انى أب مملوء حنوا . . .

اسمعوا ما يطلبه بولس « يا أولادى الصغار الذين أتمخض بهم (٧) . كل أم تصرخ وهى تتمخض في ساعة الولادة ، هكذا أفعل انا ايضا ! » .

« ليتكم تستطيعون معاينة النيران الملتهبة في قلبى لتعرفوا انى أحترق أكثر من سيدة شابة تثن بسبب ترملها المبكر ، غائى لست أظنها تحزن على زوجها ولا يحزن أب على ابنه ، كحزنى انا على هذا الجمهور الحاضر هنا ! » .

له ايضا حديث رائع يكشف عن مدى حبه لخلاص أولاده ونموهم الروحي (٨) :

« ليس شيء أحب الى أكثر منكم ،

لا ، ولا حتى التور !

(٢) الحب الرعوى ص ٤٧٣ — ٤٧٤ . (٣) ٢ كو ١١ : ٢١ .

(٤) الحب الرعوى ص ٤٥٩ . (٥) بحسب الطبيعة .

(6) In Hebr . hom 23 : 9 .

(٧) غلا ٤ : ١٩ .

(8) In Acts , hom 3 .

انى اود ان اقدم بكل سرور عيني ربوات المرات واكثر — ان امكن —
من اجل توبة (٩) نفوسكم !

عزيز على جدا خلاصكم ، اكثر من النور نفسه ! ...

لانه ماذا تفيدنى اشعة الشمس ان اظلم الحزن عيني بسببكم ؟! ...

اى رجاء يكون لى ان كنتم لا تتقدمون ؟ !

وعلى العكس اى يأس يقدر ان دخل الى ما دمتم نامين ؟! فائنى اذ اسمع
عنكم اخبارا مفرحة ابدو كمن قد صار له أجنحة ... تمهوا فرحى (١٠) !

هذا هو كل ثقل صلواتى ، انى ممتناق الى نموكم ...

انى احبكم ، حتى اذوب فيكم ، وتكونون لى كل شىء ، ابنى وامى واخوتى
واولادى ! » .

وفى موقف آخر اذ يدرك ثمر أبوته المملوءة حنانا معلنا فى بنوتهم وحبهم
العميق له ، طلب اليهم ان يترفقوا بأبوته ، قائلا (١١) :

« أتوسل اليكم وارجوكم : اخبرونى ان طلبت منكم مالا اما تعطونى؟!
الا يقدم لى كل واحد منكم ما فى قدرته ؟!

ان رايتمنى فى خطر اما تنقذونى ، حتى ولو امكنكم لبرتكم اعضاءكم
من اجلى ؟!

انى فى خطر ، بل خطر عظيم ! انى كمن هو فى سجن مظلم ، كمن حكم
عليه بعشرة آلاف جلدة ، او كمن حبس فى هوة عميقة ، ولم اعد بعد . احتمل
اكثر من هذا ! أبسطوا ايديكم نحوى وانتقذونى ! ...

أخبرونى ، ماذا أجيب عندما يطالبنى الله بالحساب ، قائلا : لماذا لم تحتج
عليهم ، لماذا لم توصهم ؟ لماذا لم تطرح الشريعة قدامهم ؟ لماذا
لم تكبح عصيتهم ؟ ...

لست اطلب هذا لمجدى ، انما من اجل خلاصكم ! » .

أخيرا نذكر تعليقه على قول معلمنا بولس الرسول (١٢) « اسهروا
متذكرين انى ثلاث سنين ليلا ونهارا لم اقتتر عن أن أنذر بدموع كل أحد » ،
قائلا (١٣) : أنه وان كان لا ينذر بدموع خشية اتهمه بحب المجد الباطل ، لكن

(٩) رجوع (١٠) فى ٢ : ٢ . (١١) الحب الرعوى ص ٧٦ ، ٧٧

(١٢) أع ٢٠ : ٣١ . (١٣) In Act , hom 44 (13)

دموعه الداخلية عليهم اكثر مرارة ، لأنها لا تعطى نوعا من التنفيس . . .
انما تجعل حزنه يتفاقم ولا ينصرف . . .

تصوروا ماذا تكون آلام انسان يجد علة للحزن دون أن ينفس عن ذلك؟
لو امكننا لفتحنا قلوبنا واريناكم اياها لتنظروا مدى اتساعها لحملكم فيها:
نساء وأطفالا ورجالا ، لأن هذا هو قوة الحب ، يجعل النفس أكثر اتساعا
من السماء ! » .

٢ — معيته مع شعبه :

خلال الانجيل ايضا تعرف القديس على مفهوم آخر للكراسة ، ليس هو
فصاحة اللسان ولا بلاغة بيان ، انما هي بالأكثر أبوة حانية . يتألم الأب
الكارز لآلام أولاده ويضعف لضعفاتهم مترفقا بهم ، مقتديا في ذلك بالسيد
المسيح الذي كرز خلال الصليب من منبر سماوى نحو العالم كله بدمه معلنا ان
الذى لم يعرف خطية صار خطية من أجل الخطاة ليحمل خطاياهم ويتألم عنهم .

خلال الانجيل أيضا تعرف القديس على مفهوم آخر للكراسة ، ليس هو
آخر بل واحد مع المفهوم السابق ، ألا وهو « معية الكارز مع أولاده » ،
« وجود الراعى وسط الرعية » . . . هذا ما أكدته الكارز الأعظم ، أن كرازته
لم تتوقف عند أحداث الصليب لكنه لا يزال حالا وسط كنيسته يحمل الخطاة
بالحب الى جنبه المطعون ، يجدون فيه راحتهم . لقد أعلن الراعى الصالح
لرميته « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » .

بهذا الروح كرز معلنا بولس الرسول ، اذ كان يفرح بوجوده بين
شعبه ، ان لم يكن بالجسد فبروحه وقلبه وفكره . . . وقد عبر القديس
يوحنا عن ذلك بقوله ان العالم كله كان بالنسبة لبولس كبيت واحد يتنقل فيه
ويخدمه ويهتم به ، معلنا أنه حامل مخدوميه دوما في قلبه أينما وجد !

بهذا الروح كرز أيضا القديس يوحنا نفسه لا كأن شعبه محتاج اليه
الى كرازته ، بل هو متعلق بشعبه ، يحبهم ويسر بالوجود معهم .

لقد أعلن ذلك في أكثر من موضع ، قائلا :

« يا لفرحتى أن أرى وجوهكم المحببة الى ! (١٤) .

لكنه ليس لقاء غير هادف ، انما لقاء حب فيه يتمجد الله والكنيسة
والكارز ، لقاء فعال في حياة الكنيسة وحياة الكارز .

(14) In Gen . PG 53 : 27 .

« ان اهتمامى لعظيم ان تجتمعوا كلكم ههنا كأتكم أعضائى الشخصية !
اتطلع الى نموكم كشراف خاص بى !

أشتهى ان أراكم ملتهبين من أجل مجد الله ، والكثيسة ومجدى! (١٥) .

« أستطيع ان أكون معكم على الدوام ،

بلى ، انى بالحرى معكم دائما ،

فانى وان كنت لست حاضرا بالجسد ، لكننى حاضر بقوة الروح !

ليس لى « حياة » أخرى سواكم ، سوى الاهتمام بخلاصكم !

انى احملكم جميعا فى ذهنى ، ليس فقط اثناء وجودى هنا ، لكن وانا
فى دارى أيضا .

ان كان الجمع عظيما وقياس قلبى ضيقا ، فان الحب متسع : « أنتم لستم
متضيقين فينا » (١٦) . . . (١٧) .

لقد انعكس هذا الحب الكرازى على شعبه ، فليس هو وحده يشتهى
ان يراهم من أجل بنيانهم انما هم أيضا يتوقون الى وجوده وسطهم ينعمون
بكرازته ورعايته . . . اذ يقول (١٨) :

« انا انسان بئس ومسكين وبلا خبرة فى التعليم ، لكننى اذ اتطلع الى
هذا الجمع انسى ضعفى وفقرى وعدم كفايتى .

حبكم طفى على !

!رى غيرتكم للاستماع فأتشجع فى غير تردد .

انكم تشبهون صغار العصافير التى ترى امها تطير نحوها فتقترب من حافة
العش وتمد اعناقها لتلتقط الحبوب منها . هكذا أنتم تستقبلون التعليم الذى
أقدمه لكم ، وتلتقط افكاركم افكارى حتى قبلما أعبر عنها .

٣ — حب بلا مقابل :

— ميز رب المجد الراعى عن الأجير ، الأول يسكب حياته بالحب لشعبه
بغير مقابل وبلا تمييز ، اما الآخر فيخدم من أجل الأجرة ، يحب بقدر مايمتدح
ويحب وينفلق قلبه بقدر ما ينم أو ييغض ! لا يعطى الا لى يأخذ .

(15) Ibid . 77 .

(١٦) ٢ كو ١١ : ١١ .

(17) Statues , hom 9 : 1 .

(18) In Hoc scitote PG 56 . 271 .

فالراعى او الكارز الحقيقى انما يسلك بروح سيده الذى ارتفع على الصليب ليكرز بالحب العملى للجميع ، مقدما حياته مذبولة حتى من اجل المقاومين والمعادين له لكى يهبهم حياة ومجدا !

الكارز يحب شعبه دون ان يطلب مدحهم او يخاف منهم ... هذا ما ابتغاه القديس فى كرازته اذ يقول (١٩) :

« يليق بالكاهن فى سلوكه مع من هم تحت رعاية أن يكون كأب مع ابنائه الصغار ، فلا يضطرب بشتائمهم أو ضرباتهم أو نحيبهم ، بل وان ضحكوا عليه وسخروا منه فلا يعطى ذلك بالا .

يليق بنا الا نتنفخ بمديحهم ، ولا ينكسر خاطرنا بسبب لومهم ، ما دام قد صدر هذا عن غير حق .

لكن هذا صعب يا صديقى الصالح ، بل ربما يبدو لى كما لو كان مستحيلا . فانتى لا اعرف ما اذا كان هناك أحد قد نجح تماما فى الا يفرح عندما يمدح » .

٤ — حزمه معهم :

كشف لنا القديس يوحنا عن مفهوم ابوة الكارز الراعى ، انها ليست ترفقا أو حنانا بلا هدف ، انما هى اختفاء فى « روح الفادى » الذى يسعى بحبه وترفقه لخلاص البشرية بحبهم لكن فى غير رخاوة ، ويترفق بهم فى غير تساهل ، يهبهم رجاءا فى غير استهتار ، يعلن الحق ويظهر الباطل ويسحقه .

غالب الكارز انما يسلك بروح الرب فى حزم ينبع عن حب حقيقى لتمكين اولاده من التمتع برينا يسوع المسيح . فى حزمه لا يفضب عليهم بل من أجلهم ، يثور ضد الخطية دون أن يخرج عن وداعته وحلمه .

هذا هو مفهوم الابوة الحانية التى تفتح قلب الأب بكماله لكى يرعى فيه اولاده لكنه عند الضرورة يحزم ويؤدب !

لقد طالبنا القديس بالاعتدال فى كل أعمال الرعاية (٢٠) ، معلنا أن اللين الزائد المستمر أو التساهل من أجل ارضاء الرعية يفسد خلاص الراعى ورعيته . فمن أقواله (٢١) : « الاهتمام الخاطيء فى استرضاء الغير فحسب انما هو خيانة ضد خلاص الراعى وخلاصهم » .

(١٩) الحب الرعوى ص ٢١٨ .

(20) Nom at grat . PG 50 : 655 .

Moulard : St . Jean Chrisostome ..

(21) In Joan . PG 59 : 115 .

فهو يلوم الكارز الذى من أجل ارضاء اولاده — يتوقف عن الانتهاز والتأديب محتجا بأنه يصلى عنهم ، اذ يقول (٢٢) :

« اترك صلواتك وانتهره ، فانك تصلح من أمره وانت ايضا تنتفع . هكذا نحن نسند الكل لكى يخلصوا ويبلغوا ملكوت السموات بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح . . . » .

ويحدث اولاده الروحيين قائلا (٢٣) : « انى افضل أن اكون فى أعينكم انسانا متكبرا لا يمكن التفاهم معه عن أن أترككم تفعلون ما لا يرضى الله » .

« هذا الأمر (التأديب) نصيحة لا حكم ، دواء لا قصاص ، تقويم لا تعذيب . . . علاج روحى لشفاء الخطاة وحفظهم من السقوط فى خطايا جديدة (٢٤) » .

أما عن وسائل التأديب فإنه يستخدم التوبيخ والانتهاز حتى يبلغ الى الطرد من الكنيسة أيضا .

فمن التوبيخ يقول (٢٥) : « انى ملتزم بوعظكم ، وعلى وجه الخصوص استخدام التوبيخ معكم . فكما تذيب النار الشمع هكذا يلين الخوف من العقوبات قلوب الخطاة ، ويحرق خطاياكم بتوبيخكم ، ويغنى عقولكم ، ويزيد دالتكم وجهادكم » .

أما عن الطرد فقد ظهر بوضوح فى موقفه مع الامبراطورة افدوكسيا حين اصرت على خطيتها ، فأغلق باب الكنيسة فى وجهها ، ليس انتقاما منها بل ترفقا بها لأجل توبتها وخلصها . هذا الهدف أعلنه بكل وضوح عندما تحدث من رغبته فى طرد بعض الاخوة ، اذ قال (٢٦) :

« كنت أتمنى أن أرى الذين تركونا ومضوا الى المشاهد واللعب الخارج عن الشريعة وقد عادوا اليوم الينا ، حتى أطردهم خارج باب الكنيسة ، لا ليلبثوا خارجا الى الأبد ، بل لكى يتقدموا ويرجعوا تائبين . . . ذلك مثل الآباء ، متى اذنب اولادهم ، يطرحونهم خارج المنزل ويحرمونهم من الخبز ، لكن ليس على الدوام ، انما لكى يتقدموا ويصيروا الى حال أفضل ، فيعودون بمجد وكرامة الى ميراث أبدي .

(22) In Acts , hom 24 .

(23) In Hebr . PG 62 : 46 .

(٢٤) الحب الرعوى ص ٦١٦ .

(٢٥) الحب الرعوى ص ٦١٦ .

(٢٦) الحب الرعوى ص ٦١٥ — ٦١٦ .

هكذا أيضا يفعل الرعاة بأغنامهم الجرباء ، اذ يفرزونها عن بقية الأغنام السليمة كي لا تعديها بمرضها . فإذا ما شفيت الأغنام المريضة بعد التجربة والاختيار تعود الى الأغنام الصحيحة » .

لكن كيف يستخدم التأديب ؟

[أ] يليق بالراعى أن يعرف أن التأديب ليس عقوبة جامدة يلتزم بفرضها على أولاده في صرامة وعنف ، لكنه علاج يقدمه الطبيب الروحي بالقدر الذى يحتمله ابنه المريض ، ويدخل به الى طريق التوبة ، فلا يفرض التأديب حسب طبيعة الخطية بدر ما هو حسب طبيعة الشخص ونفسيته وظروفه وامكانياته الداخلية . « فالشيطان يقدر أن يهلك الانسان لا عن طريق خطية الزنا (٢٧) فحسب ، بل ويهلكه أيضا بما يضاد ذلك ، خلال الحزن المفرط في التوبة . اذ أحيانا تزداد جراحاتنا بنفس الأدوية التى نستخدمها » ، لذلك يقول الرسول (٢٨) : « لأننا لا نجهل أفكاره (٢٩) » .

« استطيع أن اخبر عن كثيرين اندفعوا الى شرور أفدح عندما سقطوا تحت عقوبة صارمة على خطاياهم . لذلك يليق بنا عند توقيع العقوبة أن نقدرها لا حسب طبيعة الخطية فحسب بل وبحسب ظروف مرتكبى الخطية أيضا ، لئلا وانت ترغب فى اصلاح ما تمزق تجعل الخرق اردا ، وفى غيرتك على اقامة الساقط تدمره أكثر ... (٣٠) » .

[ب] يرى القديس أيضا أن التأديب يزداد شدة كلما نال الانسان مواهب أكثر وأعطيت له امكانيات أعظم ... فيقول مثلا : « الذين يخطئون بعد العماد يؤدبون بقسوة أكثر من الموعوظين ، بمعنى آخر الذين عرفوا أدوية التوبة ولم يستخدموها يخضعون لتأديبات أكثر صرامة ، فبقدر ما تتسع مراحم الله يزداد تأديب من لا ينتفع منها (٣١) » .

[ج] أما المبدأ الثالث الذى يجب أن يراعيه الخادم فى رعايته الكارزة ، فهو اظهار الحنو والترفق جنباً الى جنب مع الحزم ، فيقبل المؤدب ذلك برضى من أبيه . وقد قدم لنا القديس نفسه مثالا كما فى قوله (٣٢) :

« ان كانت كلماتى ملوثة غضبا ، فهذا نابع عن حبي الشديد لكم وحزنى عليكم . انى مثل أب متى تأثر بعفونة جراحات ابنه اضطر أن يستخدم أداة حادة وهو متألم ، أولا بسبب مرض ابنه ، ثانيا لاضطراره استخدام الأداة الحادة » .

(٢٧) حالة الشاب المذكور فى ٢ كو ٧ : ٧ . (٢٨) ٢ كو ١١ : ١١ .

(٢٩) الحب الرعوى ص ٦٢٤ .

(30) De Sacer 2 : 4 .

(٣١) الحب الرعوى ص ٦١٥ . (٣٢) الحب الرعوى ص ٦٢٠ .

سمات الخادم المحب

لست أظن أن خادما يقدر أن يقرأ مقاله عن « الكهنوت » ولا يرتعب ، فقد كشف القديس عن مفهوم الخدمة الكهنوتية الرعوية الكارزة ، وما يلتزم به الخادم ، وما يتطلبه هذا من سمات خاصة حتى يخدم الله القدوس ويقدم الكلمة الالهية بحياته وسلوكه ويتسلم قيادة نفوس مات المسيح من أجلها ، يدخل بها الى مراعى الخلاص الدسمة ، مقدما لكل واحدة منها ما يناسبها ، ويدبر أمورهما للانطلاق بها الى الحياة السماوية خلال الصليب ، خلال الصراع المر ضد قوات الظلمة الروحية !

وعندما يتحدث عن خدمة الرسل الكرازية يكشف بكل وضوح وأسباب عن صعوبة الخدمة ، فالكارز ملتزم بتحويل الناس من عادات قديمة الى عادات روحية صعبة ، ويدخل بهم الى تعاليم ووصايا قاسية لا من أجل مكافآت حاضرة بل مستقبلية (١) .

فالكارز أب محب مملوء حكمة وتيقظا وقدرة على التعليم والتدبير والرعاية فلا يرشح انسانا لهذا العمل استنادا الى حبه وتقواه ، ولا لمجرد نسكه وتقشفه أو تقدم سنه ، انما يلزمه مواهب أخرى كثيرة (٢) .

نستطيع في شيء من الإيجاز أن نذكر أهم سمات الخادم الكارز من واقع مقالات القديس وكتابات .

١ - أن يكون بلا لوم :

إذ تحدث القديس عن مقدار الصعوبات التي تواجه قائد النفوس في خدمته ورعايته لها ، قال (٣) :

« تأمل ، أى نوع من الرجال ينبغي أن يكون من يواجه أعاصير كهذه ويتصدى بمهارة لمعوقات عظيمة للصالح العام .

يلزم أن يكون مبعولا في غير زهو ، مهوبا لكنه مترفق ، اداريا لكنه

(١) الحب الاخوي طبعة ١٩٦٤ ص ٧٧ - ٨٠ (راجع اقوال القديس) .

(2) De Sacer . 3 : 15 .

(3) Ibid , 3 : 16 .

اجتماعي ، متضام لكنه مجامل ، متواضعا لكنه غير خانع ، صارما ورقيقا في نفس الآن . . . حتى يقدر أن يتغلب على هذه المصاعب جميعها » .

« من يقوم بدور قيادي يلزمه أن يكون أكثر بهاءا من كوكب منير ، فتكون حياته بلا عيب ، يتطلع اليه الكل ويقتدون به(٤) » .

حياة الكارز غير الملوثة توقف كثيرا من المحاربات : « من كانت حياته هكذا سالحة يوقره حتى هؤلاء (غير المؤمنين) ، إذ بالحق يفلق حتى أفواه الأعداء (٥) » .

« يليق بالكاهن أن يتحصن من كل جانب بسلاح متين من اليقظة والتدقيق المستمر في أسلوب حياته ، حتى لا يكتشف أحد فيه نقطة ضعف فيطعنه فيها طعنة قاتلة ، لأن جميع المحيطين به ينتهزون فرصة إبطائه وطرحه أرضا ليس أعداؤه ومناضلوه فحسب بل وكثيرون من الذين يدعون صداقته . . .

يقدر ما تدبر حياة الكاهن تدبرا حسنا في كل مجال تكون بعيدة عن المكند ، أما إذا تهاون في هفوة كانسان يعيش في محيط هذه الحياة الملوثة مخاطر ، فإن أعماله الأخرى الصالحة لن تعفيه من السنة ناقديه ، بل تطغى هذه الهفوة الصغيرة على كل ما سواها « كل الناس يقاهبون للحكم على الكهن كانه ملاك تحرر من كل أسباب الضعف ، وليس كائنا يحمل جسدا أو إنسانا ورث الطبيعة البشرية (٦) » .

« السيرة الطاهرة تسد غم الشيطان وتبكمه ! (٧) » .

لقد آمن قديسنا بالتقوى العملية بكونها الفلسفة الحقّة وحدها ، فلا يقدر الراعي أن يدخل بأولاده إليها دون أن يمارسها ، أنه يقدم حياته لا كلماته لأولاده .

له أحاديث كثيرة وطويلة في « حياة الكارز المقدسة غير الملوثة » كقدوة وكراسة لشعبه تقتطف منها :

« القدوة الحسنة تعطي صوتا أعذب من أصوات العزف وجميع آلات الطرب ، لأن الناس لا يعتبرون ما نقوله بقدر ما نفعله (٨) » .

« يليق بالكاهن أن يتلأأ ، فيضيء بسيرته الحسنة على جميع الناس ليققدوا بمثاله . أما إذا استحال هذا النور إلى ظلام ، فماذا يحل بالعالم ؟! أما يصير خرابا (٩) » .

-
- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (٤) الحب الرعوى ص ٦٥٤ . | (٥) الحب الرعوى ص ٦٥٥ . |
| (٦) الكهنوت المسيحي . | (٧) الحب الأخوى ص ٨٤ . |
| (٨) الحب الرعوى ص ١٧٠ . | (٩) الحب الرعوى ص ١٧٨ . |

« لا السماء ولا النهار ولا الليل تمجد الله كما تمجده النفس القديسة
فكما اذا تأمل الانسان زينة السماء يقول « المجد لك يا الله فيما صنعت »
هكذا اذا ما رأى الفضيلة فى انسان يمجده بالحرى اكثر .

من لا يندهل اذا ما رأى انسانا يشاركه فى الطبيعة البشرية لكنه
يتصرف بين الناس كالماس ، لا يميل قط نحو الشهوات ! بل يكون أشد
صلابة من الحجر الماس ، اذا وجد بين النار والحديد والوحوش يغلبهم
بحسن العبادة ، ان شتم يبارك وان قالوا عنه رديئا يمدحهم ، وان
اساء أحد اليه يصلى عنه . . . » .

لنفقودهم بمعيشتنا ، فان كثيرين من العامة قد ادهشوا عقول الفلاسفة !
فانهم اذ أعلنوا فلسفة الاعمال وسيرتهم وفضيلتهم اظهروا صوتا يفوق هتاف
البوق ، وأوفر بلاغة من اللسان (١٠) .

« لقد تركنا (الرب) هنا لنكون أنوارا ، لنعلم الآخرين ، لنكون
خميرة ، نسلك كملائكة بين البشر ، كرجال مع أولادهم ، كروحانيين مع
اناس طبيعيين فينتفعون منا ، ونكون بذارا تخرج ثمارا .

لا حاجة للكلمات ما دامت حياتنا تضيء !

لا حاجة للمعلمين ما دمنا نظهر أعمالا !

ماكان يوجد وثقى لو كنا مسيحيين بحق !

لو أننا نحفظ وصايا المسيح ونحتمل الألم ونسمح للغير أن يستفيدوا
منا ، اذ نشتم فنبارك ، نعامل معاملة سيئة فنصنع خيرا (١١) ، لما بقى أحد
بعد متوحشا ولا يرجع الى الصلاح . . . (١٢) .

مرة أخرى يلوم الخدام الكارزين بسبب فساد سيرتهم ، معلنا قوة
القدوة فى الكرازة والرعاية بقوله :

« ما أسوأ ان نكون فلاسفة فى الكلمات لا فى الاعمال ! (١٣) » .

« لماذا هذا الكبرياء ؟ لانك تعلم بالكلام !

ما أسهل ترديد الكلمات ! علمنى بحياتك هذا أفضل (١٤) » .

(١٠) الحب الأخوى ص ٨٣ (راجع ص ٨٤ : ٨٦) .

(١١) ١ كو ٤ : ١٢ .

(12) In Tim , hom 10 .

(13) In 1 Tim , PG 62 : 552 .

(14) In Act . PG 60 : 225 .

« نحن محتاجون الى سلوك حسن لا الى لغة منمقة ، الى الفضيلة لا الى الخطابة الفذة ، الى الاعمال لا الى الكلام ! ... »

لا تهتم ان تعلم ابنك الخطابة بل علمه الفلسفة (التقوى) ، فانه ان لم يتقن الخطابة لا ينقصه شيء ، اما ان فقد الفلسفة فماذا تفيده كل بلاغة العالم ؟ ! (١٥) » .

أخيرا نختم حديثنا بحديث القديس عن أهمية حياة الكارز غير الملومة بكونه كاهنا يخدم أسرار الله العلى اذ يقول :

« وظيفة الكهنوت ، وان كانت في الحقيقة تعطى على الأرض لكنها تعد بين الرتب السماوية . هذا أمر طبيعي ، لأنه ليس انسان ولا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا خليفة أخرى ، بل البارقليط نفسه هو الذى رتب الدعوة ، مستخدما البشر — وهم فى الجسد — ان يقوموا بخدمة الملائكة ! لذلك ينبغى على الكاهن الذى يقدر ان يكون طاهرا ، كما لو كان واقفا فى السموات عينها بين تلك القوات ! ... »

عندما ترى الرب ذبيحا وموضوعا على المذبح ، والكاهن يقف مصليا على الذبيحة وكل المصلين قد اصطبغوا بالدم الثمين ، هل تستطيع ان تقول أنك لا تزال بين الناس ، وأنت واقف على الأرض ... الست على العكس قد عبرت مباشرة الى السماء ! (١٦) » .

« الكاهن الذى يدنو من المذبح بضمير دنس ... هو أشنع من الشيطان ، لأن الشياطين ترتعد خوفا تجاه يسوع المسيح (١٧) » .
+ + +

٢ - وديعاً :

ان كانت سيرة القديس هى لغة الكرازة الحية ، فان الوداعة — فى معنى القديس يوحنا — هى أهم أساسياتها .

ان كانت الخطية تجرح النفس وتذلها ، فالخطاة محتاجون لا الى من يزيد جراحاتهم بالغضب ، بل الى من يسندهم بوداعته .

(15) In Eph . PG 62 : 150 — 152 .

(١٦) الحب الرعوى ص ٥٠ الكهنوت المسيحى (كنيسة السيدة العذراء بالفجالة) ك ٣ ف ٤ . (١٧) الحب الرعوى ص ١٤٦ .

هذا ما اكتشفه القديس يوحنا في معلمنا بولس الرسول ، فإنه حتى ان أراد أن يوبخ « انما قليلا ويلطف (١٨) » ، مستخدما الوداعة بكثرة ، لأن الخطية تجعل الانسان قاسيا ، فان وبخهم الكارز بقسوة صار الانسان جافا ومتجاسرا ، « أما ان تطف معه فإنه ينحنى عنقه وتزول جسارته ويصير نظره مطرقا نحو الأرض (١٩) » .

« لا يوجد شيء يفيد الآخرين ويجتنب القنوب لله أكثر من وداعة من يكون مهانا ومستهزئا به ومثلوبا ومعيرا ، يحتمل هذا كله بوجه بائس وهدوء عظيم كأنه لا يشعر بشيء (٢٠) » .

« ان كان الأسقف ذا طبع ثائر ، فإنه يجلب كوارث عظيمة له ولأخوته (٢١) » .

من من الجموع يمكن أن يكون وديعا ان رأى قائده سريع التهيج؟! (٢٢) .

+ + +

٣ - رجل صلاة :

الكراسة هي انسكاب القلب بالحب أمام الله والناس ، أمام الله العامل وحده في النفس لكي يخلصها ويمجدها ، وأمام الناس بالوداعة والاتضاع لكي يتقبلوا الكلمة .

بهذا الروح كان القديس يوحنا كارزا مصليا ، يؤمن بالصلاة كحجر الزاوية في كل عمل رعوى ، لا يكف عن أن يطلب عن شعبه ، ويطلب منهم أن يطلبوا عنه وعن انتشار الكلمة ...

يقول : « من دعتة الضرورة أن يكون سفيرا عن مدينة بأسرها - ولا أقول عن مدينة فحسب بل عن العالم أجمع - يضرع الى الله كي يصفح عن خطايا الجميع ، ليس فقط الأحياء منهم بل والراقيدين أيضا ، فأى نوع من الرجال ينبغى أن يكون ؟! ... »

فالكاهن ، لأنه أوّتمن على العالم كله وصار أبا لجميع الناس ، يتقدم الى الله متوسلا في الصلوات الخاصة والعامة من أجل رفع الحروب في كل مكان وإخماد الاضطرابات ملتئمسا السلام والهدوء لكل نفس والشفاء للمرضى ... (٢٣) .

(١٨) الحب الأخوى ص ٩٤ . (١٩) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٢٠) الحب الرعوى ص ٢٢١ . (٢١) الحب الرعوى ص ٢١٩ .

(٢٢) الحب الرعوى ص ٢٢٠ . (٢٣) الكهنوت المسيحى ٦ : ٤

« الرب قادر أن يحول هذا الأسد الى حمل وبيع ...
صلوات جماعتنا تنفعنا كثيرا ان كانت صادرة عن قلوب خاشعة! (٢٤) » ..

٤ — قائرا على التعليم :

ان كان قديسنا قد ركز على « حياة الراعى » كلغة صادقة للتعليم ،
لكنه يعود فيؤكد أن القدوة وحدها لا تكفى ، انما يلزم للكارز أن يكون قادرا
على التعليم ايضا ، اذ يقول (٢٥) :

« هذا هو كمال التعليم ، أن يهيب المعلمون تلاميذهم بالقدوة كما بالأقوال
الى المستوى الذى يريده الله لهم ، لأن القدوة وحدها لا تكفى للتعليم الآخرين .

لست أقول هذا من عندى ، بل هى كلمات المخلص القائل (٢٦) : « وأما
من عمل وعلم فهو يدعى عظيما » . غلو كان العمل يغنى عن التعليم لما كانت
هناك حاجة لقوله « وعلم » ... انما ذكر الكلمتين « عمل وعلم » ليظهر أن
العمل شيء والتعليم شيء آخر ، كل منهما يستند على الآخر لأجل البنیان .

« اسمع ما يقوله أثناء المسيح المختار لقسوس افسس : « اسهروا
متذكرين انى ثلاث سنين ليلا ونهارا لم افترعن أن أنفرد بدموع كل واحد (٢٧) » .
فما الحاجة الى الدموع والانتذارات الكلامية ما دام سلوك بولس كرسول
واضحا؟! حقا كانت حياته المقدسة تحت الناس بشدة لحفظ الوصايا ، لكنى
لا أجرو وأقول أنها وحدها كافية لتنفيذ كل شيء » .

مرة اخرى يقول (٢٨) : « عندما تدور مناقشة حول موضوع عقيدى
حيث تكون الحاجة الى أدلة مستمدة من الكتاب المقدس ، ماذا تفيد قداسة
الحياة ؟ » .

يقول الرسول : ملازما كلمة الحق الصانقة التى بحسب التعليم (٢٩) ..
أى يكون قادرا أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المناقضين . فهو محتاج
لا الى كلمات جوفاء بل الى فكر قوى ومهارة فى دراسة الكتاب المقدس ،
الى أفكار راسخة . أما ترى بولس قد وضع ليحارب العالم كله ، اذ كان
أقوى من أفلاطون وبقية الفلاسفة ؟ !

قد تقول أنه تغلب عليهم بالمعجزات ... لكنك ان تتبعت مسـفر
الأعمال لوجدته كثيرا ما يغلب بالتعليم أكثر من المعجزات ... « من لا يعرف

-
- | | |
|--------------------------|---------------------------------|
| • (٢٤) الحب الأخوى ص ١٠٤ | • (٢٥) الحب الرعوى ص ٦٨٩ |
| • (٢٦) مت ٥ : ١٩ | • (٢٧) أع ٢٠ : ٣١ |
| • (٢٩) ١ : ١ : ٩ | • (28) De Sacer . PG 48 : 672 . |

كيف يقدم التعليم الصحيح فهو بعيد كل البعد عن كرسى المعلم ، لأن بقية الصفات يمكن أن توجد بين من يرعاهم أما ما يميزه عنهم فهو قدرته على التعليم بالكلمة .

غير أن القديس يوحنا لاحظ أن بعض المعلمين بسبب قدرتهم على التعليم سرعان ما يسقطون في حب المديح فبدأ يتساءل أيهما أفضل : أن يكون المعلم قادرا على التعليم ومتكبرا أو بالعكس متضعا لكنه غير قادر على التعايم ؟

يجيب (٣٠) « إذا كان الكارز لا يبالي بالمديح لكنه يعجز عن تقديم التعليم الذى « بنعمة مصلحا بملح (٣١) تحتقره الجموع فلا ينتفع من سهو ذهنه .

ومن الجانب الآخر لو كان ناجحا ككارز لكنه مغلوب بأفكار المديح فإنه يصاب هو والجموع بضرر متساو ، إذ فى حبه للمديح يهتم بالكلام كيف يبهج الناس لا كيف يفيدهم .

هـ - حكيما

اذ يتحدث القديس عن سمات الكارز - مقدما الرسول نموذجا حيا - يتطلب (٣٢) :

« غيرة ملتهبة نشطة ،

نفسا مستعدة لاحتمال كل شيء ،

نكاء مع حكمة » .

ماذا يقصد القديس بالحكمة ؟

(١) **حكمة الصليب** التى تغلب النفس بالحب وتحكمها ، اذ يقول :

« حول الصليب الجهلة والاميين الى فلاسفة (٣٣) » .

« حول صانع الخيام اليونانيين والبرابرة ، أما أفلاطون فبالرغم من رحلاته الثلاث الى صقلية وسمو كلماته لم يستطع أن يقهر طاغية واحدا لقد قهر الله أفلاطون هذا لا بضربات فيلسوف أقدر منه ، بل بواسطة خاطيء جاهل (٣٤) » .

(30) De Sacer . 5 : 2 .

(٣١) كو ٦ : ٦ .

(32) In Eph , hom . 6 PG 62 : 46

(33) In 1 Cor PG 61 : 34 .

(34) In Rom , 1 Cor , Joan , Act , PG 60 : 47 ; 61 : 33 ; 59 : 31 ;

60 : 260 — 261 .

(ب) **الحنكة في الايمان** : فكما يقول الرسول ان الاسقف لا يكون حديث الايمان ، لكن « لا يستبعد الاحداث بالكلية عن الخدمة بل يستبعد حديث الايمان والخبرة ، والفارق بين الاثنين كبير (٣٥) » .

(ج) **اليقظة والقدرة على معرفة خبايا النفوس للعمل على توبتها** ونموها . « الراعى في حاجة الى افراز عظيم ان تكون له ربوات الاعين للملاحظة طبيعة النفس من كل جوانبها (٣٦) » .

(د) **قادرا على التعامل مع الكثيرين في يقظة** ، يعرف كيف يعامل الكل دون انحراف عن رسالته أو روحانيته . يسميه القديس يوحنا « انسانا متعدد الجوانب many - sides man (٣٧) » .

يقول عنه : (٣٨) « يجب أن يكون حكيما ومحفكا في أمور شتى ، وأن يكون خبيرا بشئون العالم ليس بأقل من القوم المتصرفين فيه . وفي نفس الوقت متحررا من العالم أكثر من الرهبان سكان البراري .

يختلط بالمتزوجين الذين لهم اطفال وخدم ، كما يختلط بالأغنياء وأصحاب المراكز العامة وذوى النفوذ ... لهذا وجب أن يكون متعدد الجوانب (أى يعرف كيف يعامل الكل) ... »

أقول متعدد الجوانب وليس انسانا مخادعا متملقا أو مرائيا ، انما على درجة كبيرة من المرونة والثقة والتضحية بالمصالح الشخصية ... يعرف كيف يتلاءم مع كل واحد حتى يريحه حسبما تقتضى الظروف ، فيجمع بين الرحمة والحزم ، لانه يستحيل ان يعامل كل أفراد رعيته بأسلوب واحد . كالطبيب الذى ليس له أن يطبق علاجا واحدا على جميع المرضى ... » .

سأله الاسقف باسيليوس « هل نقيم على الكنيسة الذين يتنقلون وسط المجتمع ويهتمون بشئون العالم ... ملوثين بأصناف الفنون التى بلا عدد ؟ فيجيب : « لا يقبل امثال هؤلاء في الكهنوت بل الذين لهم قدرة على مخالطة الكل والالتقاء بهم دون أن تتلوث نقاوتهم أو يهتز عدم محبتهم للأمور الزمنية أو قداستهم أو مثابرتهم أو سموهم ، نائلين كل الفضائل التى يتمتع بها المتنسكون ... »

(٣٥) الحب الرعوى ص ٢١٨ .

(36) De Sacer 2 : 4 .

(37) Ibid , 6 : 4 .

(٣٨) الكهنوت المسيحى ٦ : ٤ ، الحب الرعوى ص ٧٣٦ .

ظروف المجتمع الكثيرة قد تزيل توازن الفكر وتفقد استقامة الطريق...
غالباً ما يلاحظ في عهد اليه بكل القطيع لا يقدر أن يهتم بالذكور ويترك
النساء اللواتي يحتجن إلى بصيرة خاصة بسبب ضعفهن واستعدادهن
للخطية . غالباً ما يختار للأسقفية يلزمه أن يهتم بصحتهن الأخلاقية ،
أن لم يكن أكثر من الرجال فلا أقل من أن يعطينهم اهتماماً مساوياً . فهو
ملتزم بزيارتهم في مرضهم ، وأن يعزيهم عند حزنهم ، وينتهرهم عند
كسلهم ، ويساعدهم في ضيقاتهم ... في كل هذا قد يجد الشرير مكاناً
أن لم يكن الراعي حريصاً بزيادة ، لأن النظر إلى الشريرات بل وإلى
المتواضعات ، قد يؤدي إلى طعنات واضطرابات في الفكر (٣٩) .

يرتعب القديس يوحنا لئلا في عدم درايته في خدمة قطيعه يفسده
أذ يقول (٤٠) « انى أخشى لئلا اذا تسلمت القطيع في حالة جيدة ومنتعشة ،
بعدم مهارتي أفسده ، فأغيب الله ضدى ، هذا الذى بذل ذاته لأجل
خلاصه واقتدائه » .

٦ - غيوراً

« الراعى الصالح كما يريد المسيح هو رجل يتراكم داخله آلاف
الشهداء ، أذ يموت الشهيد مرة من أجل سيده ، أما الراعى فيموت
كل يوم من أجل قطيعه (٤١) » .

يلزمه أن يكون متيقظاً جداً ، حاراً في الروح ، كما لو كان ينفث ناراً !
يليق به أن يعمل ، مثابراً نهاراً وليلاً ، أكثر من قائد جيشه (٤٢) .

سبق أن رأينا أنه لا يريد أن يلغظ أنفاسه حتى يستريح قلبه تجاه
كل إنسان ، وفي نفس الوقت لا ييسأس أن لم يجد في المدينة من يمارس حياة
التوبة الحقيقية الا عشرة ، أذ يقول (٤٣) :

« ان كان الذين يدابون في الأمور الصالحة هم عشرة ، فان العشرة
يصيرون عشرين ، والعشرون خمسين ، والخمسون مئة ، والمئة ألفا ،
والألف يخلصون مدينة بأسرها .

(٣٩) الحب الرعوى ص ٧٣٧ ، ٧٣٨ .

(٤٠) الحب الرعوى ص ١٦٠ .

(41) In Rom . PG 60 : 660 .

(42) In Tim . hom . 10 .

(٤٣) الحب الأخوى ص ١١١ . In Act . hom 3 .

ان كنت لا تقدر ان تقنع الكل وتهديهم ، انتع القليل من كثيرين .
فان الرسل ايضا لم يقوموا بهداية جميع البشر الموجودين ، لكنهم بشروا
انكل ، فأخذوا المكافأة كأنهم خدموا الجميع » .

٧ - مهتما بخلاص نفسه :

لا تدهش ان كان كارز ناجح مثل القديس يوحنا الذهبي الفم وقد
ذاب قلبه حبا من أجل الخدمة وحسب شعبة كل حياته ، يتطلب في الراعى
يقظته لا في خلاص الآخرين بل خلاص نفسه ايضا ، اذ يقول « ان كلامى
أكثر فائدة لحياتى من الذين يسمعوننى (٤٤) » . . . كأنه يضع نفسه
اول المحتاجين الى الكرازة والتعليم . . .

لقد عرف خطورة هذ العمل وصعوبته ، حتى ليصعب على نفس
الراعى ان تخلص متى انجرفت وسط زوابع الخدمة واهتماماتها . . .
اذ يقول (٤٥) :

« انى أعرف خطورة هذه الوظيفة وصعوبة عملها ، والزوابع الشديدة
التي تجتاح نفس الكاهن فاتها أقسى من الزوابع التي تسبب للبحر
اضطرابا » .

« لست اظن ان كثيرين من الأساقفة (والكهنة) يخلصون بالحرى
أكثرهم يهلكون بسبب ان أعمالهم تطلب عقلا عظيما . . . » .

«الرجل العلمانى اذا زل يفتصح بسهولة ، أما الاكيريكي فاذا صار
رديئا يضحى غير قابل للنصح » .

(١) لقد عالج القديس الكثير من الضعفات التي يتعرض لها
الكاهن في بحر الخدمة المتسع ، أهمها « **صخرة المجد الباطل المربعبة** »
التي يسميها أخطر جنيات البحر « . . . التي أربته فهرب من الخدمة ،
قائلا (٤٦) :

« من عهد الى بهذا العمل يكون كمن قيد يدي خلف ظهرى ،
وقدمنى للوحوش المفترسة ، وسحبني على تلك الصخرة (حب المجد
الباطل) فأتمزق اربا يوما فيوما .

(44) In 2 Thes , PG 62 : 498 .

(٤٥) الحب الرعوى ص ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٤٦) الحب الرعوى ص ١٩٢ — ١٩٣ .

هل تسألنى : ما هى هذه الوحوش المفترسة (التى تعيش على الصخرة) ؟

انها الحنق ، اليأس ، الحسد ، العداوة ، الوشاية ، اتهام الآخرين ، الكذب الرياء ، تدبير المكائد ، الغضب على من لا يصنع بى ضررا ، السرور بأمور غير لائقة يصنعها الكهنة ، الحزن على نجاحهم ، حب المديح ، الرغبة فى الكرامة ، التى يحق أن تسحب النفس البشرية برعونة الى الهلاك الأبدى ، التعليم بما يرضى الناس ، الاطراء الدنىء ، التملق غير اللائق ، احتقار الفقير ، محاباة الغنى ، طلب الكرامة المضرة ، الخوف ، عدم الوضوح فى الحديث الخ ...

هذه هى الوحوش ، بل وأكثر منها تتولد على هذه الصخرة التى تحدثت عنها ...

لكننى لا أستطيع أن أحمل الكهنوت مسئولية شرور الكهنة ، والا كان هذا جنونا مبنى . فغالطون لا يلومون السيف الذى فى يد المجرم ولا الخمر بالنسبة للسكير ولا القوة بالنسبة للمغتصب ولا الشجاعة بالنسبة للمشهور ، بل يلجون باللوم على اساءة استخدام العطايا الممنوحة لهم من قبل الله ...

بالتأكيد سيديننا سر الكهنوت ان لم نحسن استخدامه ، فهو فى ذاته ليس سببا للشرور السابق ذكرها .

« من يدخل عمل التبشير وبه رغبات كهذه (حب المديح) ، اى آلام وشدائد تلاحقه ؟ انه من الهين ان يكون البحر بلا امواج عن ان يكون مثل هذا الشخص بلا متاعب او احزان ! (٤٢) » .

خاف القديس يوحنا على نفسه كبطريك القسطنطينية فقال (٤٨) :
انى اسكب الدموع عندما ارى نفسى فى كرسى فوق كراسى الآخرين ، وعندما يقدم لى احترام أكثر من غيرى .

(ب) اما الخطر الثانى الذى يتعرض له الراعى فهو انحراف نظره الى اخوته الخدام ، اما بحسد من هم أكثر منه موهبة ، او الزهو على من هم أقل منه موهبة ... فان الله قد أعطى كل خادم موهبة بالقدر الذى يتناسب معه لخلاص نفسه ومجد الله وبنيان الكنيسة ، ليشكر الله عاملا حسب ما أعطى من موهبة ، متحدا مع اخوته الخدام بروح واحد من أجل غاية واحدة .

(٤٧) الحب الرعوى ص ١٩٦ . راجع ص ١٩٣ - ١٩٦ ، ١٩٧ - ٢٠١ .

(٤٨) الحب الرعوى ص ٧٦٤ .

يقول (٤٩) : « بما أن المعطى واحد ... فانك ان أخذت موهبة أصغر انما لنفعك . فلا تحزن كأنك مرذول ، لأن الله لم يصنع بك ذلك احتقارا منه بك ، ولا لأنك أقل من الآخرين ، انما لأجل غائدتك . فلو حمل انسان موهبة أكثر من امكانياته تكون غير مفيدة بل ضارة له ، وتؤدي الى رفضه » .

« هذه هي ارادة الله في توزيع المواهب ، ليس لنا أن نعارض .

لعلك لا تزال مضطربا ، فلتتظر أن مملك الصغير غالبا ما لا يستطيع أخوك (الذي تحسده لعظم مواهبه) أن يقوم به . فبالرغم من صفرك عنه لكنك أنت بهذا نافع » .

« لم يعط المعلمون لنا ليقاوم بعضنا البعض ، انما للتآلف فيما بيننا ... » .

(ج) لعل ظروف القديس يوحنا جعلته يحذر رجال الكهنوت من خطر « دخول النساء » في حياتهم . فقد استطاعت بعض النسوة الملتفات حول الامبراطورة أن يسببن الكثير من المشاكل في الكنيسة بالقسطنطينية خلال تأثيرهن على بعض الكهنة .

« من يسقط أسيرا في المجد الباطل يسقط الى عمق العبودية حتى يصل احيانا الى أمور لا يليق ذكرها ، اذ يهتم كيف يسر النساء .

حقا ان الشريعة الالهية قد استبعدت النساء عن الكهنوت لكنهن بسعين الى دفع أنفسهن فيه ، واذا لا يستطعن ذلك بأنفسهن يصبغن اياه عن طريق الآخرين (أى بتأثيرهن عن الكهنة) ...

يوجد البعض ، بل كثيرون من الكهنة اسمى من هذه الأشرار ، لكن البعض سقطوا فيها (٥٠) » .

هذه لمحات سريعة للكارز في سماته كخادم يقود النفوس في مراعى الكنيسة بروح كهنوتى أبوى مملوء غيرة وحبا !

+ + +

(٤٩) الحب الرعوى ص ٧٧٠ — ٧٧٥ .

(٥٠) الحب الرعوى ص ٦٦٨ .

الكهنوت مسئولية

في خاتمة مقاله « عن الكهنوت » بدأ القديس يوحنا يكشف لصديقه سر هروبه من الأسقفية قائلا (١) :

« لقد آن الوقت لكى ألقى بسرى الخفى ، قد لا بصدقنى الكثيرون فيما أقول ، لكننى مع ذلك لن أخجل من اعلان الحقيقة أمام العالم ... »

منذ ذلك اليوم الذى ألقيت الى دعوة الكهنوت ، اهتز كيانى كله واصابنى الفزع وخيمت على نفسى سحابة من الكآبة لأننى كلما تفكرت فى مجد عروس المسيح وطهارتها وجمالها الروحى وحكمتها ولياقتها ، ثم اقارن هذا بما لدى من نقائص ارثى لحالها ولحالى . ووسط حزن متصل وحيرة كنت اخاطب نفسى : من الذى أشار بهذا ؟

وكيف تخطىء الكنيسة هذا الخطأ الجسيم ؟

ولماذا تثير غضب الله حتى تقدم الدعوة لى انا أحقر الناس جميعا فتعانى عارا هذا مقداره ؟!

وما زلت أردد هذه الأفكار فى نفسى مرارا ، واذ لم استطع احتمال فكرة هذا الأمر المخيف استغرقت فى ذهول وصمت غير قادر أن أسمع أو أرى شيئا .

وحين كان هذا اليأس يفارقنى أحيانا تنساب دموعى ويتمكننى قنوط ، وبعد فيض من الدموع يستولى على الجزع من جديد ليزعجنى ويربكى ويزعزع أفكرى . ووسط هذه الدوامة أمضيت أيامى السالفة وأنت لا تدري عن حالى شيئا ، وتظن أنى أعيش فى سكون وهدوء . الا أننى أكتشف لك القناع عن الأنواء التى اجتاحت نفسى ، عساك تصفح عنى وتعذر عن اتهامك لى . . .» .

كانت نفسه ترتعب أمام ضخامة المسئولية ، بماذا يجيب عن كل نفس أمام الله فى ذلك اليوم العجيب ؟ فيقول :

«لست أظن أن كثيرين من الأساقفة (والكهنة) يخطئون ، بل بالحرى أكثرهم يهلكون ، بسبب أن أعمالهم تتطلب تعقلا عظيما .

كثيرة هى الضروريات التى تخرجه عن طبعه !

(١) الكهنوت المسيحى ٦ : ١٢ .

انه محتاج الى آلاف الاعين من كل جانب !

ألم تر كثرة السمات التى يلزم أن يكون عليها الأسقف؟ أن يكون قادرا على التعليم ، صبوراً ، مفصلاً كلمة الحق باستقامة (٢) .

أى متاعب وآلام تلاحق هذه الوظيفة؟!

آخرون يخطئون وهو يتحمل الاوم ! (٣) .

«أى عقاب قاسى يتوقعه انسان لا يعطى حساباً عن خطاياها التى ارتكبها بل بالحرى يتحمل خطراً أعظم بسبب انخطاياها التى يرتكبها الآخرون ؟

ان كنا نرتعد بسبب دينونتنا عن شرورنا التى ارتكبناها ، واثقين أننا لا نستطيع الهروب من النار التى تنتظرنا فى العالم الآخر ، فأية آلام يجتازها انسان عتيد أن يجيب عن أخطاء آخرين كثيرين ؟! » .

اختيار الكاهن :

سيامة أسقف أو كاهن ليست بالأمر الهين ، انها اقامة أب يلتزم بروح الأبوة نحو الناس ، وراع يبذل حياته من أجل قطيع المسيح ، وكُرز يختفى وراء كلمة الحق يكرز ويبشر من أجل المكوث . . . لذلك فالشعب مع الكليروس يلتزمون بالتدقيق الزائد فى اختياره ، فانهم مسئولون أمام الله « الراعى الأعظم » عن كل اهمال . . .

« اخبرنى ، من أين نشأت هذه المتاعب الكثيرة فى الكنيسة ؟

أظن ان مصدرها الوحيد هو الطريقة العشوائية الطائشة فى اختيار الرعاة .

يليق بالرأس أن يكون أكثر الأعضاء قوة حتى يضبط النزوات الشريرة التى تصدر عن بقية أعضاء الجسم ، ولكن ان كان هو ضعيفاً وعاجزاً عن صد الهجمات البوائية ، غانه يزداد ضعفاً ويهلك الجسد كله (٤) .

أقول فى دقة ان هذه الأمور تحتاج الى تدقيق زائد ، فمن يقدم شخصاً كمؤهل للكهنوت لا يكتفى بشهادة الجماهير له ، انما ينبغى عليه هو شخصياً — قبل كل انسان — أن يتحقق من شخصيته . فعندما قال الطوباوى بولس « ويجب أيضاً أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم خارج (٥) » لم يستغن بذلك عن البحث بتدقيق شديد (٦) .

(٢) ١ تى ٣ : ٢ — ٩ .

(3) In Acts , hom 3 .

(4) De Sacer . 3 : 10 .

(٦) الحب الرعوى ص ٢٢٩ .

(٥) ١ تى ٣ : ٧ .

« الذين ينتمون الى المسيح يدمرون ملكوته اكثر من الأعداء والمقاومين له ، ذلك باختيارهم غير المستحقين للخدمة (٧) ... » .

انت بلا عذر(٨) :

عالمج الذهبي الفم مدى مسئولية الخادم نفسه عن فشله في الخدمة او تعثره فيها بسبب جهله لمسئوليياته ، او جهله للمسلمات التي كان يليق به ان يكون عليها او بسبب دخوله هذا الميدان قسرا تحت ضغط الشعب ، فقال:

« لو كان ممكنا ان كون الجهل عذرا ، لكان بالأولى ان يحتفى به العلمانيون اكثر من الأساقفة (والكهنة) .. لأنه لا يقدر ذاك الذي يحسب عينا لتصحيح أخطاء الغير وتحذيرهم للصراع ضد الشيطان المهاجم لهم ان يعتذر بجهله ، قائلا : لم اسمع صوت البوق ، ولا نظرت الحرب (الروحية) . فانه قد وضع لهذا القصد . يقول عنه حزقيال انه يبوق للآخرين وينذرهم بالمخاطر القادمة نحوهم ، لذلك يكون عقابه محتوما ، حتى وان لم يصب احد بضرر . » فان رأى الرقيب السيف ولم ينفخ في البوق ، ولم يتحذر الشعب ، فجاء السيف وأخذ نفسا منهم ، فهو قد أخذ بذنبه ، أما دمه فمن يد الرقيب أطلبه (٩) . »

« لو ان عشرة آلاف شخص رشحوه للكهنوت وحثوه على ذلك فعليه الا يعطى لذلك بالا ، بل يبحث قلبه ، ويختبر الأمر من كل نواحيه بدقة قبل ان ينصت الى حاجاتهم . »

لا يخاطر انسان ما ويتعهد ببناء منزل ما لم يكن مهندسا ، ولا يحاول علاج المرضى ان لم يكن طبيبا ، حتى لو حثه على ذلك كثيرون ، فانه يليق به ان يرفض دون ان يخجل من جهله ، فهل الذي يتعهد ارواحا كثيرة لا يختبر نفسه أولا ... انما يقبل الكهنوت لمجرد ان طلب احدهم منه ذلك او الزمه ثان أو خشي مخالفة ثالث ؟ ! ... » .

« قد ينخدع المنتخبون بمؤثرات خارجية ، أما المختار كاهنا فلا يقدر ان يقول « لا أعرف نفسي ، كما يقول الآخرون عنه ، لذلك فعقوبته أقسى من التي يسقط تحتها المنتخبون له ... »

لهذا السبب نصح الرب من يريد أن يبنى برجاً ألا يبدأ بوضع

(٧) الحب الرعوى ص ٢٣٠ .

(٨) راجع الحب الرعوى ص ٦٤٣ — ٦٥٠ .

(٩) حز ٣٣ : ٦ .

الأساس ما لم يحسب قدرته على البناء ، حتى لا يجلب على نفسه
سخریات المارة (١٠) غير المتناهية . . »

قدم لنا القديس يوحنا ذهبى الفم أمثلة كثيرة لأناس لم يقدر أحد منهم
أن يحتج بجهله ، نذكر منهم ملكا وكاهنا ونبيا وتلميذا .

١ — **شاول الملك** « لم يكن يطمع في الملك لكنه كان يسأل عن الله
فذهب الى صموئيل النبی يسأله عن الاتن ، فاذا بالنبي يحدثه عن دعوة
الله له برسمة ملكا ، ومع هذا لم يسرع شاول بالقبول . . لكن متى
استخدم سلطانه كملك استخدمها شريرا — هذا الذى أعطى الملك من قبل
الله — فهل كان تراجع هذا كفيلا أن يقيه غضب الله الذى وهبه هذا الملك؟
هل كان في قدرته أن يقول لصموئيل عندما انتهره : « هل أنا تسرعت
واندفعت في قبول السلطان ؟ انى كنت اود ان احيا كأحد العامة في حياة
مملوءة سلاما وبلا اضطراب ، وانت أرغمتنى على القبول ، فلو تركتنى
في حالى البسيط ما كنت قد سقطت في كل هذه العثرات ، بل بقيت مجهولا
بين الشعب ، وبالتالي ما كنت قد أرسلت الى هذه المعركة ولما عهد
الله الى بالحرب ضد عماليق . . . وهكذا ما كنت قد أخطأت . . .

من يظن في نفسه أنه غير مسئول عن الخطأ ، لأنه قد تولى عملا لم ينله
العمامة ، يكون كمن يحتج بحب الله كعلة لأخطائه الشخصية .

٢ — **عالى الكاهن** « لم يطمع في نوال هذه الوظيفة السامية ، لكنه
ماذا نفعه هذا عندما أخطأ فيها ؟ !

لماذا أقول « نواله هذه الوظيفة » مع أنه حتى ان أراد أن يرفض
لم يكن يستطيع الهروب منها ، لأن الناموس يلزمه بقبولها . . . ومع ذلك
لم تكن عقوبته قليلة بسبب أخطاء أبنيه .

٣ — **موسى النبي** كان بعيدا عن السعى نحو قيادة الشعب ، مقدما
اعتراضات عندما أمر بالقيادة . . . لكنه عندما أخطأ عند ماء مريبة ،
هل كان هذا الرفض المتكرر شفيعا له ؟ !

٤ — **التلميذ الخائن** « فقد اختار الله يهوذا ، وحسبه أحدا
اعضاء الجماعة المقدسة ، وعهد إليه كالباقين أن يقوم بالأعمال الرسولية،
بل أعطاه فوق هذا أمانة الصندوق (١١) ، لكنه عندما أساء استعمال هذه

(١٠) لو ١٤ : ٢٨ ، ٢٩ .

(١١) يو ١٢ : ٦ .

الأمور التى عهد اليه بها ... هل هرب بعد العقاب ؟ كلا بل لهذا السبب
عينه صب عليه عقابا أعظم ...

« من يطلب العقاب المستحق عليه بحجة تكريمه بوظيفة
عظيمة عن غيره يكون كما لو أن أحد اليهود غير المؤمنين عند سماعه
السيد المسيح يقول « لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطيئة .
لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيرى لم تكن لهم خطيئة (١٢)
قال يوبخ المخلص محب البشر قائلا : « لماذا تصنع المعجزات وقد جعلت
عقوبتنا أشد ؟ ! » يا لها من كلمات جنونية ، يتفوه بها من هو بلا شعور ،
لأن الطبيب العظيم جاء ليشفيك لا ليهلكك ، لا ليعبر بك مريضا بل ليخلصك
من المرض تماما ، لكذلك أنت بنفسك قبلت أن تلقى بنفسك من يديه ، فنتحمل
عقابا أشد !! ... » .



(١٢) يو ١٥ : ٢٢ - ٢٤ .

الكرازة والمسيحي أو

العلمانيون في الكنيسة

الكرازة كما اختبرها القديس يوحنا الذهبي الفم ليست واجبا
وظيفيا يتمه الكارز بكل امانة . ولا هي عمل تعصبي يمارسه الخادم ،
لكنها « روح » يعيشه المسيحي ويمارسه حتى في مخدعه أو وحدته .

الكرازة هي انفتاح القلب بطريقة علوية أمام الصليب ، فيدرك قوة
الصليب ومجد السماويات مشتهيا لو انطلق العالم كله بالروح القدس
الى أحضان الفادي بنعم بالدم الثمين .

فالكرازة حياة داخلية قبل ان تكون ممارسة خارجية ، يعيشها كل
مؤمن ذاق عذوبة الخلاص واختبر حياة الشركة مع الفادي ... هذه
الحياة كانت للأسف تحتضر بين شسعب القسطنطينية كما بين خدامها
ورعاتها ، فقد انفتح باب البلاط على مصراعيه لرجال الكنيسة وانشغل
الأساقفة والكهنة في أمور كثيرة غير الرعاية الروحية الكرازة . وكان من
ثمر هذا انسحابهم الى نوع من الأرستقراطية الكنسية — ان صح هذا
التعبير — فحسبوا أنهم وحدهم دون سواهم يمثلون الكنيسة ، وسلبوا من
العلمانيين ليس مركزهم الكنسي فحسب ، بل ودورهم الايجابي أيضا ؛
افقدوهم روحهم وحياتهم ! لذلك وضع القديس في قلبه أن يعود بالخدام
الى الكنيسة بقلوبهم حاملين معهم شعبهم بروح التوبة والحب والعمل ...

بدا الأسقف أو البطريرك القسطنطيني منذ سيامته يبعث في أولاده
روح الخدمة والعمل الايجابي ، لا في اندفاع حماسي أو خلال عواطف مثيرة ،
انما في تعقل من أجل بنيانهم وممارستهم حقهم في عضويتهم للكنيسة ...
وانني أرجو في الرب — ان استطعت — أن أقدم صورة مبسطة لهذه
النظرة الايجابية من واقع عظاته وكتاباتة .

مركز العلمانيين في الكنيسة :

١ — ليس من آباء الكنيسة الأولين والمحدثين من سجل لنا عن رهبة
سر الكهنوت وبهاء عمله السرائري وخطورته مثل القديس يوحنا ، حتى رفع
الكاهن الى ما فوق الملائكة ، وطالبه أن يكون أكثر بهاء من الشمس ...

لقد عرف سلطان الكهنوت حتى قال (١) :

« الملك له وظيفة ادارة الأمور الزمنية ، اما السلطة الكهنوتية فمستمدة من فوق ... ليس مسموحا لك ايها الملك أن تقدم بخورا في قدس الأقداس ، والا تكون قد تعديت حدود سلطانك ، وتطلب ما لم يعط لك . هذا ليس لك انما هو لى ! » .

بقدر ايمانه بسلطان الكهنوت آمن ايضا بمركز العلمانيين بكونهم « كهننة علمانيين » ، مميذا بين « الكهنوت كسر » وبين « الكهنوت العلماني — Laymen Priesthood » ... فالمؤمن اذ يدخل المعمودية يصير كاهنا علمانيا يقدر — في المسيح يسوع — أن يقدم ذبيحة صلاة وصدقة وصوم وبذل ... اذ يقول (٢) :

« في جرن المعمودية صرت ملكا وكاهنا ونبيا .

أنت ملك ، تحطم على الأرض كل اعمال الشر وتذبح خطاياك .

أنت كاهن تقدم لاله ذاتك تقديما : تقدم جسدك وذاتك ذبيحة لله ، قائلا (٣) * ان كنا قد متنا معه فسنحيا ايضا معه .

أنت نبي تعلم ما ستكون عليه ، اذ أوحى لنا من قبل الله ... » .

يعلق (٤) ايضا على تول الرسول بولس (٥) : اطلب اليكم ايها الأخوة برافة الله ان تقدموا اجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية ، قائلا :

« كما أن الذي يخدم في بيت الله ويقوم بالتقديس — ايا كانت رتبته — يجمع نفسه (٦) ويصير أكثر بهاء (٧) ، هكذا يليق بنا أن نضع في أذهاننا ان نكون كذلك كل أيام حياتنا بكمالها بكونها خدمة وتقديسا ...

هذا ما تحققه بتقديم نفسك ذبيحة له كل يوم ، فتصير كاهنا لجسدك لصالح نفسك ، مقدما على سبيل المثال تعقلا وصدقة وصلاحا واحتمالا ... أي تقدم « عبادة عقلية » !

(1) In Vid Dom . PG 56 : 125 — 126 .

(2) In 2 Cor . , hom 3 : 7 .

(٣) ٢ تي : ١١ .

(4) In Rom . , hom 20 .

(٥) رو ١٢ : ١ . (٦) حز ٤٤ : ١٩ .

(٧) ربما قصد أنه يرتدي ملابس بهية أثناء الخدمة .

لقد اظهر (الرسول) ان كل انسان كاهن لجسده .

٢ — كشف أيضا القديس عن مركز العلماني في العبادة الليتورجية فان العبادة هي عمل الكنيسة كلها ، ليست عمل الكاهن وحده ولا العلماني وحده ، يشترك العلماني في العبادة لا كمتفرج ولا كمستمع لكنه كمشارك حقيقي ، بدونه لا يقوم العمل الليتورجي .

لقد سبق لي معالجة هذا الفكر الكنسي الأرثوذكسي عند الحديث عن الأفخارستيا ، كذبيحة الكنيسة كلها وعمل تعبدى للجميع كأعضاء في جسد المسيح (٨) . . . وهذا أيضا ما أكدته القديس في أكثر من موضع ، نذكر منه (٩) :

توجد ظروف لا يكون فيها تفريق بين الكاهن ومن يسودهم . مثال ذلك عندما نتناول الأسرار المهيبة ، فأننا جميعا نتساوى في التأهل لها فالأمر ليس كما في العهد القديم حيث يأكل الكاهن أشياء والذين تحتاه أشياء أخرى ، إذ لم يكن يحق للشعب أن يشارك الكاهن الأشياء الخاصة به . أما الآن فالأمر غير ذلك ، إذ هو جسد واحد وكأس واحدة أمام الجميع . . .

الصلوات أيضا مشتركة بين الكاهن والشعب . . .

تقدمة الشكر أيضا مشتركة بينهما ، فلا يقدمها الكاهن وحده بل ومعه كل الشعب . يبدأ بالشكر عندما يتقبل أصواتهم معلنين قبولهم ، قائلين « مستحق وحق (عادل) » . . .

لماذا تتعجبون ؟ . . فان الجميع يشتركون مع الشاروبيم أنفسهم والقوات السمائية ، مقدمين التسابيح المقدسة في شركة معا .

قلت هذا ، لكي يكون كل علماني متيقظا ، مدركا أننا جميعا جسدا واحدا ، أما الاختلافات بيننا فهي اختلاف أعضاء قبالة أخرى . بهذا لا نلقى بالعبء كله على الكهنة ، إنما نشترك أيضا معهم في الاهتمام بكل الكنيسة ، بكونها جسدا واحدا عاما للجميع ، فان هذا سيسند سلامنا العظيم ونمونا المتزايد في كل فضيلة » .

٣ — لا يقف عمل العلماني عند الشركة مع الكاهن في العمل التعبدى إنما أيضا في التدبير مثل اختيار الكهنة والشماسة الخ . . .

(٨) المؤلف : المسيح في سر الأفخارستيا .

(10) In 2 Cor . , hom 18 : 3 .

يقول القديس يوحنا أنه لا يليق بالكهنة أن يعتدوا برأيهم ويمتلأوا
كبرياء ، فإنه أفضل للكنيسة أن يتشاور الكاهن مع أصحاب الرأي من
العلمانيين ، مقدما لنا الرسل أنفسهم مثالا ، إذ « غالبا ما كانوا يضمنون
معهم العلمانيين ليشاركوا معهم في قراراتهم ، فعند رسامتهم السبعة (١١)
(شمامسة) اجتمعوا أولا مع الشعب . وعند رسامة متىاس (١٢) كان
الكل حاضرا : الرجال والنساء ... » (١٣) .

٤ — العلمانيون يسندون الكهنة بالصلاة ، فقد رأيناهم يطالبهم
بالصلاة من أجله ومن أجل الكرازة ...

هذا ما تعلمه أيانا الكنيسة في ليتورجياتها « إذ في أكثر الأسرار
رهبة يصلي الكاهن من أجل الشعب ، ويصلي الشعب من أجل الكاهن
أيضا (١٤) » .

حدثهم أيضا عن قوة صلاة الشعب في خدمة الرسل أنفسهم ،
قائلا : (١٥) .

وبالتأكيد صاوات الكنيسة حُت بطرس من قيوده ، وفتحت غم بولس
(للكرازة) ، أصواتهم سندت — ليس بقليل — الذين نالوا سلطانا روحيا .

٥ — العلمانيون أقدر على الخدمة الفردية :

هذا ما لمسهُ القديس يوحنا في خبرته العملية ، أن العلمانيين أقدر من
الكاهن على الخدمة الفردية ، وله في ذلك أقوال رائعة ، منها (١٦) .

« لا تلقوا كل العبء على معلمكم ، لا تلقوه بأكمله على من
يقودكم ...

ان اردتم تستطيعون أن تعملوا فيما بينكم أكثر منا . فان لديكم فرصا
أكثر للالتقاء معا وتعرفون ظروف بعضكم أكثر منا ، ولا تجهلون سقطات
بعضكم بعضا ، لديكم أيضا حرية أعظم في الحديث والحب والمودة ،
هذه الأمور ليست بقليلة في التعليم ...

أنتم أقدر منا أن ينتهر الواحد الآخر وينصحه ...

ليس هذا فقط ، إنما أيضا أنا لست الا واحدا ، أما أنتم فكثيرون ،
تستطيعون بعددكم الكبير أن تعلموا ...

(١٢) أع ١ : ١٥ .

(13) In 2 Cor . , hom 18 : 3

(15) Ibid .

(16) In Hebr. hom. 30 : 4 — 7 PG 63 : 211 .

(١١) أع ٦ : ٣ ، ٢ .

(14) In 2 Cor . , hom 18 : 3 .

اتوسل اليكم الا تهملوا هذه الموهبة ، فانه لكل واحد منكم زوجته
وصديقه وخادمه وقريبه ...

ان كان لازما أن تذهب الى جنازة أو وليمة أو تساعد قريبك في أمر ما
فكيف لا تفعل هذه الأمور بقصد تعليمه الفضيلة ؟ أرجوكم ألا يهمل أحدكم
هذا ، فانه يتقبل من الله مكافأة عظيمة ...

تقول لى : ليس كلام ! لكن لا حاجة الى الكلام ولا الى الفصاحة ...
اسنده لا يكونك انسانا تفعل كل شيء كما يليق « أى تسنك بلا خطية ،
ولا كمعلم له بل كصديق واخ له » ...

هذه هي الصداقة : « اخ يعين أخا يصير مدينة محصنة (١٧) » . ليست
الصداقة أكلًا وشربًا ، فان مثل هذه توجد حتى بين اللصوص والقتلة . لكننا
ان كنا بالحقيقة أصدقاء غليعتن كل واحد بالآخر ...

« احموا بعضكم اثقال بعض وهكذا تموا ناموس المسيح (١٨) » .

اذ ينتهر الواحد الآخر ويحمل اثقاله نستطيع أن نتمم التهذيب وبهذا
تجعلون عملنا خفيفًا ، تشاركوننا في كل شيء ، وتبسطون أيديكم لنا ، وتكونون
شركاءنا ، مهتمين كل واحد بخلاص الآخرين وخلاص نفسه .

مرة أخرى يقول (١٩) : « كل واحد منكم — ان أراد — فهو معلم ، ان
لم يكن للآخرين فلنفسه ...

انك مصباح عندما تضيء يقدر أن يضيء منه عشرات الألوف من
المصابيح ، اما اذا انطفأ فلا يعطى ضوءا لنفسه ولا يضيء غيره من المصابيح .
هكذا في الحياة النقية ، ان كان النور الذى غينا يضيء فانه توجد أعداد
ضخمة من التلاميذ والمعلمين ، يجلسون قبالة بعضهم كنماذج ، كل يأخذ من
الآخر . لأنه لا تستطيع كلماتي الخارجة منى أن تفيد السامعين مثل نفعهم
من حياتكم ...

هم يسمعوننى مرة في الشهر أو مرتين وربما أقل ، وحتى ان حفظوا
ما يسمعونه في الكنيسة فسرعان ما ينسونه ، اما اذا رأوا حياة انسان على
الدوام فيقالون منه نفعا عظيما ...

(١٧) أم ١٨ : ١٩ .

(١٨) غلا ٦ : ٢ .

(19) In 2 Thes , hom 5 .

أنا أعرف عائلات كثيرة نالت نفعا عظيما من فضائل خدمهم .

أوجه حديثي للجميع بصفة عامة ، كما لكل فرد على وجه الخصوص ،
ليهتم كل واحد بخلاص أقربائه . . . فان في هذا العمل نفعا عظيما ، ليس فقط
يصير العمل خفيفا على المعلم ، بل يشترك كل تلميذ في الآلام ليصير قادرا
أن يكون معلما . . . » .

« يمكننا أن نعتبر كل مؤمن راعيا لبيته وأصدقائه وخدمه وزوجته
وأولاده (٢٠) » .

« اجعل بيتك كنيسة ! (٢١) » .

الخلاصة :

نستطيع أن نخلص من هذا كله بأن الحياة المسيحية — في عيني القديس
يوحنا — حياة حب عاملة لا تعرف السلبية ، فان السيد المسيح جاء لخدم
ويبذل نفسه فدية عن كثيرين . هكذا يليق بالمسيحي أن يحيا في المسيح
وبروحته ، لا يعرف إلا أن يكون فعالا في حياة الآخرين بالعمل الإيجابي :
بالحب والصلاة والخدمة والمشاركة في المشاعر الخ . . .

المسيحي — كاهنا أو راهبا أو بتولا أو أرملا أو متزوجا — له دوره في
حياة الكنيسة ، يعمل ويجاهد لا لاحتياج الكنيسة لعمله بل بالحرى لحاجتها
إلى حيويته فيها ، ولحاجته هو إلى تفاعله معها . . .

« ليس شيء يجعل الإنسان مثل المسيح كاهتمامه بأقربائه (٢٢) » .

« لا أقدر أن أصدق خلاص إنسان لا يعمل من أجل خلاص أخيه (٢٣) » .

« ليس شيء تافها مثل مسيحي لا يهتم بخلاص الآخرين .

لا تقل أنني فقير ، فان فلس الأرملة يخجلتك . وبطرس أيضا قال :
ليس لي فضة ولا ذهب ، وبولس كان فقيرا حتى أنه كثيرا ما كان
جائعا .

(20) In Rom . PG 60 : 660 — 661 .

(21) In Gen PG 54 : 607 .

In Princip . Act . PG 51 : 99 — 100 .

(22) In 1 Cor . , hom 25 : 3 . PG 61 : 208 .

(23) De Sacer . 3 : 10 . PG 48 : 686 .

لا تحتج بظروفك القاسية ، فانهم كانوا أيضا في ظروف قاسية .
لا تحتج بجهلك ، فقد كانوا غير متعلمين .
ربما تكون عبدا هاربا ، انسيموس أيضا كان هكذا !
قد تكون مريضا ، تيموثاوس كان هكذا !
كل أحد كان يقدر أن يعين أخاه حتى ولو بالارادة الصادقة ان لم يكن
له في قدرته أن يفعل شيئا ...

لا تقل انك لا تستطيع أن تؤثر على الآخرين ، فانك ما دمت مسيحيا
يستحيل الا ان تكون صاحب تأثير ... فان هذا هو جوهر المسيحي .
ان قلت انك مسيحي ولا تقدر أن تفعل شيئا للآخرين يكون في قولك
هذا تناقضا ، وذلك كالقول ان الشمس لا تقدر أن تهب ضوئا (٢٤) .

« ان كانت الخميرة لا تخمر العجين فهل تكون خميرة ؟ !
وان كان العطر لا يعبق الجو المحيط به فهل يكون عطرا ؟ !
هكذا مسيحي لا يعمل من أجل خلاص غيره فهل هو مسيحي ؟ (٢٥) » .
هكذا يرى القديس « المسيحية » و « خدمة الآخرين » متلازمين ،
كما لا تقدر الشمس الا أن يكون لها ضوء في ذاتها ، لا يمكن أن توجد
مسيحية بغير حب لخلاص البشرية .

هذه هي غاية الانسان المسيحي كل يوم ، اذ يقول (٢٦) :
« من ثم اتوسل اليكم ، عندما يصل الصباح ونخرج من بيوتنا فليكن
لنا هدف واحد ، فوق كل الأهداف ، وهو أن نخلص من هم في خطر ،
لست أقصد الخطر الذي تدركه الحواس ، فان هذا ليس خطرا بالمرة ،
انما أقصد خطر النفس الذي يجلب الشيطان على البشر » .

« ان رأيت انسانا أعمى سيسقط في هوة ، اما تمد يدك اليه وتسند
حالا ؟ ! كيف اذن يسوغ لنا أن نرى اخوتنا ساقطين في مثل هذه المخاطر
ولا نمد اليهم يد العون وهم مشرفون على السقوط في الحفرة الجهنمية
الخالدة ؟ ! (٢٧) » .

(24) In Acts , hom 20 : 4 . PG 60 : 162 .

(25) In Act . PG 60 : 163 .

(26) In Mat., hom 59 : 5.

(٢٧) الحب الأخوي ص ٧٢ .

« عالج نفوس اخوتك المتألمة بالآلام الخطية كما تعالج نفسك ، عالما
أن زمان حياتنا الوقتى نذر يسير . فإنا ان لم نريح هذا الكسب النافع
للنفس لن نحصل هناك على خلاص لنفوسنا . . . لأنك اذ تنقذ نفسك
من رق الخطية ، تكون قد رفعت عن نفسك أوثاقا صعبة من الخطايا
العظيمة ، وتوجد يوم الدينونة مكللا ، لأنك انقذت نفوسا من التعاسى يوم
الدين وسعيت فى خلاصها .

نحن أيها الأخوة ملتزمون ان يجاهد كل منا من أجل خلاص أخيه حتى
نستقبل المسيح يوم الدينونة بوجوه مبتهجة ثابتة ، وبدالة جزيلة ، مقدمين
له تلك الهدايا التى لا يوجد أفضل منها ، وهى نفوس الخطاة والضالين
التي رددناها اليه بوعظنا وتهذيبنا (٢٨) » .

« يجب علينا ان نظهر الحب الأخوى والتدبير اللائق نحو بنى
طبيعتنا ، ونحملهم بالمحبة التى هى رأس الفضائل ، والتي بدونها
لا يستطيع أحد ان ينجو .

لهذا لا تفتر أيها الحبيب أبدا ، بل كن ناصحا لأخيك ولو قذفك
وأرهبك بالضرر والخسارة ، اظهر له جناح الحنو واطل اناتك عليه حتى
تريح نفسه ولو بالغ فى عدائه لك . . .

متى رأيت انسانا محتاجا الى شفاء روحى أو جسدى ، فلا تقل
فى نفسك ان هذا من عمل فلان ، هو ينقذه من شره ويشفيه ، فإنا
علمائى لى زوجة وأولاد ، هذا من عمل الكهنة والرهبان .

أجبنى يا هذا : لو وجدت وعاءا مملوءا ذهبيا هل تقول فى نفسك
لم لا يأخذ هذا الوعاء فلان أو فلان . . . بل كالذئب الخاطف تبادر وتأخذه
قبل أى انسان ؟ !

ليكن لك هذا الاشتياق بالنسبة لآخوتك الساقطين ، واضعاً فى نفسك
أنك قد وجدت كنزا ثميناً جداً ، هو اعتناؤك بأمر خلاص أخيك ، هو ذا الله
نفسه يقول على غم رسوله أنك ان انقذت انسانا من الضلالة تخلص
نفسا من الموت » .

+ + +

(٢٨) الحب الأخوى ص ٧٣ .

الحفاظ على الإيمان

واجه القديس يوحنا الذهبي الفم مقاسومات من الوثنيين واليهود والهرطقة ، فما هو موقفه تجاههم ؟ !

في القرن الرابع ظهر اتجاه خطير هو تبرير مضايقة الهرطقة والمبتدعين باستخدام السلطان المدني ضدهم ، حتى يبدو أن القديس جيروم (١) كما لو كان يبرر اعدامهم معتمدا على قول الكتاب المقدس « إذا أغواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك .. قاتلا : نذهب ونعبد آلهة أخرى ... فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره ، بل قتلا تقتله . يدك تكون عليه أولا لقتله ثم أيدي جميع الشعب أخيرا . ترجمه بالحجارة حتى يموت ، لأنه التمس أن يطوحك عن الرب الهك (٢) » .

أما القديس اغسطينوس الذي انتمى لاتباع ماني قرابة تسع سنوات قبلما تنتثله نعمة الله للدخول في الإيمان المستقيم فقد رفض مضايقة الهرطقة ... وان كان بعد عام ٤٠٠ م نتيجة خبرته مع الدوناتيين Donatists بدا يبرر اضطهادهم اذ يقول (٣) : « حقا من الأفضل للبشر ان يتقدموا لخدمة الله خلال تثقيفهم لا بسبب الخوف من العقاب والألم ... لكن وأن كانت الوسيلة الأولى افضل ، فإن هذا لا يعنى تجاهل الثانية .. فإن كثيرين كعبيد أشرار لا يعودون الى ربهم غالبا الا بعصا الآلام المؤقتة ، وذلك قبلما يبلغون الى درجة من التقدم في التقوى » .

أما منهج القديس يوحنا الذهبي الفم في تعامله بخصوص الهرطقة والخارجين عن الإيمان فيتلخص في :

١ - قبول الإيمان امر اختياري :

لا يؤمن بالتوبة أو الرجوع الى الإيمان باستخدام العنف انما هو عمل روى اختياري .

(1) Ep . 37 .

(٢) تث ١٣ : ٦ - ١٠ .

(3) Ep . 185 ad Banifacium 21 , 24 .

« لا يسمح للمسيحيين أن يعالجوا سقطات الخطاة كرها . . غاته يلزم اصلاح الخطاة بالاعتناع لا بالارغام ، فنحن لم نعط بالقانون سلطانا من هذا النوع لقمع الخطاة ، وان اعطى لنا ذلك فلا مجال لممارسته ، ما دام الله يكافئ المتنعين عن الشر باختيارهم لا قسراً (٤) » .

٢ — عدم الانتشغال بالجدال :

يؤمن القديس بالايجابية في العمل ، لا يليق بالراعى او قطيعه ان يفسدوا وقتهم بالجدال خاصة مع من لا يود التعرف على الحق بل يكون محبا للمحاولات العقلية والمباحثات الغبية .

واما المباحثات الغبية والأنساب والخصومات والمنازعات الناموسية فاجتنبها لأنها غير نافعة وباطلة . الرجل المبتدع بعد الانذار مرة ومرتين اعرض عنه ، عالماً ان مثل هذا قد انحرف وهو يخطئ محكوماً عليه من نفسه (٥) .

يعلن بولس انه لا لزوم للصراع ضدهم ما دام لا يرجى منهم خير . . . ان كان الشخص شاذاً ومصرّاً على رايه فلماذا تصر على القاء البذار على الصخرة ؟ ! اليس من الأفضل ان نستغل جهلنا هذا في غائدة نوبنا ؟ . . .

كيف يقول الرسول « لعل الله يعطيهم توبة » ، بينما يقول هنا « الرجل المبتدع بعد الانذار مرة او مرتين اعرض عنه ؟ ! . . . قال هذا عن يرجى توبتهم ، لكن متى كان المبتدع في عناد ظاهر ومعلوم فلماذا تتعب معه باطلا ؟ ! (٦) » .

يقول ايضا (٧) : « في الكلام الباطل خسارة عظيمة ، غاته يليق بالمعلم ان يعلم او يصلى او يشكر . . . » .

« كما ان التفاسل عن الذين نفهم رجاء في التوبة هو غشل ، هكذا علاج مرضى بأسقام لا يرجى شفاؤها هو جهل وغاية في الجنون ! » .

هكذا يليق بالكاهن وشعبه الا يفسدوا سلامهم ووقتهم بمناقشة غبية ، انما حرى بهم الا يكرزوا بالتدوة والعمل الايجابى ، فيخاطب شعبه قائلاً (*) :

« كيف نقتنع الوثنيين ؟ »

(4) De Sacr . 2 : 3 .

(٥) ١١ — ٦ : ٣ .

(6) In 1 Tit ., PG 62 : 696 .

(٧) الحب الرعوى ص ٧٢٦ .

(*) In Joan , hom . 62 : 5 .

كيف نقنعهم بالقيامة والفضائل عندما نحدثهم عنها ؟ « يجب :
بالحياة التقوية وليس بالفلسفة والجدال .

مرة أخرى يحذر شعبه من عثرة الخارجين بسبب سوء صنيعهم ،
قائلا : « بالعظم فساد سلوك هذا الزمان ! فان أى غريب متى قارن
وصايا الانجيل بحياة هذا المجتمع الواقعية لأدرك على الفور أنهم ليسوا
تلاميذ المسيح . لا ، بل هم أعداؤه » .

٣ - عدم الانفعال :

حذر القديس المؤمنين ألا يفسدوا سلامهم الداخلى بانفعالات الغضب
والخصومة والمرارة وهو في هذا يسلك بروح الأسقف غلافيان القائل (٨) :
« يجب أن نحرم العقائد الهرطوقية التي تجدها عندهم ، أما الأشخاص
فيجب أن نرحمهم تماما ونصلى من أجل خلاصهم » .

بنفس الروح يقول القديس يوحنا (٩) : « بالتأكيد أن تغير الانسان
عقلية خصومه وهداية أذهانهم لهو أعظم من قتلهم واعمج !

ومما يزيد صواب هذا المبدأ أن التلاميذ لم يكونوا سوى اثني عشر ،
بينما كان سكان العالم أجمع ذئابا ، لنخجل نحن الذين لا نسلك على منوالهم
اذ تنقض على خصومنا كالذئاب .

سنغلب ان سلطنا كخراف حتى ان كان حولنا ألف ذئب ! نحن أقوى
من جميعهم وننال الغلبة !

أما اذا عملنا عمل الذئاب فسنهزم ، لأنه عند ذلك يحرمننا الراعى
من عونته ، اذ هو راعى الخراف لا راعى ذئاب » .

مرة أخرى يقول (١٠) « تعودت ان اسقط تحت الاضطهاد لا أن أمارسه ،
ان تساء معاملتى لا أن أسىء معاملة الآخرين . . .
ان دخل هنا ذئب هرطوقى اجعل منه حملا ! » .

٤ - ميز القديس بين عدم اضطهادهم ومضايقتهم وبين التساهل معهم ،
فقد حرم الدخول الى اجتماعاتهم كما صادر كنائسهم وتحدث عن ضرورة
ضد هرطقاتهم (١١) ، اذ له مقالات ضد اليهود الوثنيين والهرطقة .

(8) Moulard : St . Jean Chrysostome , p 138 .

(9) In Mat , hom 33 (See hom 29 , 46) .

(10) In S . Phoac . PG 50 : 700 — 702 .

(11) Schaff , vol 3 , p 144 .

حاول بعض الهراطقة أن يدخلوا بالبدع الى قلوب المؤمنين تحت ستار « الاتضاع » ، خالطين بينه وبين الاستهتار في التمسك بالعقيدة ، مرددين قول الرسول « غير أنه على كل وجه سواء كان بعلة أو بحق ينادى بالمسيح (١٢) » ، مطالبين البسطاء أن يسمعوا لهم اذ هم أيضا يتحدثون في المسيح يسوع ! لم يقف القديس صامتا بل ألقى مقالا مطولا يعالج المفهوم الحقيقي للاتضاع فارزا اياه عن الاستهتار ، كما أوضح لهم أن ما قاله الرسول لم يكن بخصوص هراطقة انما بخصوص أناس كرزوا بالايان المستقيم بنية اثاره الحكام ضد الرسول بولس ليبقى في سجنه « ظانين انهم يضيفون الى وثقه ضيقا (١٣) » . وقد سبق لى ترجمة هذا المقال (١٤) .

+ + +

الصخرة ٤ !

(١٢) في ١ : ١٨ .

(١٣) في ١ : ١٧ ، ١٨ .

(١٤) « اتضاع الفكر » للقديس يوحنا ذهبي الفم .

(٣)

مَهْرَجَةُ الْكَنِسَةِ

- كارز كنسى .
- الكنيسة وأبعادها .
- العبادة الكنسية .
- الأسرار الكنسية .
- الطقس الكنسى .

كارز كنسى

كان القديس يوحنا ذهبى الفم واعظا كنسيا ، عاش فى الكنيسة
عضوا حيا ، ينعم بانجيلها ويمارس عبادتها ويسلك بروحها . اذا ما اعتلى
المنبر انما يعتلى منبر الكنيسة التى يعشقها ، يكرز من خلاله بمسيح الكنيسة
ومخلصها ، حاملا سامعيه الى الحياة الكنسية الانجيلية التعبدية النفسية
السرائرية الحاملة للسمة السماوية مع واقع حى ! لقد اعتلى الكنيسة
ليقود اولاده فى مراعى كنيسة المسيح الاصلية التى يعيش هو فيها .

لكننا نتساءل : ما هو مفهومه للكنيسة ؟

وما هى أبعادها ؟

وما هو مركز الانجيل فيها ؟

وما هى رسالتها ؟

وما هى علاقتها بالذبيح والذبيحة المحيية ؟

كيف تمارس طبيعتها السماوية وهى سالكة على الأرض ؟

هذه التساؤلات وما على شاكلتها يصعب تحديد الاجابة عليها فى نقاط
مستقلة ، فهى فى مجموعها انما تعلن عن « حياة كنسية واحدة » ، هى
محصلة لقاء المؤمن الحقيقى مع السيد المسيح داخل الكنيسة —
اى كعضو حى فى جسد الرب — خلال الانجيل والمعمودية والذبيح

والليتورجيات والمنبر ... يعيشها المسيح داخل جدران الكنيسة
كما في مخدعه وخلال معاملاته مع الآخرين وسلوكه اليومي . هي حياة واحدة
جديدة يمارسها المؤمن خلال اتحادهم بمسيح الكنيسة أى رأسها ،
أينما وجد !

هذه الحياة الكنسية لم يسجلها لنا القديس يوحنا ذهبى النعم
في مقالات معينة بطريقة دراسية منظمة ومنسقة ، لكنها تنبعث من خلال
الأسطر دون تدبير أو تخطيط من جانبه ، يخصها القارئ في عظمته ومقالاته
البسيطة العملية غير الفلسفية ، ويلامسها بصورة حية تتجلى في كل
موضوع يتحدث عنه القديس .

والآن لنبدأ بالتعرف على مفهومه للكنيسة أو الحياة الكنسية وأبعادها .

+ + +

الكنيسة وأبعادها

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم (١) :
« الكنيسة هي رجاؤك وخلصك وهي ملجأ لك !
هي أعلى من السماء ، وأكثر اتساعا من المسكونة !
إنها لن تشيخ ، إنما تبقى في كمال حيويتها بغير توقف .
يشير الكتاب المقدس الى قوتها وثباتها ، فيدعوها « جبلا » ،
والى طهارتها فيدعوها « العذراء » ،
والى سلطانها فيدعوها « الملكة » ،
والى انتسابها لله فيدعوها « الابنة » ،
والى نموها فيدعوها « العاقر التى لها سبع بنين » . . .

تحمل الكنيسة أسماء عدة لتعبر عن سموها ، فهي مثل سيدها الذى
يلقب بأسماء كثيرة . . . اذ هل يقدر اسم بمفرده أن يعبر عن حقيقتها
الكاملة ؟ مستحيل ! » .

هذا ما سجله لنا القديس ذهبي الفم في احدى عظاته عندما هرب
أثروبياس من الكنيسة مرتعبا، فسقط بين يدي الامبراطور ونفى ثم أعدم (٢) .
خلال هذه المناسبة انطلق القديس يكشف لشعبه عن « مفهوم الكنيسة »
كما يدركه ويتلمسه ، فوجد اللغة عاجزة عن أن تعبر ، أو بمعنى أدق
أوقفته بشريته عن قياس أبعاد كنيسة المسيح .

١ — تارة يتطلع اليها كحياة انجيلية ايمانية علوية ، يهبها لنا الآب
في ابنه خلال الصليب بالروح القدس ، فيقول عنها : « الكنيسة هي رجاؤك
وخلصك وهي ملجأ لك » .

(١) مقالتان عن أثروبياس ، طبعتا تحت عنوان : « الكنيسة تحبك »
١٩٦٨ ، ص ٤٢ ، الناشر كنيسة مارجرجس باسبورتنج .
(٢) ص ٧١ — ٧٥ .

هذا ما اكده في نفس العظة حين قال : عندما أقول الكنيسة ، لا أقصد مجرد المكان بل طريق الحياة . لا أقصد حوائطها بل ثرائها ... الكنيسة هي ايمان وحياة ! » .

٢ — مرة ثانية يتطلع الى الكنيسة من جهة رسالتها في هذا العالم ، « الأم الولود » او كما دعاها « العاقر التي لها سبع بنين » . هي أم تلد اولادا لله خلال حبها للبشرية وكرازتها للعالم وتعميد القابلين للايمان ... تلدهم مقدسين للرب وتهتم بهم بالنعمة الالهية .

٣ — مرة ثالثة يفحص الكنيسة في طبيعتها: هل هي سماوية أم أرضية ؟ أم أرضية ؟ فاذا به يدعوها « أعلى من السماء وأكثر اتساعا من الأرض » . أخيرا غلب القديس على أمره ، ان تطلع اليها من خلال الصليب دعاها « جبلا » لا تقدر قوات الظلمة ان تحطمه ، وأن تلامس مع عفتها ونقاوتها دعاها « العذراء » العفيفة المهيأة للعرس الأبدى ، وأن رفع عينيه الى أمجادها الأبدية ونسبته لله وجدها « الابنة والملكة » الجالسة عن يمين الله ، شريكة المسيح في المجد . وان أراد ان يعرف نهايتها يجدها « لن تشيخ بل تبقى في كمال حيويتها بغير توقف » ...

في عظاته تارة يدعوها « حياة وايمان » ، وأخرى « جسد المسيح وعروسه » وثالثة يدعوها « هيكल الله المقام من نفوس المؤمنين » اخ ...

أخيرا أحسب ان كتابا كهذا لا يكفى لسرد كل ما ورد في كتابات القديس عن الكنيسة ، انما اكتفى بذكر مقتطفات من كلمات تكشف عن نظريته للكنيسة في جوانبها الثلاث :

١ — الكنيسة كحياة انجيلية ايمانية .

٢ — الكنيسة حب وكرارة .

٣ — الكنيسة سماء أرضية .

+ + +

١ — الكنيسة حياة انجيلية ايمانية :

ارتبطت الكنيسة في ذهن القديس بالانجيل العملى ، كل منهما يسند الآخر ويقوم به . الانجيل هو سور الكنيسة (٣) يحوط بها ويحفظها لتعيش كنيسة المسيح الانجيلية ، وفي نفس الوقت الكنيسة هي التي « تعطى الانجيل مفهومه الحقيقى وتفسره السليم (٤) » ، حتى لا ينجرف به أحد عن مفهومه الأصيل .

(3) In Act. PG 60 : 244 .

(4) Moulard : St. Jean Chrysostome, P 89 .

الكنيسة هي حياة انجيلية عملية جادة ، اذ يقول : « ليست الكنيسة مسرحا تأتون اليه للاستماع من أجل التسلية ، انما يليق بكم ان تخرجوا حاملين نفعا ، مقتنين فائدة جديدة وعظيمة ... اظهروا ما اقوله لكم بأعمالكم (٥) » .

٢ - الكنيسة حب وكرازة :

« ما هي الكنيسة الا بيت مبنى من نفوسنا نحن لبشر ؟ ! (٦) » . هذا هو مفهومه للكنيسة ، انها البيت ، قوامه نفوسنا التي هي حجارة حية ، اى بناء حي ينمو بغير توقف ، يرتبط معا ويرتفع نحو السماء : ليصير بيت المسيح الواحد والمتكامل .

بهذا نفهم كنيسة المؤمن انها « حب انجيلي عامل لبناء نفسه ونفوس اخوته » ، هي عمل مستمر لا يتوقف حتى يقوم البناء متكاملا ، خلال الولادة المستمرة لأولاد الله .

بمعنى آخر الروح الكنسية هي روح الانفتاح نحو الآخرين لجذب غير المؤمنين الى الايمان للتمتع بالميلاد الكنسي الجديد ، وجذب المؤمنين المتراخين والدفع بهم الى تيار الحياة العاملة من أجل بناء الله الحي .

سبق لى الحديث عن هذا الروح المفتوح للخدمة اثناء عرضي لمنهجه الكرازي ، والآن اكتفى بمثالين من عظاته .

عندما تحدث عن التحرر من خطية القسم قال : « لنلاحظ هذه النقطة ، ليس اتنا قد تحررنا من هذه الخطية ، بل وان نخلص آخرين منها أيضا ليتنا لا نتوقف عن العمل ، بل يقدم كل منا لله عشرة اصدقاء يصلح حالهم (٧) » .

وفي حديثه عن الغائبين عن الاجتماعات قال (٨) :

« كم انا مغموم ؟ ! ... يا له من جزء كبير من جسد الكنيسة اشبه بجثة هامدة ؟ !

اتقولون ما لنا وهذا الأمر ؟ اقول : لديكم امكانية عظيمة بخصوص اخوتكم . انكم مسئولون ان كنتم لا تنصحونهم وتصندوقهم عن الشر ،

(5) Conc. Statues, hom 2 : 11 .

(6) In Eph. hom 10 .

(7) Conc. Statues, hom 20 : 23 .

(8) To those who had not attended the assembly .

قام بترجمتها المؤلف تحت عنوان « رسالتك في الحياة » سنة ١٩٦٧ .

وتجذبهم بقوة الى هنا ، وتسحبونهم من تراخيهم الشديد ، اذ لا يليق
بالانسان ان يهتم بنفسه فقط بل يلزمه ان يهتم بالآخرين أيضا ... فانه
اى فئدة لمصباح لا يضيء للجالسين في الظلمة ؟ ! واى نفع للمسيحى الذى
لا ينفذ غيره ؟ ! ولا يرد احدا الى الفضيلة ؟ ! ...

مداومة النصيحة والتعليم يحثان الانسان على الاجتهاد واصلاح
حاله . فى هذا يؤكد الحقيقة ، مقتبسا المثل العام القائل : « قطرات الماء
المتواترة تشق الصخر » .

لا يكن اجتماعكم هذا باطلا ، فانى لا اكف عن التوسل اليكم بكل غير
تائلا لكم « تعالوا باختوكم الى هنا ارشدوا الضالين . علموهم بالعمل
لا بالكلام فقط ... » فانه يليق بكم وانتم خرجون من هذا الموضع ان تعلنوا
عنه انه موضع مقدس . تخرجون كآناش نازلين من السماء عيناها ، مملؤون
وقارا وحكمة ، ناطقين وعاملين كل شىء بلياقة .

عندما ترى الزوجة رجلها قادما من الاجتماع ، ويرى الأب ولده ،
والصديق صديقه ، وأنعدو عدوه ... يرون فيهم آثار البركات الحالة عليهم ،
يدركون انكم قد صرتم ودعاء وحكماء ومتزنين .

تأملوا اى امتيازات تنعمون بها فى الاسرار المقدسة ؟!

علموا الذين فى الخارج انكم فى صحبة السراغيم . علموهم انكم محصون
مع السمائيين ، معدون فى مصاف الملائكة ، تتحدثون مع الرب وتكونون فى
صحبة السيد المسيح ...

واذ يتطلعون الى جمال نفوسكم المتألثة تلتهب قلوبكم بمظهركم
الصالح ، مهما بلغ غباؤكم ، لانه ان كان جمال الجسد يغرى ناظره كم بالحرى
جمال النفس وتناسقها بهز ناظرها ويجذبها الى ذات الغير ؟ ! « .

٣ - الكنيسة سماء أرضية :

الكنيسة « هى أعلى من السماء وأكثر اتساعا من المسكونة (٩) » .
هى عودة الى الحياة الفردوسية الاولى ، بل واعظم منها اذ صارت كجنة
مغروسة فى جنب المسيح السماوى ترتوى من ينابيع دمه المحيى .

(٩) الكنيسة تحبك ص ٤٢ .

يقارن بين الحياة الكنسية الجديدة والحياة الفردوسية الأولى قائلا :

« لا أعود أذكر حواء الأولى علة السقوط ، انما أرى كنيسة قائمة !

لا انظر أوراقا تستر العرى بل ثمار الروح !

لا أجد أسوارا من الأشوك بل كرمة محصبة ! (١٠) »

مرة أخرى يتحدث على لسان السيد المسيح ، فيقول (١١) :

« لقد غرستك في الفردوس ، والشيطان طردك .

انظري ، ها أنا أغرسك في !

انى أسندك فلا يعود يقوى الشيطان على الاقتراب منك .

لا أرفعك الى السماء ، بل الى هنا حيث رب السماء .

أحملك في داخلي انا رب السماء .

يحملك الراعى فلا يقدر الذئب ان يقترب اليك ، أو بالحرى لا أسمح

أناله بذلك » .

الكنيسة . . . عرس سماوى :

في عظمه الثانية على أتروبياس ، وسط أحداث مثيرة وجو عاصف صاحب (١٢) ، استطاع القديس ذهبى الفم أن يرتفع بشعبه من الأحداث الزمنية القائمة الى العرس الالهى المفرح ، يكشف لهم عن الكنيسة وهى تسير على الأرض تنطلق من يوم الى يوم نحو العرس الأبدى . لقد كشف أن الكنيسة فى أصلها — قبل تمتعها بالخلاص — كانت متدنسة بالخطايا أو كما يلقبها « زانية » ارتبطت بعريس آخر غير الله ، فجاءها الكلمة الالهى متجسدا ليخطبها ، جاءها على الأرض متخفيا فى الناسوت حتى لا ترهبه وتهرب منه ، ودخل بها من حياتها الدنسة الى سمواته فى استحقاقات الدم لتحيا كملكة سمائية وعروس فريد ، مقدا لها روحه مهرا ، ومواهبه كتوب عرس لها وسمواته بيت الزوجية الروحية ، كاشفا لها دورها الايجابى فى هذا العرس .

فيما يلى مقتطفات من أقواله فى هذا الشأن :

(10) De poen PG 49 : 336 .

(١١) الكنيسة تحبك ص ٥٧ .

(١٢) الكنيسة تحبك ص ٧١ — ٧٥ .

زانية تصير عذراء (١٣) :

« دعيت الكنيسة عذراء ، هذه التى كانت قبلا زانية !

هذه هى المعجزة التى صنعها العريس : اخذها زانية ، وجعل منها عذراء !

يا له من أمر عجيب وجديد ! فنحن بالزواج نفقد بتوليتنا ، أما الله فبالزواج يعيد للكنيسة عذراويتها ! بالنسبة لنا من كانت عذراء بزواجها تفقد بتوليتها ، أما بالنسبة للسيد المسيح فبزواجه من النفس البشرية يجعل منها عذراء ، حتى وإن كانت قبلا زانية ...

عندما تسمع هذه الأمور ، لا تفهمها بصورة مادية ، بل خلق بفكرك عاليا . لا لتفهمها بصورة جسدية ... فان الكنيسة التى نعيشها روحية لا مادية . ففى مجال الجسديات تفهم هذه الأمور بفكر ضيق ، أما فى الروحيات فنفهمها على مستوى متسع !

كيف صارت ملكة وعروسا سماوية (١٤) ؟

كيف صارت ملكة هذه التى كانت عند موطئ القدمين وفقيرة ؟

الى أين صعدت ؟ لقد جلست بجوار الملك (١٥) فى الأعلى ، كيف تحقق ذلك ؟

صار الملك خادما ... رغب العظيم القوى فى الزانية ، فلم يرسل لها أحد خدامه : لم يرسل ملاكا ولا رئيس ملائكة ، ولا شارويا ولا ساروغا ، بل نزل بنفسه اليها . اقترب اليها ذاك الذى يحبها !

مرة اخرى أقول حين تسمع كلمة « يحبها » لا تنظر الى ذلك (بفكر جسدانى ضيق) ، بل اذكر ما تعنيه كلمة « الحب » ...

الله يرغب فى الزانية ، فماذا يفعل ؟ انه لا يقودها الى العلا وهى زانية ، فهو لا يريد أن يدخل بها الى السماء وهى على هذا الحال ، إنما نزل اليها . نزل الى الأرض ما دامت تعجز هى عن الصعود الى فوق . جاء الى الزانية ، ولم يخجل من أن يمسك بها وهى فى سكرها ...

(١٣) الكنيسة تحبك ص ٤٦ ، ٥٠ .

(١٤) الكنيسة تحبك ٥٠ - ٥٥ . (١٥) مر ٤٥ .

كيف جاء اليها ؟ لم يأت بجوهر طبيعته مجردا بل صار مثها ، لا بالنية بل بالفعل . صار مثها حتى لا ترتعب منه عند النظر اليه فتجري وتهرب . جاء الى الزانية وصار انسانا . . . لقد حبل به في الرحم ، ونمى قليلا قليلا مثلى من جهة النمو البشرى . . .

الله ظهر ، لكن اللاهوت لم يعلن ! جاء في شكل العبد لا السيد . له الجسد الذى لى ، اما جوهر طبيعته فلم يظهره . كان ينمو قليلا قليلا مقيما العلاقات مع البشرية . اقترب اليها مع انه وجدها زانية ومملوءة قرؤحا ومستوحشة وخاضعة للشياطين . . . واذا رآته يقترب اليها هربت ، فاستدعى الحكماء قائلا : لماذا تخافون منى ؟ انى لم ات ديانا بل كطبيب ، ما جئت لادين العالم بل لأخلصه (١٦) . . .

المعمودية كتهيئة للعرس (١٧) :

قد تقول : لكنى خاطئة ونجسة :

لا تضطربى ، فانى طبيب . انا أعرف الاناء الذى لى . أعرف كيف فسد فأعيد تشكيلك في جرن المعمودية ، مسلما اياك لعمل الغار (الروح القدس) .

تأمل ، لقد أخذ الله ترابا من الأرض ، وخلق الانسان وشكله ، فجاء الشيطان وأفسده . عندئذ جاء الرب وأخذه من جديد وعجنه ، وأعاد تشكيله في المعمودية ، فلم يعد بعد ترابا بل صار صلبا شديدا . خضع التراب للين لنار الروح القدس : «سيعمدكم بالروح القدس ونار (١٨)» . . . هكذا يتعمد الانسان فيعيد تشكيله بالماء ، وبالنار يتقوى ! . . .

مهر العروس (١٩) :

اذ أقام المسيح معنا عقدا عين لى مهرا ، لا من المال بل بالدم ، هذا المهر هو عربون الأمور الصالحة : « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان (٢٠) » . عين لى الأمور التالية مهرا : الخلود ، تسبيح الملائكة ، الخلاص من الموت ، التحرر من الخطية ، ميراث الملكوت العظيم ، البر ، التقديس ، الخلاص من الشرور الحاضرة ، اكتشاف البركات المقبلة .

-
- | | |
|-------------------|-------------------------------|
| (١٦) يو ٢ : ٤٧ . | (١٧) الكنيسة تحبك ص ٥٧ ، ٥٨ . |
| (١٨) مت ٣ : ١١ . | (١٩) الكنيسة تحبك ص ٦١ — ٦٦ . |
| (٢٠) ١ كو ٢ : ٩ . | |

عظيم هو مهري ! ...

جاء واخفى ، وعين لى المهر ، قائل لى : اعطيك غناى !

هل فقدت الفردوس ؟ ارده لك ...

ومع ذلك فهو لم يعطنى المهر كله هنا : لماذا ؟

لكى اعطيه لك عندما تدخل الوضع الملوخى .

هل أنت أتيت الى ؟ لا ، بل أنا الذى جئت اليك ... لا لكى تمكث

فى موضعك ، انما آخذك معى ، وارجع بك . فلا تطلب بنى المهر وانت
هنا فى هذه الحياة ، بل كن مملوءا رجاءا وايمانا !

أما تعطينى شيئا فى هذا العالم ؟

يجيب : اعطيك هنا الغيرة ، لكى تثق فى بخصوص الخيرات العتيدة .

اعطيك خاتم الخطبة وهدايا الخطبة ، لهذا يقول بولس « لأنى
خطبتكم (٢١) . هدايا الخطبة هى البركات الحاضرة التى تثير غينا الاشتياق
نحو البركات العتيدة . أما كمال المهر فنناله فى الحياة الأخرى .

كيف يكون ذلك ؟ ...

هنا اصير كهلا ، أما هناك فلن اشيخ !

هنا اموت ، أما هناك فلا موت !

هنا احزن ، أما هناك فلا احزن !

هنا يوجد فقر ومرض ومكئد ، أما هناك فلا وجود لشيء من هذا ...

هنا الحياة محدودة ، أما هناك فحياة بلا نهاية !

هنا توجد الخطية ، أما هناك فغير ! ...

هنا يوجد الحسد ، أما هناك فلا يوجد شيء من هذا !

قد يقول قائل : هب لى هذه الأمور ههنا . لا ، بل انتظر حتى يخلص

العبيد رفقاؤك . وأقول انتظر ذاك الذى يثبتنا ويعطينا عربون الروح ،

واى عربون هذا ؟ انه الروح القدس بمواهبه ...

(٢١) ٢ كو ١١ : ٢ .

لقد أعطى خاتم الخطبة للرسول قائلاً : خذوا هذا ، أعطوه للجميع ...
أخذ بطرس عربون الروح القدس ، وأيضاً بولس . حال بطرس في العائمه
يفغر الخطايا ويشفى المقعدين ويكسى العراة ويقيم الموتى ويطهر البرصى
ويخرج شياطين ويتحدث مع الله ويعمل فى الكنيسة ويزيل معابد ويهدم
مذابح ويبعد رذائل ويقيم من البشر ملائكة ! ... فملأ الروح العالم كله .
وأيضاً انطلق بولس الى هنا وهناك كطائر ذى اجنحة ، وبفم واحد
حارب العدو وحمل خاتم الخطبة .

رأى انبش الله يخطب طبيعتنا . رأى الشيطان ذلك فتقهقر . رأى
العربون فرتعب منسحباً . رأى ثياب الرسل فهرب (٢٢) . يا لقوة الروح
القدس ! ...

تأمل : ماذا فعل الروح ؟ لقد وجد الأرض ملوثة شياطين فجعل
منها سماء ...

ثوب العرس (٢٣) :

يقول النبى : « قامت الملكة من يمينك بثوب موشى بالذهب (٢٤) » .
لا يقصد هنا ثوبا حقيقيا بل الفضيلة ، اذ يقول الكتاب المقدس فى موضع
آخر للذى حضر الوليمة فى غير لباس العرس : « لماذا أتيت الى هنا
لا يقصد عدم ارتدائه ثوب معين ، انما يقصد حياته الملوثة نجاسة .
وكما يشير الثوب الموشى بالذهب الى الفضيلة . هذا الثوب الخاص
بالمالك قد وهبه لها ، اذ كانت قبلا عارية وقبيحة ...

انظر الى التعبير : « ثوب موشى بالذهب » ، فانه لم يقل « ثوب
ذهبى » بل « موشى بالذهب » ...

الثوب الذهبى يكون بكامله ذهبيا ، اما الموشى (المنسوج) بالذهب
فان جزءا منه ذهبى والآخر حريرى ... بهذا يشير الى التنوع فى الكنيسة
فمنها من هو بتول ، والبعض ارامل ، وآخرون مكرسون ...

ربنسا يعلم انه لو رسم لنا طريقا واحدا فقط لضل الكثيرون ،
لهذا رسم طرقا كثيرة .

انت لا تقدر ان تدخل الملكوت عن طريق البتولية ، ادخل اليه بزواج
واحد ، وربما بزواج ثان (بعد وفاة الزوجة الاولى) ...

(٢٢) ١٩ : ١١ .

(٢٣) الكنيسة تحبك ص ٦٨ — ٧٠ .

(٢٤) مز ٤٥ .

أنت لا تقدر أن تدخل الملكوت عن طريق الزهد ، اشفق على الآخرين
مقدما عطاءا أو قدم صياما ...

ان لم تكن ذهباً ، فكن حريراً ، غانى اقبلك ما دمت منسوجاً في ثوبى .
هكذا يقول بولس « ان كان أحد يبني على هذا الأساس ذهباً ، فضة ،
حجارة كريمة ... (٢٥) » .

وفي موضع آخر يقول « مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ، ومجد النجوم
آخر (٢٦) » . أنت لا تقدر أن تكون شهسا كن قهراً ، وألا فكن نجماً ...
اقبل أن تكون أصغر شيء ، انما يلزمك أن تكون في السماء ! ...

بيت الزوجية (٢٧) :

« اتنى اعدك بالملكوت ... نعم لقد وهبتك النصيب الأعظم . اعطيتك
حتى رب الملكوت . » لأن الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين
كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء ؟ ! (٢٨) » .

بور العروس :

بماذا اقدر أن أساهم ؟ اخبرنى .
ساهمى بارادتك وإيمانك .
ماذا تريدان أن افعل ؟
« انسى شعبك (٢٩) » ...
واى نوع هو هذا الشعب ؟
الشياطين وعبادة الأوثان ودخان الذبائح والدم ...
اتركى أباك وتعالى أتبعينى ... غائنى كمن ترك أباه وجاء اليك ؟
أغلا تتركى أباك ؟ !

+ + +

(٢٥) ١ كو ٣ : ١٢ . (٢٦) ١ كو ١٥ : ٤١ .
(٢٧) الكنيسة تحبك ص ٧٥ . (٢٨) رو ٨ : ٣٢ .
(٢٩) الكنيسة تحبك ص ٧٥ ، ٧٦ .

العبادة الكنسية

مفهوم العبادة الكنسية :

لا اقصد بالعبادة الكنسية مجرد الممارسات التى تتم داخل المبنى الكنسى بل كل تعبد يمارسه المؤمن كعضو فى الكنيسة ويتم بالروح الكنسى ، سواء داخل المبنى او فى مخدعه .

العبادة عند القديس ذهبي الفم لا تستطيع الكنيسة أن تمارسها الا من خلال مسيحها ، اذ هو كاهن الكنيسة والذبيحة . « صار المسيح كاهنا بروحه ، وذبيحة بجسده . يخدم طقس الذبيحة التى هى جسده (١) » . خلاله تقدم الكنيسة كل عبادتها من تسابيح وأصوام وتقشفات وصدقات وتداريب روحية ... الخ .

منهجه التعبدى :

١ — العبادة المسيحية او الكنسية ليست نوعا من التجارة ، يساوم المتعبد الله فى المكوت الذى وعد به السيد المسيح (٢) ، كلها نوع من الحب ، يربط الانسان بالآب فى شخص ابنه يسوع المسيح ، لا يمارسها المؤمن خوفا من عقاب ولا ابتغاء مكافأة .

فى هذا يقول القديس ذهبي الفم : « القديسون لا يحبون الله من أجل خيراته ، انما يحبون الخيرات من أجل الله (٣) . « الا تعلم أن مكافأتك تكون اعظم وأجمل ان تمت عبادتك دون انتظار للمكافأة ؟ ! (٤) » .

هذا ما يرجوه القديس فى كل مؤمن ، لكن من أجل الضعف يحفز المؤمنين على العبادة من أجل المكافأة ، وحيثما يضطر الى التهديد بالنار الأبدية .

(1) De Curce. PG 49 : 400 .

(2) Moulard : St. Jean Chrysostome, ch 6 .

(3) In 2 Thes. PG 62 : 476 .

(4) De Compunctione PG 47 : 420 .

٢ — العبادة وهى سر اتحادنا بالرأس « يسوع المسيح » السماوى ،
إذا يليق بها أن تحمل السمة الاسخاتولوجية (الأخروية) .

« لنعجب الى أين رفع الكنيسة ؟ لقد رفعها كما بوسيلة تغنيه
وأقامها فى الأعالي وأجلسها على عرش سام ، لأنه حيث يكون الرأس هناك
يوجد الجسد أيضا . لا يوجد فاصل بينهما ، والا فلا يعود الجسد جسدا
ولا الرأس رأسا (٥) .

« فى استطاعتنا — ان أردنا — الا نكون فى الجسد ، ولا على الأرض
بل نكون فى الروح ، فى السماء !

لندخل الى نفوسنا . . . الى السماء ، فى الروح !

لنمكث فى سلام الله ونعمته ، ولنتحرر من الجسديات ، فننعم بالصالحات
فى المسيح ربنا (٦) .

العبادة عنده هى دخول الى الحياة السماوية ، شركة مع
السماويين والامثال بهم ، ففى تعليقه على قول الرسول بولس « لتدبر ملء
الأزمنة ليجمع كل شيء فى المسيح ما فى السموات وما على الأرض (٧) »
يقول : « أقام الله رأسا واحدا للملائكة والناس . بتجسده جمع البشر
أعضاء فيه ، ويكونه كلمة الله جمع الملائكة خلال هذا الرأس الواحد . . .
اذن لنمثل بحياة الملائكة وفضائلهم ونهتدى بهم (٨) » .

أما قمة هذه العبادة السماوية فهى الشركة فى المائدة السماوية ، أى
ليتورجيا الافخارستيا ، اذ يقول : « انه يدعونا للسماء ، يدعونا الى مائدة
الملك العظيم والعجيب ، فهل نتردد بدلا من أن نسرع اليها ونجرى نحوها ؟!
أى عذر لنا ؟ فائتا لا نقدر أن نلوم ضعفنا ولا نشتكى طبيعتنا ، بل بالحرى
اهمالنا وحده هو سر عدم استحقاقنا (٩) » .

٣ — واجه القديس خطرين متناقضين يهددان « العبادة الكنسية » .
الخطر الأول هو الفكر اليهودى المتزمت ، وهو فكر حرقى مادي متطرف
يندفع بالانسان فى عبادته نحو الأرضيات ويحبس نفسه عن الانطلاق نحو
السماويات . والثانى على نقيضه ، الفكر الغنوسى الذى يحتقر المادة والأرض
وينعازى الجسد كعنصر ليس من عمل الله . لذا بقدر ما كان القديس حريصا
فى إبراز الجانب السماوى من العبادة السماوية اهتم أيضا بإبراز الواقع

(5) In Eph., hom 3 .

(6) Ibid, hom 5 .

(8) In Eph, hom 1 .

(٧) أف ١ : ١٠ .
(9) In Eph., hom 3 .

العملى لوجودنا على الأرض وعبادتنا خلال الجسد المقدس فى الرب .
فى هذا يقول : « أرنى نفسا بغير جسد ! أما تسمع الأطباء يقولون :
هذا المرض الجسدى بسبب اضطرابات نفسية ؟ ! » (١٠) .
« لنتعبد هكذا : نأتى الى ملكنا ونسجد له لا بالجسد وحده بل وبالعقل
ايضا (١١) » .

٤ — ربط العبادة بالكرازة ، بكونهما يمثلان حياة واحدة غير منقسمة .
فى حديث الكاهن يوحنا ذهبى النعم مع شعبه عن ضرورة مساندتهم
لبطيريركهم غلافيان فى عمله الكرازى سألهم أن يعينوه بعبادتهم الصادقة ،
قائلا : « تقدر جماعة الكنيسة أن تعمل الكثير ان كنا نقدم صلواتنا بنفس
حزينة وروح منسحق (١٢) » .

٥ — ان كان القديس قد فتح الكنيسة على مصراعيها أمام الجميع
لسماع كلمة الله والوعظ ، لكنه آمن بالأبواب المغلقة أثناء العبادة خاصة
عند ممارسة المقدسات الالهية ، حتى تقدر الكنيسة ان ترفع أيدى طاهرة
ومقدسة فى المسيح يسوع بواسطة روجه القدوس .

« لسنا نفعل هذا عن ضعف يلحق بطقوسنا ، انما لعدم استحقاق
الكثيرين بالكمال لممارستها (١٣) » .

« خير لنا ان نقدم صلواتنا التى اعتدناها باثنين أو ثلاثة يحفظون
نواميس الله عن ان نندفع معا كجموع كثيرة من العصاة ومفسدى
الآخرين (١٤) » .

ويحدث الشماس قائلا : « ان اقترب احد بغير استحقاق امنعه حتى
وان كان قائدا أو حاكما ، لا حتى وان كان متوجا بالأكليل الامبراطورى ،
فانك تحمل سلطانا (روحيا) أعظم منه . . . احذر لئلا تغضب الرب وتثيره
ضدك . . . فانه ان اقترب يهوذا جديد امنعه . خف الله لا الانسان ، فانك
ان خشيت الانسان يحتقرك الله ، وان خشيت الله يكرمك الناس (١٥) » .

٦ — ربط القديس بين العبادة والكنيسة والجهاد الروحى ، فيقول :
« ان كنت تشترك فى التسييح بمزمورين أو ثلاثة مزامير وتتم الصلوات

(10) In Act. PG 60 : 32 .

In Mat., hom 51 .

(12) Conc. Statues, hom 3 : 1 .

(13) In Mat., hom 23 : 3 .

(14) Ibid 19 : 9 .

(15) Ibid hom 82 .

المعتادة كيفما كان الحال ثم تنصرف ، فهل تظن أن هذا يكفي لخلاصك ؟! لم تسمع مايقوله النبی: هذا الشعب يكرمني يشفتيه أما قلبه فمبتعد عني (١٦) .

يظهر ذلك بأكثر وضوح حينما تحدث القديس عن مساندة الكنيسة لعدوها « أثروبيوس » . . . قائلا « هذا هو زينة المذبح (١٧) » . اذ تقبل الكنيسة أعداءها وتحمي مقاوميه وتعلن حبها له . . . صار هذا العمل في اتحادها بالعبادة زينة المذبح .

وفي وصفه لكنيسة الرسل ربط القديس بين العبادة السماوية والجهاد الروحي أو الحياة الفاضلة ، قائلا : « لم تسمع أن الرجال والنساء كانوا مجتمعين في العلية ، وكان الكل مستحقا للسموات ؟! . . . لأن النساء كن يمارسن انكار الذات بشدة ، وكان الرجال وقورين وأطهارا (١٨) » .

شفاعة القديسين وصلواتهم عنا :

ما دمنا نتحدث عن العبادة الكنسية لا نستطيع أن نتجاهل طلب صلوات القديسين معنا وعنا ، فقد اعتاد القديس يوحنا أن يقيم احتفالات اسبوعية يذكر فيها أعمال الشهداء والقديسين ، ويطلب صلواتهم . ومن عاداته الجميلة أنه كثيرا ما كان يلجأ الى مدافن الشهداء في ريف أنطاكية يستمد بركتهم ويطلب صلواتهم ويتعلم منهم دروس في الامانة والشجاعة والهدوء ، اذ يقول : « كثيرا ما كنت أتوجه الى كنائسهم ليس فقط في أيام الاجتماعات ، بل في غيرها لكي أنعم بهدوء عميق ، وترتفع نفسي للسكنى مع هؤلاء الراحلين الطوباويين ، وأحلم بالسعادة التي يتمتعون بها (١٩) » .

وفي نهاية مقاله التذكاري عن القديسين Prosdoce, Bernice يحث سامعيه أن يسألوا صلواتهما ليس فقط في تذكارات استشهادهما بل وفي كل وقت ، قائلا « اذ لهما الدالة لدى الله ليس خلال حياتهما على الارض بل وبعد موتهما . . . نعم تكون دالتهما أكثر بعد الموت ، اذ يحملان جراحات المسيح (٢٠) : ، بهذا يطلبان من الملك ما يريدان » .

روى لنا أيضا أنه في إحدى السنوات اذ كان المحصول في خطر

. 9 : 11 Ibid (16)

(١٧) الكنيسة تحبك ص ٢١ .

. 3 : 73 In Mat. hom (18)

. 685 : 50 PG (19) Moulard : St. Jean Chrysostome.

(٢٠) آثار الجراحات .

بسبب تزايد المطر ، اجتمع كل شعب القسطنطينية في كنيسة الرسل يطلبون شفاعة الرسل القديسين بطرس واندراوس وبولس وتيموثاوس الخ . . .

مرة أخرى اذ يقارن بين مقابر القديسين وقصور الملك والأباطرة يقول : « مقابر خدام المسيح مجيدة ، اذ ملكوا المدينة الملوكية العظيمة ، وصارت أيامهم مشهورة ، صارت أياما للعالم ! . . . »

مقابر خدام المصلوب أروع من قصور الملوك . لست أقول من جهة فخامة المباني وجمالها ، إنما بالحرى أتحدث عن غير المترددين عليها . فإنه حتى ذلك الذى يرتدى الأرجوان يذهب بنفسه ليقبل هذه المقابر . يلقي كبريائه ويستجدي شفاعة القديسين عنه أمام الله . الذى يلبس التاج يتوسل الى صانع الخيام والصيد (٢١) اللذين ماتا ليكونا نصيريه ! (٢٢) .

والقديس يوحنا كرجل كنسى واع خشى أن يفهم عامة الشعب صلوات القديسين تواكلا وتراخيا في الجهاد الروحي ، لهذا نجده يؤكد : « ما أعظم بركات صلوات القديسين ان كنا نحن ايضا نعمل (٢٣) ! » . « حقا ان صلوات القديسين لها قوتها العظيمة بشرط توبتنا واصلاح حياتنا » .

« ان كنا مهملين لا نستطيع أن ننال خلاصا حتى ولا بمساعدة الآخرين . وعلى العكس فاننا ان كنا ساهرين متيقظين نقدر أن نفعل ذلك بأنفسنا . . . لست أقول هذا لأئني طلبات القديسين وإنما لكى أوقف اهمالكم واكتفائكم بالثقة في الآخرين وانتم مطروحون على ظهوركم نائمين (٢٤) » .

« حسنا ، اننا ننتفع بصلوات القديسين ان كنا نحن أنفسنا متيقظين . قد تقول : وما حاجتى الى صلوات القديسين ما دمت أنا نفسى متيقظ ؟

ان كنا نفكر تفكيرا صادقا ندرك اننا في حاجة اليها على الدوام ، فبولس لم يقل : ما حاجتى الى صلوات (الآخرين) مع ان الذين كانوا يصلون عنه كانوا غير مستحقين للصلاة عنه ولا هم على قدم المساواة معه ، وانت تقول : ما حاجتى الى الصلاة ؟ ! . . . »

(٢١) الرسولان بولس وبطرس .

(22) In 2 Cor., hom 26 : 5 .

(23) In 2 Thes., hom 5 .

(24) In Mat., hom 1 : 7 , 8 .

انك محتاج بالأكثر الى الصلوات بسبب شعورك بعدم احتياجك اليها .
نعم فانك وان صرت كبولس فأنت محتاج اليها لا تستكبر لئلا تسقط .
اتريد أن تعرف فائدة الصلوات ؟ ...

اسمع يعقوب وهو يقول للأبن : « لولا أن اله أبى كان معى لكنت الآن
صرت فارغا (٢٥) » .

اسمع أيضا ما يقوله الله : « أحمى عن هذه المدينة لأخلصها ، من أجل
داود عبدي (٢٦) » . متى قال هذا ؟ فى أيام حزقيال الذى كان بارا . فلو أن
الصلوات تفيد الأشرار المتمسكون بشرهم فلماذا لم يقتل هذا أيام نبوخذ نصر
بل اسلم المدينة ؟ لأن الشر قد غلب ...

لكى تعرف هذا اسمع ما يقوله الله بالنبي : « ان وقف نوح ودانيال
وايوب لا يخلص أولادهم ولا بناتهم (٢٧) » ، لأن الشر قد غلب . مرة أخرى
يقول : « وان وقف موسى وصموئيل ... (٢٨) » . انه يتحدث عن نبيين قد
سبق فصليا عن الشعب ولم يغلبا ...

اذن يليق بنا الا نحترق صلوات القديسين ، كما لا تلقى كل شئ
عليهم . فمن ناحية لا نعيش متكاسلين ومهملين ، ومن الناحية الأخرى
لا نحرم أنفسنا من نفع عظيم .

يليق بنا أن نطلب منهم الصلاة ، رافعين أيديهم من أجلنا ، وفى نفس
الوقت نلتصق نحن بالفضيلة (٢٩) » .

بركات القديسين :

لا يتحدث القديس عن قوة صلوات القديسين فحسب ، وانما يشير
اليهم بركة ممتدة فى حياتهم وفى كل ما تمتد اليه أيديهم حتى ثيابهم تتبارك
بهم . ففى حديثه عن ثوب ايليا الذى شق نهر الأردن يقول :

« اسمع ... فان البار أكثر شجاعة من الأسد ! هكذا كان ايليا ،
فقد وقف أمام الملك كالأسد ... مع أن الملك كان يرتدى أرجوانا والآخر
يلبس ثوبا من جلد الماعز ، لكن أى الثوبين كان أكثر قوة ؟ . جلب الأرجوان
مجاعة خطيرة ، أما ثوب جلد الماعز فعالج الكارثة . شق الثوب الأردن
وجعل فى الإشع روحين من ايليا .

(٢٦) ٢ مل ١٩ : ٣٤ .

(٢٥) تك ٣١ : ٤٢ .

(٢٨) أر ١٥ : ١ .

(٢٧) حز ١٤ : ١٤ ، ١٦ .

(29) In 1 Thes., hom 1 .

يا لعظم فضيلة القديسين ! ليس تقط في كلماتهم أو أجسادهم بل حتى في ثيابهم ؛ غالبا ما تحمل كرامة عظيمة بواسطة الخليقة كلها !

ثوب جلد الماعز الذي لايليا شق نهر الاردن .

نعال الثلاث فتية وطأت النيران .

كلمة اليشع غيرت المياه فجعلتها تحمل الحديد فوق السطح .

عصا موسى شقت البحر الأحمر وصدعت الصخرة .

نياب بولس أخرجت شياطين .

ظل بطرس نزع حروب .

رغبات الشهداء القديسين تطرد الشياطين (٣٠) .

المريميات :

ما دمنا نتحدث عن القديسين وقوة صلواتهم عنا وبركتهم يليق بنا ان نشير الى «المريميات Mariology» لدى القديس يوحنا ذهبي الفم ، والذي تتلخص نظريته في النقاط التالية :

١ — القديس يوحنا ذهبي كراعي وكارز اكثر منه لاهوتي لم يرد ان يدخل في مناقشات ومجادلات لاهوتية (٣١) ، فلم يذكر قط لقب « ثيوتوكوس Theotokos » الذي تبنته مدرسة الاسكندرية وعارضته انطاكية في ذلك الحين ، بل ولم يذكر لقب والدة المسيح « خريستوتوكوس Christotokos » الذي اعتاده الانطاكيون ، Anthropotokos الذي استخدمه معلمه ديودور الطرسوسي .

٢ — علم بوضوح من دوام بتولية القديسة مريم ، اذ يقول : « نحن نجهل الكثير ؛ كيف يوجد غير المحدود ، في رحم ، كيف يحمل ذاك الذي يحمل كل شيء وتلده امرأة ، كيف تلد البتول وتبقى بتولا ؟ ! (٣٢) .

وفي تفسيره انجيل القديس متى دافع عن بتوليتها عند تفسيره العبارة : « لم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر » ذكرا بعض العبارات الكتابية جاءت

(30) Conc. Statues, hom 8 : 3 (See hom 1 : 5) .

(31) Quasten : Patrology, vol 3, P 476 — 7 .

(32) In Mat. 4 : 3. PG 57 : 43 .

Quasten : Patrology, vol 3, P 99 .

فيها كلمة « حتى » بطريقة لا تعنى المحدودية (٣٣) ، نذكر على سبيل المثال. « وأرسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض (٣٤) ، غان كلمة « حتى » لا تعنى أن لغراب عاد بعد أن نشفت المياه وجفت الأرض وأيضا « قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى اضع أعدائك موطئا لقدميك (٣٥) » ، لا يعنى أن الجلوس عن يمين الآب ينتهى بوضع الأعداء موطئا لقدميه ، وأيضا « يشرق في أيامه الصديق وكثرة السلام حتى يزهل الثمر » (٣٦) لا يغى عدم اشراق الصديق أو نزع السلام بعد اضمحلال الثمر. كما دلت القديس على بتوليبتها وعدم انجابها أولادا آخرين من تسليم السيد لها في أيدي القديس يوحنا الحبيب حين كان معلقا على الصليب . غلو كان لها أولاد لما سلمها له .

٣ — اذ يصعب على البشرية قبول الولادة من العذراء ، لهذا لم يترك الله البشرية تتخبط ، انما هيا الأذهان لهذا العمل الفريد بتقديم بعض أعمال رمزية تعين البشرية في قبول هذا لحدث (٣٧) :

(١) اخراج الله فردوسا من أرض عدن البكر كرمز لعذراوية القديسة مريم (٣٨) .

(ب) سماح الله لبعض النساء العاقرات أن ينجبن مثل سارة ورفقة راحيل وحنة أم صموئيل . هؤلاء كن يعلن قدرة الله كنهية لعمل أعظم ، اذ يقول : « انجاب العاقر الصبايات يقع في منتصف الطريق بين ولادتنا نحن وولادة السيد . غهى ولادة أقل من ولادة السيد من العذراء : لكنها أسمى من ميلادنا نحن حسب الطبيعة . بهذا الطريق عاد فكر المصنفين من الولادة الطبيعية الى ما يتعداها (٣٩) .

{ — هل عرفت السيدة العذراء أسرار المسيح .

يجيب القديس : « العذراء التي كانت تحمل المسيح على صدرها لم تكن تعرف خبايا السر . أخوته لم يؤمنوا به ، والذي تبناه لم يقدر قيمته (كما هي) (٤٠) » ، لكنه عاد ليقول « لأن الوسيلة التي جبل بها والنظروف التي أحاطت بولادته قدمت لها فكرة غالية بخصوصه (٤١) » .

٥ — كتاباته عن لسيدة العذراء لا تقبل مطلقا فكرة « الجبل بها

(33) In Mat. 5 : 5 .

(٣٤) تك ٥ : ٧ (٣٥) مز ١١٠ : ٢ . (٣٦) مز ٧٢ : ٧

(37) Moulard : St. Jean Chrysostome, P 109.

(38) De Mut. Nom. PG 51 : 129 (39) Pec fratr. PG 51 : 361 .

(40) In Ps. PB 55 : 242 . (41) In Jean. PG 59 : 130 .

بلا دنس » ، بل بالعكس ، بالرغم من احساسه بقداستها ونقاونها تحدث عن حاجتها للخلاص والتعلم من السيد المسيح ، بل وأحيانا ليست لها بعض الضعفات ، وكما سبق أن أشرنا في كتابنا « القديسة مريم في المفهوم الأرثوذكسي » انه مع بعض الآباء مثل القديس ايريناؤس وأوريجينوس نسب لها بعض الأخطاء ، وأن هذا الرأي لا يمثل تقليد الكنيسة الأولى في المريميات (٤٢) ...

أما الضعفات التي نسيها للقديسة فهي :

(أ) تسأل : لماذا لم يبشر يوسف قبل أن تبشر العذراء بالحبل بالسيد المسيح ؟ وجاءت الاجابة انه ربما خشي من أن تأخير البشارة يجعلها تشعر بالحمل فتخاف وتتصرف مع نفسها تصرفا خاطئا (٤٣) .

(ب) مرة أخرى لماذا تحدث السيد مع القديسة مريم بجفاء في عرس قانا الجليل ، قائلا لها (٤٤) : « مالى ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتى بعد؟! » ، ويجيب « لأنها كانت تطلب أمرا مظهريا (٤٥) » ... كما يعلق على هذه العبارة ، قائلا « هذا هو سبب انتهاره لها في هذه المناسبة : انه يعلمها ألا تفعل هذا الأمر مستقبلا ، فقد كان حريصا أن يكرم أمه ، لكنه كان يهتم بخلاص نفسها وصنع الخير للكثيرين الذين من أجلهم أخذ جسدا . هذه كلمات تصدر لا عن يحتقر أمه ، بل عن من يتصرف بحكمة (٤٦) » .

(ج) في تعليقه على قول السيد : « بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه » ردا على قول المرأة : « طوبى للبطن الذى حملك والثدين اللذين رضعتها (٤٧) » ... قال (٤٨) « لم يكن جوابه هذا تحقيرا لأمه ، وإنما أراد أن يظهر أنها ما كانت تستفيد من ولادته له لو لم تكن هى انسانة صالحة مؤمنة . فلو استبعدنا سمو نفسها لما استفادت مريم من ولادتها للمسيح ... » .

(د) يقول أيضا : « اكى نؤكد احترامه لأمه احتراما عظيما اسمع ما يرويه لوقا انه كان « خاضعا » لأبويه (٤٩) ، كما يعلن الانجيلي (يوحنا) انه كان يفكر فيها في نفس لحظات الصلب ... »

(42) Fr. Malaty : St. Mary in the Orthodox Concept, P 56 .

(43) In Mat. PG 57 : 45 .

(٤٤) يو ٢ : ٤ .

(45) De Melchisedecho PG 56 : 260 .

(46) In Jean, hom 21 : 3 .

(٤٧) لو ١١ : ٢٧ ، ٢٤ .

(48) In Jean, hom 21 : 3 .

(٤٩) لو ٢ : ٥١ .

أما قوله : « من هي أمي ومن هم اخوتي (٥٠) » ، فذلك لأنهم لم يفكروا
فيه كما يليق . اذ هي ولدته واعتنت به فانها كعادة الأمهات الأخريات
ارادت توجيهه في كل شيء في الوقت الذي كان يلزمها ان تكرمه وتتعبده ...

انه لم يرد بذلك اهانة من حملت به ، حاشا لنا ان نفكر هذا !
انما اراد ان يقودها الى منافع عظيمة فلا تفكر فيه فكرا عاديا . ان كان هو
يهتم بالآخرين ويستخدم كل وسيلة لكي تزرع فيهم افكارا تليق به كم بالأكثر
يفعل هذا مع امه ؟ ! (٥١) .

أخيرا ، فان القديس قد أدرك أهمية دور القديسة مريم في حياة الكنيسة
ويعلن بتوليبتها وقداستها ، فمن أقواله (٥٢) : « قديما بعذراء اهلك الشيطان
آدم ، أما فيما بعد فبعذراء غلب السيد المسيح الشيطان » .

+ + +

(٥٠) متى ١٢ : ٤٨ .

(51) In Jean, hom 21 : 2 .

(52) De S. Dross. PG 50 : 687 .

الأسرار الكنسية

جاء حديث القديس يوحنا ذهبي الفم عن الأسرار الكنسية متغلغلا في أغلب عظاته وتفسيره وكتاباتاته وكأنها شرايين الحياة المسيحية ، وكأن جزءا من عمله الرعوى أن يعين شعبه على اكتشاف هذه العطايا المجانية بروح تقوى عملى . أنه بين الحين والآخر يكشف لأولاده عن عمل المعمودية كسر الوحدة بين المؤمنين والسيد المسيح وبينه وبين اخوته فى المسيح يسوع . كما يوضح قوة الأفخارستيا كدعامة أصيلة لحفظ هذه الوحدة وتثبيتها . الخ .

ركز القديس فى حديثه عن الأسرار الكنسية على جانبين هامين :

١ — الأسرار الكنسية هى عطية الله لشعبه ، لا تعطى كثرة لفضيلة الكاهن خادم السر ، بل هى نعمة مجانية يمنحها الله لمؤمنيه فى استحقاقات الصليب .

الكاهن يفتح فيه ، لكن الله هو الذى يقوم بالعمل ، الذى قدس التقديم الأولى (السيد المسيح) هو الذى يتم كل الأسرار ، وليس البشر (١) .

« عندما يعمد الكاهن ، ليس هو الذى يعمد ، بل الله نفسه يمسك برأس المعمد . بقوة غير المنظورة (٢) .

« تأخذ مياه المعمودية ماعليتها خلال قوة الروح (٣) .

٢ — الأسرار وهى تحمل قوة فى ذاتها لكنها لا تعمل فىنا بدون جهادنا ، بل يعتبر دينونة علينا .

ففى حديثه عن المعمودية مع الموعوظين يقول : « بقدر الجرن أن يغفر الخطايا السابقة ، لكننا ان عدنا اليها ثانية لا يكون الخطر بسيطا ، بل يتحول العلاج الى جراحات (٤) » . وفى حديثه عنها مع المؤمنين يقول : « اننا محتاجون الى غيرة عظيمة لنحفظ النبوة التى طبعت علينا بالمعمودية (٥) » .

(1) In 2 Tim, hom 2 : 4 .

(2) In Mat. 50 : 3, Act. FG 58 : 507 , 60 : 116 .

(3) In Act. hom 1 : 5 .

(4) Instr. to Catech., 2.

(5) In Joan, hom 10 .

وفى حديثه عن سر الأغفارستيا يربط الشركة فيه بالجهاد التقوى ومحبة الآخرين خاصة الفقراء ، فيقول : « اتريد ان تكرم جسد المسيح ؟ لا تهمله متى كان جائعا . . . بينما تقدم له (على المذبح) ثيابا حريرية تتركه فى الخارج يهلك برذا وجوعا . الذى قال (هذا هو جسدى) اكد بالحقيقة أنه هو بنفسه يقول أيضا (٦) وكنت جائعا فلم تطعمونى . . . ما فعلتموه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى قد فعلتم ؟ . اتصنع له كأسا ذهبيا وأنت لا تقدم له كأس ماء بارد ؟ ! (٧) » .

اذ سبق أن اشرت الى حديثه عن سر الكهنوت أثناء الحديث عن منهجه الكرازى الرعوى الكهنوتى اكتفى الآن بالحديث عن سرى العماد والأغفارستيا كمثمين عن الأسرار الكنسية .



(٦) مت ٢٥ : ٤٢ - ١٥ .

(٧) In Mat., hom 32 : 9 .

سر المعمودية

أن كانت المسيحية هي دخول الى الحياة الانجيلية العملية ، فإنه ليس من دخول الى هذه الحياة بدون التوبة ، اذ لا يستطيع المؤمن أن يمارس هذه الحياة لفاضلة بنفسه دون عون الهى .

« من يريد أن يقتنى اثر الفضيلة يلزمه أولا أن يدين الشر ، بعد ذلك يسلك فى الفضيلة . . . »

التوبة وحدها لا تقدر أن تنقى من الرذيلة ، لذا يعتمد المؤمنون حتى يستطيعوا بنعمة المسيح أن يحققوا الأمور التى يعجزون عن تنفيذها بأنفسهم .

لا تكفى التوبة للتطهير ، لذا يقبل المؤمنون على المعمودية (١) .

يا لقوة المعمودية !

« يسمع الغير عن العماد فيحسبونه مجرد ماء ، أما أنا فلا أرى مجرد المادة المنظورة ، بل أرى تنقية النفس بالروح !

هم يحسبونه غسلا للجسد ، أما أنا فأؤمن أن النفس تتنقى وتتقدس ؛ أنى احسبه القبر المقدس ، القيامة ، القديس ، البر ، الخلاص ، التبني ، الميراث ، الملكوت السماوى ، تدفق كامل للروح .

لست أحكم على هذه الأمور حسب الظاهر بل حسبما تراه عينى عقلى (٢) :

« ليس للعماد اسم واحد ، بل يحمل عدة أسماء متباينة :

من أجل التطهير يدعى « جرن التجديد » ، اذ يقول : « خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس (٣) » .

ويدعى أيضا « استنارة » . هكذا دعاه القديس بولس قائلا : « لكن تذكروا الايام السالفة التى فيها بعد ما انرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة (٤) » . . .

(1) In Hebr., hom 9 : 4 .

(2) In 1 Cor., hom 7 : 2 .

(٤) عب ١٠ : ٣٢ .

(٣) ٣ : ٥ .

يدعى أيضا « معمودية » ، « لان كثيرين الذين اعتنتم بالمسيح قد
نُبستم المسيح (٥) » .

يدعى « دفنا » ، اذ يقول : « دفنا معه بالمعمودية للموت (٦) » .

يدعى « صليباً » اذ ان انساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد
الخطية (٧) .

وهكذا يمكننا ان نورد أسماء أخرى غير هذه ... (٨) » .

« خلال المعمودية تقبلنا غفران الخطايا والتقديس وشركة الروح
والتبني والحياة الأبدية ، فماذا تطلبون بعد ؟ ! (٩) » .

« عظيم هو العماد ، بدونه يستحيل بلوغ المنكوت (١٠) » .

سر الميلاد الجديد (١١) :

الروح القدس الذى كان يرف على وجه المياه يذاق ، ينزل على
المعمودية ويرف عليها ، يعيد خلقتنا روحياً ... هذا هو سر المعمودية
الذى فيه تنزع من الزيتون البرية ونطعم فى المسيح يسوع فنصير زيتونة
جديدة (١٢) بفعل الروح القدس ...

فى هذا السر نفال الميلاد الجديد حيث ننعم بالبنوة للآب (١٣) ، فنصير
ابناء الملكوت ، لنا حق الميراث الأبدى كقول السيد نفسه لنيقوديموس :
« الحق الحق اقول لك ان كان أحد لا يولد من فوق فلا يقدر ان يعاين ملكوت
الله ... الحق الحق اقول ان لم يولد الانسان من الماء والروح فلا يقدر ان
يعاين ملكوت الله . المولود من الجسد جسد هو . والمولود من الروح
هو روح (١٤) » .

أما أقوال القديس فى هذا الشأن ، فهى :

« ليس بأم وأب ، ليس باجتماع بشر ، ولا بآلام المخاض نولد ثانية ،
ولكن من الروح القدس تصنع انسجة طبيعتنا الجديدة ، وفى الماء نشكل ، ومن
الماء نولد سراً كما من الرحم ... »

-
- | | |
|---|--------------------------------|
| (٥) غلا ٣ : ٢٧ . | (٦) رو ٦ : ٤ . |
| (٧) رو ٦ : ٦ . | (8) Instr. to Catechumens, 1 . |
| (10) In 1 Cor., hom 3 : 6 . | (9) In Act, hom 40 . |
| (١١) راجع للمؤلف : الحب الإلهى ك ٧ « الله مقدس » ص ٤٥ . | |
| (١٢) رو ١١ : ٢٤ . | (١٣) رو ٨ : ١٥ . |
| (١٤) يو ٣ : ٣ - ٦ . | |

الرجم يحتاج الى زمن كثير يتشكل فيه الجسد ، اما الماء والروح فمنهما
يتشكل حياة الروح ، في لحظة ، في طرفة عين (١٥) » .

« الذى يعتمد للمسيح لا يولد من الله فقط ، بل يليس المسيح أيضا .
لا نأخذ هذا بالمعنى الأدبى ، كأنه عمل من أعمال المحبة ، بل هو حقيقة .
فالتجسد جعل اتحادنا بالمسيح وشركتنا فى الألوهة أمرا واقعا (١٦) » .

تحدث القديس عن هذا الميلاد الجديد كميلاد غائق للطبيعة يرمز اليه
بميلاد اسحق من سارة العاقر الحرة ، الذى تحقق بوعده الهى غائق للطبيعة
« ميلادنا ليس حسب الطبيعة ، انما يتم بالكلمات التى ينطق بها الكاهن ،
والتي يعرفها المؤمنون ، فيكون جرن المعمودية أشبه برحم فيه يشكل المعمد
ويولد ! اذن نحن اولاد العاقر ، نحن احرارا ! (١٧) » .

العماد سر الصلب :

« فى العماد يتحقق عربون ميثاقنا مع الله: الموت والدفن والقيامة والحياة .
يحدث هذا كله دفعة واحدة !

عندما نغطس برؤوسنا فى الماء يدفن الانسان العتيق كما فى القبر من
اسفل ، يغطس بكماله الى الأبد . واذ نقيم رؤوسنا من جديد يقوم غينا الانسان
الجديد عوض العتيق .

كما يسهل علينا ان نغطس برؤوسنا ونقيمها ثانية ، هكذا يسهل على
الله ان يدفن الانسان القديم ويظهر الجديد . هذا يحدث ثلاث دفعات لكى
تعلموا ان ما يتم انما هو بقوة الآب والابن والروح القدس .

ولثلاث تظنوا ان ما اقوله هو على سبيل الحدس اسمع ما يقوله
بولس (١٨) : « دفنا معه بالمعمودية للموت » ، وايضا « انساننا العتيق قد
صلب معه » ، « متحدين معه بشبه موته » .

ليس فقط المعمودية تدعى صليباً ، بل والصليب أيضا يدعى معمودية،

(١٦) الله مقدس ص ٥٢ .
(17) Comm. on Gal, Ch 4 .

(١٥) الله مقدس ص ٤٨ .
(١٨) رو ٦ : ٤ — ٣ .

اذ يقول المسيح : « بالعمودية التى اعتمد بها تتعمدان (١٩) » ، « لى معموديا
اعتمدها (٢٠) » .

وكما يسهل علينا ان نغطس رؤوسنا ونقيمها ثانية ، هكذا فى اكثر سهولة
مات المسيح وقام حين اراد ذلك وان كان قد بقى ثلاثة ايام من اجل تدبير
السر (٢١) .

« العماد هو الصليب . ما قد حدث بالنسبة للمسيح فى الصלב والدفن
يصنعه العماد معنا ، وان كان ليس بذات الطريقة .

لقد مات المسيح بالجسد ودفن ، اما نحن فموت عن الخطية وندفن . .
ان كنت تشاركه الموت والدفن ، فبالأولى تشاركه القيامة والحياة (٢٢) .
يكرر القديس ذات العبارات تقريبا فى عظاته على الرسالة الى العبرانيين ،
اذ يقول :

« العماد هو صليب . . . كما مات المسيح بالصليب ، هكذا نموت نحن فى
المعمودية ، لكننا لا نموت حسب الجسد ، بل نموت عن الخطية .

انظر . يوجد موتان : مات المسيح حسب الجسد ، اما نحن فندفن
انساننا العتيق وقام انساننا الجديد حاملا شكل موته . . .

ما هو العماد الا دخول فى الموت والقيامة !؟ (٢٣) .

مرة اخرى يتحدث عن المعمودية كموت وقيامة ، هدم وبناء ، قائلا :
« لا تعجب من حدوث ولادة وهلاك فى المعمودية . . . هذا هو عمل النار ،
تصهر الشمع وتستهلكه ، وتحل العناصر المعدنية فى الأرض وتخرج ذهبها .
قبل العماد كنا أرضا ، وبعده نحير ذهباً » الانسان الأول من الأرض ترابى ،
والانسان الثانى الرب من السماء (٢٤) . . . (٢٥) .

العماد . . . بر المسيح :

« هنا يخلق الانسان لا من الماء ولا من الأرض ، انما يخلق فى بر الحق
وقداسته . . . يخلق الله فى المعمودية ابنا له (٢٦) » .

(٢٠) لى ١٢ : ٥٠ .

(21) In Joan, hom 25 .

(23) In Hebr, hom 9 : 6 .

(25) In Colos, hom 7 .

(١٩) مر ١٠ : ٣٩ .

(22) In Rom., hom 10 .

(٢٤) ١ كو ١٥ : ٤٧ .

(26) In Eph, hom 8 .

ويعلق القديس على كلمات الرسول بولس : « مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في (٢٧) » ، قائلا : « يشير بذلك الى المعمودية... معلنا طريق الحياة التي تعيشها أعضاؤنا الميتة... فانها لا تفعل شيئا لا يوافق المسيح (٢٨) » .

العماد ... سر القيامة والدخول في السماويات :

يقول : « أقامنا معه (٢٩) بواسطة جرن المعمودية ، فكيف يجلسنا معه ؟ ... ان كنا نتألم معه فسنملك أيضا معه (٣٠) ، انما ان كنا نموت معه فسنحيا معه . حقا اننا محتاجون الى الروح والاعلان لنتفهم أعماق هذه الأسرار (٣١) ! » .

مرة أخرى يقول : « بالمعمودية لم يجعلنا ملائكة ولا رؤساء ملائكة ، بل أبناء الله المحبوبين لديه ! ... اذ تذكر هذا اظهر حياتك مستحقة لحب ذاك الذي دعاك . اظهر مواظنتك لذاك العالم (السماوي) وللكرامة التي اعطيت لك اعلن بوضوح أنك مواطن في المدينة السماوية . لا تهتم بالأرضيات فان كان جسدك لم ينتقل بعد الى السماء الا ان رأسك ماكن هناك في الأعالي (٣٢) » .

ديناميكية العمداد :

كشف القديس يوحنا ذهبى الفم النظرة الكنسية الأصيلة لمر العمداد ، فان الانسان مهما بلغ جهاده أو أخلاقياته أو سلوكه لا يقدر أن ينعم بالنبوة لله بغير التمتع بشركة الصلب والدفن والقيامة خلال المعمودية ، وفي نفس الوقت ليست المعمودية عملا جامدا يمارسه المؤمن في حياته مرة وانتهت ، لكنها هي حياة دائمة مستمرة ، تبقى فاعلية المعمودية طوال حياة المؤمن تبثه على الجهاد الروحي والسمو المستمر .

أدرك أهمية المعمودية فأعلن أسفه على من لم ينعم بها ، اذ يقول في إحدى عظائمه : « أى موت مفاجئ قبل التكريس (المعمودية) يدفع بالنفس — بالرغم من جميع فضائلها الزمنية — الى جهنم ، وكأسها المسموم ونارها الأبدية ؟ ! » ابك على غير المؤمنين ، واندب الذين لا يختلفون عنهم في شيء ، هؤلاء الذين رحلوا دون أن ينعموا بالاستنارة ، وبغير أن

(28) Com. on Gal, Ch 2 .

(٣٠) ٢ : ٢ : ١٢ .

(31) In Eph, hom 4 .

(٢٧) غلا ٢ : ٢٠ .

(٢٩) أف ٢ : ٦ .

(32) In Mat, hom 12 : 4 .

ينالوا الختم . هؤلاء بحق يستحقون سكب الدموع عليهم ، ويستوجبون تنهاتنا ، لأنهم مطرودون من المواضع الملوكية مع المجرمين الذين تحت الحكم ، فقد قيل (٣٣) : الحق اقول لكم ان لم يولد الانسان من الماء والروح لن يدخل ملكوت السموات (٣٤) .

يحزن القديس ايضا على الذين يرجئون نوالهم سر العماد الى النفس الأخير خشية أن يخطئوا ، ظانين انهم بهذا ينعمون بالحياة الأبدية دون خطية (٣٥) انهم يشوهون السر ، فانه قد أعطى لنا كسر قوة حية وعاملة فينا للجهاد والنمو . لهذا نجده يقول : « قبول العماد قبل النفس الأخير بمثابة تسجيل الانسان اسمه في قوائم الجيش قبيل انتهاء الحرب مباشرة ، أو تكون بمثابة مصراع يخلع ثيابه بينما يبدأ جمهور المشاهدين مغادرته الحلبة ... لقد وهبنا السيد المسيح العماد لا لتقبله ونموت ، بل لنعيش ويثمر (٣٦) » .

يحدث الموعوظين عن العماد كبداية جهاد ، قائلا : اذ تتقبل الختم نصير جنديا مهينا حسنا للنصرة على الشيطان (٣٧) . ويحدث المؤمنين الذين نالوا هذا السر ، قائلا : « ليس للشيطان ان يهاجمك الا عندما يراك قد نلت كرامة أعظم (٣٨) » .

العماد وثمر الروح :

« ليس الماء مجردا هو الذي يعمل بل نعمة الروح التي تتقبلها المياه والتي تغفر خطايانا » ، « العماد يجعل الانسان اخا وشريكا في الأسرار الالهية (٣٩) » .

اذ نتقبل العماد ننال غفران خطايانا ونتمتع بالشركة مع الثالوث القدوس وندخل الى الأسرار الالهية خلال عمل روح الله فينا . هذا الثمر الحامل للرائحة الالهية الذكية يتطلب من جانبنا جهادا مستمرا :

« اننا نمسح في المعمودية ، فتفوح فينا رائحة ذكية ، اما من جانبنا فيليق بنا ان نهتم بالبقاء في هذه الرائحة (٤٠) » .

(٣٣) يو ٣ : ١٢ .

(34) In Joan, Philip . PG 59 : 152 , 62 : 503 .

(35) In Hebr, hom 20 .

(36) In Act. PG 60 : 24 , 25 .

(37) Inst. to Catechumens 2 . (N - XPNF) .

(38) In Mat, hom 13 : 1 .

(39) In Joan, hom 36 : 1 ; Mat, hom 79 : 1 .

(40) In 1 Tim, hom 2 .

« يليق بالمؤمن أن يكون مشرقا لا بما يتقبله من الله فحسب
(في المعمودية) وإنما بما يساهم به من (جهاد) . يليق به أن يكون متعقلا
في كل شيء : في مشيه ونظراته وملابسه وصوته (٤١) » .

« في حالة استنارتنا عندما يزرعنا المسيح وينعم علينا أن نرتوى
بالروح ان لم تظهر ثمرا تنتظرنا نار جهنم غير المنطفئة (٤٢) » .

العماد والتوبة المستمرة :

حياتنا تحتاج إلى جهاد مستمر بواسطة النعمة الموهوبة لنا
في المعمودية . . . وان ضعفنا فلا نكف عن التوبة لنعيش كما يليق كأولاد لله .

« الله لا يسمح أن نسقط في ضيقات (خطايا) عظيمة هكذا ، فنخطيء
بعد نوالنا سر العماد . لكن ان حدث هذا فإلله رحوم ، أعطانا طرقا
كثيرة لنوال المغفرة . الا ان الذين يخطئون بعد نوالهم العماد يعاقبون
بأكثر قسوة من الموعوظين . أما الذين يعرفون طرق العلاج بالتوبة
ولا يتوبون فهؤلاء عقابهم أشد (٤٣) ! » .

« لقد وهبنا الحياة لنبقى أحياء ولا نعود إلى موتنا السابق ،
لأن المسيح لا يموت أيضا ، لأن الموت الذي مات به لأجل الخطية
مرة واحدة (٤٤) . انه لا يريدنا أن نخلص بالنعمة وحدها كأننا دائما
نأرغون من كل شيء لكنه يريدنا أن نشترك بنصيب من جانبنا . لنساهم
نحن في حفظ حياة النفس (٤٥) » .

« اذ دفعت خطايانا في المعمودية لا تعود تظهر بل تخفى ما دمنا نود
التوبة (٤٦) » .

« هذا هو عمل الله فينا : أن نولد سرياً ، وننتقي من كل خطايانا السابقة
خلال المعمودية . أما أن نبقى في المستقبل اتقياء بلا عيب فهذا من سلطاننا
وبجهادنا (٤٧) » .

ولئلا نفهم سلطاننا وجهادنا أنه مجهود ذاتي من عنديتنا يقول :
« في المعمودية تدفن الخطايا وتمحي الأمور القديمة (٤٨) ، ويصير الإنسان
حياً ، تنقش النعمة في قلبه كما على لوح . . . (٤٨) » أي يصير جهاده

(41) In Mat, hom 4 : 14 .

(42) In Hebr, hom 20 : 1 .

(43) In Act, hom 1 .

(٤٤) رو ٦ : ٤ ، ١٠ .

(45) In 2 Cor, hom 6 : 3 .

(46) In Joan, hom 34 : 3

(47) In Joan, hom 10 : 3 .

(48) In 2 Cor, hom 6 : 2

بعمل النعمة المنقوشة في قلبه مرة أخرى يؤكد أن الروح القدس هو سر حياتنا : « العهد الجديد لا يهب فقط الحياة ، بل يهبنا الروح واهب الحياة ، لذي هو أعظم من الحياة ذاتها (٤٩) » .

المعمودية والفردوس الأول :

يقارن بين الخاتمة الأولى حيث وجد الانسان ، جنة عدن وبين تجديد الخلقة في جرن المعمودية قائلا :

« هناك كان العبد مع سيده ، أما هنا غيثم الميثاق بين صديق وصديقه !

هناك قيل « يوم تأكل منبنا موتا تموت » فكان التهديد هو الوسيطة ، أما هنا فلا أثر للتهديد ! ...

هنا يوجد عرى كما كان هناك ، لكن العرى هناك سببه الخطية ، أما هنا غيثم العرى لكي يتحرر الانسان من الخطية .

هناك خلق الانسان مجدا سبق ان ناله ، أما هنا غيظع انسانيته العتيق ، يخلعه بسهولة كما يخلع ثوبه قبل صعوده من المعمودية .

هنا يدهن ليحسب مصارعا مدرجا اسمه في قائمة المصارعين . هنا يتم الميلاد مرة واحدة وليس تدريجيا ...

هناك اخذ الله ترابا من الأرض وخلق الانسان ، أما هنا فلا أثر للتراب ، إنما الروح القدس هو الذي يشكبه ويجعله صالحا

الله لا ينطق هنا (ليخلق) في الفردوس ، بل في السماء ، فان ما يحدث لا يتم على الأرض ، بل ينتقل الى السماء في حضرة الملائكة . يرفع الله نفسك الى فوق ويصلحها ، ويقيمها بجوار عرشه الملوكي .

في الماء يتشكل الانسان ، فيقبل الروح عوض النفس ، ولا يحضر له الله حيوانات بل يأتي اليه بالشياطين مع رئيسها ، قائلا له : « تطع الحيات والعقارب (٥٠) » .

يقيمك الله لا لتحفظ الجنة بل لتصير مواطنا سماويا .

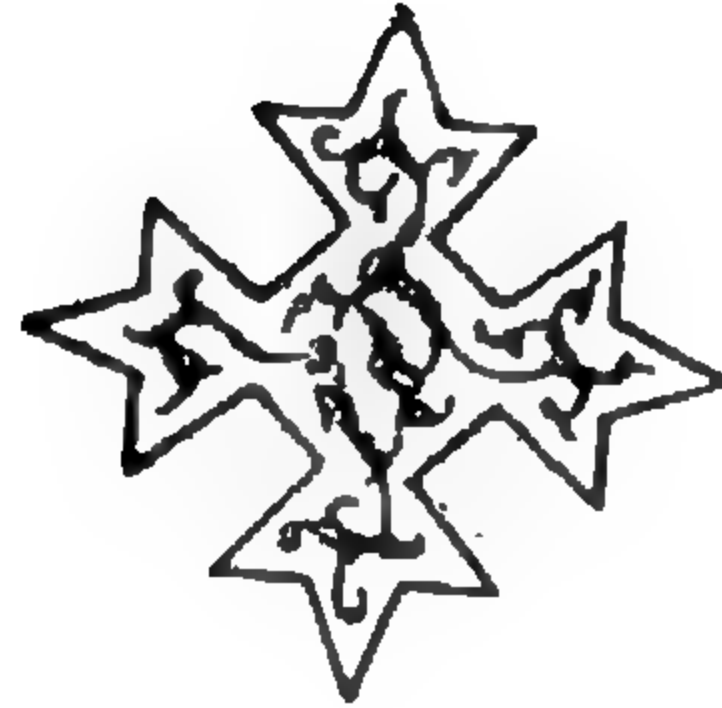
(49) In 2 Cor, hom 7 : 1 .

(٥٠) لو ١٠ : ١٩ .

لا تعود تبصر اودية او اشجار او ينبوعا ، بل تنال الرب نفسه
وتختلط بجسده العلوى الذى لا يقدر الشيطان ان يقترب اليه ...
فانك ما دمت لا تنزل اليه لا يقدر هو على الصعود اليك ، لانك فى السماء!
انه لا يقترب الى السماء !

هنا لا توجد شجرة معرفة الخير والشر ، بل توجد شجرة الحياة
حدها .

لا يعود يخلق من جنبك امراة ، انما قد أخذنا نحن جميعا من جنب
المسيح ... (٥١) » .



(51) In Colos, hom 6 .

سر الأفخارستيا

استحق القديس يوحنا ذهبي الفم أن يدعى بحق « أستاذ الأفخارستيا Doctior Eucharistiae » ، ليس لأنه أكثر الحديث عن هذا السر العظيم ، وشهد بأمانة وفي وضوح عن تحول القرايين ، وحضور الرب حقيقيا ككاهن السر الخفي والذبيحة المحيية في نفس الوقت، لكنه أيضا عرف كيف يسحب قلوب الكثيرين إلى مذبح الله ويدخل بهم إلى المقدسات الالهية . تارة يجتاز بهم إلى الجلجثة ليروا جسد ابن الله مبذولا عنهم إلى التمام ، واخرى يرتفع بهم إلى السماء ليدركوا سماوية السر تجذبه الطفحات السمائية في شركة الأرضيين تحت قيادة الرب نفسه ، وثالثة يعلن لهم مهابة السر وجلاله ليقف الكل بخوف ورعدة كما أمام العرش الالهى ، ثم يعود بهم إلى الحياة الداخلية ليعرفوا هذا السر انما هو لهم لى يمارسوا اتحادهم مع الرب ، كأعضاء حية ثابتة فيه ، واخيرا يخرج معهم إلى الشوارع والطرق ليوضح لهم ان « الفقراء والمعوزين » هم جسد السيد الجائع والعريان يتألم كل يوم (١) . . .

هذا السر كما عاشه وكرز به انما هو :

- ١ - سر المسيح المصلوب القائم من الاموات والواهب جسده ودمه حياة أبدية اكل من يتناول منها .
- ٢ - سر السماء ، حيث يرتفع الانسان ليشترك مع السمائيين في العمل التسبيحي الفائق .
- ٣ - سر الكنيسة حيث تجد فيه الكنيسة سر وجودها ووحدتها مع الرأس وحياتها ، خلال تمارس الكنيسة قمة التعبد والتسبيح والشكر والفرح والتهليل وتنعم بالحب والوحدة والتقوى . . .

الأفخارستيا . . . سر المسيح :

لما كان سر الأفخارستيا في جوهره هو دخول إلى « العشاء الأخير » عينه ، لترى الكنيسة السيد المسيح نفسه كاهنها حالا في وسطها يقدم ذات الذبيحة التي قدمها لتلاميذه في عليّة صهيون ، لهذا دعى هذا السر « سرا الهيّا (٢) » ، « مائدة الهيّة مهوبة (٣) » ، « سرا

(1) Quasten : Patrology, vol 3 , P 479 .

(2) Hom. in Pascha. PG 52 : 769 .

(3) Hom. in Not. Dom. PG 49 : 360 .

مخوفا (٤) « ، « غير منطوق به (٥) » ، مائدة الخوف المقدس (٦) « ، « مائدة روحية (٧) » ، « نبيحة مقدسة مرهبة (٨) » .

أكد القديس أن السيد المسيح هو كاهن السر والذبيحة في نفس الوقت :

« الذي يحول القرايين الموضوعية إلى جسد المسيح ودمه ليس إنسانا ، بل المسيح نفسه الذي صلب عنا . الكاهن هو ممثل له ينطق بالكلمات ، أما القوة والنعمة فهما للرب ، الذي يقول : « هذا هو جسدي » . فإن هذه الكلمات تحول العناصر القائمة أمامنا .

وكما أن العبارة « أثمروا واكثروا » نطق بها مرة ولا تزال عاملة عبر الزمن تعطى لطبيعتنا قوة الانجاب ، هكذا قوله « هذا هو جسدي » نطق بها مرة ولا يزال عاملا بها في كل مائدة في الكنائس منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، وإلى مجيء المسيح . أنه يجعل الذبيحة كاملة (٩) .

« لنلمس نحن أيضا هذب ثوبه ، أو بالحرى أن أردنا فلنأخذه بكامله ، فإن جسده مضطجع أمامنا الآن ، ليس فقط ثوبه بل وجسده ، لا لنلمسه بل لنتناوله ونشبع .

ليقترب كل واحد منا بضعفه إليه في إيمان . . .

آمن أنه جالس الآن في العشاء الذي كان فيه بنفسه ، فإنه من هو حاضر الآن هو بذاته الذي كان حاضرا قبلا . لأنه ليس إنسان صنع هذا ذاك (التحول) ، بل الذي صنعه قبلا ، كلاهما من عمله هو !

عندما ترى الكاهن يسلمك (التناول) لا تظن أنه هو الذي يفعل ذلك ، إنما يد المسيح هي التي تبسط لك . . . (١٠) » .

« أقول أمرا غريبا ، لا تندعشوا منه . . .

أن التقديم التي يقدمها إنسان (كاهن) أو بولس أو بطرس هي بعينها التي أعطاهها المسيح لتلاميذه ، هذه التي يخدمها الكهنة الآن (١١) » .

(4) In Mat, hom 25 . PG 57 : 331 ;

In Joan, hom 46 . PG 49 : 261 ;

In 1 Cor, hom 24 : 3 . PG 61 : 919 .

(5) In 1 Cor, hom 34 . (6) Hom de bast . Christi . PG 49 : 370 .

(7) In Mat, hom 32 : 10 .

(8) De Pnod. Judae, hom 2. PG 49 : 490.

(9) Ado. Judae 2 : 6 . PG 43 : 380 f .

(10) In Mat, hom 50 : 3 . PG, 58 : 507 f .

(11) In 2 Tim, hom 2 .

« سر الفصح (الذى اقامه السيد) ليس اكثر فعالية عما يقدر
الآن ، بل هما واحد . ما يقدر الآن ... هو ذات الفصح (١٢) » .

« اننا نقدم ذات التقدمة ، فلا نقدم اليوم حملا ، وفي الغد حملا
آخر ، انما نقدم ذات التقدمة ، اذ الذبيحة واحدة .

هل لأن الذبيحة تقدم في مواضع كثيرة يوجد مسحاء كثيرون ؟
لا ، بل هو مسيح واحد ، موجود في كل موضع ، بكماله موجود هنا ،
وبكماله هناك ، هو جسد واحد .

ان كان يقدم في مواضع كثيرة ، لكنه جسد واحد وليس اجسادا
كثيرة . وهو ذبيحة واحدة .

هو نفسه رئيس الكهنة ، يقدم الذبيحة التى تطهرنا .

ما نقدمه الآن هو ذات ما قدمه ، هذه التقدمة التى لا تنفذ ... انها
ليست ذبيحة اخرى كما كان يفعل رئيس الكهنة (فى العهد القديم) ...

انها ليست كلماتنا ، بل هى كلمات الروح الالهى (١٣) » .

« الآن ، كما كان قبلا ، الرب نفسه هو الذى يعمل وهو الذى
يقدم الكل (١٤) » .

« نحن نقوم بدور الخدم ، لكنه هو بنفسه الذى يبارك ، وهو
الذى يحول القرايين (١٥) » .

كثيرا ما كان يؤكد فى عظاته « وجود السيد المسيح نفسه »
على المذبح :

« يليق بنا لا ان نرى الرب فحسب بل نأخذه فى ايدينا ونتناوله ...
وفى اكثر ود نتحدث به (١٦) » .

« سجد المجوس للمسيح وهو فى المزود ، اما نحن فلا (١٧) نراه
فى المزود بل على المذبح ، لذلك يليق بنا ان نمجده بالاكتر » .

(12) In 1 Tim, hom 5 .

(13) In Hebr, hom 17 : 6 , 7 .

(14) In 1 Cor, hom 27 : 4 . PG 61 : 229 .

(15) In Mat, hom 82 : 5 . PG 58 : 744 .

(16) In Joan, hom 46 : 3 . PG 59 : 260 .

(17) In 1 Cor, hom 24 .

« المسيح متكئ هناك (على المذبح) ذبيحا (١٨) » .

« تأمل يا انسان أى جسد ذبيحي تتسلمه يدك ؟ ! الى أى مائدة أنت تقترب ؟ ! أذكر أنك وأنت تراب تتسلم دم المسيح وجسده ؟ ! (١٩) » .

« ما بالكأس هو بعينه الذى غاض من جنب المسيح ... »

« ما هو الخبز ؟ انه جسد المسيح (٢٠) » .

« ما لم يسمح به الرب على الصليب (كسر عظامه) يسمح به الآن فى التقدمة من أجل حبه لنا ، يسمح أن يكسر لكى يشبع كل البشر (٢١) » .

« لنصدق الله فى كل شيء ولا نعترض على قوله فى شيء ، حتى وان بدى لنا مناقضا لأفكارنا وحواسنا ... هذا ما يليق بنا أن نفعله فى الأسرار غير ناظرين الى الأمور المنظورة بل مفتكرين فى أقواله ، لأن كلمته لا يمكن أن نخدعنا أما حواسنا فيمكنها أن نخدعنا ... غاذ قال : هذا هو جسدى » نقبل كلمته ونصدقها ... »

« ما أكثر القائلين الآن : كنت أود أن انظر هيئته وشكله وثيابه ونعليه ! ها أنت تراه وتلمسه وتتناوله . حقاً ، أنت تريد أن ترى ثيابه ، أما هو فيعطيك ذاته لا لكى تراه بل وتلمسه وتتناوله وتتقبله فيك (٢٢) » .

الأفخارستيا ذكرى « أنامنيسيس » حية (٢٣) :

لقد أوضح أن « أنامنيسيس Anamnesis » لا تعنى ذكرى لحدث ماض غائب عنا ، بل هو تذكار يحمل حضوراً فعلاً ... »

فى هذا يقول : « ألا نقدم الذبيحة يومياً ؟ ! نعم نقدمها ، لكننا نفعل هذا « أنامنيسيس » لموته ، وهى ذبيحة وحيدة غير متكررة ، قدمت مرة عن الجميع وحملت الى قدس الأقداس . »

« الأنامنيسيس هو علامة موته ، فإن ما نقدمه هو ذات الذبيحة ، فلسنا نقدم اليوم ذبيحة وغدا ذبيحة أخرى مختلفة . »

واحد هو المسيح فى كل مكان ، كامل فى كل موضع ، جسد واحد . غاذ يوجد جسد واحد فى كل موضع تكون الذبيحة واحدة .

(18) De Adu. Judae, hom 1 : 2 .

(19) In Mat. hom 7 . PG 49 : 361 .

(20) In 1 Cor, hom 24 : 3 , 4 . PG 61 : 200 .

(21) In 1 Cor, hom 24 : 2 , 3 . (22) In Mat, hom 82 : 4 — 6 .

(٢٣) راجع للمؤلف : المسيح فى سر الأفخارستيا ، طبعة ١٩٧٥ ، ص ٥٧ — ٦١ .

هذه هي الذبيحة التي لا نزال نقربها الى اليوم . هذا ما نعنيـه
بالإنامنسيـس (٢٤) » .

التحول في الأفخارستيا (٢٥) :

يتساءل بعض اللاهوتيين : متى يحل التحول ، هل أثناء « قصة
التأسيس » أو ما نسميه بالرشومات حيث يردد الكاهن ذات كلمات السيد
المسيح أثناء العشاء الأخير أم أثناء حلول الروح القدس ؟

أو بمعنى آخر ، من الذي يقوم بالتحول الكلمة الالهى أم الروح
القدس ؟ .

يرى بعض اللاهوتيين ان التقديس الأفخارستى يشبه حلول الروح
القدس على القديسة مريم لأجل تجسد الكلمة . فكما أن لتجسد هو
من عمل الروح القدس لكن « الكلمة » قام بدور ايجابى فى التجسد ...
هكذا التقديس الأفخارستى ينسب للروح القدس دون تجاهل لدور الكلمة
الالهى ... لهذا نجد القديس ذهبى الفم ينسبه تارة للروح القدس وأخرى
للكلمة الالهى ، اذ يقول : « عندما يقف الكاهن أمام المائدة ويرفع يديه
الى السماء ، يستدعى الروح القدس فيأتى ويلبس القرايين ، ويكون
سكون ووقار على الموضع ... (٢٦) » ، « الذى يحول القرايين الموضوعة
الى جسد المسيح ودمه ليس انسانا بل المسيح انذى صلب عنا ... (٢٧) » .

الأفخارستيا ... سر السماء :

سر الأفخارستيا انما هو رحلة الى السماء عينها :

« كأن الانسان قد أخذ الى السماء عينها ، يقف بجوار عرش المجد
ويطير مع السراغيم ويتغنى بالتسبيحة المقدسة (٢٨) » .

« أهرق هذا الدم فاتحاً طريق السماء (٢٩) » .

« ما دمنا قد صرنا سمائيين ، وحصلنا على ذبيحة كهذه ، فلنخف !
يليق بنا الا نستمر فى زحفنا على الأرض ، غانه يستطيع من يريد منا ألا يكون
بعد على الأرض من الآن ... »

(24) Jean Danielou : The Bible & Liturgy, P 137 .

In Hebr, hom 17 : 6 .

(٢٥) المؤلف : المسيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٧٣ ، ٧٤

(26) Hom. in Coent, app 3 . (27) De Prod (adu) Judae 1 : 6 .

(٢٨) المسيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٣٧٩ ، ٤١١ .

(29) In Joan, hom 46 .

اذ تقترب من الله نصير في السماء ، بل ماذا اريد من السماء ان كنت
ارى رب السماء وصرت انا نفسى سماءا ؟! » .

لتكن نفوسنا سماءا . . . اقصد لنمثّل ببولس الذى وهو على الأرض
يقضى حياته في السماء (٣٠) ! » .

حضور الملائكة :

« تأمل من يشترك معك ؟ ! فان هذا يكفى ليجعلك تسهر . اذكر انك
وانت في الجسد مرتبط به صرت اهلا ان تحتفل مع القوات المتجسدة لسيد
واحد للجميع (٣١) » .

« لنذكر أننا انما نتناول الجسد الجالس على العرش ، والمسجود له
من الملائكة ! . . .

أتوسل اليكم ، انظروا ، انها مائدة ملوكية قد أعادت لنا ! الملائكة
تخدمها ، والملك جالس بنفسه ، فهل تقفوا متثابرين ؟ ! . . .

هنا الذبيحة حاضرة ! المسيح نفسه حمل الرب قد ذبح ! » .

متى سمعت « صلوا معنا » ويفتح الستر تصور السماء مفتوحة
من السماء فوق والملائكة هابطين (٣٢) ! » .

خدمة الملائكة :

في خدمة هذه الليتورجية يشترك العلويون معنا :

« اى رجاء لا يكون لك في هذه اللحظة يا اخى الحبيب ؟ ! فانه ليس
فقط يرفع الانسان هذه الصرخات العالية المقدسة بل ويرتقى الملائكة عند
قدمى السيد ، ويتضرع اليه رؤساء الملائكة .

انها الساعمة المقبولة التى فيها يتشفع (السمائيون) وتكون الذبيحة
ذاتها هي العين لهم ! . . .

وكما ان الانسان يقطع اغصان شجر الزيتون ويلوح بها امام
الملوك ليذكرهم بهذا بالعطف والمحبة ، هكذا تقدم الملائكة في هذه اللحظة
جسد الرب ذاته عوض اغصان الزيتون ، ويتضرعون الى الرب من اجل
جنس البشر . . . وكأنهم يرددون قائلين :

نصلى اليك من اجل الذين حسبتهم اهلا لحبك فوهبتهم حياتك .

(30) In Hebr, hom 16 : 7 .

(31) De Incomp. 4 PG 48 : 409 — 413 .

(32) In Eph, hom 3 .

نسكب اليك تضرعاتنا عنهم كما سكببت دمك من أجلهم .

نطلب اليك من أجلهم هؤلاء الذين بذلت جسدك هذا لأجلهم (٣٣) « .
ويرى القديس أن الملائكة وهى تقدم الشكر لله لأجل أعماله الخلاصية
معنا انما تعطينا درسا فى تقديم الشكر له من أجل أعماله مع الآخرين :

« هذا (العمل الليتورجى) يحسرننا من الأرض ويتحرك بنا نحو
السماء ، ويجعلنا ملائكة عوض كوننا بشرا . أما هؤلاء الذين هم طغمة
علوية فيشكرون الله من أجل أعماله الصالحة التى قدمها لنا ، قائلين
له (٣٤) : المجد لله فى الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

ماذا يعنى هذا بالنسبة لنا ؟ فهم ليسوا على الأرض ولا هم بشر ...
(ويشكرون من أجلنا) ، بهذا يعلموننا أن نحب شركاءنا حتى نحسب
ما يذلونه من بركات كأنما نلناه نحن ...

ليتنا نحن ايضا نشكر الله لا من أجل بركاته علينا بل من أجل
بركاته على الآخرين ، البركات العظيمة والصغيرة ... (٣٥) « .

الأفخارستيا ... سر الكنيسة :

هذا السر الأفخارستى — كما يراه القديس . تجد فيه الكنيسة سر
وجودها وشركتها واتحادها مع الراس ، فيه سر تقيدتها المقبول لدى الآب ،
سر تقديسها المستمر وجمالها الروحى :

١ — الأفخارستيا ... سر وجود الكنيسة :

« جملنا أعضاء جسده ومن عظامه (٣٦) ، ليس خلال الحب وحده ،
وانما بالفعل ذاته ... هذا يتحقق بالطعام المجانى الذى قدمه لنا ،
مريدا أن يعلن حبه لنا . من أجل حبه مزج نفسه بنا ، عجن جسده
بجسدنا ، لكى نصير معه واحدا ، نصير جسدا واحدا متحدا
بالراس (٣٧) « .

(33) De Incomp. 3 PG 48 : 449 — 464 .

(٣٤) لو ٢ : ١٤ .

(35) In Mat, hom 25 : 4 .

(٣٦) اف ٥ : ٣ .

(37) In Joan, hom 46 : 3 .

يؤكد ارتباط سر الأفخارستيا بسر الكنيسة بدعوة الكتاب المقدس للائتين « جسد المسيح (٣٨) » .

هذا ويظهر متى التحام الاثنين معا من ارتباط الكنيسة بالمذبح في ذهن القديس حتى متى تحدث عن أحدهما قصد الاثنين ، مثال ذلك عندما تحدث عن اثروبيانوس يقول :

« أتريد أن تحمي نفسك ؟ تمسك بالمذبح الذى بلا حصون لكن فيه عناية الله الحارسة . تمسك بالكنيسة . . . فانك ان كنت مع القطيع لا يقدر الذئب أن يدخل اليك . . . الحصون تشيخ مع الزمن أما الكنيسة فلا تشيخ . الحصون يحطمها البرابرة أما الكنيسة فلا تقدر عليها حتى الشياطين . لست أنطق بهذه الكلمات على سبيل المباهاة بل من خلال الواقع . كثيرون هاجموا الكنيسة فهلكوا أما هي فتخلق في السماء (٣٩) » .

٢ — الكنيسة . . . سر شركة الكنيسة ووحدةها :

في سر الأفخارستيا يجتمع المؤمنون بروح الشركة والوحدة فيكون صلواتهم خاعلية . . . لهذا كان القديس يحزن من أجل الذين يستمعون العظات ولا يشتركون في ليتورجيا الأفخارستيا ، اذ يقول :

« قد تقول : أستطيع الصلاة في بيتي ، لكننى لا أقدر ان أسمع عظة في بيتي . . . »

« لك تخدع نفسك يا انسان ، فانك وان كنت تقدر بالحقيقة أن تصلى في البيت لكن ليس بذات الكيفية التى تقم في الكنيسة ، حيث يشترك كثير من الآباء الروحيين ، وترتفع صلوات مشتركة أمام الله .

عندما تطلب في مخدعك لا تكون الاستجابة مثلما تطلب خلال شركة اخوتك . نحنا يوجد شيء آخر هو اتحاد الروح بالكلمة ، ورياط الحب ، وصلوات لكهنة . . . فترتفع الصلوات الى السماء ! . . . (٤٠) » .

ان كانت صلوات الفرد لها قوة عظيمة كم بالحرى تكون صلاة الشركة .

يرى القديس في سر الأفخارستيا سر وحدة الكنيسة :

(38) Comm. on Gal, ch 5 .

(٣٩) الكنيسة تحبك ص ٢٩ — ٣١ .

(40) De Incomp. 3. PG 48 : 380 — 405 .

« اذ كان الخبز يحوى حبوبا كثيرة صارت متحدة معا ، فلا تظهر الحبوب بعد . هى موجودة فعلا لكن لا يظهر اختلافها بسبب اتحادها معا . هكذا رتبط مع بعضنا البعض فى المسيح ، فليس هو جسدا لشخص وآخر لشخص آخر ، بل هو جسد واحد يغتذى به الكل ! انه شركة فى جسد الرب . . . شركة مع المسيح نفسه (٤١) » .

« حقا توجد امور كثيرة تربطنا معا : مائدة واحدة معدة للجميع . . . مشرب واحد مقدم للكل . . . بل نشرب من كأس واحدة ، الأمر الذى يصدر عن حب متسع .

اننا نشترك فى مائدة روحية ، فلنشترك ايضا فى حب روحى ، لأنه ان كان اللصوص اذ يشتركون معا فى الملح (٤٢) ، ينسون طبيعتهم (كلصوص) فأى عذر لنا نحن الذين نشترك على الدوام فى تناول جسد الرب ؟! (٤٣) » .

هذا المفهوم الخاص لقيام سر وحدة الكنيسة خلال سر الافخارستيا كما ورد فى صلوات ليتورجيا الأسقف سراييون المصرى (٤٤) .

٣ — الافخارستيا . . . سر تعبد الكنيسة وشكرها :

فى ليتورجيا الافخارستيا يقدم الكاهن مع الشعب ، ويشترك معهم السماثيون فى تقديم الشكر لله خلال الذبيحة ، أى خلال صليب ربنا يسوع ، وذلك من أجل أعماله الخلاصية لأجلنا (٤٥) .

« عندما ادعوه «سر الشكر» اكشف كل كنوز صلاح الله ، وادعوا الذهن للتأمل فى تلك المواهب العظيمة (٤٦) » .

« لذلك — كما تعلمون — ينضم الكاهن ليقدم شكرا عن العلة من أجل أعمال الله السابقة ، وأعماله الحاضرة لأجلنا ، وما سيهبه لنا حتى صارت الذبيحة قائمة بيننا (٤٧) » .

(41) In 1 Cor, hom 24 .

(٤٢) اشارة الى عادة شرقية لا زالت قائمة أن الذين يشتركون فى الطعام « خبز وملح » لا يخون أحدهم الآخر .

(٤٣) ديداكية ٩ : ٤ .

(٤٤) المسيح فى سر الافخارستيا ، ص ٦١٤ .

(45) In Mat, hom 25 : 4 .

(46) In 1 Cor, hom 24 .

(47) In Mat, hom 25 : 4 .

٤ — الأفخارستيا . . . سر قداسة الكنيسة :

في الذبيحة المقدسة تختفى الكنيسة فتظهر حاملة قداسة المسيح وبره
تصير عروسا بلا عيب للعريس القدوس .
« بهذه العطية تتزين نفوسنا وتتجمل (٤٨) » .
« به تتطهر النفس وتتجمل وتلتهب (٤٩) » .
« هذه المائدة هي عضد نفوسنا ، ورباط ذهننا ، وأساس رجائنا ،
وخلاصنا ونورنا وحياتنا

عندما ترى المائدة معدة قدامك ، قل لنفسك :
من أجل جسده لا أعود أكون ترابا ورمادا ، ولا أكون سجيناً بل حراً .
من أجل هذا الجسد اترجى السماء واقبل الخيرات السماوية والحيوة
الخالدة ، ويكون لى نصيب الملائكة وأناجى المسيح .
سر هذا الجسد بالمسامير وجلد ولا يعود يقدر عليه الموت .
انه الجسد الذى لطخ بالدماء وطعن ، ومنه خرج الينبوعان المخلصان
للعالم : ينبوع الدم وينبوع الماء (٥٠) » .
« هذا الدم يجعل صورة ملكنا واضحة علينا ، ويجلب علينا جمالا لا ينطق
به ، ولا يسمح بانتزاع سمونا ، بل يرويه دائما وينعشه
هذا الدم مزمع اخذنا به بحق يطرد الشياطين ويبيدهم عنا ، بينما يدعو
الينا الملائكة . فاذا يظهر دم الرب تهرب الشياطين وتجتمع الملائكة .
هذا الدم المسفوك يطهر كل العالم
هذا الدم يطهر الموضع السرى وقدس الاقداس
هذا الدم يقدس المذبح الذهبى
هذا الدم يقدس الكهنة
هذا الدم هو خلاص نفوسنا . . . به تغتسل النفس وتتجمل وتلتهب .
به يلتهب فهمنا كالنار ، وتتلألأ النفس أكثر من الذهب .
لقد سفك هذا الدم فأتاح لنا طريق السماء
مهيبة حقا هي اسرار الكنيسة !

(48) In Mat, hom 50 : 3

(49) In Joan, hom 46 : 6 .

(50) In 1 Cor, hom 24 .

مهبوب حقا هو المذبح !

لقد خرج من الفردوس ينبوعا يبعث انهارا مادية ، اما هذه المائدة
فأخرجت ينبوعا يبعث انهارا روحية ، لا يزرع على جوانبها شجر الصفصاف
غير المثر بل تزرع أشجار تصل الى السماء وتحمل ثمرا دائما لا يفسد .

ان كان أحد لفحه الحر فليقترب من ينبوع فتبرد حروقه وينطفئ ظمأه
ويحمل راحة عوض الحروق التي سببتها السهام النارية لا الشمس ...

هذا ينبوع هو نور يبعث أشعة الحق ، تقف بجواره القوات السماوية
في الاعالى تتطلع الى جمال مجاريه ...

من يشترك في هذا الدم يقف مع الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات
العلوية ، ملتحفا بثوب المسيح الملوكي ، له اسلحة الروح ، لا بل يلتحف
بالملاك نفسه ... (٥١) .

الأفخارستيا ... حياة تقوية اجتماعية :

اذ يتحدث القديس عن سر الأفخارستيا يخلق بنا عاليا في السموات ،
لكنه ، في نفس الوقت لا يتجاهل واقعنا كناس نعيش على الأرض ،
لذا يرى فيه سر نهونا الروحي وجهادنا في المسيح يسوع .

١ — الأفخارستيا والحياة التقوية :

هذا السر هو سند حياتنا الروحية ان كانت نفوسنا متيقظة مجاهدة ،
حاملة للصليب ، ومشتاقة للسموات . لقد تحدث القديس كثيرا عن
الاستعداد للتمتع بهذا السر حتى ننال غايلية في حياتنا الروحية ولا نحمل
دينونة .

« ما دمنا نتحدث عن جسد الرب ، فلنوجه انظارنا اليه ، هذا الذي
صلب وسمر وقدم ذبيحة . ان كنتم جسد المسيح فاحملوا الصليب ،
اذ هو حملة . احتملوا البصق واللطمات والمسامير .

لقد جعلنا جسده ووهبنا جسده ومع هذا لم نعطي للشر ظهورنا ،
يا للظلمة ! يا لعمق الهاوية ! يا لعدم المبالاة !

«يقول الرسول اطلبوا ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله» ،
ومع هذا لا يزال يضع البعض قلبه في المال او الفسق وآخرون تأسرهم
الشهوات .

(51) In Joan, hom 46 : 3 .

(٥٢) كو ٣ ١ .

الا ترى أنه ان كان في جسدنا عضو زائد وبلا نفع نبتره ونلغيه
عنا . ليته لا تكون ثقتنا زائدة هكذا لمجرد أننا جعلنا أعضاء في هذا
الجسد . . . فان المسيح لا يحتمل دخول أحد بهذا الحال في حجاله .
ان كان قد طرد صاحب الثياب الدنسة وأخرجه أفلا يفعل ذلك مع من
يدنسه (٥٣) » .

« ليته لا يقترب أحد الى الأسرار بغير مبالاة أو بقلب واهن .
انما يلزم أن يكون الكل بقلوب ملتهبة بحرارة . ليكن الكل متيقظا . فان كان
اليهود أكلوا الذبيحة وهم مستعدون : أحذيتهم في أرجلهم وعصيمهم في أيديهم ،
فكم بالحرى أنت ، يجب أن يكون نشاطك أعظم . ان اليهود استعدوا
للذهاب الى فلسطين وعليهم هيئة المسافر ، أما أنت فمستعد للسفر
الى السماء (٥٤) » .

« كيف تقف أمام كرسي الديان يا من تتجاسر على هذا الجسد وتتقدم
بأيد دنسة وشفافة نجسة ؟ !

ان كنت لا تقدر أن تقبل ملكا بقم قذر ، اتقبل ملك السموات بنفس
دنسة ؟ ! يا له من انتهاك للمقدسات !

اخبرنى ، اتريد أن تتقدم بأيد غير نظيفة ؟ اظنك لا تقبل هذا ، بل تفضل
عدم حضورك عن مجيئك بأيد ملوثة . فان كنت تدقق في الأمور الصغيرة ،
فهل تحضر بنفس ملوثة وتتجاسر وتلمس الذبيحة ؟ !

ماذا ، أما ترى الأواني المقدسة نظيفة تماما ومتألقة ؟ ! يليق بنفسك
أن تكون أكثر نقاوة منها وأكثر قداسة وبهاء ! لماذا ؟ لأن هذه الأواني
وجدت من أجلنا نحن . انها لا تشترك في التناول الموجود فيها ولا تدركه ،
أما نحن فنشترك فيه . . .

هل لا تقبل أن تستخدم آنية ملوثة بينما تقترب بنفس دنسة ؟ ! (٥٥) » .

« تصور سخطك على الذى سلم المسيح ، وعلى الذين صلبوه :
احذر أن تكون مجرما أمام جسد المسيح ودمه . هؤلاء أماتوا الجسد
الكلى القداسة وانت تتقدم اليه بنفس غير نقية بعد ان خصك بهذه
النعم .

لم يكتف المسيح أنه صار انسانا بل تبل اللطمة والموت . اننا نتحد
معه ليس بالايمان فقط بل بالجسد . فما هى النقاوة والطهارة الواجبة
على من يتأذ بهذه الذبيحة ؟ يجب على اليد التى تلمس هذا الجسد أن تكون

(53) In Eph, hom 3 .

(54) In Mat, hom 32 : 4 .

(55) In Eph, hom 3 .

أظهر من أشعة الشمس ، وهكذا يجب أن يكون الفم المملوء بالنار الروحية واللسان المخرج بالدم المخيف . فما أعظم تلك المائدة التي تتلذذ بها ! أن الملائكة تنظر إليها ولا تجسر أن تحرق فيها من دون خوف ورعدة بسبب النور الساطع الصادق . أما نحن نفتذى بها ، ونتحد من المسيح بواسطتها ونصبح معه (٥٦) جسدا واحدا . فمن يحدث بجبروت ويسمع تسبحة كلها (مز ١٠٥ : ٢) ...

يتحدث أيضا القديس عن الاستعداد الروحي لهذا السر أنه ممتد إلى ما بعد تناول ، قائلا : « أن كنت لا تسرع إلى السروق بعد الاستحمام حتى لا تفسد ما تمتعت به في الحمام ، كم بالأحرى يليق بنا أن نفعل هذا بعد التلذذ بالتناول ... فإنه يليق بك عند عودتك إلى منزلك بعد تناول الا تحسب شيئا أهم من تذكرك للأمور التي سمعتها . نعم إنها لغباوة عظيمة أن نعطي خمسة أيام أو ستة للعمل في أمور هذه الحياة ولا نسمح لأنفسنا بيوم واحد لحياتنا الروحية ، أو حتى جزءا من يوم (٥٧) » .

يحذرنا القديس من التهاون بعد تناول ، قائلا « لقد صرت جسدا المسيح ، فإن سلمت نفسك للشيطان يدوس عليك (٥٨) » . فتهين المسيح .

٢- الأفخارستيا والعمل الاجتماعي :

ربط القديس بين الجسد الذبيح المقدس وبين أعضاء جسد المسيح المتألمة والجائعة ، فيقول (٥٩) : « المائدة هي بعينها كتلك (التي كانت في عليّة صهيون) وليس أقل منها . لأنه ليس المسيح صنع تلك ، أما هذه فصنعها إنسان ، بل المسيح أيضا يصنع هذه ! إنها ذات العلية التي كان التلاميذ مجتمعين فيها حين ذهبوا إلى جبل الزيتون .

لنذهب نحن أيضا إلى أيدي الفقراء بكونها جبل الزيتون ، لأن جموع الفقراء هم أشجار الزيتون المغروسة في بيت الرب ، يقدمون زيتا يفيّدنا فيما بعد ، الزيت الذي كان للعذارى الخمسة ، والذي افتقدته العذارى (الجاهلات) الأخريات . اذ نتقبل هذا الزيت في مصابيحنا المتألّمة نستقبل العريس (٦٠) » .

(٥٦) المطران إيفانيوس : الآمالى الذهبية من مقالات لأبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(57) In Mat, hom 5 : 1 . (58) In Hebr, hom 20 : 3 .

(٥٩) للتوسع راجع أقواله في كتابنا « الحب والعطاء » ص ٦٧-٧١ .

(60) In Mat, hom 82 : 5 .

مرة أخرى يويخ الذين يهتمون بتقديم ستائر حريرية وكؤوس من ذهب .
للمذبح تكريما للذبيحة ويتركون الفقراء — جسد المسيح . في عوز ،
فيقول : « ان اردت ان تكرم الذبيحة فقدم نفسك التي لأجلها ذبحت . لتكن
نفسك من ذهب . لكن ان أبقيت نفسك ترابية وقدمت اوان من ذهب ،
فما المنفعة ؟ ! ... »

ليته لا يكون هدفنا تقديم اوان ذهبية فحسب ، انما نفعل هذا بغيرة
صادقة ... فان الكنيسة ليست مسبكا للذهب ولا هي متجر لسك الفضة
انما هي جماعة ملائكة ...

أريد ان تكرم جسد المسيح ، لا تتغافل عنه وهو عريان . لا تكرمه
هنا في الكنيسة بثياب ديباج وفي الخارج تضرب عنه صفحا ، وهو يموت
من البرد والعري (٦١) .

دعوة للاشتراك في سر الأفخارستيا :

« اخبرني ، لو ان انسانا دعى لوليمة ، وغسل يديه وجلس وصار
الكل مستعدا على المائدة ، بعد هذا كله رغب الاشتراك في الوليمة ،
اما يكون بهذا قد أهان من دعاه ؟ اما كان الأفضل له الا يحضر ؟ ! هذا
ما تفعله أنت ، اذ تترنم بالتسبيحة (الثلاث تقديسات) وتشترك في الصلوات
وتعلن أنك من بين المستحقين اذ لم تخرج مع غير المستحقين (قبل بدء قداس
المؤمنين) فلماذا لا تشترك في المائدة ؟

تقول : اني غير مستحق .

هل غير المستحق للتناول مستحق للشركة في الصلوات ؟ ! فان الروح
يحل لا بواسطة التقديمات فحسب بل وخلال التسابيح ...

انه يدعونا للسماء ، لمائدة الملك العظيم العجيب ، فهل تتردد متراخيا
بدلا من أن تسرع اليها ؟ ! (٦٢) .

« من لا يشترك في الأسرار ، انما يجلس في وقاحة ... (٦٣) » .

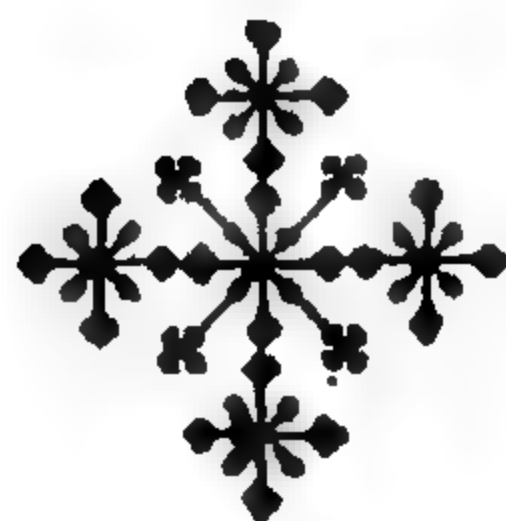
بقدر ما يشجعنا على التمتع بالتناول يحزن ان يعتاد الناس على
التناول في أيام الأعياد كعادة بغير توبة ولا استعداد ، اذ يقول : « كثيرون
من المؤمنين أمعنوا في الجهالة والتهاون العظيم فيتقدمون لمناولة الأسرار
المقدسة في الأعياد ، مملوئين بالخطايا وغير مهتمين لنفوسهم ، ولا عالمين أن

(61) In Mat, hom 50 : 4 .

(62) In Eph, hom 3 .

(63) Ibid .

وقت المناولة المقدسة لا يحده عيد أو فرح ، بل الضمير النقي والحياة التي لا عيب فيها . نكل من يعرف نفسه نقيّة من الخطيئة يجوز له أن يتقدم الى الأسرار الطاهرة يوميا ، وبالعكس فان المثقل بالخطايا وغير التائب عنها ، لا يخلو تقدمه اليها من الخطر حتى في الأعياد ، لأننا نتقدم اليها مرة في السنة ، فان كان تقدمنا هذا عن غير استحقاق ، لا يبررنا من الذنوب ، بل يكون دينونة لنا لأننا تقدمنا مرة واحدة في السنة ، ومع ذلك بلا طهارة (٦٤) » .



(٦٤) المطران ايفانيوس : الأملالي الذهبية ص ٦٥ .

الطقس الكنسى

تعتبر كتابات القديس يوحنا الذهبى الفم وثائق لها اهميتها فى علم الليتورجيات واللاهوت الطقسى ، اذ تدخل بنا الى جو العبادة الكنسية كما عاشتها كنيسة انطاكية والقسطنطينية فى اواخر القرن الرابع ، لا من حيث انها حملت اليها الكثير من الاشارات الخاصة بهذه الطقوس بل ايضا اوضحت لذاتها روحها ومفاهيمها اللاهوتية والروحية .

وقد جمع Brightman النصوص الواردة فى أعماله بخصوص النظام الليتورجى ، كما افرد Probst فصلا خاصا عن ليتورجيته (١) .

واننى فى هذه الدراسات لا استطيع ان استعرض جميع النصوص التى وصلت اليها فى هذا الشأن ، انما اكتفى بعرض سريع لاطقس الكنسى كما أعلنه القديس :

(١) مفهومه للطقس الكنسى .

(ب) الطقس الليتورجى الأفخارستى .

(ج) الأعياد والأصوام .

(د) علامة الصليب .

(هـ) طقوس أخرى .

+ + +

(1) Sources Chrétiennes, t 28 bis, P 51 .

Liturgie des vierten Johnhunderts und deren Reform. Münster
i, w. , 1893 .

(أ) مفهوم الطقس الكنسى

أولا : الطقس الكنسى دخول فى الحياة السماوية :

الطقس الكنسى يحترم الجسد وأحاسيسه ، لكنه لا يحبس النفس فى حدود الجسد والمحسوسات بل يعرف كيف ينطلق الروح القدس بالمؤمن نحو الأمور السماوية خلال الزمنيات ، فلا يعود المؤمن يرى فى الكنيسة معابد وكهنة وحركات جسدية فى العبادة بل يمارس شركة مع السمايين ودخول الى أمجاد أبدية وتمتع بحضن الآب .

« لتتقدم بقلب صادق (١) الى الأمور المقدسة ، الى الإيمان ، الى الخدمة الروحية . . . فلا نرى منظورات : كاهنا أو نبيحة أو مذبحا . . . إنما يدخل الكاهن الى قدس الأقداس ، لندخل نحن أيضا معه (٢) » .

« هنا كل شيء يخص السماء والسماويات ، أمور يخص نفوسنا وحياتنا (٣) » .

« الملائكة حاضرون فى كل موضع ، خاصة فى بيت الله ، اذ يقفون بجوار الملك » .

الكنيسة مملوءة كلها بالقوات غير المتجسدين (٤) » .

« ان كانت (طقوسنا) تتم على الأرض لكنها متاهلة للسماوات ، اذ يكون ربنا يسوع المسيح نفسه الذبيح — مضطجعا ، والروح مراغقا لنا ، وانجالس عن يمين الآب حاضرا هنا » .

« خلال الغسل (المعمودية) يوجد الأبناء ، الذين يقتفون أثر السمايين ، جاثمين ان لهم وطنا سماويا . هؤلاء اذ يتعذبوا عن الأمور الزمنية يمارسوا الأعمال السماوية » .

ماذا ؟ . . . ليست تسابيحنا سماوية ؟ !

ألسنا نحن الذين نعيش على الأرض ننطق فى انسجام مع ترنيمات الطغمة الالهية التى للقوات غير المتجسدين ؟ !

ليس المذبح سمائيا ؟ ! . . . اذ لا يحمل أمورا جسدانية ، بل مقدمة روحية . فالذبيحة لا تتحول الى تراب ورماد بل هى بوبة وسامية .

(١) عب ١٠ : ٢٢ .

(2) In Hebr, hom 10 : 2

ما هي سمة طقوسنا الا انها سماوية ، فقد قيل (٥) : من غفرتم خطاياهم تغفر له ومن امسكتم خطاياهم امسكت . فمن كان له مفاتيح السماء كيف لا تكون بقية اموره سماوية؟! ...

الكنيسة سماوية ، بل هي السماء ! ...

لقد قادنا مرتفعاً بنا الى السماء ، واظهر لنا أنه قد صارت لنا السماء هوض الهيكل (القديم) (٦) .

ثانيا : الطقس كعمل روحي تقوى :

حذر القديس من ممارسة الطقس في شكليات بلا روح ، قائلا : « ان كان بولس يخاف لئلا بعدما كرز للآخرين يصير هو نفسه مرفوضا (٧) ... فأى عذر لنا ان كنا في غير خوف نمارس مسيحيتنا كمادة في شكليات؟! (٨) » .

يرى أن الشكليين في ممارستهم للطقس بلا روح يشبهون هيرودس الذي طلب السجود لمولود بيت لحم وهو يحمل في داخله شوقا لقتله ... « لنخف نحن أيضا لئلا ونحن نحمل مظهر العابدين له والمتضرعين اليه ننطق في داخلنا بنقيض ذلك (٩) » .

لقد أعطى اهتماما بالطقس الخارجى للصلاة مثل الوقوف برهبة والسجود وبسط اليدين الخ ... لكنه في نفس الوقت ركز على العمق الداخلى ، اذ يقول :

« الصلاة هي اعماق أكثر منها كلمات !

هي نفس متألمة أكثر منها أيد مرتفعة !

هي تأمل أكثر منها حركات خارجية .

انها تتطلب قلبا حارا وفكرا متضعا !

كان بولس في سجنه يصلى وهو ملقى على ظهره ، حزقيال على فراشه مريضه ، واللص معلقا على الصليب ، ويونان في بطن الحوت » .

« عندما تقف امام جمهور الملائكة لتصلى ، فلتكن أكثر اهتماما من عازف القيثارة وهو يستعد لدخول المسرح خشية ان يخطئ العزف .

(3) Conc. Statues, hom 10 : 2 .

(4) In Hebr, hom 15 : 8 .

(6) In Hebr, hom 14 : 3 .

(٥) يو ٢٠ : ٢٣ .

(٧) ١ كو ٩ : ٢٧ .

ليعبر لساننا بعذوبة ما يحمله من مكتومات ! » .

مرة أخرى يوبخ الذين يهتمون الطقس في حرفيته بغير روح قائلا :

« عندما نتقدم للحديث مع أناس أعظم منا نستعد لذلك بضبط تصرفاتنا وطريقة مشينا ولبسنا ، لكننا اذ نتقدم أمام الله نتثائب (ونهرش) ونحرك رؤوسنا هنا وهناك ويشت فكرنا حتى أننا ونحن ساجدون على الأرض يجول عقلنا في الأسواق العامة » .

رأينا اتجاهه العملى فى الربط بين الطقس والحياة التقوية خلال ربطه تناول من الأسرار المقدسة وخدمة الفقراء والمحتاجين ... فكما نكرم الذبيحة « جسد المسيح » يلزمنا أن نكرم جموع الفقراء « جسد المسيح المتألم (١٠) » .

ثالثا : كشف لنا القديس عن دور الشعب فى الطقس الكنسى والعبادة الليتورجية ... فمن كلماته : « لماذا تتعجبون من اشتراك الشعب مع الكاهن فى كل موضع ، فان الجميع يشتركون بحق مع الشاروييم انفسهم والقوات السمائية ، مقدمين التسابيح المقدسة فى شركة معا (١١) » .

+ + +

(8) In Hebr, hom 10 : 2 .

(9) In Mat, hom 50 .

(١٠) راجع أيضا عظة ٢٧ على ١ كو ، عظة ٨٢ ٦٢ على انجيل متى .

(11) In 2 Cor, hom 18 : 3 .

(ب) الطقس الليتورجي الأفخارستي

فيما يلي بعض الطقوس الليتورجية الخاصة بالقداس الالهى ومفاهيمها اللاهوتية والروحية كما وردت من خلال عظاته وكتابانه :

أولا : تقديم ذبيحة يومية :

كانت الكنيسة الأولى تقيم الأفخارستيا يوم الأحد بكونه احتفالا بعد قيامة الرب ، فيه تنعم الكنيسة بالقيامة خلال اتحادها بالجسد القائم المخلص واتحاده فيها ، وأيضا تقدسه في بعض أعياد الشهداء والقديسين من الأموات . كما تقدس هذا السر في الأعياد السيديّة بكونه التقاء مع الرب اعلانا لقبولنا الحياة السماوية في شركة مع القديسين الذين عبروا الى الفردوس . لكن عظات القديس تكشف عن تقديس السريوميا في الكاتدرائية . . . يبدو أن هذه العادة كانت في بعض الايبارشيات الكبيرة فقط .

في حديث له مع الشعب يقول : « ماذا ؟ السنا نقدم الذبيحة يوميا ؟ نعم نقدمها ، لكننا نفعل هذا إنامنيسيس (نكرى) لموته . هي ذبيحة وحيدة غير متكررة . . . (١) » .

كما يوبخ الذين لا يشتركون في التمتع بالسر ، قائلا : « هل باطلا نقدم الذبيحة يوميا ؟ هل نقف امام المذبح باطلا ؟ لماذا لا يشترك أحد في التناول ؟ (٢) » .

ثانيا : التمييز بين ليتورجيا الموعوظين وليتورجيا المؤمنين !

ان كان قلب الكنيسة متسعا بالحب نحو كل البشرية ، تفتح أبواب منبرها للجميع يسمعون كلمة الله ، لكن ليس الكل يقدر أن يمارس « طقس العبادة » ، انما هذا الحق خاص بالأبناء القائمين المجاهدين . لهذا كثيرا ما تحدث القديس عن اخراج جماعات غير المؤمنين أو الذين تحت التأديب بعد ليتورجيا الموعوظين ، واغلاق الأبواب لكي يعيش المؤمنون في لحظات القداس الالهى الرهيبة ، يشتركون في ليتورجيا المؤمنين .

(1) In Hebr, hom 17 : 6 .

(2) In Eph, hom 3 .

أما الفئات التى لا تشترك فى ليتورجيا المؤمنين فهم :

١ — الوثنيون ، ولا تتلى عليهم أى صلاة .

٢ — جماعة الموعوظين ، من أصل يهودى أو وثنى ، قبلوا الإيمان لكنهم لا يزالوا تحت الوعظ والتعليم حتى يتهيأوا للعماد ، لذا يسمون بطلابى العماد .

٣ — المربوطون بالأرواح الشريرة ، تتلى عليهم صلاة خاصة قبل خروجهم حتى يترنق الله بهم ويطردهم عنهم الأرواح الشريرة .

٤ — الذين تحت التأديب .

أخيرا فان الهراطقة ليس لهم أيضا حق الشركة مع المؤمنين فى ليتورجيا الموعوظين . يطلب القديس من شعبه ان يصلوا عنهم ، قائلا لهم : « ان كنا نطلب اليكم تقديم الصلاة من أجل المرضى والعاملين فى المناجم والمستعدين والمربوطين بأرواح شريرة كم بالأحرى نطلب أيضا من أجل الهراطقة ؟ ! » (٢) .

كانت الكنيسة تصلى من أجل الموعوظين عند خروجهم حتى يهبهم الله العضوية فى جسده المقدس . وقد جاءت الصلاة فى عظاته تطابق الطقس السريانى كما ورد فى القوانين (الدساتير) الرسولية The Apostolic Constitutions فى الكتاب الثامن الفصل السادس والتى سبق لى ترجمتها (٤) .

أما الصلاة كما وردت فى عظات القديس ، فجاءت هكذا :

« لنصل من أجل الموعوظين بكل حرارة لكى يسمع الله الكلى الشفقة والرحمة صلواتهم ،

ويفتح آذان قلوبهم ويلقن فيها كلمة الحق .

ويزرع فيهم مخافته ،

ويثبت إيمانهم ،

ويكشف لهم انجيل البر .

ويهبهم ذهنا صالحا وحكما سديدا وحياة فاضلة ، فيفكرون فيه على الدوام ، ويمارسون أعماله ، ويلهجون فى ناموسه نهارا وليلا ، ويذكرون وصاياه ، ويحفظون أحكامه .

(3) De Incomp. 3 PG 48 : 347 — 350 .

(٤) للمؤلف : المسيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٦٢٤ — ٦٢٧ (القوانين الرسولية ٨ : ٦ ، ٧) .

لنتضرع من اجلهم في أكثر غيرة حتى يخلصهم من كل شر ، ومن كل تدبير شيطاني ، وكل مضايقات العدو ،

ويحسبهم مستحقين لتجديد الجرن في الزمان المحدود ، وغفران الخطايا ، ولباس عدم الفساد ،

وببارك دخولهم وخروجهم وكل شئون حياتهم ،

وببارك بيوتهم ،

ويكثر نسلهم وببارك فيهم ويبلغ بهم الى حد القامة ويعلمهم الحكمة ،
ويدبر كل امورهم للخير ...

ايها الموعوظون قفوا ، صلوا من اجل ملاك السلام ، لكي تكون كل امورك في سلام .

صلوا لكي يكون هذا اليوم وكل ايام حياتكم مملوءة سلاما وتكون نهايتكم مسيحية .

قدموا انفسكم لله الحي ومسيحه .

احنوا رؤوسكم .

ليجب الكل بصوت عال : آمين (٥) .

ما يحدث ايضا بالنسبة للموعوظين يتم ايضا بالنسبة للمربوطين بأرواح شريرة ، اذ نقدم عنهم صلاة خاصة بهم .

« في هذه اللحظة يدعو الشماس المأسورين من الشياطين ويأمرهم أن يحنوا رؤوسهم فقط ، غانه يليق بهم على الأقل أن يشتركوا في التضرع لله بخضوع أجسادهم ، اذ لا يسمح لهم بالشركة في صلوات اجتماع الاخوة ...

انه يدعوهم لكي يرثى لكارثتهم وصمتهم (٦) ... ويشفع فيهم أمام الله ...

هؤلاء لا يحضرون لكي يعاقبوا ، انما لكي يرفع الشعب وكل المدينة المجتمع هنا الطلبات من اجلهم ، متوسلين بقلب واحد الى الرب ، متضرعين الى لطفه بأصوات عالية (٧) .

(5) In 2 Cor, hom 2 .

(٦) البعض يصابون بخرس .

(7) De Incomp, hom 3 , 4 .

ثالثا : الشمامسة ينذرون الشعب بالصمت !

يتحدث عن انذار الشماس للشعب للوقوف بصمت ورعدة ، قائلا :
« النداء الذى يوجهه الشماس للجميع ، قائلا : تفوا وانصتوا لا يقال
بغير سبب ، انما لكى نرفع افكارنا التى ارتبطت بالأرض ، ونطرد هموم
الحياة اليومية ، فنقدم لله نفوسنا المتحررة ...
الوقوف بخوف لا يعنى الا الوقوف فى حضرة الله كما يليق بخوف ورعدة ،
أى بنفس ساهرة متيقظة (٨) » .

مرة أخرى يعلق على ذات الموضوع ، قائلا :

« تذكر بجانب من أنت واقف ؟

وفى صحبة من أنت تصلى لله ؟!

انك فى شركة مع الشاروبيم .

تذكر الجوقة التى تقف معك فهذا يحفزك على السهر .

تذكر انك وانت فى الجسد ومرتبطة به قد تأهلت للاحتفال بسيد الكل فى
شركة فى القوات غير المتجسدين . لذلك لا يليق ان يشترك أحد فى هذه الألحان
المقدسة السرية بفتور . لا يسمح أحد لأفكاره أن تنحط الى الماديات انما
يليق به أن يطرد من ذهنه كل فكر أرضى ، مرتفعا الى التمام فى صحبة
السيرافيم ، مسبحا للرب ترنيمة مقدسة ، تسبحة المجد والعظمة (٩) .

رابعا : تسبحة الثلاث تقديسات Trisagion :

يرى القديس أن التسبيح بهذه التسبحة هو دخول الى الليتورجية
السماوية حيث « يمجّد الملائكة الله ، ويتعبدون له ، ويترنمون له بتسابيح
النصرة السرية mystical فى وقار (١٠) » .

خامسا : إعطاء السلام :

يقول القديس : « فى كل كنيسة يعطى الرئيس (الأسقف) السلام (١١) » .

لقد اقتطف Bingham عن القديس هذا القول :

« ليس شئ مثل السلام والاتفاق ، فان أبانا (الأسقف) لا يصعد
على هذا الكرسي الا بعد أن يعطى السلام للجميع ، ولا يقدم تعليماته لكم الا بعد

(8) Ibid. PG 43 : 389 — 395 . (9) Ibid. PG 43 : 408 — 420 .

(10) De Incomp, hom 1 .

اعطائه السلام لكل . والكهنة يقدمون أولا هذه الصلاة من أجلكم عند القديس
وبعد ذلك يعطون البركة . والشمامسة عندما يأمرنكم بالصلاة انما يطلبوا
أن تصلوا لأجل ملاك السلام .

كل الأمور الموضوعة أمامكم هي لسلامكم . . .

وعند انصرافكم من هذا الاجتماع يطلب لكم قائلا « امضوا بسلام (١٢) » .
ويرى القديس أن الكنيسة وهي بيت الجميع وموضوع السلام لكل ،
فيها يقبل الأخوة بعضهم بعضا بقبلة السلام كعمل أفخارستي جوهرى .

سادسا : ليتورجيا من أجل العالم كله :

يقدم المؤمنون ذبيحة الحب بقلب متسع للعالم كله ، فيصلون من أجل
الرئيس (الامبراطور) والجند والمرضى والمسافرين . . . لينعم كل شخص
بما يحتاج اليه .

لا يقف حيننا عند حدود اخوتنا في العالم بل نذكر حتى الذين سبق رقادهم :
« ليس باطلا تذكر الذين رحلوا عنا ، في الأسرار الالهية ، ونشفع
فيهم متوسلين الى الحمل المضطجع امامنا ، الحامل خطايا العالم (١٣) . » .

« ليس باطلا امر الرسل ان نذكر الموتى في الأسرار المهيبة ، اذ يعرفون
أن في ذلك تنفعا عظيما لهم . لأنه كيف لا يغلب الله بتوسلاتنا عنهم متى وقف
الشعب كله بأيد مرفوعة في اجتماع كهنتي وقيموا ذبيحة مهوبة ؟! اننا نفعل
هذا من أجل الراحلين المؤمنين . . . ونقدم عطاءا للفقراء من أجلهم ، اذ يريدنا
الله أن نعين بعضنا البعض (١٤) . » .

سابعا : كانت العادة في أيامه أن يتقبل المؤمنون الجسد في أيديهم ،
كما يظهر من قوله : « لا تتجاسر أن تلمس الذبيحة المقدسة بأيد غير مغسولة
. . . ولا تقترب بنفس غير مغتسلة . فان الأمر الأخير اشر من الأول ويجلب
عقوبة أشد (١٥) . » .

ثامنا : يمنع الشماس غير المستحقين من التقدم للتناول ، اذ يخاطبهم
قائلا : « ان أذاك انسان للتناول عن جهل غامنه ولا تخف . خاف الله
لا الانسان . فانك ان خشيت الانسان تحتقر أيضا منه . لكنك ان خشيت
الله يحترمك حتى الناس . ان كنت لا تجسر على ذلك فاحضره لى . . . انى

(11) In Mat, hom 32 : 9 .

(12) N & PNF, vol 10, P 216 .

(13) In 1 Cor, hom 41 : 4 .

(14) In Philip, hom 3 .

(15) Conc. Statues, hom 20 : 19

مستعد أن أسلم حياتي ولا أهين ذم المسيح وأقدمه لغير المستحقين . مستعد أن يسفك دمي ولا أعطي هذا الدم المهبوب بغير لياقة (١٦) .

تاسعا : الاستحقاق للتناول :

« عندما يقول (الكاهن) : القدسات للقدسين ، هذا يعنى أن ينسحب من مكان غير مقدس » .

« الذى يعطينا الاستعداد للاقترب هو الاخلاص ونقاوة النفس (١٧) » .

« لا يقترب أحد من هذه المائدة تناول بدون اشتياق ، انما يلزم أن يتقدم الكل وهم ملتهبون بحرارة التقوى والشجاعة (١٨) » .

« نرى البعض قد اعتادوا الحضور الى الكنيسة بثياب نظيفة وأيد مفسولة ، ولا يهتمون أن يحضروا بنفوس نقية لله . لست أقول هذا لكي أمنعهم عن غسل أيديهم وغبهم ، انما أود أن يفتسلوا كما ينبغى ، لا بالماء فقط وانما بكل الفضائل ، لأن دنس الفم هو الكلام الشرير والتجديف والسب والغضب والمضحك ... (١٩) » .

+ + +

(16) In Mat, hom 82 : 5 .

(18) In Mat, hom 82 : 4 .

(17) In Eph, hom 3 .

(19) In Mat, hom 51 .

(ج) الأعياد والأصوام

تكشف لنا أعمال القديس عن بعض الطقوس والتقاليد الخاصة بالأعياد كما عاشتها الكنيسة في أنطاكية والقسطنطينية في ذلك الحين ، كما تكشف عن بعض العادات الخاطئة التي حاول القديس معالجتها :

١ — كانت تقام عظات يومية في كنيسة أنطاكية اثناء الصوم الكبير (١) .

٢ — كثيرون كانوا يجدون في فترة الصوم الكبير والأعياد فرصة للتمتع بالتناول من الأسرار المقدسة ، لكن القديس كان يوجههم للاهتمام بالتوبة والحياة الفاضلة كأساس للتمتع بهذه الشركة ، وليس مجرد حلول هذه الأيام (٢) .

٣ — كان بعض الأباطرة المسيحيين يبعثون برسائل خاصة بالنصح فيها يعلنون اطلاقهم ما أمكن من المسجونين ، وذلك كما حررنا الرب من أسر خطايانا . وقد جاءت رسالة ثيودوسيوس عام ٣٨٧ م يقول فيها : « آه لو أمكننى أن أقيم حتى الموتى (٣) » .

٤ — من العادات التي مدحها القديس اجتماع العائلات الفقيرة معا في جماعات لتقيم ولائم مشتركة على العيد ، حيث يعجز الفرد أو الأسرة الواحدة عن اقامتها (٤) .

٥ — كان البعض يشترون بعض الملابس الجديدة على العيد ، فكان يطالبهم أن يقتنوا فضائل جديدة تذكرا للعيد ، ويخلعوا رذائلهم .

مفهوم العيد :

« كل الأيام التي نعيشها هي عيد ... كل الزمان هو عيد للمسيحيين ، وذلك من أجل سمو البركات التي ننالها (٥) » .

الحياة المسيحية — عند القديس — هي عيد ممتد ، خلالها ينعم المؤمن بفيض بركات عمل الله الخلاصى في حياته ، متهللا بالله مخلصه ... هذا

(1) Conc. Statues, hom 5 : 20 . (2) In Hebr, hom 17 : 8 .

(3) Conc. Statues, hom 6 : 6 .

(4) Con. Statues, hom 11 : 15 ; In Rom, hom 24 .

(5) In 1 Cor, hom 27 .

المفهوم العام تسنده الأعياد السيديّة السنوية حيث تفكرنا بجانب من جوانب أعماله الخلاصية كميلاد السيد (تجسده) وقيامته الخ ... فلا نحتفل بالعيد كفرصة لتنعم الجسد بل لفرح النفس ونموها الروحي .
« العيد عو عرض لأعمال صالحة ،

هو تكريم للنفس :

هو تدقيق في السلوك (٦) .

هكذا يحمل العيد معنى عملي لممارسة حياة الشركة مع الله ، والسلوك كما يليق كأولاد لله ، لا أن نغمس في الأكل والشرب والشهوات :
« ليس من يفسد العيد مثل من يحفظه وهو لا يزال في شره ودعواته ، بل بالأحرى أقول لكم أن مثل هذا الشخص لا يقدر أن يحفظ العيد حتى وإن بقي عشرة أيام متتالية بلا طعام ، لأنه حيث يوجد الصراع والعداوة لا يوجد صوم أو عيد (٧) .

« قد وضعت الأعياد لا لنسلك بغير لياقة ، ولا لكي نحشد الخطايا وإنما لمغفرة خطايانا القائمة (٨) .

ولا يفوته أن يعلن مدى حزنه على تجمهر الشعب في الكنيسة أيام الأعياد وانصرافهم عنها بعد ذلك . « أنتم اليوم مسرورون وأنا وحدي حزين لأنني حينما أنظر إلى هذا البحر الروحي المائج بكم وأرى غنى الكنيسة غير المحصور أفكر أن هذا الجمع الغفير بانقضاء العيد يبتعد عني ويتفرق ، لذلك تحزن نفسي وينكسر قلبي لأن الكنيسة التي ولدت أولادا كثيرين لا تتعزى بهم في كل اجتماع بل في الأعياد فقط (٩) .

مفهوم الصوم :

الصوم — عند القديس — ليس عملا جسديا ، بل هو تحرير للنفس خلال جهاد الجسد مع الروح للدخول في حياة الشركة مع الله .
« ليس الصوم رياضة جسدية بل روحية (١٠) .

« الصوم غذاء الروح ، يجعلها أكثر صلابة ، ويهبها اجنحة خفيفة بهما تنطلق إلى الأعالي (١١) .

« لتقف بجوار انسان صوام ، غانك تشتم في الحال رائحته الذكية ،

(6) In 1 Cor, hom 18 .

(7) Conc. Statues, hom 20 : 19 .

(8) In 1 Cor, hom 27 .

(٩) المطران ابيفانيوس : الآمالى الذهبية ، ص ٣٥ .

(10) In 1 Tim, hom 12 .

(11) Conc. Statues, hom 3 : 12 .

لأن الصلاة رائحة روحية ، يعلن صلاح النفس خلال العين واللسان وكل عضو ... لست أقول هذا لكي أدين الذين يأكلون ، وإنما لأظهر فائدة الصوم (١٢) .

« من يصم يصبح خفيفا كما لو كان نه أجنحة فيصلى بنشاط كلى ويخمد الشهوات الشريرة ويستعطف الله ويجعل نفسه المتعجرفة متضعة ، لذلك صام الرسل أكثر الأوقات . ومن يصلى صائما يملك جناحين أخف من النسيم ، فلا يهذى ولا يتثائب ولا تنحط قواه في وقت الصلاة كما يحدث مع الكثيرين . فهو أسرع من لهيب النار وأرفع من الأرض فقط ، وهكذا يظهر عدوا ومحاربا للشيطان . لأنه لا أحد أقوى من المصلى بحرارة ، فإذا كانت تلك المرأة قدرت أن تستعطف القائد القساسي الذي لم يخف ولا يخجل من البشر ، فكم بالحرى يستعطف الله من يقف أمامه رافضا الملذات العالمية وتاركا أنواع المآكل الشهية ... (١٣) » .

الصوم وسيلة لا غاية :

كثيرا ما تحدث عن الصوم كاستعداد روحي للعيد يلزم أن ترافقه التوبة عن الخطايا مع الصلاة والتأمل والشركة في الأسرار المقدسة وممارسة الفضائل . كما تحدث عنه أيضا كاستعداد روحي يهيئ الإنسان للتمتع بالشركة في الأسرار (١٤) . فالصوم « هو معاون عظيم جدا وحليف لنفعنا (١٥) » .

« جرت العادة في الصوم الأربعيني أن يسأل كل الآخر عن عدد الأسابيع التي صامها . من المحتمل أن نسمع واحدا صام اثنين أو ثلاثة ، وآخر صام الصوم كله . فما الفائدة إذا اجتزنا الصوم من دون أعمال صالحة ؟ فإذا سمعت أحدا يقول انه صام الصوم الأربعيني كله ، فقل له : كان لك عدو فسامته ، وكنت معتادا على النعمة فتركت هذه العادة ، وكنت تهذا بالآخرين ، فأهملت هذه العادة النعمة أيضا . فليست الفائدة للملاحين في اجتيازهم المسافات الكبيرة في البحار فقط بل في اجتيازهم أياها مع الأحمال الثقيلة والبضائع الكثيرة . كذلك نحن لا فائدة لنا من الصيام إن اجتزناه سدى بدون تأمل (١٦) » .

(12) Con. Statues, hom 20 : 19 .

(١٣) المطران ابيفانيوس : الآمال الذهبية ، ص ١٢٠ .

(14) In 1 Cor, hom 27 .

(15) Conc. Statues, hom 3 : 12 .

(١٦) المطران ابيفانيوس ، الآمال الذهبية ، ص ٥٩ .

الصوم مع التسوية :

« صوم فمك عن الأحاديث الشريرة والتعنيف ، لأنه ماذا ينفع ان صمنا عن الطيور والأسماك (١٧) ، ونحن نأكل اخوتنا وتنهشهم ؟

من يتكلم بالشر على أخيه إنما يأكل لحمه وينهش جسد قريبه . لذلك نطق بولس بقول مرعب (١٨) : فإذا كنتم تنهشون وتلكون بعضهم بعضا ، فانظروا لئلا تقتلوا بعضهم بعضا (١٩) » .

« اننا لا ننتفع شيئا من هذه الأتعاب المضاعفة والجهادات الخاصة بالصوم ان كنا غير قادرين على التمتع بالمائدة المقدسة بضمير صالح ...

ليتأمل كل منا في نهاية الصوم أي أخطاء قد أصلحها ؟ ! أي خطايا تخلص منها ؟ أي وصايا تطهر منها ؟ وليعرف إلى أي حال أفضل قد بلغ ؟

بهذا يكشف (المؤمن) خلال سيرته الصالحة ما انتفع به من الصوم مدركا في داخله أنه قد اعتنى بجراحاته . بهذا يقترب إلى هنا .

ليته لا يعتمد الانسان على الصوم وهو لا يزال بعد لم يصلح أفعاله الشريرة (٢٠) » ...

« انى أتحدث عن الصوم الحقيقي ليس امتناعا عن الطعام فحسب ، بل وكف عن الخطايا أيضا ... فقد صام الفريسي وخرج صفر اليدين ، معدما من ثمر الصوم ... أما اهل نينوى فصاموا وريحوا مراحم الله (٢١) » ...

صام اليهود ولم ينتفعوا شيئا بل امتلأوا لوما (٢٢) .

فالخطر عظيم بالنسبة للذين لا يعرفون كيف يصوموا .

لنتعلم قوانين هذا التدريب حتى لا نسعى باطلا ، ولا نضرب الهواء ، ولا نحارب الظل .

الصوم دواء ، لكن الدواء يصير غير نافع بل ضارا للذين يستعملونه بغير مهارة ... (٢٣) » .

« كرامة الصوم لا في الامتناع عن الطعام بل في الانسحاب من الاعمال الشريرة ...

(١٧) ألقيت أثناء الصوم الكبير عام ٣٨٧ حيث يصام عن الأسماك .

(١٨) غلا ٥ : ١٥ .

(١٩) Conc. Statues, hom 5 : 19 . (٢٠) Conc. Statues, hom 20 . 1 .

(٢١) يونس ٣ : ١٠ . (٢٢) أش ٥٨ : ٣ ، ١٧ ، ١ كو ٩ : ٢٦ .

(٢٣) Conc. Statues, hom 3 : 8 .

لا تصوم فمك وحده ، بل صوم أيضا عينيك وأذنيك وقدميك ويديك وكل أعضاء جسدك .

صوم يديك بالنقاوة من الاغتصاب والطمع .

صوم قدميك بالكف عن الجرى الى المسارح الشريرة .

صوم عينيك بتعليمها الا يرتكزا في التطلع على ملامح البعض وينشغلا بالجمال الغريب ...

اما صوم الأذنين فيكون بعدم قبول الكلام الشرير (٢٤) « .

الصوم والصلاة :

« صام المرسل أكثر الأوقات .

ومن يصلى صائما يملك جناحين أخف من النسيم (٢٥) « .

الصوم والصدقة :

« صوم بدون صدقة لا يحسب صوما . من يفعل هذا يكون اثر من الانسان النهم والبكر لأن القسوة أخطر من الترف (٢٦) « .

الصوم والشركة في اجتماعات الكنيسة :

« من يأكل ويشترك في الجماعة المقدسة بغير لائقة ، افضل بكثير من الذي لا يأكل ويفيب (٢٧) « .

+ + +

(24) Conc. Statues, hom 3 : 10 .

(25) In Mat, hom 57 : 5 .

(26) In Mat, hom 77 : 6

لنمطران ابيفانيوس ، ص ١٢٠ .

(27) Conc. Statues, hom 10 : 1 .

(د) رسم علامة الصليب

« أنت أحد المؤمنين ، ارسم علامة الصليب .

تل : هذا هو سلاحى الوحيد ، هذا هو دوائى ، لا أعرف شيئاً
سواه (١) » .

هذه الممارسة تتحول فى حياة المؤمن الى عادة روحية لها غايتها فى طرد
الافكار الشريرة ، اذ يقول : « كثيرون لهم عادة رشم الصليب باستمرار .
هؤلاء لا يحتاجون الى من يذكرهم بها : فغالبا ما تمارس يدهم هذه العادة
لا اراديا عندما يجول الفكر الى أمور أخرى ، وكأنها صارت بالنسبة لهم
معلما حيا يثير اليهم بالترشم (٢) » .

رشم الصليب بفهم :

تحول رشم الصليب الى عادة يلزم الا بفقدنا فهمنا لقوة الصليب
الخلاصية وادراكنا انها علامة لقبول حب الله اللانهائى لنا وتجاوب لعمل
المصلوب ، وشوق لحمل الصليب مع الرب المصلوب . . .

فى هذا يقول : « لا يخل أحد من علامة مخلصنا المكرمة .

هى رأس كل الاعمال الصالحة ،

بل ونحمل صليب المسيح بكونه اكليلا .

عندما يولد أحد ميلادا جديدا يكون الصليب حاضرا .

وعندما ننتعش بالطعام السرى او يسام أحد (للكهنوت) او يفعل
امرا ما ، تكون علامة النصر موجودة .

لنتنشه بكل حرص على البيت والحوائط والنوخذ وفوق جباهنا وعلى
ذهبننا .

هى علامة الخلاص المقدم لنا ، وعلامة حريتنا وصلاح ربنا لانه
كثشة سيق الى الذبح (٣) .

عندما ترشم ذاتك بعلامة الصليب اشغل ذهنك فى غاية الصليب ،
مطفئا الغضب وكل الشهوات الأخرى .

(1) In Colos, hom 8 .

(2) In 2 Tim, hom 6 .

(٣) أش ٥٣ : ٧ .

عندما ترشم ذاتك بعلامة الصليب املاً جبهتك بالشـجاعة ، ولتكن نفسك حرة ، لكى تعرف بكل تأكيد من أين تنال الحرية ؟ . فعندما قادنا بولس الى هناك ، اقصد الى حيث الحرية الملائكة بنا ، انما قادنا الى صليب ربنا ودمه ، مذكرا ايانا بهذا ، قائلا : لقد اشترىتم بثمن . لا تكونوا عبيدا للناس (٤) . كانه يقول : تأملوا الثمن الذى دفع لأجلكم فلا تكونوا عبيدا لانسان ، قاصدا بالثمن « الصليب » .

لذلك فانه يليق بنا الا نكتفى برشمه بالأصابع فقط بل يجب ان ننقشه اولاً باستعداد القلب مع الايمان العظيم . فان رُشمت الصليب على وجهك بالصورة المذكورة لا يجسر روح شرير ان يدنو منك ، اذ يرى السيف الذى قهر به ، وجرح به جرحاً مميتاً . ان المرء يرتعش عند رؤية المقصلة المعدة لاعدام المجرمين ، فكم يكون خوف الشياطين عندما يرون ذاك السلاح الذى حطم به المسيح قواهم وقطع رأس الحية ؟

لهذا لا تخجل من عظمة هذه النعمة كى لا يخجل منك المسيح عند مجيئه فى مجده ، اذ تظهر هذه العلامة امامه مضيئة اشد لمعاناً من الشمس ! فظهور علامة الصليب برهان للعالم بأسره وشهادة عن تتهيم ما ينبغى عمله لأجل المسيح .

هذه العلامة — كما اختبرها آباؤنا فيما مضى ونحن فى وقتنا الحاضر — تفتح الأبواب الموصدة وتلاشى قوة الأعمال المضرة وتحول تأثير السم وتبرى الجراح المميتة الحاصلة من أنياب الوحوش الكاسرة . فكما أنها حطمت أبواب الجحيم وفتحت أبواب السموات وقدمت مدخلاً جديداً للفردوس وهدمت حصون الشياطين ، فلا عجب أن تغلبت أيضاً على المواد السامة والوحوش الكاسرة وما شابهها . . .

اذن ، فلتنقش هذه العلامة على ذهنك . . . لأن الصليب جدد العالم وهواه ، وطرد الضلال وأعاد الحق ، جعل الأرض سماءاً والبشر ملائكة . به لم تعد الشياطين مرعية ، بل تافهة ومزدرى بها .

به لم يعد الموت موتاً بل رقاداً ، فقد انطرح الذى يحاربنا تحت أقدامنا .

ان قال لك أحد : اتعبد المصلوب ؟ قل بصوت مملوء فرحاً وملاحم مبتهجة : نعم أعبد . وان ضحك غابك عليه (٥) « .

(٤) ٢ كو ٧ : ٢٣ .

(5) In Mat, hom 54 : 7.

« ليست علامة عظيمة عن محبة الله للبشرية : لا السماء ولا البحر ولا الارض ولا خلقه كل شيء من العدم ، ولا هذا كله معاً مثل الصليب ! لهذا فهو فخر بولس القائل (٦) : حاشا لي ان افتخر الا بصليب ربنا يسوع المسيح (٧) » .

« لنعلق الصليب فوق اسرتنا عوض السيف ،
ولننقشه على ابوابنا بدل المزلاج ،
ونمكن حول بيوتنا موضع السور (٨) » .

+ + +

(٦) غلا ٦ : ١٤ .

(٧) In 2 Tim, hom 2 .

(٨) الاب حنانيا كساب : مجموعة الشرع الكسبي ، بيروت ٧٥ ، ص ٥٩٤ .

(هـ) طقوس أخرى

حملت كتابات القديس وعظاته الكثير من الطقوس التعبدية والتنظيمات الكنسية بغير حصر ، نذكر على سبيل المثال : طقس التسبيح والترنم ، اذ يقول :

« لا شيء يعطى للنفس أجنحة ، وينزعها عن الأرض ، ويخلصها من رباطات الجسد ، ويعلمها احتقار الأمور الزمنية مثل التسبيح بالنعمة الموزونة » .

« النفس بطبيعتها حساسة للموسيقى ، فلكي يحرم الله الشياطين من أن توحى للبشر بالأغاني الخلية وضع لهم المزامير لحمايتهم ، فهي نافعة ومحبية في نفس الوقت . بالأناشيد الروحية تنطلق النفس مع الشفقتين بنعمة الروح القدس » .

كما أوضح كيف استخدم طقس التجنيز التسبيح بالمزامير ، اذ يقول :

« فكر بماذا ترنم في هذه المناسبة ؟

« أرجع يا نفسي الى موضع راحتك لأن الرب قد أحسن اليك (١) » .

وايضا : « لا أخاف شرا لأنك أنت معي (٢) » .

وايضا : « أنت ملجأى من الغم الذى احاط بى (٣) » .

تأمل ، ماذا تعنى هذه المزامير ؟ لكنك لا تعطى اهتماما لمعانيتها بل تسكر حزنا . تأمل باهتمام أن الأحزان الخاصة بموت الغير انما هى لعلاجك !

« أرجع يا نفسي الى راحتك لأن الرب أحسن اليك » . أخبرنى ، هل تقول أن الرب أحسن اليك وأنت تبكى ؟ أما يكون هذا تمثيلا ، أو يكون رياء ؟ فإن كنت تؤمن حقا بما تقول فلا موضع لحزنك ، لكن ان كنت تقوم بدور تمثيلى وتظن أن هذه الأمور واهية ، فلماذا تغنى بالمزامير ؟ ... لماذا لا تطرد المرتلين بها ؟ (٤) » .

+ + +

(٢) مز ٢٣ : ٤ .
(4) In Hebr. hom 4 : 7 .

(١) مز ١١٦ : ٧ .
(٣) مز ٢٢ : ٧ .

(٤)

منهج السلوكي الإيماني

- الحياة الفاضلة .
- الحياة الفاضلة والعمل الالهي .
- الحياة الفاضلة والجهاد .
- حول الحياة الفاضلة .

الحياة الفاضلة

يعتبر القديس يوحنا الذهبي الفم رجل « الحياة الفاضلة » ،
اتسم في عظاته وكتابه بالواقع العملي . فقد آمن بالحياة الإيمانية الانجيلية
الكنسية كحياة عملية تمارس وتختبر وليس كمادة للاهوت النظري أو الفلسفة
والتأمل .

لقد عشق الكتاب المقدس ، لكنه لا يحبس نفسه ليعيش بين المجلدات ،
ليخرج تفاسير جديدة ، ولا يقضي الليالي الطوال في التأمل والدهش ...
لكنه يرى في الكتاب المادة الحية يأكلها المؤمن يشبع بها ويشهد لها .
أحب الكنيسة وتقاليدها وأسرارها لا في تعصب دمقوت بل في اتساع قلب .
يراهنا حياة ملائكية علوية لكنها أيضا تحمل الجانب الواقعي العملي ،
لأناس يعيشون في هذا الجسد على الأرض . وفي حبه لإيمانه لا يشتبه أن
يخلق في اللاهوتيات ليكتب أسرارها إنما يرى في الشركة العملية مع الثالوث
القدوس كل الكفاية للنفس وكل الحصانة ضد الهرطقة والمقامين .

هذا الاتجاه العملي جعل من كتاباته وعظاته مزيجا حيا للجانب الإيماني
الروحي الكنسي مع الجانب الإنساني الواقعي لهذا خرجت كلماته بسيطة
محيية النفس ، لتلتقفها الكنيسة شرقا وغربا لا تحتفظ بها في مكتباتها كتراث
ثمين بل بالأكثر تمزجها مع طقوسها ليعيش بها الشعب عبر العصور ...

وفيما يلي صورة مختصرة لمفهومه للحياة الفاضلة أو السلوك المسيحي
العملي عند هذا القديس .

مفهوم الحياة الفاضلة :

١ — تحدث القديس يوحنا الذهبي الفم كثيرا جدا عن « الحياة الفاضلة » ككل وعن الفضائل في تفاصيلها من جانبها الايجابى والسلبى ، فتحدث عن فضائل الحب لله ومحبة القريب ومحبة الأعداء والعطاء وعدم الادانة وعدم الحسد وعدم القسم والطهارة والبتولية الخ . . . لكنى أود أن نكون أناسا أخلاقيين نعيش الحياة الفاضلة على المستوى الاجتماعى الأخلاقى البحت ، لكنه أرادنا أن ننعم بالفضيلة خلال شركتنا مع الله لنكون على شبهه وندخل الى الحياة الملائكية السماوية .

فى هذا يقول : « أننا (بالفضائل) نصير متساويين مع الملائكة . يقدم لنا الملكوت فنحسب متحدين مع المسيح . أننا نعلم أننا بدون الفضيلة نصير أدنى من الحيوانات العاقلة ، لذا يليق بنا أن نتدرب أن نكون بشرًا ، لا بل بالأحرى نكون ملائكة ، لكى ننعم بالبركات الموعود بها خلال نعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح (١) » .

مرة أخرى يقول : « يمكننا أن اردنا وبمعونة نعمة الله العاملة فينا أن ننافس بأرواحنا الأرواح السماوية ، بل وقد نفوقها (٢) » .

٢ — الحياة الفاضلة ليست مجموعة فضائل متراسة واحدة بجوار الأخرى ، لكنها فى حقيقتها هى وحدة واحدة متكاملة تمثل « الحياة الواحدة فى المسيح يسوع » . كل فضيلة إنما تمثل جانباً من هذه الحياة غير معتلية للفضائل الأخرى ، لهذا يقول : « لا تكنى الفضيلة الواحدة أن تحضرنا بدالة أمام كرسي المسيح . لا ، بل نسأل أن تكون لنا الفضيلة العظيمة المتنوعة الجامعة الكاملة . اسمع ما يقوله السيد المسيح لتلاميذه : « اذهبوا وتلمنوا جميع الأمم » وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به (٣) » وأيضاً : « من يكسر أحد الوصايا الصغيرة يدعى الأصغر فى ملكوت السموات (٤) » ، أى فى القيامة . . . بل لا يدخل الملكوت (٥) » .

٣ — لا تقف الحياة الفاضلة عند السلبيات بل يلزم أن يرافقها العمل الايجابى . ففى المسيح يسوع ليس فقط تهدم أعمال الإنسان العتيق ، وإنما تقوم فيها أعمال الإنسان الجديد لنحيا كأولاد لله . الفضيلة ليست رغضا لملكة إبليس وكل أعمالها فحسب وإنما هى قبول للملكوت

(1) In Philip, hom 7 .

(2) In Gen. PG 54 : 104 .

(٤) مت ١٩ : ٥ .

(٣) مت ٢٨ : ١٩ .

(5) In Eph, hom 4.

المسيح وأعماله فينا . هي تحطيم للشر خلال ممارسة الخير والبنیان الايجابى الداخلى .

يقول : « تنقسم الفضيلة الى امرين : ترك الشر وفعل الخير . الانسحاب من الشر ليس كافيا لبلوغ الفضيلة ، انما هو بداية الطريق الذى يقود اليها . لا تزال تبقى هناك حاجة لنشاط عظيم (٦) » .

« تطالع الى لطوباوى بولس الذى ينزع البذار الشريرة ، وفى نفس الوقت يحتثنا على احتجاز البذار الصالحة ، اذ يقول : « كونوا لطفاء (٧) » . فانك ان نزعنا الأشواك وتركنا الحقل عاطلا يعود فيمتلىء أعشابا غير نافعة . اذن الضرورة ملحة لشغل الحقل وزرع البذار الصالحة والنباتات المفيدة .

لنطرد الفضب ، ونضع الشفقة .

لننزع كل مرارة ، ونثبت الحنان .

لنستبعد الحقد والسخط ونزرع التسامح عوض عنهما (٨) » .

٤ — **الفضيلة بين لغة الروح واللغة الانسانية** : حين يتحدث القديس يمزج بين لغة الايمان والروح وبين اللغة الانسانية بطريقة بشرية كما يتحدث احيانا بلغة الأرقام .

ففى حديثه عن الصدقة يتحدث بلغة الروح فيتحدث عن الفهم كممثل للسيد المسيح ، قائلا : « بقدر ما يكون الانسان من الأصاغر هكذا يأتى المسيح خلاله (٩) » . . . ويرى فى أموالنا هى أموال الجسد كله أى الكنيسة : « لا تقل اننى انفق من أموالى ، ومن أموالى أعول الآخرين ، فانها ليست أموالك ، بل هى أموال غيرك . فكل فعل أو نفع يعود على الجسد كله ويخدم كافة الأعضاء ، فان عاد النفع على عضو واحد فقط كان هذا العضو غريبا عن الجسد ، هكذا بالنسبة للأموال (١٠) » .

مرة أخرى يحدثنا عن الصدقة بلغة بشرية : « ان كنت تشقى أن يكون لك أناس ينظرون صدقتك ، فانه لن يعمدك هذه الشهوة فى الوقت المناسب ، بل يشبعها فيك بزيادة كبيرة . . . فان الله يشهد بها ويذكرك فى حضرة أهل المسكونة كلها (١١) » .

(5) In Eph, hom 4 .

(6) In Thess, hom 5 .

(8) In Eph, hom 16 .

(٧) أف : ٣٢ .

(٩) : للمؤلف : الحب والعطاء ، طبعة ١٩٧٠ ، ص ٨ .

(١٠) : الحب والعطاء ص ١٣ .

(١١) : الحب والعطاء ص ١٨ ، ١٩ .

ويتحدث عنها أيضا بلغة الأرقام اذ يعلن استعداده أن يقدم احصائية عن الفقراء والأغنياء ليؤكد أن المدينة قادرة أن تشبع عشر مدن أخرى .

وفي حديثه عن محبة الاعداء يتحدث بلغة الروح قائلا : « كيف تطمع في نوال المغفرة اذا نضرعت الى الله وأنت ام تسامح بعد نفسك بعدم مسامحتك الذين صنعوا بك شرا ؟ ! كيف اذن يصنع الله عن هفواتك ؟ ... (١٢) » . ويتحدث أيضا عن المستوى الانساني الاجتماعي : « ان أردت أن تنتقم لنفسك ، فاستخدم هذه الوسيلة : قابل الشر بالخير ، بهذا تجعله مدينا لك وتنعم بنصرة جيدة . اتحتمل شرورا ؟ ! اصنع الخير فتنتقم من عدوك . لأنك ان قاومته يلومك الجميع كما يلومونه على نفس المستوى . لكنك ان احتملته يمدحونك ويعجبون بك ، أما هو فيؤوبخونه . أية عقوبة للعدو أشد من أن يرى عدوه قد صار موضع اعجاب كل الناس ومديحهم ؟ ! وأى مرارة قاسية يعانها اذ يرى نفسه ملوما من الجميع أمام عدوه ؟ ! ان غفحت فمك لتنتقم صمت الكل ، أما ان صمت أنت فانك تسبه لا بلسان واحد ، بل بعشرات الألوف من السنة الآخرين ، فيكون الانتقام اعظم ... أتظنون ، لماذا قال ربنا المسيح : « من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضا (١٣) » . ليس لكي يحتمل الانسان ضربا أكثر ، وانما لأن في هذا نفع للآخرين ... فانك بهذا تشبع رغبة الانسان الغضوب فيخزي ... فان الكلاب أيضا يقال عنها انها اذا هاجمت انسانا فالقى بنفسه على ظهره ولم يفعل شيئا بهذا غضبهم في الحال . فان كانت الكلاب تحترم من يحتمل شرها ، كم بالأكثر يليق بالبشر وهم أكثر تعقلا ؟ ! (١٤) » .

وفي حديثه عن محبة العالم وشهوات الجسد يتحدث بلغة الروح ، فيرى في التوبة طريق الانطلاق فوق كل محبة للأرضيات ونمو لأحاسيس الجسد واشتياقاته ، فيقول : « التوبة نار تلتهم كل ضعف بشري ، تنزع التهاون والكسل وثقل الجسد ، وتعطي للنفس جناحا تطير به نحو السماء ، وتظهر لها خلال هذه القمة المرتفعة بطلان هذه الحياة الحاضرة ، من لا يرتفع الى مركز المراقبة لا يستطيع أن يلتقط صورة صادقة للأرض ومحتوياتها . فان أمورا كثيرة تظلم مجال الرؤية وتصم الأذنين وتلعثم اللسان . لهذا يليق بالانسان أن ينتزع نفسه من هذا الصخب ويتعد عن الدخان ويدخل الى الوحدة ليجد السلام العميق والهدوء والسكون مع الاستنارة . عندما تركز الاعين على حب الله ، ولا تعود تسمع الآن الا كلماته وكأنها سيمفونية

(12) In Mat, hom 66 : 3 .

(١٣) الحب الأخوي ، ١٩٦٤ ، ص ٣٢٢ .

(١٤) مت ٥ : ٣٩ .

زوحية عذبة ، تصبح النفس أسيرة (لله) تشعر بتقزز من الطعام والنوم .
حقا ان ضجة العالم والاهتمامات المادية تنزلق على النفس لكنها لا تدخل اليها
وبارتفاع النفس هكذا لا تعود تبالي بفرقعات العواصف الأرضية . وكما ان
الذين يبلغون قمة الجبل لا يعودون يسمعون أصوات المدينة ولا يرون ما يدور
فيها ، انما يحسبون هذه كلها أشبه بضجيج مبهم ، هكذا الذين تركوا العالم
بارادتهم وانطلقوا يطبسون في مرتفعات الفلسفة (الحكمة) لا يعودون يدركون
شيئا عن أحوال العالم لأن كل حواسهم متجهة نحو السماء . **اذن لنبحث**
لا عن وحدة البرية فحسب انما عن وحدة الرغبة الداخلية . لنختبئ فوق
أعلى قمة النفس حيث لا يسكن فيها شيء أرضي . ان قوة التوبة كمثّل هواء
يطرد الغبار ويكنس الشهوات أسرع من الدخان (١٥) .

وينحدث « عن الشهوات الجسدية » بطريقة بشرية فيقول : « ان كنت
تدرب كلابا على مقاومة الجوع ، وتستأنس أسودا متوحشة ، وتروض
حيوانات جامحة ، وتدرب عصافير على الكلام ، الا يكون من الغباء أن نعلم
حيوانات غير عاقلة ان تتصرف بعقل ونترك المخلوق العاقل نهبا للشهوات
الحيوانية؟! (١٦) » .

+ + +

(15) In Eph, hom 16 .

(16) In Acts, PG 60 : 251 .

الحياة الفاضلة والعمل الإلهي

الحياة الفاضلة والتجسد الإلهي :

الحياة الفاضلة ليست مجموعة من الأخلاقيات أو نوع من السلوك الخارجى ، لكنها هي تمتع بالطبيعة الجديدة الداخلية ، ليكون الإنسان الداخلى مُمثلاً بالله شبيهه ، يحمل سمات حبه . . .

هذا هو هدف التجسد الإلهي . . . « صار (ابن الله) ابناً للإنسان لكي يصير أبناء الإنسان أبناء لله (١) » . خلال التجسد الإلهي قدمت لنا الطبيعة الجديدة التى على شبه المسيح نفسه . بهذا تصير حياتنا مبهجة للآب الذى يحبنا ، اذ يصير الإنسان قيثارة متوافقة نغمها الروحى يسحر الله (٢) .

خلال هذه الطبيعة الجديدة نسمع كلمات القديس : « ها انت ترى الفضيلة هي التى حسب الطبيعة والرنيلة ضد الطبيعة ، وذلك مثل الصحة والمرض (٣) » .

بمعنى آخر « الحياة الفاضلة » ليست من صنعنا البشرى ، لكنها « طبيعة جديدة » قدمها لنا الله الذى قال لنا أنه اختارنا ولمسنا نحن الذين اخترناه (٤) . . . « ان كل الفضل هنا لصاحب الدعوة ، وما على المدعوين الا الطاعة (٥) » . وكما يؤكد القديس « الا نلاحظ أنه ليس شيء ما نفعله بدون المسيح (٦) » .

استشهد القديس بالرسول بولس الذى له فضل في اختياره وتمتعه بهذه الحياة الفاضلة الفنية ، قائلاً : « نتعلم من بولس ان المسيح هو الذى أعلن ذاته له . من أجل هذا يقول السيد : « ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم » (٧) » .

الحياة الفاضلة وعمل الروح فينا :

اذ انطلق الرب الى سمواته أرسل لنا روحه القدوس يسندنا لكي في المعمودية يهبنا الميلاد الروحى الجديد ، ويبقى الروح القدس بمواهبه وعطاياه

(1) In Joan, In Rom, PG 59 : 79 ; 60 : 466 .

(2) In Ps. PG 55 : 497 .

(3) In Eph, hom 2 .

(5) In 1 Cor. PG 61 : 12 , 13 .

(٤) يو ١٥ : ١٦ .

(6) In Eph, hom 1 .

(7) De Laud S Pauli .

سندا لنا يغذى الحياة الفاضلة لكى نبلغ ملء القامة . . . الحياة الفاضلة هي
فى عمل روح الله غينا . . .

فى هذا يقول القديس يوحنا ذهبى النعم :

« لا نقدر أن نجرى فى طريق الله الا محمولين على اجنحة الروح (٨) » .

« بمعونة الله نحن نفعل الخير الذى نمارسه (٩) » .

« ليس أقوى من الذى يتمتع بالعون السماوى ، كما انه ليس اضعف
من الذى يحرم منه ! (١٠) » .

« لنكن أقوى من الجميع ، متمثلين ببولس وبطرس ويعقوب ويوحنا ،
فانه ان غاب عنا عون الله لا نقدر أن نقاوم اتفه اغراء (١١) » .

« لا نخشى شيئا ، فانتا لكى نقهر الشيطان يلزمنا أن نعرف أن مهارتنا
لن تفيد شيئا ، وان كل شيء هو من نعمة الله (١٢) » .

« الذين يعاقبون ، فمن أجل العدالة ،

اما الذين يكلون ، فمن أجل النعمة .

غلو انهم مارسوا الف عمل صالح ، انها يتمتعون بالسما والملكوت مقابل
هذه الأعمال الصغيرة لأجل حرية النعمة ، غير تفعون الى ما لا يقاس (١٣) » .

أخيرا يحث القديس شعبه على التجاوب مع عمل روح الله غيهم قائلا:
« لقد أخذت النعمة الالهية فى المعمودية ، أخذت نصيبك فى الروح ، وان لم
تتصور أن هذا يكفى لعمل المعجزات ، فليكن على الأقل كاف للسلوك فى
الحياة المنتظمة (١٤) » .

+ + +

(8) In Mat, In Gen. PG 57 : 30; 53 : 228.

(9) In Mat PG 57 : 303 .

(10) In Paralyt. PG 51 : 51 .

(11) In Mat PG 58 : 720 .

(12) In Act PG 60 : 124 .

(13) In Mat PG 58 : 720 .

(14) De Compunct. PG 47 : 407

الحياة الفاضلة والجهد

الحياة الفاضلة وحرية الإرادة :

لا يلزمنا الله على الخلاص قهرا ولا يطلب منا ايمانا سلبيا ، يريدنا سادة لنا الايمان الحى فى امكانياته لنعمل بكامل حريتنا ، مجاهدين حتى النهاية .

« لا يفضينا الله ولا تلزم نعمة الروح ارادتنا ، لكن الله ينادينا وينتظر ان نتقدم اليه بكامل حريتنا ، فاذا اقتربنا يهبنا كل عون (١) » .

« الله لا يلزم الذين لا يريدونه ، لكنه يجتذب الذين يريدون (٢) » .

« الله لا يقيّد رغباتنا او ارادتنا بعطاياه ، لكن ما نكاد نبدا ونظهر الاستعداد حتى نجده يعرض علينا فرصا عديدة للخلاص (٣) » .

« أوجد الخالق طبيعتنا سيدة نفسها . غفى رحمته يهبنا معيونه على الدوام وهو يدرك ما هو خفى فى أعماق القلب . انه يرجونا وينصحننا وينهاانا ويحذرننا من التصرفات الشريرة ، لكنه لا يفرض علينا شيئا قسرا . يعرض الأدوية المناسبة ، تاركا الأمر كله لقرار المريض نفسه (٤) » .

« نحن سادة ، فى امكاننا ان نجعل كل عضو غينا آلة للشر او آلة للبر (٥) » .

« ان عطش أحد فليقبل الى ويشرب (٦) » .

انى لا اجتذب انسانا بالقوة او العنف ، لكن ان كان لأحد الارادة الحسنة وماتها بالرغبة ، فهذا انا ادعوه (٧) » .

« لقد ترك كل شيء لارادتنا بعد النعمة التى هى من فوق ، لذا وضعت عقوبات ضد الخطاة ومكافأة للفضلاء (٨) » .

« يعتمد الخير علينا وعلى الله ايضا . فنحن علينا ان نقبل الخير ، فاذا ما اخترناه ينعم الله علينا بما عنده . انه لا يسبق رغبتنا حتى لا يفتصب

(1) De verb Habents.

(3) In Joan. PG 49 : 117 .

(5) Ad. pop PG 49 : 66 , 67 .

(7) In Tit. PG 62 : 688 .

(2) De mut. nom PG 51 : 143 .

(4) In Gen PG 53 : 158 , 159 .

(٦) يو ٧ : ٣٧ .

(8) In Gen PG 63 : 187 .

ارادتنا الحرة . لكن ما نكاد أن نختار حتى ينعم علينا بمعونة هائلة (٩) .
« هكذا عندما يرى سيدنا أن نفسا ترتفع نحو الخيرات الروحية بشوق شديد وحيوية ينعم عليها بنعمته (١٠) » .

« لو كانت النعمة لا تنتظر ما يتحقق من جانبنا لانسكبت بفيض في كل النفوس ، لكنها اذ تطالب ما هو من جانبنا تسكن في البعض بينما تترك البعض الآخر ، ولا تظهر في البعض لأن الله يشترط أولا الاختيار السابق (١١) » .
ويعطى القديس مثالا لتضافر عمل الله مع ارادتنا الحرة بالرسول بولس ، اذ يقول : « كيف صار بولس بولس ؟ هل من ذاته أو هو عمل الله ؟ من عمل الله ، لأنه من ذاته (اذ بارادته سلم نفسه لله) (١٢) . » .

كيف تكون لى الارادة الصالحة ؟

ان كان الله في عمله غينا يتطلب ارادتنا الصالحة التى تسلم كل شيء في يدى الله الذى يعمل ، فكيف ننعم بهذه الارادة الصالحة .
حتى هذه الارادة الصالحة هى عطية من الله . . . لكن لنبدأ نحن ما في استطاعتنا — مهما كان صغيرا وهينا — فان العمل يجلب عملا، والارادة الصالحة تنتج ارادة أفضل . . .

يعلق القديس على قول الرسول بولس : « الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل مسرته (١٣) » قائلا :
« ان أردتم ، يكون هو العامل فيكم أن تزيدوا . . . فان الرغبة القلبية وتنفيذ العمل هما عطية من عنده .

حيث تكون لنا الارادة هو يقوى ارادتنا . . .

كما ان العمل يجلب عملا ، كذلك عدم العمل يجلب عدم عمل .
أعطى صدقة ؟ بعطائك الصدقة يزداد شوقك للعطاء ! (١٤) » .
هكذا لا يعفى القديس الانسان من مسؤوليته ، فان كانت حتى الارادة الصالحة من عمل الله ، لكن الله يهبها حينما ننطلق بارادة عمل مهمـا بلغ صغرها . . . لنبدأ ، والله هو الذى يعمل !
مرة أخرى يؤكد القديس ارادتنا الحرة وتضافرها مع العمل الالهى بقوله :

(9) In Hebr, PG 63 : 99 .

(10) In Gen PG 53 : 39 .

(11) De Compunct PG 47 : 408 .

(12) De Laud Pauli PG 50 : 510 .

(١٣) فى ٢ : ١٣ .

« هناك حاجة الى ارادتنا الشخصية . . . لكن هذا يلزم في نفس الوقت الى اعلان من فوق حتى تتقوى النفس التي تتقبله (١٥) » .

« كان المجوس مدفوعين بتحريك داخلي من الله ، لكن هذا لن يمحو ارادتهم الشخصية بأي حال من الأحوال (١٦) » .

« النور الذي اعمى بولس كان من الخارج (من قبل الله) فانفتحت عيناه الداخليتان (١٧) » .

الحياة الفاضلة والجهاد :

الله هو سر حياتنا التقوية الفاضلة ، يعمل فينا دون أن يفقدنا حريتنا الشخصية بل يترك كل شيء لارادتنا . . . ومع هذا غانه يعمل فينا أيضا لتكون لنا هذه الارادة السالحة . . .

بهذا يدمج القديس العمل الالهى بالجانب الانساني ليجعل من علاقتنا بالله ، ليس علاقة الانسان المتكل على ذاته المنعزل عن الله ، وفي نفس الوقت ليس بالكائن السلبي الذي يتقبل كل الحب من الله دون جهاد من جانبه . . . لقد ركز القديس كثيرا على جهاد الانسان ، اذ يقول :

« اى شعلة يلهبها الروح في داخلنا يمكننا ان اردنا أن نوجهها أكثر فأكثر ، وان لم نرد نفقدها للحال (يتراخينا وعدم جهادنا) (١٨) » .

« لا يريد الله ان تكون العطية بكاملها من جانبه ، لكنه يريد أن تدخل فيها الصلاة حتى لا يصير العبد بلا مكافأة .

الله يريد أن يظهر العبد وكأنة قد ساهم في شيء حتى لا يسقط في الخجل (١٩) » .

« النعمة دائما مستعدة ! انها تطلب الذين يقبلونها بكل ترحيب . هكذا اذ يرى سيدنا نفسا ساهرة وملتهبة حبا ، يسكب عليها غناه بفيض وغزارة تفوق كل طلبته (٢٠) » .

« يلزمنا أولا أن نصنع ما نستطيع ، فيعمل الله فينا » .

« (يهب الرب نعمته) عندما نقدم الدليل بالجهاد الشخصي (٢١) » .

« يطلب الله منا حجة صغيرة لكي يقوم هو بكل العمل (٢٢) » .

(14) In Philip, hom 8 .

(16) In Mat PG 57 : 67 .

(18) In Mat PG 57 : 99 , 80 .

(20) In Gen PG 53 : 76 , 77 .

(22) In Rom PG 60 : 499 .

(15) In Joan PG 59 : 254 .

(17) De mut nom PG 51 : 153 .

(19) In Mat PG 58 : 592 .

(21) In Paralyt PG 51 : 52 .

« اذا قيل ان الله يعطى ، فلا تظنوا ان العطية تقدم جزاها ، انما يهبها من جعل نفسه أهلا لقبولها (٢٣) » .

« ما يحبه المسيح فوق كل شيء هو ان يكتسب المؤمنون المجد بأنفسهم وليس بنعمته وحدها (٢٤) » .

« الله يريدكم ان تبذلوا مجهودا صغيرا حتى تنتزعوا النصر ، وذلك مثل ملك يريد ان يقف بابنه وسط الجيش داخل المعركة ويطلب منه ولو يلقى حجارة حتى يسند اليه النصر ، مع ان الملك هو الذى يفعل كل شيء . هكذا يفعل الله معنا فى الحرب ضد الشيطان » .

« الله فى حبه اعدنا من قبل (النعمة) للخلاص . هذا الخلاص نبليغه لا بمجهودنا ولا بأعمالنا الصالحة انما بنعمته . ولكن ليس بها فقط انما بالفضائل ايضا . فانه لو كان كل شيء من قبل النعمة وحدها لخلص جميعنا . ولو ان كل شيء بفضيلتنا الشخصية فما فائدة شفاعة المسيح وتجسده بالحقيقة نحن مخلصون لا بالنعمة وحدها ولا بالفضيلة وحدها بل بالاثنتين معا (٢٥) » .

« الله يدعو ويجذب الى الحق الذين حتى فى أخطائهم يطلبون طريق الحق (٢٦) » .

« يقول (الرسول) : « فى المحبة سبق فعيننا (٢٧) » . هذا لم يحدث عن تعب او عن عمل صالح مارسناه بل من قبيل محبة الله . لكنه ليس خلال المحبة وحدها بل وايضا خلال فضيلتنا وحدها لما كانت هناك ضرورة لجيئه وتدبيره الالهى .

يقول الرسول « اختارنا » ، والذى يختار يعرف من هم الذين يختارهم . ويضيف « فى المحبة سبق فعيننا » لأن الفضيلة لا تقدر ان تخلص بدون المحبة (الالهية) .

أخبرنى ، ماذا كان ينفع بولس لو يدعه الله منذ البداية ؟ لقد أحبه وجذبه اليه !

بجانب هذا وهبنا ميزات عظيمة بسبب حبه وليس بسبب فضيلتنا . . .

(23) De verb Habents PG 51 : 276 .

(24) In Mat PG 58 : 541 .

(25) De poen PG 49 : 316 .

(26) In 1 Cor PG 61 : 70 .

(٢٧) ١ : ٤ .

فقد نقلنا من العداوة الى النبوة كأولاد ، وهذا بحق هو من عمل الحب الحقيقي الفائق (٢٨) .

« حل الروح على (كيرنيليوس) لأنه هو أولا فعل ما كان يجب أن يفعله فوهب له الايمان (٢٩) . »

« يدعو الفضائل نعمًا ، لكنها ليست مثل بقية « النعم » (صنع المعجزات) فان الأخيرة من الله بالكامل ، أما الأولى قلنا فيها نصيب . وان كان النصيب الأكبر هو من الله لكنها تنسب لله بالكامل ليس لالفناء ارادتنا الحرة وانما لكي يجعلنا متواضعين ونتصرف حسنا (٣٠) . »

« تأكد أنه يستحيل أن يبذل انسان كل جهده ليخلص ويفعل كل ما في قدرته ويتركه الله (٣١) . »

« الذين يسقطون فمن أجل ضعفهم الخاص ابتعدوا عن الله ، وليس الله هو الذي تركهم (٣٢) . »

الجهاد والبر الذاتي :

مرة أخرى يخاف القديس على المؤمن أثناء جهاده لئلا يظن أنه يجاهد بذاته فيفقد روح الجهاد بالبر الذاتي ، اذا يقول :

« يعد الله النفس بالسهر ثم يسكب فيها النعمة (٣٣) » ، وكأن السهر ذاته هو عطية من الله ...

« لا شيء يجعل أعمالنا الصالحة بلا فائدة وباطلة الا ان تذكرناها حاسبين في أنفسنا أننا نصنع صلاحا . »

« اعترف أنك بالنعمة تخلص ، حتى تشعر أن الله هو الدائن ... فان أسندنا لله (أعمالنا الصالحة) تكون مكافأتنا عن اتضاعنا أعظم من المكافأة عن الأعمال نفسها ... » .

(28) In Eph, hom 1 .

(30) In Philip, hom 4 .

(32) Ad stag PG 47 b 440

(31) In Nou est PG 56 : 162 .

(33) In Acts PG 60 : 124 .

(29) In 2 Tim PG 62 : 612 .

الايان والأعمال :

لم يكف القديس عن أن يكرر أنه لا خلاص بالايان بدون الأعمال (٢٤) ،
بدونها يصير الايمان كخيال غير ملموس (٢٥) .

مرة أخرى يقول : « ماذا تفيد شجرة كبيرة وكثيفة ان كانت
بلا ثمر ؟ ! (٢٢) » . اذ بليق بالمسيحي ان يكون معلما وخميرة ونورا وملحا
للأرض (٢٧) ، وهو لا يستحق أن يحمل هذه الألقاب ان لم تتجمع أعماله
الصالحة « في نسيج حكمة الحياة مع ارثوذكسية الايمان (٢٨) » .

وفي الصلاة من أجل الموعوظين يطلب الصلاة لأجل تمتعهم بالحياة.
العائلة (٢٩) .

+ + +

(34) In Mat, In Rom, In Hebr. PG 57 : 528; 60 : 551 ;

(35) In Hebr PG 36 : 77 .

(36) In Gen 53 : 110 .

(37) In Joan PG 59 : 592 .

(38) In Incom PG 48 : 811 .

(39) In 2 Cor PG 61 : 401 .

حول الحياة الفاضلة

الحياة الفاضلة والكتاب المقدس :

وجد في الكتاب المقدس المادة الحية لبحث شعبه على الحياة الفاضلة ، فكانت عظاته على الكتاب التي تكاد أن تكون يومية تحمل تفسيراً سلوكياً عملياً . يظهر هذا بوضوح في عظاته على انجيل القديس متى حيث أكثر الحديث عن الصدقة حتى قال : الآن أشعر بالخجل من الصدقة غقد تكلمت عنها كثيراً ، وإن كنت لم أبلغ الثمر اللائق . حقا لقد تزايد عطاء البعض للفقراء لكن ليس كما أود ... (١) » .

هذا وقد أوضح أهمية الكتاب المقدس للحياة الفاضلة ، إذ يقول : « تبدو أباطيل العالم كبيرة ، إذ هي كالظل الذي يكون ضخماً حينما تكون الشمس بعيدة ، أما وقت الظهيرة حيث تكون الشمس فوق رؤوسنا فيتضاءل الظل . هكذا تبدو الضعفات البشرية ضخمة للبعيدين عن الفضيلة ، أما الذي يقف تحت نور الكتاب الإلهي المبهر غيرهاها واهية وصغيرة وباطلة ، وسريعة الهروب (٢) » .

« إن النبي العظيم داود لعلمه بالفائدة الجمة من مطالعته الكتب المقدسة كان دائماً يصغى بكليته إليها ويلتذ بالحديث عنها . أما هو القائل : طوبى للرجل الذي لم يسلك في مؤامرة الأشرار ... يكون كفريس مفروس على سواقي المياه يعطى ثمره في حينه وورقه لا يذبل ، وكل ما يعمل يصلح (٣) » . فوجود الشجرة على سواقي المياه يعطيها الرى الدائم الواقى أياها من تقلبات الطقس فلا تضرها أشعة الشمس المحرقة ولا الهواء الجاف ، لأن الرطوبة الكافية داخلها تطف لها حرارة الشمس . هكذا النفس الواقفة أمام ينبوع الكتابة الإلهية تستقى منها الحياة وتنعم بندى الروح القدس ... (٤) » .

« التمرين على مطالعة الكتب الإلهية هي الميناء الهادئ والسور الحصين الذي لا ينهدم .. »

(1) In Mat, hom 66 : 3 .

(2) In Ps. PG 55 : 513 .

(٣) مز ١ : ١ - ٣ .

(٤) المطران أبيفانيوس ، ص ٩ .

انها تطرد اليأس ، وتحفظ الوداعة ، وتغنى الفقير أكثر من الغنى ،
وتبعد الأغنياء عن الخطأ ، وتجعل الخاطئ صديقا ، وتقود الصديق الى
المأوى الحصين ، وتستأصل الشر وتزرع الخير حيث لا أثر له وتطرد الحقد
والضغينة والحفيظة ، وترد النفس الى الفضيلة وتثبتها . بل هي كالطبيب
للنفس ، ونشيد الهى سرى يमित الشهوات ويستأصل أشواك الخطيئة .
انها تنقى الحقل وتزرع البذور الطاهرة وتنضج الأثمار . انها الطيب المنتشر
لا بكميته بل بطبيعته . هكذا الكتب الالهية تعطينا المنفعة العظيمة لا بكثرة
كلامها بل بالقوة الكائنة فيها (٥) .

« اتر نفسك وجسدك بوجود الكتابة المقدسة على شفئك وفي قلبك :
فكما أن القباحة تدينسنا وتستدعى الشيطان ليأذينا ، هكذا المطالعة الروحية
تنير النفس وتجلب لها نعمة الروح القدس (٦) » .

الحياة الفاضلة والحب :

ان كانت طبيعة الله حب ، فان الحياة الفاضلة المتمثلة بالله جوهرها
الحب . في هذا يقول القديس : « الحب هو الأصل ، وهو محصلة الفضائل ،
بدونه تكون جميع الفضائل بلا نفع . أى شئ يعادل الحب الذى يضم
الناموس والأنبياء ، الحب الذى بدونه لا الايمان ولا التأمل ولا معرفة الأسرار
بل ولا الاستشهاد نفسه يقدر أن يخلص ؟ ! (٧) » . كما يقول : « ان كنا
فضلاء ، فالمحبة لا تهلك ، لأن الفضيلة تنبع عن الحب ، والحب ينبع عن
الفضيلة (٨) » .

كما ان الحب هو غاية الحياة الفاضلة وهو سر هذه الحياة ، والدافع
اليها ، فان حب الله لنا هو الذى قدم لنا هذه الحياة الفاضلة .

« محبة الله هى التى توحد الأرض والسماء معا .

محبة الله هى التى اجلسنا على العرش الملوكى .

محبة الله هى التى اعلنت عن الله على الأرض .

محبة الله جعلت الرب خادما .

محبة الله جعلت المحبوب يسلم ذاته من أجل أعدائه ، يقدم الابن
حياته لأجل مبغضيه ، الرب من أجل خدامه ، الله من أجل الناس ، الحز
من أجل العبيد (٩) » .

(٥) المطران أبيفانيوس ، ص ١٠ .

(٦) المطران أبيفانيوس ، ص ١١ .

(7) De Incom PG 48 : 701 — 702 .

(8) In Eph, hom 9 .

(9) In Eph, hom 9 .

الحياة الفاضلة والخوف :

ان كان الخب هو الدافع الحقيقي للحياة الفاضلة ، لكن البعض يمارسون هذه الحياة من أجل الخوف من العقوبة ، والبعض خجلا من الناس ...

« انى متأكد أن كثيرين كان يمكنهم أن يستهينوا بالخيرات التى لا ينطق بها لو شعروا أنهم لا يعاقبون (١٠) » .

« بالخوف من الجحيم بالكاد نقبل أن نتم بعض الأعمال الصالحة (١١) » .

« زرع الله بذار الخجل فى طبيعتنا ، فان كان الخوف لا يكفى لتجنبنا نحو طريق الحق ، فقد اوجد الله وسائل كثيرة لتجنب الخطية . فعلى سبيل المثال يمتنع الانسان عن الخطأ اما خوفا من القوانين الوصفية أو لأجل سمعته أو بقصد تكوين صداقات ...

ما لا نصنعه من أجل الله نفعله بدافع الخجل .

ما لا يفعله الانسان من أجل الله يفعله خوفا من الناس (١٢) » .

طريق الحياة الفاضلة :

يرى أن بدء الحياة الفاضلة هو الاحساس بالغربة ... هذا الاحساس يلزم الانسان بالحب نحو السماويات .

« أهم العلوم وأولها هو أن نعرف أننا غرباء فى هذه الحياة (١٣) » .

أما قمة الطريق فهو « حياة البتولية » ... بتولية النفس والجسد (١٤) أيضا ، فالبتوليون « هم جيش المسيح اللامع (١٥) » . « البتولية هى قمة الفضيلة ، هى الثوب الموشى بالذهب الذى للكنيسة (١٦) » .

الحياة الفاضلة كحياة داخلية :

الحياة الفاضلة هى حياة داخلية يعيشها الانسان بغض النظر عن الموضع الذى يعيش فيه أو الظروف التى تحيط به ، سواء الغنى أو الفقر ، الصحة أو المرض ، الكرامة أو الهوان ...

« ليس الموضع هو الذى يخلص بل طريقة السلوك والارادة (١٧) » .

(10) In 2 Thess PG 62 : 477 .

(12) In Philip, hom 4 .

(14) In Hebr PG 63 : 202 .

(16) In Ps. 55 : 202 .

(11) In Rom PG 60 : 430 .

(13) In Ps PG 55 : 341 .

(15) Quad reg. fem PG 47 : 515 .

(17) De poe PG 49 : 344 .

« ليس في ارادتنا أن نكون عظماء أو صغار ، أما أن نكون صالحين ولطفاء فهذا من نصيب قرارنا (١٨) » .

« أمامك أمثلة بلا حصر في الكتب المقدسة عن حياة أناس غاضلين ، لك أن تختار من تريد ليكون مثلاً لك بعد السيد . منهم من أظهر الحياة الفاضلة خلال فقره ، وإبراهيم خلال الغنى . خذ لك المثال السهل بالنسبة لك والمناسب لحياتك العملية .

أيضا واحد أظهر الحياة الفاضلة خلال الزواج وآخر خلال البتولية : إبراهيم خلال الزواج والآخر (ايليا) خلال البتولية . لك أن تتبع ما تريد فان الطريقتين يقودان الى السماء .

واحد أظهر الحياة الفاضلة بالأصوام مثل يوحنا ، وآخر بدون أصوام مثل أيوب . الأخير اهتم بزوجته وأولاده وبناته وعائلته وكانت له ثروة عظيمة ، أما الأول فلم يكن له الا ثوبا من الشعر .

داود أظهر حياته الفاضلة خلال ملكته ، غان الأرجوان وإنتاج لم يدفعه الى الرخاوة — اقصد موسى — تسلم قيادة الشعب كله في ظروف قاسية . وبقدر ما وجدت الصعوبات بصورة أقسى كانت قوته أعظم . . .

وعلى العكس ، تأمل ، غان البعض هلك وهو في الزواج والآخر وهو في البتولية . شمشون هلك وهو متزوج ، ولم يكن الزواج هو سبب هلاكه انما سوء اختياره . في البتولية أيضا هلك الخمس عذارى (الجاهلات) . هلك البعض في الغنى مثل الغنى الذي احتقر لعمازر ، وهلك البعض في الفقر اذ لا تزال أعداد بلا حصر من الفقراء يهلكون . . .

أتريد أن ترى جنديا قد خلص ؟ ! كرنيليوس . . .

أتريد حاكما خلص ؟ ! خصى ملكة كنداكة . . .

ان استخدمنا الثروة استخداما صالحا لا تهلكتنا . . . ليس لشيء ما سلطانا أن يؤذى الانسان المتيقظ . . . متى كانت النفس نقية ليس من شيء يعوقها عن الحياة الفاضلة . من يجاهد ليس شيء خارجي أن يعوقه !

الانسان الفاضل الذي تكرست حياته لله تعلن فيه هذه الحياة الفاضلة سواء كان يتمتع بثروة أو يلحقه فقر ، في صحة أو يعاني من مرض ، له كرامة عظيمة أو يصيبه هوان . الم يعمل الرسول تحت كل الظروف :

(18) Ad illum PG 49 : 236 .

« بمجد وهوان ، بصيت حسن وصيت ردىء (١٩) » . هكذا يكون المصارع مستعدا في كل شيء ! هذه هى طبيعة الفضيلة .

ان كنت تقول انى غير قادر على قيادة الكثيرين فاسلك فى حياة الوحدة ، فانت تسيء الى الفضيلة التى تمارس فى كل الأحوال ، وتشرق فى كل الأوضاع ما دامت قائمة داخل النفس . ان وجدت مجاعة أو كان هناك فائض تظهر الفضيلة قوتها ، وكما يقول بولس : « أعرف كيف أغتنى وكيف أكون فى عوز (٢٠) » . هل احتاج أن يعمل ؟ انه لم يخجل بل صار يعمل لمدة عامين . هل التزم أن يحتمل الجوع ؟ انه لم يخر بسبب هذا ولا اضطرب . هل التزم أن يعانى من الموت ؟ انه لم ييأس ، وانما أعلن سمو أفكاره وغنه فى كل شيء .

اذن لنمثل به فلا نجد عمله للحين .

أخبرنى ، أى شيء له من القوة حتى يحزن الانسان ؟ لا شيء . . .

لنفترض أن انسانا صالحا له زوجة وأولاد وغنى وكرامة عظيمة ، يعيش فى هذا كله حياة غاضلة . انزع عنه هذا كله يبقى أيضا غاضلا . لا تهزمه المصائب ولا ينفخه الغنى ، انما يكون كالصخرة راسخا . ان كان البحر هائجا أو هادئا لا تحطبه الأمواج ولا يؤثر فيه الهدوء . هكذا يبقى العقل الراسخ ثابتا فى الهدوء كما أثناء العاصفة .

لو ان اطفالا يبحرون فى مركب لكانوا يخافون ، اما القائد فيجلس ضاحكا بغير اضطراب . يضحك عليهم اذ يراهم مضطربين . هكذا أيضا النفس الحكيمة بالحق تبتسم على الدوام مهما تغيرت الظروف ، بينما يكون غيرها مضطربا . تجلس فى ثبات كما لو كانت تمسك بذراع الدفة ومرساة الورع .

أخبرنى ، أى شيء يقدر أن يقلق النفس الورعة ؟

الموت ؟ انه بداية حياة جديدة .

الفقر ؟ انه معين للنفس على الفضيلة .

المرض ؟ انها لا تبالى به ، لا تبالى بالامور المفرحة أو المحزنة ، اذ تمارس حياة الألم باراتتها .

الازدراء ؟ لقد صلب العالم لها .

(١٩) ٢ كو ٦ : ٨ .

(٢٠) فى ٤ : ١٢ ، ١٤ ، ٢٨ : ٣ .

فقدان الأولاد ؟ لا تخاف هذا اذ تنتظرهم بكل ثقة في القيامة .
 أى شيء أيضا يمكن أن يعجبها ؟ لا شيء !
 هل الثروة ترفعها ؟ كلا ، فهي تعلم أن المثل لا شيء .
 المجد ؟ لا ، فقد تعلمت أن مجد الانسان كزهر العشب (٢١) .
 الترف ؟ لا ، فهي تسمع قول الرسول : أما المتعظمة فقد ماتت وهي
 حية (٢٢) .

بهذا فهي لا تغضب ولا تتضايق . أى صحة مثل هذه ؟ ! ...
 حقا اننا مواطنوا السماء حيث لا يوجد فيها تغير ... لنعلن مواطنتنا
 السماوية ولنكن في هدوء على الدوام . فان هذا لا يعتمد على الثروة أو الفقر ،
 الكرامة أو الهوان ، المرض أو الصحة ... انما يعتمد على نفوسنا ، ان
 كانت راسخة ومهذبة بعلم الفضيلة يكون كل شيء بالنسبة لها سهلا (٢٣) .

الحياة الفاضلة والدوافع :

آمن القديس يوحنا الذهبي الفم بالدوافع — أيا كانت — كعطايا صالحة
 وهبت لنا من قبل الله . فالغضب عطية عظيمة أعطيت لنا بدونها ما نقدر
 أن نمارس التوبة ولا نحارب عدو الخير ونقاتل ضد الخطية .

في هذا يقول : « لقد أعطى لنا الغضب لا لنتكبر أفعالا عنيفة ضد
 اخوتنا بل لكي نصلح من شأن الساقطين في الخطية بالعمل بدون كسل .
 لقد زرع غينا الغضب كنوع من المنخاس لكي نصر على أسناننا ضد
 الشيطان ملأين عنفا ضده وليس لنضاد بعضنا البعض . اسلحتنا هي
 لمحاربة العدو وليس لمحاربة بعضنا البعض .

هل أنت غضوب ؟

كن هكذا ضد خطاياك . أدب نفسك ، واجلد ضميرك ، وكن قاضيا
 قاسيا ، واحكم بالرحمة على خطاياك .

هذا هو طريق الانتفاع من الغضب . هذا هو السبب الذي لأجله
 غرس الله غينا الغضب (٢٤) » .

(٢١) اش ٤ : ٦ .

(٢٢) ١ : ٥ : ٦ .

(23) In Philip, hom 12 .

(24) In Eph, hom2 .

الحياة الفاضلة كحياة شخصية :

وحدة الكنيسة ومشاركة الأعضاء بعضهم البعض يسند الحياة الفاضلة فينا ، لكن هذا لا يعنى التراخي على حساب الآخرين .

« عندما استحللناكم أن تكونوا يقطين ، كثيرون منكم يستهترون قائلين : نحن لا نخشى شيئاً فستكون أنت موجوداً (تشفع فينا) . قد يقول قائل : ان أبى شهيد وأخى يقول أن جده كان أسقفنا ... هذا كلام سخيف ، فان فضيلة الآخرين لا تفيدكم شيئاً .

تذكروا العذارى الحكيمات اللواتى رفضن أن يقتسمن زيتهن مع الجاهلات ، فدخلن حجرة العرس بينما طردت الجاهلات خارجاً . ان رجاءكم بالوحيد في الخلاص يكمن في عملكم الشخصى . فانه حتى وان كان بولس نفسه أباً لكم ان لم تقتدوا بفضيلته قرابته لكم تدينكم ولا تنفعكم شيئاً .

قد يقول قائل : أمى تمارس الصدقة . حسناً ، ولكن ان كنتم قساة القاب فان صدقة والدكم لا تنتج الا الكشف عن قبح تصرفكم (٢٥) « .
« ما كانت مريم تستفيد من كونها أما للمسيح لو لم تكن قد مارست الفضيلة ! (٢٦) « .

« صلوات القديسين لا تكون فعالة الا اذا صحبتها الأعمال . ان قيامة طابيثا هى من عمل صلوات بطرس وصدقات هذه المرأة (٢٧) « .

الحياة الفاضلة ومواجهة الهرطقة :

في نهاية العظة الثامنة والثمانين على انجيل متى يطلب القديس من شعبه أن يصلحوا حياتهم الداخلية ، اذ يرى أن الحياة الفاضلة هى أفضل سلاح ضد الهرطقة وغير المؤمنين .

« أما بخصوص المعركة (الروحية) ضد اليهود والوثنيين والهرطقة فاننا كيف ننذرهم بالحرب وانتم لستم اصحاء ؟ !

كيف اقودكم الى صفوف المعركة ، وانتم لا تزالون مجروحين ولا تزال آثار العمليات الجراحية فيكم ؟ !

بالحقيقة حين أجركم اصحاء تماماً سأقودكم الى صفوف المعركة فثرون بنعمة المسيح عشرات الألوف (من الشياطين) ساقطين أمواتا ... « .
« اننا لسنا قادرين على النصر تماماً بسبب تهاون الجماهير ، فاننا ان كنا نغلبهم بالتعاليم ربوات المرات ، لكنهم يويخوننا بسبب سلوك الجماهير التى لجمعنا وجراحاتهم وأمراضهم التى فى داخل النفس (٢٨) « .

(25) De Laz . PG 48 : 1005, 1006, 1036 .

(26) In Mat PG 59 : 464 .

(27) In Ps PG 55 : 229 .

(28) In Mat, hom 88 .

(٥)

لاهوتيات

أنكاره

- الله .
- رؤية الله وإدراكه .
- الكنيسة .
- الألم .

الله

اللاهوتيات :

كان القديس يوحنا الذهبي الثم قائدا روحيا حارا ، يدفع الناس الى حياة الشركة مع الله ، منشغلا ببنيان نفوسهم على أساس سليم لإدراك العقيدة وتفهم للتعاليم الكنسية . لكنه لم يهتم بالدراسات اللاهوتية ولا انشغل بالنضال العقيدى فى ذلك الحين . ان دحض بدعة انما يفعل هذا بالقدر الذى به يقدم المعلومات الضرورية والتعاليم اللازمة لبنيان مستمعيه روحيا .

الله :

اذ كان القديس حارا فى شركته مع الله كانه كل عظمته وكتاباته تتحدث عن قدرة الله وحكمته وترفعه وحببه وتدبيره الخلاصية وانشغاله بالانسان . . . كما دافع بكل قوة عن حقوق الله فى حياتنا ليس كسيد آمر ناد ، انما كأب يشفق أن يرى أبناءه على مثاله ، الانسان موضع حب الله ، القيامة الروحية التى تصدر انعاما تسحره . . . كتب كثيرا عن عذبة الله بالانسان موضحا كيف أعطاه سلطانا فلا يضرب الشيطان ولا ظروف الحياة من غتر أو غنى ، أو مرض أو صحة ، زواج أو بتولية ، ما لم يضر الانسان نفسه بنفسه ، يبقى سيدا حرا ما دام القلب مقدسا .

الثالوث القدوس :

مع أن القديس يوحنا هو تلميذ ديودور الطرطوسي لكنه لم يشعر بالدموية لكى يقود بطريقة صريحة لاهوتيات المسيح الخرسنة انطاكية لم يرد أن يدخل فى الصراعات الفكرية خاصة فى التنبيرات اللاهوتية . لكنه

متى سمحت له الفرصة تحدث عن الثالوث القدوس بدقة وعلاقة الأقانيم ببعضهم البعض كما ركز على كمال لاهوت المسيح ضد الأريوسيين (١) .
وكمال ناسوته ضد الإبوليتاريوسيين وأن ناسوته يشابه ناسوتنا فيما عدا الخطية (٢) ، أعطى أيضا اهتماما خاصا بالكشف عن عدم ازدواج شخصية السيد المسيح وعدم الاختلاط بين لاهوته وناسوته ...

فيما يلي مقتطفات من عباراته فيما يخص الثالوث القدوس وشخص السيد المسيح :

(أ) الأقانيم الالهية :

« عندما أقول هذا لا أخلط بين الأقانيم ،

وأنا استند الى وحدة الجوهر تؤكد تمايز الأقانيم (٣) » .

« عندما تسمع بأن الله يلد الابن لا تفكر في انقسام في وحدة

الجوهر (٤) » .

(ب) تحدث عن الابن انه يحمل « ذات طبيعة الانسان (٥) » ، وقد

فضل التعبيرين . « مساو للآب » ، « مساو في الجوهر » .

« الكلمة جوهر ، اقنوم مولود من الآب نفسه (٦) » .

« الآب والابن هما واحد ، لكن كل منهما اقنوم متميز (٧) » .

« لم يكن الآب قط بدون الابن ،

الابن اله دائم كائن مع الآب على الدوام (٨) » .

(ج) وتحدث عن لاهوت السيد المسيح ، قائلا :

« عندما يعاقب ويكافئ ، يغفر الخطايا ، يشرع او يعمل شيئا أعظم

من هذا كله لا يلجأ الى الآب في أى شيء ولا يصلى اليه انها يصنع كل

شيء بسلطان (٩) » .

(د) وفي تجسد السيد وطبيعته بقول :

« مع بقائه كما هو ، اخلى نفسه الى ما لم يكن عليه قبلا . ومع

انه صار انسانا لكنه بقي كما هو « الله » ، اذ اللوغوس ...

(1) In Mat, hom 1 : 2 PG 57 : 17 .

Contra Amon, hom 4 : 4 PG 48 : 732 .

(2) In Rom, hom 13 : 5 .

(3) In 2 Cor. PG 61 : 608 .

(٤) الكنيسة تحبك ، طبعة ١٩٦٨ ، ص ٤٨ .

(5) PG 57 : 17 ; 59 : 290 .

(٦) PG 59 : 64 .

(7) In Ps. PG 55 : 271 .

(8) PG 59 : 47 .

(9) De Incomp. PG 48 : 737 .

صار الواحد (انسانا) ... لكنه لا يزال هو الآخر (الله) دون
اختلاط ولا انفصال .

الله واحد ، مسيح واحد ، ابن الله !

يقول مسيح واحد ، أقصد اتحادا بغير اختلاط ، فلا تتحول
طبيعة الى أخرى ، بل اتحدا معا (١٠) .

« بالاتحاد والالتحام أصبح اللاهوت والناسوت واحدا بغير اختلاط .
ولا اختفاء لطبيعة احدهما ، انما اتحدا بطريقة لا يعبر عنها ولا يمكن
تحديدها .

كيف يتم هذا الاتحاد ؟ لا تسألني ، فان الله وحده هو الذي يعلم (١١) .

« الله الكلمة صار مع الجسد واحدا بغير اختلاط ولا تغير في الجوهر ،
بل في اتحاد غير منطوق به ، غائق للادراك . لا تقل كيف ؟ (١٢) » .

أما عن هدف التجسد ملخصه في العبارة « صار ابنا للإنسان
لكي يصير ابنا للإنسان أبناء لله (١٣) » كما قال « بسبب الحب اخذ
جسدا وتراعى علينا ، ليس هناك سبب آخر لتجسده (١٤) » . وأيضا
يقول « الله لم يجازنا عن تعديتنا الكثيرة التي اقترفناها ضده رغم احساناته
علينا ، بل أعطانا ابنه . جعله من أجلنا خطيئة ... تركه يدان وبهوت
كملعون . الذي لم يعرف خطيئة جعله كخطيء وخطيئة ... انه يشبه ملكا
يرى لصا على وشك الاعدام ، يرسل ابنه الوحيد الحبيب ، ينقل عليه
الموت ذاته بل وخطا المجرم ! هذا كله من أجل خلاص المذنب ، ليرفعه
الى كرامة عظيمة (١٥) » .

ورأى في الابن الوحيد المتجسد عمل الفداء ... « المسيح هو
الكاهن والذبيحة . الكاهن حسب الروح ، والذبيحة حسب الجسد . كان
يكنه ، وكان يذبح حسب الجسد (١٦) » .

وأما عن الصليب وعمل المسيح الخلاصى فيقول : « انه رمز لحب
الله اللانهائى (١٧) » ، « دفع السيد المسيح أكثر مما نستحق بمقدار
ما يتعدى المحيط قطرة ماء (١٨) » .

(10) In Phil, hom 7 : 2, 3.

(11) PG 59 : 80 .

(12) In Joan, hom 11 .

(13) In Hebr. PG 63 : 47 .

(14) In Joan, in Rom. PG 59 : 79 ; 60 : 466

(15) In 2 Cor, 1 Tim. PG 61 : 477 — 480 ; 62 : 536 — 537 .

(16) De cruce PG 49 : 400 .

(17) In Rom. PG 60 : 408 .

(18) In Rome PG 60 : 477 .

يهور لنا شخص المسيح كمشبع للنفس ، مناجيا الانسان هكذا :
« من يستطيع أن يعادلني في الجود ؟ انى أب واخ وعريس وبيت
وطعام ولباس واصل كل ما تشتهى ، لا أتركك تحتاج الى شيء .
سأكون أيضا خادما لك ، فقد جئت لا لكي اخدم بل لكي اخدم .
أنا أيضا صديق وعضو ورأس واخ واخت وأم . أنا كل شيء ، فقط
كن صديقا لى !

من أجلك افتقرت ، ومن أجلك كنت أشحذ .
من أجلك صليت ، ومن أجلك دفنت .
في السماء اسأل الآب عنك .
أنت كل شيء بالنسبة لى . الأخ والشريك في الميراث والصديق
والعضو .

ماذا تريد أكثر من هذا ؟
لماذا تنصرف عن من يحبك ، وتتعب من أجل العالم ؟
لماذا تغترف المياه من برميل مثقوب ؟ فانه هكذا هو التعب من أجل
الحياة الحاضرة ! (١٩) .

مرة أخرى يقول :
« لماذا دعى الطريق ؟ لكي نفهم أن بواسطته نلتقى بالآب .
لماذا دعى الصخرة ؟ لكي نفهم أنه حافظ الايمان ومثبتته .
لماذا دعى الينبوع ؟ لكي نفهم أنه مصدر كل شيء .
لماذا دعى الاصل ؟ لكي نفهم أن فيه قوة النمو .
لماذا دعى الراعى ؟ لأنه يرعانا .
لماذا دعى الحمل ؟ لأنه قدم نفسه غدية عنا وصار تقدمة .
لماذا دعى الحياة ؟ لأنه أقامنا ونحن أموات .
لماذا دعى النور ؟ لأنه أنقذنا من الظلمة .
لماذا دعى الزراع ؟ لأنه مع الآب جوهر واحد .
لماذا دعى الكلمة ؟ لأنه مولود من الآب . فكما ان كلمتى هي مولودة
منى ، هكذا أيضا الابن مولود من الآب .
لماذا دعى العريس ؟ لأنه قبلنى كعروس له .
لماذا دعى بلا دنس ؟ لأنه أخذنى كعذراء .

(19) In Mat. PG 58 : 70C .

لماذا دعى ثوبينا ؟ لأننى التحفت به عندما اعتمدت .
لماذا دعى المائدة ؟ لأننى اتغذى عليه عندما اشترك فى الأسرار .
لماذا دعى المنزل ؟ لأننى فيه اقطن .
لماذا دعى السيد ؟ لأننى عبده ...
ان سمعت هذه الأمور ، ارجوك الا تنههما بمعنى مادي بل خلق
بفكرك عاليا ، لأنها لا تؤخذ بمعنى جسدي (٢٠) » .

+ + +

(٢٠) الكنيسة تحبك ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

رؤية الله وإدراكه

منذ بداية العصور أثرت بعض الأسئلة الخاصة برؤية الله وإدراكه خاصة عند دراسة مقالات القديس يوحنا الذهبي الفم عن « عدم ادراك وعظته الخامسة Incomprehensibility of the Nature of God طبيعة الله عشر على انجيل القديس يوحنا ... »

لقد واجه القديس بدعة أونوميوس القائل بأن الله يمكن التعرف عليه بالعقل ، وإدراك جوهره بالذهن البشري ... لذا اهتم القديس بالرد على أتباع أونوميوس في كثير من مقالاته وكتابات خاصة الاثنى عشر مقالا عن « عدم ادراك طبيعة الله » والعظة الخامسة عشر السابق الإشارة إليها .

نستطيع أن نلخص آراءه في النقاط التالية :

١ — رأى الأنبياء الله ، لكنهم لم يروا جوهره إنما بدى لهم ذلك قدر ما يستطيعون . وقد أعلن ذلك النبي « كثرت الرؤى وبيد الأنبياء مثلت تشبيهات (١) ، كأن الله يقول : « لا أعلن جوهرى ذاته ، إنما أتنازل (في رؤى) بسبب ضعف هؤلاء الذين يروني (٢) » .

وما هو هذا التنازل ؟

انه إعلان الله الذى يجعل نفسه منظورا : « ليس كما هو ، بل بالقدر الذى به يقدر الناظر أن يرى ، أى حسب ضعف الناظرين فى الرؤية (٣) » .

٢ — هذه الحقيقة لا تخص البشر وحدهم إنما تخص حتى الخليفة السماوية الروحية . هؤلاء يرون الله وجها لوجه ، لكنهم أيضا — فى رأى القديس — لا يرون جوهره غير المدرك ، بل يتمتعون حسب قدرة ادراكهم ...

انهم يغطون أعينهم بسبب عجزهم عن احتمال حتى هذا التنازل للإعلان عنه (٤) .

(١) هو ١٢ : ١٠ .

(2) Incomp. of God 5 : 4 . PG 48 : 740 .

(3) Ibid 3 : 3 . PG 48 : 722 .

(4) Ibid 1 : 6 PG 59 : 98

يليق بنا ان نتشبه بالسمايين فهم — ليس كأونوميوس — يطلبون
ان يتعرفوا على جوهر الله ، بل في غير انقطاع تمجده ونسجد له (٥) .

« يصيح السيراغيم قائلين : قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت...
ان القوات العلوية يأخذ منها الرعب كل مأخذ بغير انقطاع ، فهي تدير
وجهها وتبسط اجنحتها كحائط ، يقيها من الاشعاع غير المحتمل الصادر من
قبل الله ، ومع ذلك فما تراه انما هو صورة مصغرة للحقيقة... »

بينما لا يقوى السيراغيم حتى على مشاهدة الله الذي لا يتجلى لهم
الا كتنازل منه حسب ضعفهم ، نرى اناسا يتجاسرون متصورين في عقلم
الطبيعة عينها التي يعجز السيراغيم عن ادراكها . انهم يزعمون انهم قادرون
على التطلع اليها بوضوح وبغير حدود ! ارتعدى ايتها السموات واندھشى
ايتها الأرض (٦) .

« حقا ان الله حتى بالنسبة لهذه الطغيات غير مدرك ، ولا يمكن
الدنو منه . لهذا فهو يتنازل ليظهر بالطريقة التي وردت في الرؤيا .
الله الذي لا يحده مكان ولا يجلس على عرش... من قبيل محبته لنا يظهر
جالسا على عرش وتحيط به القوات السماوية .

اذ ظهر على العرش وأحاطت به هذه القوات لم تقدر هذه القوات
على معاينته ولا احتملت التطلع الى بهاء نوره ، غطت أعينها بأجنحتها ،
ولم يعد لها الا أن تسبح وترنم بتسابيح ملوذة مجدا ورعدة مقدسة ،
وأناشيد تشهد لقداسة الجالس على العرش (٧) .

٣ — ان كان الله — بارادته الطيبة — يتنازل من اجل خليقته
الساوية والارضية كخلائق ضعيفة لمعاينته قدر ما تستطيع اعينهم الضعيفة ،
الضعيفة ، فان هذا الحنو بلغ كماله في تجسد الابن .

الابن هو صورة الله الاب غير المنظور ، وهو نفسه غير منظور ،
بتجسده صار منظورا لا للناس بل للملائكة ايضا ، مفسرا ذلك يقول
الرسول « الله ظهر في الجسد... ترى للملائكة (٨) . قبل التجسد
كانت الملائكة تراه في افكارهم ، تتأمل بطبيعتهم النقية الساهرة .

(5) In Joan, hom 15 : 1 .

(6) In Isai, hom 2 : 2 .

(٧) الآباء الأولون : ١٠ . العناية الالهية للقديس يوحنا ذهبي الفم

(٨) ١ تي ٣ : ١٦ .

ص ١٣ ، ١٤ .

هنا يحمل القديس جانبا سلوكيا وليس لا هوتيا اذ يقول أن الابن له وحده المعرفة الكاملة للجوهر الالهي ، بكونه مساويا للآب ، في حضنه .
أما علاقته لنا فحمل مجرد تفسير أو توضيح أو اخبار عن طريق أعماله المملوءة حبا ومعجزاته وحياته وتعاليمه . لقد بقي الابن الغير منظور مختفيا في لاهوته غانه حتى في تجليه سمح بظهور النور بالقدر الذي يمكن لطبيعته القابلة للموت أن تقبله . . . انه مرة أخرى يتجلى لنا لكن في صورة غامضة عن البركات المقبلة . . . في مرآة في لغز (٩) .

لقد فسر القديس قول السيد : « من رأى فقد رأى الآب (١٠) » هكذا :

« هذا القول يعنى : ليس يمكننا أن ترانى ولا أن ترى الآب . فقد قصد فيليب معرفته للمسيح خلال النظر ، واذ ظن أنه رأى المسيح أراد أن يرى الآب على نفس المستوى ، لكن يسوع أوضح له أنه في الواقع لم يره (١١) » .

٤ — يعتبر القديس الذهبي الفم البحث في جوهر الله خدعة شيطانية تفسد حياة الانسان الروحية وتحرمه من نعمة الله ، اذ يقول :

« هذا هو مكر الشيطان : انه يقود الذين يطيعونه الى خارج الحدود التي وضعها الله الى امور اعظم . ولكن بينما يغويننا بهذه الأمنيات اذ به يحرمنا من نعمة الله . ليس فقط لا يعطينا شيئا اضافيا ، بل ولا يسمح لنا أن نعود الى حالنا — السابق حيث كنا في أمان وضمان ، انه يضلنا في كل الاتجاهات ولا يترك لنا أساسا ثابتا .

هكذا سبب طرد الانسان الأول من الفردوس اذ نفخه بتوقيع معرفة اعظم وكرامة اكبر فكان ان حرم حتى مما كان فيه في ضمان (١٢) . . . » .

٥ — يود القديس أن ينصب اهتمام المؤمن لا على التعرف على طبيعة الله إنما على التمتع بوجوده منه وعلان راثية معرفته في حياته الروحية السماوية .

« اننا نعرف الله أنه كائن ، أما طبيعته فلسنا نعرفها بعد . اننا نشبه مجرة ملوكية ، أينما وجدنا تنبعث غينا الرائحة السماوية ، الرائحة الروحية الذكية (١٣) » .

(9) Ad Thead. laps 1 : 11.PG 61 : 292 .

(11) In Joan, hom 74 : 1

(١٠) يو ١٤ : ٩ .

(12) Ibid 7 : 1 .

(13) In 2 Cor, hom 5 : 2 .

٦ — أعلن القديس أنه ليس طبيعة الله فقط غير مدركة وإنما حتى أحكام عنايته بشا وتدبيره من نحونا قوة. (١٤) . « العشرة » : قاصدا الإنسان في عناية أنه بسبب ما يخل به من ضيقات ، فيقول :

« ما هي علة هذا الخطر العظيم : تجاهل عناية الله ؟ ... ترى من خاق بولس في حكمته ؟ أخبرني ألم يكن اناء مختارا ؟ ! ألم يأخذ نعمة الروح الفائقة غير المنطوق بها ؟ ! . ألم يتكلم المسيح فيه ؟ ! ألم يسمع ما لا يحق لإنسان أن ينطق به ؟ ! ألم يختطف إلى الفردوس وارتفع إلى السماء الثالثة ؟ ! ألم يجوب البحار والبر يجذب الوثنيين إلى المسيحية ؟ ! ... ومع هذا كله ، فإن هذا الرجل بعظمته وحكمته وقوته وامتلائه بالروح — إذ خصه الله بهذه الامتيازات ، عندما يتطلع إلى عناية الله ، لا في كل جوانبها ، بل في جانب واحد منها ، تأخذه الرعدة منسحقا ، ويتراجع سريعا خاضعا لله غير المدرك ...

اكتشف الرسول أنه أمام محيط واسع ، واذ حاول فحص أعماق هذه العناية ارتجف متحقتا استحالة تفسير عظمته ، وارتعب قدام عنايته اللانهائية غير المحدودة ولا موصوفة ولا مفحوصة ولا مدركة . تراجع في مهابة متعجبا ، وهو يقول « يا لعن غنى الله وحكمته وعلمه (١٤) » .

لقد أوضح بعد ذلك كيف تلامس مع أعماقها دون أن يفلح في استقصائها، قائلا : ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء ؟ ! ...

أنهى حديثه — وقد امتلأ عجباً ورعدة — بأنشودة شكر ، قائلا :

« لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً ؟ !

أو من سبق فأعطاه فيكافأ ؟ !

لأن منه وبه وله كل الأشياء .

له المجد إلى أبد الأبد . آمين « ... (١٥) » .

٧ — يرى أيضا أن معرفتنا للأمور الإلهية هنا محدودة وغاية في الضآلة ، لكننا سنعرف الكثير في الحياة الأبدية ، معتمدا على قول الرسول « لأننا نعلم بعض العلم ... ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض (١٦) » ... ومقارنة الرسول المعرفة الحالية والمعرفة

(١٤) رو ١١ : ٣٣ .

(١٥) العناية الإلهية : ٢ .

(١٦) ١ كو ١٣ : ١٠ ، ٩ .

في الحياة الأخرى بمعرفة الطفل ومعرفة الرجل الناضج ، أو التطلع في مرآة في لفتز والنظر وجها لوجه (١٧) ، ومع هذا فان المعرفة الكاملة التي في الحياة الأخرى تقدم لنا قدر ما نستطيع أن ندرك هناك .

غيا يلي ترجمة للعظة الخامسة عشر على انجيل القديس يوحنا التي تحمل ذات الأفكار الواردة في مقالاته الاثني عشر عن عدم ادراك طبيعة الله :

« الله لم يره أحد قط (١٨) » .

بماذا تجيب على الصوت القدير — لأشعياء — القائل : رأيت الرب جالسا على عرش عال ومرتفع (١٩) ؟ وعن يوحنا الذي يشهد له : « قال (أشعياء) هذا حين رأى مجده (٢٠) » .

وماذ نجيب عن حزقيال القائل أنه رآه أيضا جالسا فوق الشاروبيم (٢١) ؟

وماذ عن موسى نفسه القائل : « اكشف لي عن مجدك لكي اراك لأعرفك (٢٢) » ؟

وماذ عن دانيال القائل : « جلس القديم الأيام » (٢٣) ؟

ويعقوب أخذ اسمه عن نفس الأمر ، فقد دعى « اسرائيل » اذ تعنى الكلمة « يرى الله » (٢٤) .

اذن كيف يقول يوحنا : « الله لم يره أحد قط » ؟

هذه اعلانات ، كلها أمثله عن تنازله ، وليست رؤى لجوهره بالكشف عنه . لأنهم لو نظروا جوهره ذاته لما رأوه تحت اشكال مختلفة ، اذ هو بسيط ، بغير شكل ولا أعضاء ولا أساليب محسوسة . طبيعته لا تجلس ولا تقف ولا تمشي ، فان هذه الأمور كلها تخص الأجساد ، أما كيف هو ... هو وحده الذي يعلم ! هذا ما أعلنه بواسطة نبي قائلا : « كثرت الرؤى ، ويبد الأنبياء مثلت أمثالا (تشبيهات) (٢٥) » ، بمعنى : انى اتنازل ولست أظهر كما أنا حقيقة !

(١٧) ١ كو ١٣ : ١١ ، ١٢ . (١٨) يو ١ : ١٨ .

(١٩) أش ٦ : ١ . (٢٠) يو ١٢ : ٤١ .

(٢١) حز ٢١ : ١ . (٢٢) د ٧ : ٩ .

(٢٣) الترجمة السبعينية (خر ٣٣ : ١٣) .

(24) St. Augustine : De civ. Dei, lib 16 : 39 .

(٢٥) هو ١٢ : ١٠ .

فإذا كان ظهور ابنه في الجسد قد اقترب هياهم منذ القديم لرؤية الله
قدر ما يستطيعون . أما ما هو الله حقا فإنه ليس فقط لا يراه المؤمنون
بل ولا يراه الملائكة ولا رؤساء الملائكة . اذ سألتهم تسمعونهم لا يجيبون بشيء
عن جوهره بل يرسلون : « المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام
وبالناس المسرة (٢٦) » .

ان أردت أن تعرف شيئا عن الشاروبيم والسيرافيم اسمع التسبحة
السرية التي تخص قداسته : « السماء والأرض مملوءتان من مجده (٢٧) » ،
اذ يقول داود « سبحوه يا كل جنوده » (٢٨) .

ان سألتهم عن القووات العلوية تجدون عملهم الوحيد هو تسبيح الله ،
لكن الآب وحده هو الذي يراه ، والروح القدس !
كيف تقدر طبيعة مخلوقة أن تعاین الطبيعة غير المخلوقة ؟ !

ان كنا لا نقدر مطلقا أن نشاهد أى قوة روحية حتى المخلوقة مثل
الملائكة فكم بالحرى لا نقدر أن نرى الجوهر الروحي غير المخلوق ! لذلك
يقول بولس : « الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه (٢٩) » .
هل هذه الخاصية تخص الآب وحده دون الابن ؟ حاشا لنا أن نفكر هكذا ،
انما تخص الابن أيضا . لكى تعرف هذا اسمع بولس الذى يقول عنه
ذات الأمر : « صورة الله غير المنظور (٣٠) » . فان كان هو صورة غير
المنظور يلزم أن يكون غير منظور والا فلا يكون صورته .

لا تعجب من بولس حين يقول في موضع آخر : « الله ظهر
في الجسد (٣١) » ، فقد تحقق الظهور خلال الجسد ، لكن ليس ظهورا
للجوهر .

أضف الى هذا أن بولس يتحدث عنه كغير منظور ، ليس فقط بين
البشر ، بل وأيضا بين القووات العلوية ، اذ بعد قوله « ظهر في الجسد »
يقول « تراءى للملائكة » . عندما لبس الجسد صار منظورا حتى بالنسبة
للملائكة . أما قبلا فلم تره الملائكة ، اذ جوهره غير منظور حتى بالنسبة لهم .

ربما يسأل البعض : اذ كيف يقول المسيح : « لا تحتقروا أحد هؤلاء
الصغار ، لأنى أقول لكم أن ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبى
الذى في السموات (٣٢) » ؟ هل لله وجه ؟ وهل يحد بالسموات ؟ يا له من

-
- | | |
|-------------------|--------------------|
| (٢٦) لو ٢ : ١٤ . | (٢٧) اش ٦ : ٣ . |
| (٢٨) مز ١٤٨ : ٢ . | (٢٩) ١ تي ٦ : ١٦ . |
| (٣٠) كو ١ : ١٥ . | (٣١) ١ تي ٣ : ١٦ . |
| (٣٢) مت ١٨ : ١٠ . | |

جنون أن نزعّم هذا . اذن ما هو معنى هذه الكلمات ؟ انها كقولہ : « طوبى
للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله (٢٢) » . انه يقصد الرؤية العقلية الممكنة
لنا ، حيث يكون لنا الله في فكرنا . هكذا أيضا بالنسبة للملائكة فائنا
نفهم انه بسبب نقاوة طبيعتهم الساهرة لا يفعلون شيئا سوى أن يتصوروا
الله على الدوام أمامهم .

لهذا يقول المسيح « لا أحد يعرف الآب الا الابن (٣٤) » . ماذا اذن ،
هل جميعنا نجهل الآب ؟ حاشا ، لكن ليس أحد يعرفه كمعرفة الابن له .
كثيرون راوه في شكل رؤيا يسمح لهم بها ، لكن ليس من يرى جوهره .
كثيرون منا يعرفون الله ، أما جوهره فلا يعرفه أحد ، غير المولود منه .
اذ يقصد بكلمة « يعرف » أن تكون له فكرة دقيقة وادراك كما للآب نحو
الابن . « كما أن الآب يعرفني أنا أعرف الآب (٢٥) » .

لاحظ باى كمال يتحدث الانجيلي ، فانه اذ يقول « الله لم يره أحد قط »
لا يكمل القول « الابن الذى يرى هو خبر » انما يتحدث عن الرؤية باكثر
من هذا يقول ، « الذى هو فى حضن الآب هو خير » فمن يكون فى الحضن تعنى
اكثر من الرؤية . فمن يرى فقط لا تكون له معرفة دقيقة فى كل شيء ، أما الذى
فى الحضن فلن يجهل شيئا عنه ...

انه يشير الى الابن الحقيقى ، الواحد ، الذى له ثقة عظيمة نحو
أبيه ، والذى ليس بأقل منه (٢٦) .

+ + +

(٣٤) مت ١١ : ٢٧ .
(36) In Joan, hom 15 : 1 ; 2 .

(٢٣) مت ٥ : ١٨ .
(٢٥) يو ١٠ : ١٥ .

الكنيسة

في حديثنا عن منهجه الكنسي تعرضنا لمفهوم الكنيسة وأبعادها عند القديس يوحنا ، فراينا حياة وإيمان ، كارزة بالحب ، سائكة بروح سماوى دون تجاهل الواقع الزمنى . . . انطلقت من حياة الزنا الى المذراوية فصارت الملكة البتول تحمل القابا كثيرة كسيدها وعريسها . وفي كتابنا عن « الحب الرعوى » اعتمدت كثيرا على مقتطفات من كلماته عن مفهوم الرعاية الكنسية وسمات الكاهن ومسئوليته . . . لذا رايت ان اكتفى بالحديث عن الجوانب الأخرى الخاصة بالكنيسة .

الوحدة الكنسية :

الكنيسة كجسد المسيح الواحد تحمل جمالا ، لكن ان مسد عضو في الجسد تتألم معه بقية الأعضاء . ان جمال الكنيسة يمتثل في الجمال الكلى . . . في هذا يقول :

« لا يكون الوجه جميلا الا اذا كانت العينان لامعتين والخدان مشرقين والشفتان حمراويتين والأنف مستقيمة والحاجب مقوسا . غلو قطع جزء صغير من طرف الأنف لحل القبح على الوجه كله عوض الجمال » .

الكنيسة هي اتحاد معا في المسيح يسوع بغير انقسام ، اذ يقول : « من يقول الكنيسة انما يقول لا انقسام بل اتحاد واتفاق (١) » .

ويرى القديس ان الرسول بولس جاهد ان يقضى على الانشقاقات التى في كورنثوس قبل ان ينزع الفساد المتفشى فيها ، فان الأولى اهم واخطر . . . « لقد عرف (بولس) ما هو ملح : القضاء على الانشقاق ! » .

مرة أخرى يتكلم عن الانشقاق الذى دب انطاكية ، قائلا :

« ليس اسوأ من تمزيق القميص الذى لم يتجاسر العسكر على شقه ! الا تكفى الانشقاقات الأخرى حتى ننقسم نحن أيضا على انفسنا ؟! » .

وفي حديثه عن انضمام البعض الى ايفجاريوس (أوغريس) يقول :

« لا شيء يقسم الكنيسة مثل حب الرئاسة ، ولا شيء يضايق الله مثل تمزيق وحدة الكنيسة . . . »

(1) In 1 Cor. PG 61 : 13 ; De mut Nom PG 51 : 151 .

أقول هذا للذين — بدون افراز — ينضمون الى مثيرى الانشقاق ...
الطمع هو سبب الشرور ...

تقولون انهم يحملون ايماننا مستقيما ... اذن لماذا هم ليسوا
معنا ؟ ... فان كانوا على حق نكون نحن مخطئين . اما اذا كان مسلكنا
نحن سليما فيكون مسلكهم باطلا ...

كيف نواجه سخرية الوثنيين ان كانوا ياخذون علينا وجود هرطقات ؟ !
لماذا لا يسمعون لنا ؟ بسبب انقساماتنا ...

موضوع آخر هو عار علينا ... اذا تقدمت لمعاينة انسان اخطا
يتضايق الجميع ويرددون قائلين انه سوف ينفصل عنا وينضم للمنشقين .
حسنا ليذهب الف مرة وينضم اليهم ! ليذهب هو وكل من يرتكب خطأ ...

حقا ان احشائي فى داخلى توجعنى ، لكن حزنى هذا لن يدفعنى
الى عمل ما لا يجب فعله . انى لا اتسلط على ايمانكم يا احبائى ولا احكمكم
كسيد ، انا مدعو لتعليمكم وليس لأجلس على كرسى القضاء ، او كرسى
السلطة . انى لست الا مرشدا ... اتحدث اليكم لنلا تشبثوا فى يوم
الدين قائلين : لم يعلمنا احد ولم نكن نعرف ان هناك خطية .

اوضح لكم ايضا واقترح ان تقسيم الكنيسة يعادل السقوط
فى الهرطقة ... من يذبح المسيح ويقطع جسده ، الا يستحق جهنم ؟ !

لتعلمن ذلك أيتها النساء الحاضرات ، فان النساء هن مسئولات
عن هذا الجرم بالقدر الاكبر . قولوا هذا للنساء الغائبات ولترعبهن .
ان ظننت البعض منكن انهن يسببن لى حزنا (بسبب الانشقاق) فليعلمن انهن
يضعن وقتهن .

من ارادت ان تنتقم منى غائى اقدم لها طريقة لا تؤذى نفسها او على
الاقل تكون الأذية بدرجة اقل ... لتبصق على وجهى عندما تقابلنى وسط
الجميع ولتشبعنى ضربا ! لعلك تقشعرين بسبب هذه الكلمات . الا تقشعرين
اذ تقدمين على تمزيق المسيح ؟ ! ...

أقول للذين انضموا للمنشقين تبرما منى ، فليصفعوننى على وجهى
ولا يفعلون ذلك .

الذين يبدون كأنهم حارون في الروح هم سبب هذه الكارثة . لا اقصد
الحاضرين معنا بل الغائبين الذين تركوننا .

ان كنتم ترون خطأ في غانا مستعد ان اتنازل عن رتبتي لمن تشاؤون
من اجل الحفاظ على وحدة الكنيسة ...

ارجوكم ابنلوا قصارى جهـدكم لتكونوا ثابتين وتردوا كل الذين
انشقوا عنا (٢) « .

+ + +

(2) In Eph . PG 62 : 85 , 88 .

الأم

كثرة ما خلفه لنا القديس من تراث روحى يفتح المجال للكثير عن الكثير من افكاره ، وقد تركت الحديث عن افكاره من جهة الصدفة (١) وعناية الله (٢) وإمكانية الإنسان ألا يؤذيه أحد ما لم يؤذ الإنسان نفسه بنفسي (٣) والاتضاع (٤) والموت (٥) الأمور التي سبق أن تعرضت لها في كتابات سابقة وترجمة لأقوال أو كتابات القديس ، والآن أكتفى بالحديث عن نظرتي نحو الألم كمثال حي لتكثيره .

رجل آلام :

عاش القديس يوحنا الذهبي الفم صاحب المشاعر الرقيقة وسط أتون النار ، يشارك ابن الله آلامه ، فجاءت أحاديثه وكتابات عن الألم ليست نابعة عن فلسفة فكرية استقفاها من الكتب ولا مجرد عظات نظرية يلقي بها أمام الآخرين ، لكنها خبرة حياة عاشها طوال فترة خدمته .

وتزداد مرارة الألم أن الذي يشربه إنسان نشأ في طفولته وصبوته مدلاً . . . فقد نشأ في طفولته الابن الوحيد المدلل ، ينعم بين أحضان أمه الشابة الأرملة تسكب فيه كل حبها وعواطفها . وجاءت صبوته وكذا شبابه حياة سهلة ، لا يسمع إلا كلمات الإعجاب والاطراء ، يمدحه معلمه وأصدقائه وزملاؤه على نبوغه وفصاحته ، لكنه ما أن دخل الدير حتى أحنى بالحب ظهره ليحمل في رقة مشاعره ! قال كل نفس متألمة ، واذ قبل موهبة الكهنوت إنما تبلى روح الأبوة الحانية ، فدخل بالروح القدس أتون الألم مع كل ابن أو ابنة له . لم يكن يعرف الراحة ما دام يوجد قلب لا يزال غير مستريح ، ولا أعطى لجفنه نعاساً عميقاً ما دامت هناك عين غير قادرة على النوم .

-
- (١) راجع كتابنا الحب الأخوي : محبتنا للفقراء .
 - (٢) انظر القديس يوحنا الذهبي الفم : عناية الله .
 - (٣) انظر القديس يوحنا الذهبي الفم : من يقدر أن يؤذيك ؟
 - (٤) انظر القديس يوحنا الذهبي الفم : اتضاع الفكر .
 - (٥) انظر القديس يوحنا الذهبي الفم : رسالة تعزية إلى أرملة شابة .

في أكثر من موقف عبر القديس لشعبه عن هذه الأبوة الحاملة للألم ،
نقال :

« انى أب مملوء حنوا ... »

كل أم تصرخ وهى تتمخض فى ساعة الولادة . هكذا افعل انا ايضا .
ليتكم تستطيعون معاينة النيران الملهبة فى قلبى ، لتعرفوا انى احترق ... (٦) .
« انى أب للجميع ، لا اهتم بالقائمين فحسب ، بل وبالساقطين
ايضا » .

نستطيع ان نتلمس ما صار اليه بعد الكهنوت ان عرفنا أنه وهو
فى الدير — قبل نواله درجة القسيسية — حين سقط صديقه الراهب
نيذور فى حب هيرمون يكاد بمرارة كما لو كانت تهدمت كل مدن العالم ، وشاركه
المر حتى دخل به الى الدير مرة اخرى خلال التوبة الصادقة . واذا أصيب
الراهب ستاجيروس بمرض عصبى لم يهدأ قلبه حتى دخل به الى الرجاء وحياة
الفرح مرة اخرى .

وما ان رسم كاهنا حتى ثارت مشكلة التماثيل التى كادت أن تدفع
بشعبه الى الابادة وحرق دفينهم بسبب تحطيمهم تماثيل لامبراطور احتجاجا
على زيادة الضرائب ، فتصدى للمشكلة يسند شعبه بروح الأبوة ويشاركهم
الاهم طوال فترة الصوم الكبير .

اما حياته الأسقفية فكما سبق ان راينا لم تكن الا سلسلة آلام متوالية .
انهالت عليه اللطمات من كل جانب بغير حساب : من الاساقفة والكهنة
الحاسدين له ، ومن رجال البلاط الحاقدين عليه ، من الامبراطورة أفدوكسيا
والامبراطور بسبب جراته وعدم تملقه لهما . وجاءت مشكلة الاخوة الطوال
القائمة دفعت به دفعا الى النفى فى جبال القوقاز بأرمينيا بذوق مرارة
السفر الشاق بجانب صحته المتوعكة والبرد القاسى وحرارة الصيف . لقد
عاش أواخر حياته ، محروما من شعبه ، وحيدا وسط الآلام حتى دفعت به
الى موت الجسد حيث أجهده الجند فى الطريق ...

والآن ماذا كتب رجل الآلام عن الألم ؟

+ + +

(6) In Hebr, hom 23 : 9 .

مفهوم الألم :

لم يسجل لنا القديس مقالا عن « الألم » لكنه سكب خبراته الطويلة والأصيلة في حياة الألم خلال عظاته ومقالاته ورسائله . وجاءت هذه الخبرات مزيجا رائعا من الواقع العملي الذي عاشه والحياة اليمانية الصادقة التي سلكها عمليا .

حين يكتب القديس أو يتكلم لا يخفى حقيقة مشاعره ، سواء في لحظات ضعفه البشري أو قوته اليمانية . فهو لا يدعى لنفسه العصمة من الضعف ، لكنه أيضا لا يقف عندها ، إنما يسرع بالانطلاق نحو الصليب لكي يختبر الشركة مع المسيح المتألم ، فيعبر فوق الآلام الزمنية ليدخل الى قوة القيامة ، لينعم بالوجود في حضن الآب .

كأسقف حكيم يعرف كيف لا يستسلم للألم بل يرتفع مع شعبه الى الإيمان الحي العملي . يدخل معهم الى الصليب ليجدوا في الألم مفاهيم لاهوتية جديدة ، كما يفتح لهم الكتاب المقدس لا ليسمعوا عنه مجموعة من العظات أو بعض التفاسير ، إنما لكي يدخل بهم الى رجال الله القديسين المتألمين — من العهدين القديم والجديد — في صداقة قوية ، خاصة أيوب البار ، والثلاث فتية في أتون النار ، ودانيال في الحب ، والرسول بولس . . . يكشف لهم أعماق مشاعرهم ويحدثهم عن دقائق آلامهم . . . حتى ليشتهى الإنسان بالحق أن تكون له طوباوية الشركة معهم في آلامهم من أجل الرب .

ماذا يقصد بالألم :

الألم عند القديس يوحنا الذهبي الفم ليست مجرد مشاعر نفسانية أو تعب جسدي يرهق الإنسان ، لكنه مرض يصيب غاية وجوده ويفسر رسالته .

فالإنسان اذ يشعر بتعب داخلي أو بضيق في نفسه يحاول لا شعوريا أن يعطى ذلك الى أقرب حادث أو باعث خارجي . قد يبرر الله بسبب ما أصاب جسده من مرض أو ما حل به من فقر أو من كوارث . . . وأحيانا ينسب آلامه الى ظلم الآخرين له أو تعديهم على حقوقهم المادية أو المعنوية أو من حرمانه من العطف الأبوي أو الأموي أو الأخوي أو نتيجة تقصير من ينتظر منهم حنوا . . . لكن القديس يطالبنا بنظرة أعمق : ألا وهي الدخول الى حقيقة وجودنا والتعرف على رسالتنا ، عندئذ نفهم الألم الذي يصيبنا ويفسد عملنا وغاية وجودنا .

فالحديد مثلا ليس له مشاعر ، لكن الصدا هو علة ألمه ، اذ يفقد صلاحيته .

هذا ما أراد القديس أن يوضحه في مقدمة مقاله : « لا يستطيع أحد أن يؤذى إنساناً ما لم يؤذ الإنسان ذاته » ، اذ يقول :

« كل شيء له عدو شرير يضره ،

فالحديد يفسده الصدا ،

والصوف يفسده السوس ،

وقطيع الخراف تهلكه الذئب ،

والخمر يفسد شدة الاختمار خواصه حين يصير « حامض » الطعم ،

والعسل يفقد خواصه عندما تزول عنه حلاوته الطبيعية ، ويتحول

الى عصارة مرة ،

وسنابل القمح يهلكها الجذب ...

فما الذى يفسد صلاح الانسان ؟ ! » .

هذه هي نظريته ... انه يود أن يدخل ينسا الى اعماق المشكلة ،

بالتعرف على المرض الحقيقي الذى يصيب سلام الانسان الدخلى ويفقده

حيويته وفرحه ، وينحرف به عن هدفه ، محطماً صلاحه .

مصدر الألم :

يتساءل القديس في أكثر من موضع : ما هو العدو الحقيقي الذى

يحطم غاية الإنسان وصلاحه ؟ هل الجسد أم أحداث الطبيعة ، الشيطان

أم مدبرى المكائد أم القضاء والقدر ؟

هل الألم من فعل الله أو هو من صنع الإنسان ضدنا أو هو ثمرة عمل

الإنسان نفسه ؟

هكذا اضطر القديس في كثير من أعماله أن يكشف عن الألم من جهة

علاقته بالجسد ، والأحداث الطبيعية ، الله والشيطان والآخرين ، وعلاقته

بارادة الإنسان نفسه ...

أولاً : الألم والجسد :

من أثر الفلسفات الفارسية أن خرجت بعض الهرطقات تدعى المسيحية

أمثال أتباع المانية ، تهاجم الجسد بكونه عنصر الظلمة من صنع اله الشر ،

مفسد للإنسان وعدوه الأول ، يكتم انفساس الروح ويحطم رسالتها

وينحرف بها عن رسالتها ويفقدها صلاحها ، وكأن الجسد هو علة الألم .

لذلك أبدى قديسنا يدافع عن صلاح الجسد بكونه صنعة الله الجميلة ،

غير المسئول عن آلام النفس وفسادها دون شركة النفس معها ، اذ يقول :

« الجسد هو من صنع الله » .

« الجسد مادة ، والمادة غير مسئولة عن الأعمال الصالحة أو الضارة التي تصدر عنها ، فكيف نقول أن الجسد هو مصدر الألم ؟ ! (٧) » .

« بحق لا يقدر الجسد أن يرتكب اضرارا خطيرة بدون النفس ، لكن النفس تقدر ان ترتكب هذه الأمور دون الجسد (٨) » .

لقد أبدى اعجابا شديدا بالجسد بكونه خليفة الله ، الفنان الأعظم ، اذ يقول مثلا عن العين :

« خالق الفنان الأعظم ، الله ، العين بهذا الجمال الذي يبهر من يتأملها . هذه العين تحمل قوة لكي تختزن في داخلها مسافات شاسعة من خلال فتحة متناهية الصغر ، فترى مناظر بلا عدد : من جبال وغابات وتلال وبحار وسموات (٩) » .

الجسد خليفة جميلة صالحة لا تحظم النفس بل بالعكس تسندها في تحقيق غاية الانسان ، بكونه آلة بر صالحة ، اذ يقول :

« النفس بالنسبة للأناء الخزفي (الجسد الترابي) انها كالسائق للمركبة ، والريان للسفينة ، والموسيقار للقيثارة ! انها تمسك باللجام وتناور بالدفة وتلعب على الأوتار لتؤدي غايتها وتخرج لنا نغمات فضائل عذبة متوافقة (١٠) » .

مرة أخرى يتحدث عن أهمية الجسد في مساندة النفس ، فيقول :

« ان هلك الجسد ماذا يكون اثر ذلك على النفس ؟ اي تشويش وأمواج وعواصف تجتاحها ؟ ! ... حقا لقد أوجد الله المعدة في أجسادنا كنوع من الطاحونة لكي تهبط القوة المناسبة ، وتعين قدرا معيناً لكي تطحنه كل يوم » .

كما يتحدث عن أهمية النفس في إبراز صلاحية الجسد وجماله اذ يقول « ممكن أن يكون الحصان ممتازا وسريع الحركة لكن لا يظهر هذا بدون راكبه » .

أما انحراف الجسد عن غايته فسرّه ليس فساد الجسد في ذاته بل اهمالنا وتراخيها ... بل النفس هي المسئول الأول لأنها قائد الجسد ...

(7) De Resur. Mort ; In Col, hom 8 : 1 .

(8) In Eph, hom 5 .

(9) De Statues, hom 2 : 3 .

(10) Deang. porta 51 : 41 .

« لقد وهبت لنا الأعين لننظر بها الخليقة فتمجد السيد الرب ،
لكننا ان كنا نسيء استخدامها ، نصير خادمة للزنا .

أعطينا لسانا نعلم به ونسبح به الخالق ، لكننا ان لم نحترز لأنفسنا
يسير لغة تجديف .

أخذنا الأيدي لرفعها في الصلوات ، فان لم نتيقظ تعمل في الطمع
والجشع .

وهبنا الأقدام لكي تسير في الصلاح ، وبسبب اهمالنا تتسبب في أعمال
شريرة ... (١١) » .

وفي تعليقه على غلا ٥ : ١٢ « يا ليت الذين يقلقونكم يقطعون أيضا »
يتحدث عن أتباع ماني الذين يجعلون من الجسد مصدرا للفساد يلزم
التخلص منه ... اذ يقول :

« هؤلاء يدعون الجسد غدارا ، من اصل شرير ... الا يلزمهم بذلك
يفتأوا أعينهم لأن الشهوة تدخل الى النفس عن طريقها ؟ لكن الحقيقة انه
ليس العين ولا أى عضو آخر غينا هو الذى يلام انما ارادتنا الفاسدة
وحدها هى موضع اللوم .

ان كانوا لا يقبلون هذا فلماذا لا يبترون اللسان بسبب التجديف
والأيدي بسبب السلب والأقدام بسبب السلوك الرديء ، وباختصار
يبترون كل أعضاء الجسد ؟ فان الآن اذ يسحرها صوت المزمار غالبيا
ما تؤثر على النفس ، والأنف اذ تتنسم الرائحة اللذيذة تسبى الذهن وتجعله
يؤور نحو اللذة . لكن هذا القول شرير ومبالغ فيه وجنون شيطاني ...

انلاحظ هنا ان ما يرتكبه انما هو خطية النفس . فان اشباع شهوات
الجسد ليس من عمل الجسد بل من عمل النفس . وان ارادت النفس أن
تميت هذه الشهوات لها السلطان المطلق في السيطرة على الجسد .

ان ما يقولونه يشبه شخصا رأى انسانا يقدر نارا ويلقى وقودا على
بيت ويشعل فيه ، فيلوم النار لا الذى اشعلها ، وذلك لأنها أمسكت
بالوقود وارتفعت جدا . كان يليق بنا لا أن نلوم النار بل الذى اشعلها ،
فقد أعطيت لنا النار لكي نطهى الطعام ونضيء بها ونستخدمها في خدمات
مماثلة وليس لحرق المنازل :

(١١) هل للشيطان سلطان عليك ؟ طبعة ١٩٧٢ ، ص ٥٨ .

هكذا أيضا الشهوة المزروعة فينا وجدت لأجل تشييد العائلات وضمأن الحياة وليس الزنا والنجاسة والفسق . لقد أعطيت ليكون الرجل أباً لا زانياً ، زوجاً شرعياً لا غاسقاً ، يترك من بعده ورثة لا أن يحطم رجلاً غده . فإن الزنا لم يقم عن الطبيعة ، إنما الخلاعة هي ضد الطبيعة ... » .

النفس هي المسئولة عن الجسد ، هي قائده وسيده ومدربه وليس عدو للجسد وقاتل له ... ففي تعليقه على كلمات الرسول « أقمع جسدي وأستعيده (١٢) » يقول : « لا يقول (الرسول) « اقتل » ولا « أعاقب » ، فإن الجسد ليس موضوع بغضة ، لكنه يقمعه ويستعبده . هذا هو عمل السيد لا العدو ، المعلم لا الخصم ، المدرب لا المقاوم (١٣) » .

أن فساد أعضائنا غلته فينا ، أردنا أن نخطيء فأفسدنا حياتنا واشتركت النفس في سر فساد الإنسان ... لكن الله كلى الحب لم يترك جسداً يهلكه الفساد ، بل حمل ناسوتنا بلا خطية ، حتى بتجسده وآلامه وموته وقيامته يعيد إليه أمجاده الأصيل . في هذا يقول : « بسبب الخطية وضع الله جسد الإنسان تحت سيف الفساد ، لكن هذه الصورة ليست نهائية ، إنما يتمجد الجسد من جديد في جسد المخلص عند القيامة (١٤) » .

وفي عظته الخامسة على الرسالة إلى أهل أفسس يؤكد القديس ليس حاجة الجسد فقط وإنما حاجة النفس أيضاً إلى توجيه علوى من السماء حتى لا يكونا في فساد . فالإنسان الذى يترك نفسه تعمل حسب هواها دون عمل روح الله القدوس يحسب إنساناً « طبيعياً (*) » ، والذى يترك جسده يعمل حسب شهواته دون عمل روح الله القدوس يحسب إنساناً « جسدياً » . ليس فقط الجسد بل « والنفس تحتاج إلى توجيه سماوى ، فإنها في ذاتها — أن لم تقبل دافعا من فوق — لا يمكن أن تكون عظيمة وصالحة .

يكمل القديس حديثه قائلا : « على أى الحالات يلزم أن يكون لنا الروح معنا حتى ينال الراكب (النفس) قوة جديدة ، فيعطى جمالا للجسد والنفس » .

(١٢) ١ كو ٩ : ٢٧ .

(١٣) In 1 Cor, hom 23 : 2 .

(١٤) In Philip .

(*) ١ كو ٢ : ١٤ .

ثانيا : الألم والأحداث الجارية :

يرى الكثيرون أن سر الألم في حياة الانسان هو فقدانه السلام بسبب تقلب الأحداث ، فقد يصاب الانسان بمرض أو يفقد بعض الممتلكات أو تهان كرامته ومركزه الأدبي أو يحتمل آلام الضرب أو النفي ... مثل هذه الأحداث وما على شاكلتها أو حتى مجرد الخوف من حدوثها يبعث في النفس آلاما .

هذه النظرة دنيوية اكتسبناها من حكم الجماهير ، تحمل فكرا سطحيا لا يمس عمق الانسان الداخلي وغايته الأصيلة . وقد شبه القديس من لهم هذه النظرية بالذين يحكمون على صلاحية الفرس من لجامه الذهبي وسرجه الزاهي الألوان وعدة رأسه المرصعة بالجواهر والغطاء المضرر بحبل ذهبي ... مع أن حقيقة صلاحيته تكمن في خفة حركته وقوة أقدامه وخطواته وشجاعته وقدرته على التصرف بهدوء في ميدان المعركة وانتقاذ صاحبه ان حدثت هزيمة ... (١٥) .

الأحداث والتصرفات : يقسم القديس يوحنا الأحداث والتصرفات الى ثلاثة أنواع :

(أ) أحداث وتصرفات صالحة بطبعها مثل تصرفات الحب من احتمال لضعفات الآخرين والعطاء والستر على خطايا الغير مع العفة والبساطة والحكمة الخ ...

(ب) أحداث وتصرفات شريرة بطبعها مثل العداء والكراهية والحقد والزنا ...

(ج) أحداث وتصرفات سوية ، ليست صالحة ولا شريرة في طبيعتها انما يمكن أن تكون هكذا أو كذلك حسبما يوجهها الانسان ، أو كما يقول القديس :

« ليس هناك خير مطلق أو شر مطلق ، انما يتحدد ذلك حسب استعداد النفس » .

هذه الأشياء قد تكون صالحة أو ضارة حسب استخدامها المرء . فالغنى يمكن أن يكون أداة لبخل أو الكرم . والفقر قد يدفع الى التجديف أو الشكر .

(١٥) من يقدر أن يؤنيك ؟ ص ١٧ .

هذه الأشياء التي ادعوها سوية هي : الغنى والفقر ، الصحة والمرض ، الحياة والموت ، الكرامة والهوان الخ ... (١٦) » .

يستطيع المؤمن أن يجد في الأحداث المؤلمة سلاما وتعزية . وقد سجل لنا القديس في إحدى رسائله للشماسة اولمبياس احساسه عندما اثبتت به الآلام ، اذ قال : « عندما اذكر هذه الأمور يوما غيوم ، اذ اتأملها على الدوام أطير من السعادة ، أثب بالفرح كمن وجد كنزا عظيما قد خزن له . هذا هو حالي ، وهذه هي مشاعري تجاه هذه الأمور . ذلك أسأل سموك أن تفرحى بهذه الأمور وأن تسعدى وتثبى فرحا وتمجدى الله الذى حبسنى اهلا أن أحتمل مثل هذه الأشياء (١٧) » .

هذه النظرة سلمها القديس وهو في أتون الألم ، اثناء نفيه ، معلنا انها سر أثم البشرية وشقائها . لقد كتب أيضا الى الأسقف قرياقوس يقول :

« عندما استبعدت من المدينة لم أقلق ، بل قلت لنفسي :

+ ان كانت الامبراطورة ترغب أن تنفينى ، فلتفعل فان للرب الأرض!

+ وان كانت تود أن تنشرنى ، فأتى أرى أشعياء مثلا !

+ وان أرادت اغراقى فى المحيط أفكر فى يونان .

+ وان القيت فى النار أجد الثلاث غتية قد تحملوا ذلك فى الأتون !

+ وان وضعت أمام وحوش ضارية أنكر دانيال فى جب الأسود !

+ وان أرادت رجمى فان اسطفانوس أول الشهداء يكون أمامى !

+ وان طلبت راسى ، فلتفعل فان المعدان يشرق قدامى !

عريان خرجت من بطن أمى ، وعريان أترك العالم .

بولس يذكرنى : ان كنت بعد أرى الناس لست عبدا للمسيح! (١٨) » .

هكذا لا يرتعب القديس من النفى أو التعذيب أو الموت أو الفقر ...

١ - النفى : لم يرتعب القديس من النفى ، اذ يرى فى النفى

« زيارة بلاد ومدن كثيرة » ، كما يقول أيضا : « ان أردت أن تفكر (فيه)

فانك كمسيحى ترى الأرض كلها انما هى غربة (١٩) » .

منظار جديد خلاله لا ترى النفى علة ألم جسدى أو نفسى ، بل مجرد

تغيير للموضع ، اما تمتع بزيارة مناطق جديدة أو امتداد لحياة الغربة التي

نعيشها أينما وجدنا . النفى فى عينيه هو خروج من غربة الى غربة .

(16) Ego Dominus Deus . (17) Epis 14 ad Olymp .

(18) NPNF , Series 2 , vol 9 , P 14 .

(19) Epist . 4 , 54 , Epis . ad Olymp . 9 , 4 .

٢ — اغتصاب الممتلكات : في نظر القديس الأمر يحتاج الى رثاء من فقد ماله بل الذي اغتصب ، لأنه يفقد صلاحه ، في رايه ان غاقد المال ان تقبل الحدث بشكر بغير تذر ولا قلق يكون كمن قدم ماله المقتصب صدقة لله ، بل وأعظم من ذلك ، لأن حياة الشكر أفضل من تقديم الصدقة (٢٠) . غنى حديثه عن أيوب البار يقول (٢١) ، « ان تقديمه للفقراء من خيراته لم يكن له ثماره مثل تقديمه كلمة شكر اثناء بلاياه .

٣ — الفقر : يقول « ليس الفقر شرا انما هو هدم للشر ان صحبه تدقيق مع حكمة (٢٢) » .

٤ — المرض : يتحدث عن المرض قائلا : « اي ضرر اصاب لعازر بسبب مرضه وقروحه وفقره وعدم وجود من بقية ؟ ! ألم تضفر له هذه الأمور اكليلا من زهور النضرة ؟ ! (٢٣) » .

٥ — الموت : يسميه « نوما عميقا (٢٤) » ، ورقادا ورحيلا الى الميناء وعبورا من وطن الى آخر (٢٥) .

يقول : « ماذا يخيفني ؟ الموت ؟ لا ، لأنه ليس بهرعب لي دائما به نصل الى الميناء الأمين (٢٦) » .

مرة أخرى يقول : « اي ضرر اصاب هابيل بموته ، مع انه مات موتا عنيفا في غير اوانه وببدا أخيه ؟ ! ليس على حساب هذا صارت سمعة هابيل تجوب الأرض كلها ؟ ! (٢٨) » .

وفي رسالته الى الشابة الأرملة يعزيها في زوجها يقول : « حقا لو انه هلك كلية أو انتهى أمره تماما .. لكان ذلك كارثة عظيمة وكان الأمر محزنا ، لكن ان كان كل ما في الأمر انه أبصر الى ميناء هاديء ، وقام برحلة الى الله الذي حقا ملكه ، لذا يلزمنا الا ننوح بل نفرح !

هذا الموت ليس موتا ، انما هو نوع من الهجرة والانتقال من سييء

(٢٠) المؤلف : القيم الروحية لعيد النيروز ص ٢٦ .

(٢١) المرجع اسبق ص ٨٥ . (22) Ego Dom Deus .

(٢٣) من يقدر أن يؤذيك ؟ ص ٢٢ .

(٢٥) يسوع والمفلوجان ، ص ٦١ .

(26) In Gen. PG 53 : 345, 338.

(٢٧) الكنيسة تحبك ، عظتان عن أيديوس ، عظة ٢ .

(٢٨) من يقدر أن يؤذيك ؟ ص ٢٢ .

الى حال أفضل ، من الأرض الى السماء ، من وسط البشر الى الملائكة ورؤساء الملائكة ، بل ليكون مع الله الذى هو رب الملائكة ورؤساء الملائكة ...

ربما تثبتان الى سماع صوت زوجك والتمتع بحبه ... حسنا ! ان الحب الذى كان يمن به عليك يمكنك أن تحتفظى به معك كما كان قبلا . لأن هذا هو قوة الحب أنه يحتضن الحاضرين معنا ، القريبين فى المكان ، المنظورين ، كما يحتضن البعيدين لمسافات شاسعة ويكون قائما بينهم ويربطهم معا ، فلا يمكن لبعد الزمان أو المكان أو لشيء من هذا القبيل أن يكسر محبة الروح ويبدها .

الموت ليس موضوع حزن ما دام الله يدعونا اليه لنرجع ونكون معه : « اعماق المسيحية هي انتظار الحياة بعد الموت وترجى الرجوع بعد الرحيل (٢٩) » .

أما سر نصرتنا على الموت فهو السيد المسيح الذى غلب الموت وحطم الخوف منه : « انه كراع شجاع أسر الأسد الذى كان يرعب القطعان ويخرب الحظيرة ، فكسر أنيابه وخلع مخالبه وحلق ذؤبته وتركه كعبية مضحكة يلعب بها أولاده . هكذا انتصر المسيح على الموت الذى كان يثير زعر البشرية ، وسلب منه صفته المريعة ، حتى صارت البنات الصغيرات تلهون به (٣٠) » .

ثالثا : الألم والشيطان :

فى علاج مشكلة الألم قدم لنا القديس نظرة صادقة تجاه الجسد بكونه آلة بر — ان تمتع بقوة علوية — يعين الانسان على بلوغ غايته ويكون سندا للنفس . كما عالج مشكلة الأحداث المؤلمة التى يتعرض لها الانسان ، مقدما لنا نظرة ايمانية ترفع الانسان فوق المخاوف وتدخل به الى قوة الروح ليعيش وهو بعد فى الجسد على مستوى ملائكى . والآن ماذا يقول قديسنا بخصوص دور الشيطان تجاه الألم ؟

لقد كتب ثلاث مقالات فى هذا الشأن :

المقال الأول : « رد على القائلين بأن للشيطان سلطان علينا » .

المقالان الثانى والثالث : « سلطان الانسان على مقاومة الشيطان » .

وقد سبق أن ترجمت هذه المقالات ونشرت تحت عنوان « هل للشيطان سلطان عليك ؟ » .

(29) De Consol . mort . PG 56 : 299 .

(30) De S . Pelog . PG 50 : 579 .

في هذه المقالات وغيرها أوضح النقاط التالية :

« لقد خدع الشيطان أبونا الأولين وسمح للمياه أن تدخل سفينة حياتهم لتغرقها ، لكن الله جعل المكسب أعظم من الخسارة ، فأحضرها إلى العرش الالهي . ان كان الشيطان قد خدعنا فحرمنا من الفردوس ، لكن الآب أرسل ابنه واجلسنا في السموات (٢١) . »

الشيطان خدعنا ، لكن الله أعلن عطيته التي لا يعبر عنها (٢٢) ووهبنا سلامه الذي يفوق كل عقل (٢٣) .

ان كان الشيطان كان سببا في حرماننا من الفردوس ، فان الله أعلن عنايته بالانسان ليس فقط في تقديم الفردوس لنا ، بل وأيضا في حرماننا منه . . . اذ اهلنا للعودة الى حال افضل .

٢ — أكد القديس ان الله لم يترك العالم في يد الشياطين والا كان حالنا كحال المجنونين (٢٤) اللذين كانا في كورة الجرجسيين بل وأشر ، لأن الله لم يسلمهما بالكامل لظلم الشياطين (٢٥) .

٢ — في المقال الثاني أوضح ان الشيطان لا يجبر الانسان على الهزيمة وانما يخدع . . .

الانسان — خاصة بعد أن تمتع بالنعمة الالهية — يحمل قوة وسلطانا لا يقدر عليهما الشيطان . انه بلا شك « يقاومنا على الدوام (٢٦) » ، وهو « مستعد مع جيوشه للقتال ضدنا بكل خبيث (٢٧) » ، وقد « تسبب في هلاك الكثيرين (٢٨) » ، لكنه ليس هو سر آلامنا المطلق . هو يثر الأضاليل ويوحى لنا بها ويشككنا ، لكنه يعجز عن أن يلزمنا بها لا اراديا . انه لا يقدر أن يرغمنا على شيء ، أو يسوق ارادتنا (٢٩) .

« العدو بالنسبة للأبرار لا يقدر أن يفعل شيئا الا أن يخيف (٤٠) » .

(٣٢) ٢ كو ٩ : ١٥ .

(٣٤) مت ٨ : ٢٨ .

(36) Epist 5 : 34 .

(38) De Prouid .

(40) In Philip, hom 4 .

(٣١) أف ٢ : ٦ .

(٣٣) في ٤ : ٧ .

(٣٥) المقال الأول .

(37) Epist . ad Olymp . 7 .

(39) In Gen, hom 31 : 1 .

« الشيطان مخادع ... يريد أن يضلنا بمناوراته » ... أما علة سقوطنا فهو « الانسان نفسه الذى ينجذب اليه . ويوافقه ، وذلك بسبب عدم جهاده أو ضعف ارادته (٤١) » . أو كما يقول القديس : « انه لا يكف من الهجوم ضدك ، لكنه ان لاحظ فيك أنك تشكر الله في كل تجربة عوضا عن أن تجدف على خالقك ، فإنه للحال يكف عن أن يجربك (٤٢) » .

مرة أخرى يقول : « ان رآك الشيطان مرتبطا بالسما ، ساهرا ، فإنه لن يجرؤ قط حتى أن يحدق فيك (٤٣) » .

« السيرة الطاهرة تسد فم الشيطان نفسه وتبكمه (٤٤) » .

« قد يقول قائل : ألم يؤذ آدم اذ افسد كيانه وأفقده الفردوس ؟ لا ، وإنما السبب في هذا هو اهمال من أصابه الضرر ، وعدم ضبطه لنفسه وجهاده . فالشيطان الذى استخدم مكائد قوية مختلفة لم يقدر أن يخضع أيوب ، فكيف استطاع بوسيلة أقل أن يسيطر على آدم ؟ (٤٥) » .

لماذا لم يستبعد الله الشيطان ؟

شغل هذا السؤال القديس في كثير من كتاباته ، خاصة مقالته « سلطان الانسان على مقاومة الشيطان (٤٦) » ، وجاءت اجابته في اختصار :

١ — الشيطان مضلل ... لكن كثيرون غلبوه فصارت لهم تركيبة وكرامة أفضل بكثير من المغلوبين ، حتى ولو كان المغلوبون كثيرين . اذ يقال « ولد واحد خير من ألف منافقين (٤٧) » .

٢ — ان كان المغلوبون قد أصابهم اذى ، فإن السبب هو كسلهم وليس الشيطان ...

٣ — لو أن الله استبعد الشيطان لأنه مضلل ويسببه يتعثر كثيرون فهل يستبعد الله الخليفة الجميلة بسبب عثرة البعض فيها ، وهل يستبعد الله أعضائنا التى نستخدمها استخداما شريرا ... ولماذا ؟ فإن البعض تعثر في الصليب (٤٨) وفي الرسل (٤٩) . بل وتعثر اليهود في السيد المسيح نفسه (٥٠) .

(41) In Acts, hom 54 : 9 .

(42) De Incomp, hom 4 .

(43) Ibid .

(٤٤) للمؤلف : الحب الاخوى طبعة ٦٤ ، ص ٨٤ .

(٤٥) من يقدر أن يؤذيك ؟ ص ٢١ .

(٤٦) هل للشيطان سلطان عليك ، ص ٥٢ — ٦٢ .

(٤٧) ابن سيراخ ١٦ : ٣ . (٤٨) ١ كو ١ : ١٨ .

(٤٩) ٢ كو ٢ : ١٦ . (٥٠) يو ٩ : ٣٩ .

أخيرا يؤكد القديس انه لا يبرىء الشيطان ، لكننا نستفيد من وجوده
ومن حربه ضدنا لكي نتزكى ونكمل .

رابعاً : الآلام ومكائد الآخرين :

« ان كان الشيطان المملوء مكرًا هذا مقداره بعدما صب كل ما في
بجعبته ، مستخدماً كل أسلحته ، وسكب كل شروره ضد انسان بار
ذا مركز عالى سام لم يسبب له اذى ، بل بالحرى كما سبق ان قلت قد
أفاده ، فكيف تقدر ان تتهم انسانا أو آخر انه يحمل في يديه ضررا
لغيره وليس لنفسه ؟ ! ... »

لست بهذا اقول انه لا يوجد من يضر غيره ، انما لا يصيب الضرر
أحد بيد آخر بل بسببه هو ... فقد أضر اخوة يوسف أخاهم ، لكنه
لم يصب يوسف بضرر . ألقى قايين شباكه ضد هابيل ، لكن هابيل لم يسقط
فيها ...

(ماذا يفعل بك الآخرون ؟) ...

أيسلبون مالك ؟ أذكر هذه الكلمات : عريانا خرجت من بطن أمي
وعريانا أعود الى هناك (٥١) » ، وقول الرسول : « لأننا لم ندخل العالم
بشيء ، وواضح أننا لا نقدر ان نخرج منه بشيء » .

هل أسىء الى سمعتك ، وقذفت البعض بشتائم لا حصر لها ؟ أذكر
القول : « ويل لكم اذا قال فيكم جميع الناس حسنا » وايضا : « افرحوا
وتهللوا ان قالوا عليكم كلمة شريرة (٥٢) » .

هل اخذت الى النفي ؟ أذكر انه ليس لك هنا موضع انما يليق بك
ان كنت حكيما ان تتطلع الى العالم كله كأرض غربة ...

هل يعانى انسان من موت عنيف ؟ ليذكر يوحنا الذى قطعت رأسه
في السجن وأخذت على طبق ، وقدمت مكافأة لرقص زانية ...

يامل المكافأة التى تنالها على حساب هذه الأمور ، فان هذه الآلام
جميعها اذ تسقط على انسان من آخر ظلما انما تنزع خطايانا وشرنا .

عظيم اذن هو نفع هذه الأتعاب لمن يحتملها بشجاعة (٥٣) » .

هكذا اذ يدخل الانسان الى خبرة الحياة الأبدية يحمل نظرة جديدة
نحو ظلم الآخرين ومكائدهم ، تتحول الآلام التى يصيبنها علينا الى أفراح .

(٥١) أى ١ : ٢١ ، ١ : ٦ .

(٥٢) لوقا ٢٦ : ٦ ، مزمور ١١ : ٥ .

(٥٣) من يقدر ان يؤذيك ، ص ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ .

وقد أوضح القديس نظرتنا الى صانعي المكائد وأعمالهم هكذا :

١ — صانعوا المكائد اخوة لنا وليس أعداء ... فانه ليس لنا الا عدو واحد هو الخطية التي تفسد سلامنا ، او هو الشيطان الذي يفرح ببث العداوة بين البشر (٥٤) . فعلى سبيل المثال : « لم ييأس بولس من خلاص راجميه بالحجارة او ضاربيه بالعصى اذ يمكن أن ينالوا الملكوت (٥٥) » ، ويصيروا اخوة له .

٢ — الله يسمح بوجود هذه المكائد ضدنا لا لكي نتألم وانما لتفكك ... انه يرى خلال آلامنا الأمجاد الأبدية التي توهب لنا .
« لعمرى ، انك ما خسرت شيئا ، بل أخفت زيادة .
انك ما ظلمت انما تكلمت ، اذ صرت شبيها بالله (٥٦) » .
« انى أنظر السيوف فأتأمل السماء !

أتوقع الموت فافكر فى القيامة !
أتطلع الى متاعب هذا العالم السفلى فأضع فى اعتبارى المكافآت السماوية !

ادرك هذا لعدو فأتأمل الاكليل السماوى (٥٧) » .

مرة أخرى يقول : « ان كان لا يقدر أحد ان يلومنى على فعل الخطية ، فليقم العالم كله بحرب ضدى ، فان مثل هذه الحرب تجعلنى بالأكثر مجدا (٥٨) » .

٣ — يرى القديس أيضا فى مكائد الآخرين فرصة لفصل الدم فى دم السيد المسيح ، وذلك بقبولنا لها من يدى الله بشكر كتأديب عن خطايانا ، اذ يقول :

« اذا أخطأنا ينهض الله علينا أعداءنا لتأديبنا ، لهذا يليق بنا لا ان نحاربهم ، بل نحاسب أنفسنا ونثقفها .

لنتقبل الآلام كقبول الأدوية من الطبيب لأجل خلاصنا ، وكتقبول التأديب من الأب حتى نتمجد . لهذا يقول الحكيم ابن سيراخ : يا بنى اذا تقدمت لخدمة ربك فتأهب للتجارب واصبر (٥٨) » .

(٥٤) القيم الروحية لعيد النيروز ، ص ٤٤ .

(٥٥) الحب الأخوى ، ص ١٠٨ .

(٥٦) القيم الروحية لعيد النيروز ، ص ٦٢ .

(٥٧) الكنيسة تحبك ، عظة ٢ . (٥٨) الكنيسة تحبك .

« لا تقل ان شتمك وأساء إليك واستهزا بك وسبك وصنع معك كل شر ... فانه قد أوجد لك فرصة لغسل خطاياك (٥٩) » .

٤ — أخيرا فان القديس يوحنا يجد في مكائد الآخرين فرصة للغلبة على طبعه البشري ، حيث يتدرب انسان كيف يغلب غضبه .

في هذا يقول : « كان انتصار داود على الطبيعة الانسانية حين سامح شاول أبلغ اقتدارا من غلبته على جباب لجبار الصنديد . هذه الغلبة اشرف لأنها بدون سفك دم ، وهى أمر عجيب . لقد خرج داود في اثر شاول شاكرا الله لا لأنه لم يقطع رأس عدوه فحسب ، وانما لأنه أمات روح الغضب في شاول ، فتخلص من روح الحقد وحطم عدوه (شيطان الانتقام) بحد السيف (٦٠) » .

خامسا : الألم وعناية الله :

كثيرا ما وضع القديس يوحنا الذهبي الثم التساؤلات التالية وامثالها قدام شعبه :

ان كان البشر يتألمون غاين عناية الله محب البشر ؟

لماذا نرى الصالح متألما ، والشرير غنيا وصاحب سلطان ؟

لماذا يسمح الله لأولاده بالتجارب والضيقات ؟

وجاءت اجاباته تحوى مقالات طويلة قمنا بترجمة بعضها وتبويبها ونشرها (٦١) ، كما جاءت عرضا في بعض عظائمه . ويمكننا ان نلخص افكاره في النقاط التالية :

١ — يلزمنا ان نخضع لارادة الله بغير مناقشات كثيرة فضولية فان مقاصد الله غير مدركة حتى بالنسبة للسمايين .

٢ — الله محب للبشر ، حبه ليس حب عاطفى ، لا يقارن بحب الام لرضيعها او حب الزوج لزوجته او الحبيب لمحبيته . انه حب علوى غائق ، غايته الدخول بالانسان الى شركة المجد الأبدى ... لذا فهو لا يريد لنا الألم ، انما يسمح به لخيرنا لتأدينا او تركينا ، للدخول بنا الى الميراث الأبدى :

(٥٩) الحب الأخوى ، ص ٣٢٣ .

(٦٠) القيم الروحية لعيد النوروز ص ٦٦ .

(٦١) صدرت مقالاته في هذا الشأن ونشرت بالعربية تحت العناوين :

العناية الالهية ، هل للشيطان سلطان عليك ؟ ، يسوع والمفلوجان ، من يقدر ان يؤذيك ...

« انه لدليل مزدوج على محبة الله ان يسمح لكم بهتل هذه التجارب .
هذه الكلمات تحمل تعزية عظيمة ، اذ تعرفنا ان الاحزان هي من عمل
الله ، الضيقات من عنده (٦٢) » .

« الله اساسا لا يعاقبنا ، انما يريدنا ان نصير الى حال افضل (٦٣) » .

٣ — الله يسمح بالالام للصالحين ، فليس احد مساويا للرسول
بولس ومع ذلك قضى حياته في الالم مستمرة ، في تهديدات ليلا ونهارا . . .
ليس ثمرة خطاياه ولكن من اجل انتظار المكافاة . والاشرار يتحملون الالام
للتأديب . . . وفي كلتا الحالتين نشكر الله لانه لا يسمح بذلك عن انتقام
او كراهية بل علامة رعايته واهتمامه بنا (٦٤) .

٤ — يليق بنا الا نضيع وقتنا بكثرة التساؤلات انما ننتفع عمليا ،
حاملين قوة جديدة خلال اتحادنا بالله ، فلا يصيبنا شر ، اذ يقول : « ان
كنت تفحص امور الله ولا تريد الخضوع لمقاصده العميقة غير المفحوصة .
ان حصرت هدفك في مجرد التساؤلات المملوءة فضولا . فانك تظل تتساعل
عن أشياء أخرى كثيرة . . . مع انه كان يجدر بنا لا ان نبحث في هذا كله
بل نسلم لحكمة الله غير المدركة . فان الانسان المحب الملتصق بالله على
الدوام لا تؤذيه الأمواج مهما كثرت هذه ، بل على العكس يخرج منها بقوة
جديدة . اما الانسان الضعيف المتخاذل فانه يسقط كثيرا حتى ولو لم يوجد
ما يضايقه (٦٥) » .

سادسا : الالم والخطية :

« ليس هناك الا سبب واحد حقيقى هو علة الحزن : الخطية » .
« ليس شيء مؤلما غير الخطية ، اما ما عداها من نفى وفقدان ممتلكات
وتدابير مكائد وما اشبه ذلك انما هو ظلال ودخان ، هو نسيج عنكبوت
بل واوهى من ذلك . انى لا اكف عن القول ان امرا واحدا يحزننا هو
الخطية (٦٦) » .

هكذا يرتفع الانسان فوق كل الأحداث بل وفوق مكائد الناس وخداعات
الشياطين ، لكن امر واحد يهزم الانسان هو « ارادته الشريرة » . غالانسان
لا يقدر ان يؤذيه احد ما لم يؤذ الانسان نفسه .

(62) In Hebr, hom 29 : 1 .

(63) In Ps. PG 55 : 444 , 409 .

(64) In Tim, hom 8 . .

(٦٥) العناية الالهية ، ص ١٢ .

(66) In Acts, hom 14 : 4 ; hebr, hom 33 : 4 ; Epist. ad Olymp

الآلم والارادة الحرة :

الخطية التي يقبلها الانسان بمحض ارادته تفسد اتزانه وتفقد قدرته على تقدير الأمور ، وتحرمه سلامه الداخلى الفاسع عن اتحاده مع الله ... انه بارادته الحرة هو المسئول الأول عن آلامه الحقيقية .

فى هذا يقول :

« لا تظنوا أننا نخشى الكمائن اللهم الا اذا كنا نحن اعددناها لأنفسنا .
« الخير والشر هما فى أيدينا .

« انى أؤكد لكم ، واكرر بأعلى صوتى ، مخبرا اياكم عن ملجأ شاهق العلو : ان المسيح لا يخشى احد من سكان الأرض... بل ولا من الشيطان ، ابليس الطاغية ... ما لم يضر الانسان نفسه اولا » .

« الله ليس مصدرا للآلم ، ولا الطبيعة ، ولا القضاء والقدر ، لكنه هو من عمل ارادتك الحرة ورغبتكم (٦٧) » .

« فى الواقع ليس الغنى ولا الفقر يفسد حياتكم ، انما ارادتك » .

« قد يهينك العالم كله ، لكنك ان لم تهين نفسك بنفسك لا تكون مهانا .
الخيانة الوحيدة الحقيقية هى خيانة الضمير (٦٨) » .

« لاتخف قط من السيف ان كان ضميرك لا يسىء اليك ، ولا تخف من الحرب ان كان ضميرك نقيا (٦٩) » .

الآلم وسر المسيح :

ربط القديس الآلم فى حياة المؤمنين بشخص السيد المسيح الذى قبل الآلام من اجلنا بفرح ، مقدما مفهومها جديدا للآلم :

١ - المسيح المتآلم مثال للمتآلمين :

لقد شرب السيد الكأس حتى النهاية ، وفى هذا كله لم يفتقد هدوءه ولا صبره ولا شجاعته ولا حبه لضطهديه ، مقدما لنا مثالا عمليا حتى كما سلك هو نسلك نحن أيضا .

« كان يمكنه أن يرسل صاعقة ويزلزل الأرض ويبيس يد رئيس الكهنة ، لكنه اراد أن يغلب بالهدوء ، معلما ايانا نحن البشر الا نندفع قط (٧٠) » .

(67) In Mat, hom 59 : 2 .

(٦٨) الكنيسة تحبك : عظتان عن أتروبيوس : ٢ .

(٦٩) المرجع السابق .

(70) In S . Phoe 2 .

« أرجوكم أن تلاحظوا في هذا المجال (أحداث الصليب) كيف تمم المسيح كل هذه الأمور في هدوء » . أمام التعبيرات لم ينطق قط ، مقدما لنا أعظم درس في التسليم وسمو النفس ...

يسلم احد التلاميذ المخلص ، وبقية التلاميذ تهرب ، والذين صنع معهم خيرا يبصقون على وجهه ، وخادم رئيس الكهنة يلطمه والجند يوسعونه ضربا ، والمارة يشتمونه ، واللصوص يهيجون عليه ، وفي هذا كله لم ينطق بكلمة ! بصمته انتصر ، معلما ايانا أن نغلب الظلم بالصبر ، فيكون ذلك موضع اعجاب العالم كله (٧١) .

« يكفينا أن نقرا هذه الأحداث ونتذكرها : اكليل الشوك ، رداء الهوان الأرجواني ، القصة ، اللطمات ، البصاق ، وكل انواع السخرية . اذا تأملنا في هذه لأحداث لا نحتاج الى شيء آخر يطفئ كل شعور بالغضب في قلوبنا (٢٧) » .

« المعصوم من الخطية قبل أن يموت لكي يعلمنا الاحتمال بشجاعة محتقرين الموت (٧٢) » .

« لقد صلى (وسط آلامه) ليعلمنا الصلاة ، طالبين أن يبعد عنا المخاطر . وان لم يتحقق هذا غاننا نتقبل ارادة الله الخطوة (٧٤) » .

« اجتاز هذا كله لكي يشارك آلامك كلها ، غالبا اياها بطريقة عجيبة لكي يعلمك ويرشدك الا تخاف شيئا من هذه المحن (٧٥) » .

٢ - بدد الخطية علة الألم :

بآلامه وصلبه وموته ودفنه اعطانا قوة جديدة ، ليس فقط أن نتمثل به ، لكنه حطم سلطان الخطية وكسر شوكة الشيطان وأمات الموت الروحي واهبا لنا حياة جديدة فيه . بآلامه حطم سلطان آلامنا .

« ضرب السيد المسيح الموت » .

قتل المسيح المضروب الموت ، هازما ما كنا نظنه ابدى (٧٦) » .

« انى اتحدث عن أعظم الخيرات ، اقصد الصليب الذي به خلص العالم (٧٧) » .

« أترون كيف حطم قوات الشيطان بدفعه طغيان الموت؟! (٧٨) » .

(71) In Joan 84, 85, Mat. 87.

(72) In Joan 84 : 3 .

(73) In Hebr , 28 : 2 .

(74) Pater , si possible 4 .

(76) In Col , 6 : 3 .

(٧٥) العناية الالهية ، ص ٣٠ .

(78) In Hebr , 4 : 4 .

(٧٧) العناية الالهية ، ص ١٥ .

٢ — بالآله قدم مفهومًا جديدًا للآله :

كان الألم علقته الخطيئة وسره فساد ارادتنا ، دخل الينا كمرض أصاب الانسان بسبب انعزاله عن الله مصدر حياته وسر فرحه ، لكن الرب دخل الآلام من باب جديد هو باب الطاعة للآب والحب . أطاع الآب وأحبنا مسلمًا نفسه للآلام حتى الموت ذبيحة حب للآب باسمنا ، فلم يعد الألم مرضًا يصيب الانسان بعلته عن الله بل قوة ومجدًا ، سر الطاعة والحب ، تفوح منه رائحة الصلاح لا الفساد .

هذا المفهوم الجديد للآلام لمسناه بقوة في مراسلاته الأخيرة وهو في النفي حين أعلن لأخوته الأساقفة وأبنائه أنه يثب متهللاً بالآلام ، حاسبًا نفسه غير أهل لشركة الآلام مع المسيح ... شركة الطاعة والحب .

ومن أقواله أيضًا :

« أنه يسمو بنفوسنا ، حاسبًا هذه الآلام خاصة به ، غاي غرح يشعلنا أن نكون شركاء المسيح ، ومن أجله نتألم ! » .

« كما تألم من الناس نتألم نحن أيضًا معه ... لذلك يليق بكم ألا تقلقكم هذه الآلام بل بالجرى تفرحكم .. »

هكذا يليق بنا أن نسلك في نفس الطريق حتى نشاركه في المجد والكرامة ...

ما أجد الآلام ! بها نتشبه بموته ! (٨٠) » .

« ليس شيء أقسى من الآلام الجسدية (التي عانها الشهداء) ، لكن بسبب فرحهم باللهم فإن ما لم يكن محتملاً للأذان أن تحتل سماعه يصير بالنسبة لهم محتملاً ، بل ويشتاقون إليه ! فلو أخذت شهيدا من على الصليب أو من داخل أتون النار وكان لا يزال به أنفاس فستجد في داخله كنزًا من الفرح لا يعبر عنه » .

« كيف يمكن أن يكون حزينًا أو مرتعبًا أو خائفًا من الخطر من يتذكر الآله الذي تنازل وأحبنا ؟! (٨١) » .

وفي تعليقه على كلمات الرسول : « لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضًا أن تتألموا لأجله (٨٢) » ، يقول : « أنه يعلمنا أن

(٧٩) الحب !إلهي ، ص ٤٢٣ . (٨٠) في ٣ : ٩ — ١٢ .

(٨١) القيم الروحية لعيد النيروز ، ص ١٧ — ١٩ ، ٣٢ ، ٤٢ .

(٨٢) في ١ : ٢٩ .

الآلام نعمة من أجل المسيح ، هي عطية النعمة ، عطية مجانية . لا نخجل من عطية النعمة هذه ، فهي أعجب من قوة الإقامة من الأموات أو صنع المعجزات ، فأننى ان فعلت هذه الأمور الأخيرة اكون مدينا (لله) ، أما ان احتملت الآلام فيكون المسيح هو مدين لى . لذلك يليق بنا ليس فقط الا نخجل منها بل بالحرى نفرح أنه قد صار لنا هذه النعمة (٨٣) .

مدرسة الألم :

اخيرا يرى القديس ان الألم هو « مدرسة الفلسفة (٨٤) » ، ونقصد بالفلسفة « الحياة الفاضلة الايمانية » يقول عنها :
« الألم هو معلمنا .

اننا لا نجلب الألم على انفسنا ، انما نحتمله بشجاعة متى تعرضنا له ،
لأنه دائما مصدر خيرات كثيرة (٨٥) .

« هذه الحياة هي مكان للتدريب (على الألم) ، معركة ، وبوتقة فيها تنصهر الفضيلة وتنقى (٨٦) » .

« كما ان عنف الرياح يجعل شجر البلوط قويا واكثر صلابة ، هكذا الروح النقية القديسة كروح ايوب الطوباوى لا تتزعزع تحت هجمات الآلام بل يقوى صبرها (٨٧) » .

« لا تشتهى حياة خالية من كل ضيقة ، فان هذا ليس فيه خيرك (٨٨) » .

« ان نشكر الله على خيرااته ، فهذا ولاء لدين ، اما ان نشكره على الضيقات التى يسمح لنا ، فهذا يجعله مدينا لنا (٨٩) » .

اخيرا ينصحنا لكى ننجح فى مدرسة الألم ان نحنى ظهورنا عندما تهب رياح التجارب اى نقابلها باتضاع وهدوء وذلك « كالبحارة الذين يطوون القلاع عند هبوب الريح العاصف (٩٠) » .

+ + +

(83) In Philip , hom 4 .

(84) In Acts PG 60 : 378 .

(85) In Acts . PG 60 : 302 .

(86) Ad eos qui scand PG 52 : 522 .

(87) Ad pop . Ant PG 49 : 62 .

(88) In Ps . PG 55 : 317 .

(89) In Ps . PG 55 : 121 .

(90) In Acts . PG 60 : 232 .

الباب الثالث

القديس يوحنا الذهبي الفم

كِتَابَانَهُ

- ١ - عظائمه .
- ٢ - مقالاته .
- ٣ - رسائله .
- ٤ - ليتورجياته .
- ٥ - الكتابات غير الاصلية .

تقديم

ترك لنا القديس يوحنا الذهبي الفم تراثا أدبيا ضخما ، ولعل شهرته الفائقة في الوعظ وتفسير كلمة الله ، مع احتماله الآلام من أجل الحق ، جعل شخصيته محبوبة ومكرمة في الكنيسة شرقا وغربا مما حفظ كتاباته من المصير الذي آلت اليه كتب معاصريه من آباء مدرسة أنطاكية بسبب ما حملته أحيانا من اتجاهات وميول نسطورية ، في قليل أو كثير .

وهو الأب الأنطاكي الوحيد — من رجال الكنيسة في ذلك الحين — الذي حفظت كتاباته بأكملها تقريبا ، بل وترجمت الى لغات كثيرة لتقرأ أجزاء منها أثناء الليتورجيات . . . كما انشغل بعض الآباء الرهبان والشعب بنسخ كتاباته وعظاته بكونها تراثا كنسيا انجيليا له وزنه .

ومن الجانب الآخر ، استغل بعض الكتاب الذين ارادوا لأعمالهم الخلود أن ينسبوا اليه ، فجاءت كتابات ليس بقليلة غير أصيلة .

أهمية كتاباته :

١ — أن كانت كتاباته لم تقدم دراسات لاهوتية عميقة ، لكنها تعتبر مثلا حيا للتطبيق العملي للإنجيل في الحياة العامة على المستوى الجماهيري والمستوى الشخصي . كشفت لنا أسلوب الحياة الذي يليق بالمسيحي — كاهنا أو من الشعب — أن يعيشه في حياته الخاصة وفي علاقاته مع الآخرين .

٢ — جاءت أغلب كتاباته في شكل عظة تقدم لنا صورة حية للحياة في عاصمتي سوريا وبيزنطة من الناحية الكنسية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، كما قدمت لنا كنزا يبحث فيه اللاهوتيون والمؤرخون وعلماء الآثار . يقول أحد دارسي التاريخ « أن أعمال ذهبي الفم قد اكملت معرفتنا عن أنطاكية في ذلك الحين ، بقدر ما امدتنا بطريقة غير مباشرة بخلفية للأحداث التمهيلية التي أشارت اليها (١) » .

أهم كتاباته :

نستطيع أن نقسم أهم الكتابات المنسوبة اليه الى :

- | | |
|--------------------------------|---------------------|
| أولا : عظاته . | ثانيا : مقالاته . |
| ثالثا : رسائله . | رابعا : ليتورجيته . |
| خامسا : الكتابات غير الأصيلة . | |

(1) Glanville Downey : A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest, Princeton, 1961 , p 42 .

[أولا] عظاته

١ — تعتبر عظاته من أهم ما وصل اليها من العظات الابائية ، ظهر فيها الكاتب كطبيب حقيقى للنفوس ، يعرف كيف يشخص امراضها بكل دقة ، مظهرا كل حنو وفهم للضعف البشرى ، لكنه فى غير تهاون او مهادنة للشرا (١) .

كثيرا ما كانت عظاته تحمل شيئا من العنف والانتهاز لكن تحمل لمسات حب صميقة واتضاع مع ورع صادق ، جذب اليه الكثيرين يسمعون له ولا يملون .

٢ — امتازت عظاته ايضا ببساطة التعبير مع الوضوح واعطاء امثلة كثيرة من العهدين ومن الواقع العملى فى ذلك الوقت ، فكانت عظاته بحق انجيلا معاشيا . . . تكشف عن دراية واسعة فى معالجة المشاكل اليومية الحاضرة بأسلوب انجيلي .

٣ — يرجع اغلب هذه العظات — وهى عظات تفسيرية للمعهدين — الى ما بين عام ٣٨٦ وعام ٣٧٩ م بانطاكية ، وهى تقدم شهادة عن دقة تدريبه فى عقائد مدرسة انطاكية ، اذ كان يميل كثيرا الى التفسير الحرفى معارضا الرمزية فى مواضع كثيرة مع الاهتمام بالجانب الروحى . لم يحب منهج أوريجانوس الرمزي بالرغم من دفاعه عن اتباع أوريجانوس (٢) .

٤ — بسبب جهله اللغة العبرية جاءت عظاته على العهد القديم لا تحمل نفس قوة عظاته على العهد الجديد . وان كانت عظاته على المعهدين لهما ذات الطابع (٣) .

٥ — لا نستطيع ترجمة هذه العظات ونشرها على الشعب كما هى ، للأسباب التالية :

(1) Quasten : Patrology, vol 3 , P 433 .

(٢) راجع مشكلة الاخوة الطوال القائمة .

(3) NRNF , S . 1 , vol 10 , P xviii .

[أ] فقدت بعض العظات قوتها لاختلاف الظروف التى أقيمت فيها عن الظروف الحالية . فلا نشعر مثلا بقوة « عظات التماثيل » ، مثلما أحس بها الذين عاشوا فى جو أنطاكية المرعب فى ذلك الحين . غالوا عظ الروحى الحكيم يعرف كيف يقدم كلمة الله الحية مغسرة كغذاء يشبع نفوس سامعيه تحت ظروف كنسية واجتماعية وثقافية وسياسية معينة ، فيدخل بهم إلى كلمة الله الأبدية خلال الواقع العملى الذى يعيشونه .

[ب] ترجمة العظات من لغتها الأصلية ، اليونانية ، يفقدها أيضا شيئا من بلاغتها ، فالتشبيهات والأمثلة والتعبيرات تختلف من لغة إلى أخرى .

[ح] أغلب عظاته التى وصلت إلينا لم تكن عن نسخة خطها المتحدث نفسه ، وإنما هى ملاحظات سجلها بعض المستمعين ، وهناك غارق بين لغة الوعظ ولغة الكتابة . هذا وقوة العظة لا تقف عند العبارات لكنها تمتد إلى روح المتكلم نفسه وطريقة حديثه . . . الأمر الذى لا تستطيع الكتابة أن تفعله مع العبارات .

[د] بعض العظات سجلت لأجل الانتفاع بها فى الكنائس والأديرة ، غامتت إليها يد النساخ لتصحيح بعض العبارات أو تعديلها أو الحذف منها ليتمكن قراءتها . . .

+ + +

أولا : عظات على العهد القديم

١ — عظات على سفر التكوين (١) :

توجد مجموعتان من العظات على سفر التكوين ، يبدو أنهما من أقدم كتاباته التفسيرية . الأولى تتكون من تسع عظات (٢) ، أقيمت في أنطاكية في الصوم الكبير عام ٣٨٦ م . باستثناء العظة الأخيرة تعالج هذه العظات الثلاث الأصحاحات الأولى من سفر التكوين . والمجموعة الثانية تتكون من ٦٧ عظة تقدم تفسيراً كاملاً لسفر التكوين ، يبدو أنها نشرت عام ٣٨٨ م . بعض العظات في المجموعتين متطابقة تماما .

٢ — عظات على المزامير :

له مجموعة عظات على ٥٨ مزمورا (مز ١٢ — ٤٣ ، ٤٩ — ١٠٨ — ١١٧ ، ١١٩ — ١٥٠) ... وقد جاءت تحت عنوان « تعليقات » وليس « عظات » . يشك البعض في نسبتها إليه وإن كانت تعتبر من أجمل عظاته على أسفار العهد القديم .

لم يلتزم بالترجمة السبعينية بل أحيانا يشير إلى ترجمات أخرى وأحيانا يستخدم أكثر من ترجمة جنباً إلى جنب .

تحدث في هذه المزامير عن أنواع الصلاة (٣) ، الترنم بالمزامير والتسبيح (٤) ، الحج إلى الأراضي المقدسة (٥) ، العمل الكهنوتي (٦) ، البتولية (٧) ، التناول باستحقاق (٨) ، كما هاجم الأريوسيين وأتباع ماني وبولس السومسطائي .

وللقدّيس عبارات مبعثرة كتفسير لمزامير أخرى .

(1) Quasten : Patrology , vol 3 . (2) PG 54 : 581 — 630 .

(٣) مز ١٤١ ، ٩ ، ٧ . (٤) مز ٤٨ . (٥) مز ١٠٩ .

(٦) مز ١٠٩ . (٧) مز ١١٣ ، ١١٦ .

(٨) مز ١٤٨ ، ١٠٩ ، ٤٦ .

٣ — عظمات على سفر اشعيا :

له ٦ عظمات على اشعيا ص ٦ في اصل يوناني (٩) ، المقي بعضها في انطاكية والآخر في القسطنطينية . كما يوجد شرح كامل على سفر اشعيا باللغة الأرمنية .

٤ — عظمات أخرى :

له عظمات أخرى على اسفار العهد القديم منها خمس عظمات على حنة (١٠) وثلاث عظمات على داود وشاول (١١) ، وله عظتان عن الأمور الغامضة بالأنبياء prophetarum obscuritate تعالج الأسفار النبوية بوجه عام ؛ القينا بانطاكية عام ٣٨٦ .

جاءت مقتطفات كثيرة للقديس في الـ Catenae كتفاسير عن ارميا ودانيال والأمثال وايوب ... هذه حتى ان ثبت صحة نسبها للقديس ربما تكون مستخرجة عن كتابات أخرى له وليس عن عظمات وتفسير للعهد القديم .



(9) PG 56 : 97 — 142 .

(10) PG 54 : 631 — 676 .

(11) PG 65 : 675 — 708 .

ثانياً - عظاته على العهد الجديد

١ - عظاته على انجيل متى :

تحتوي تسعين عظة ، ألقيت في انطاكية (١) ، غالباً في الفترة الأخيرة من خدمته ككاهن (٢) ، حوالي عام ٣٩٠ م .

جاء تفسيره للأمثال غاية في الروعة .

ركز كثيراً على الحث على الصدقة ، معطياً اهتماماً بالجانب السلوكي في التفسير مثل عدم الغضب ، وعدم الحسد ، وغفران أخطاء الآخرين ، وعدم الادانة والصوم الخ ... كما هاجم بعض العادات الشريرة في ذلك الحين خاصة الذهاب الى المسارح .

مدح الحياة الرهبانية ، فتحدث عن قداسة رهبان مصر (٣) ، ووصف الحياة الديرية كحياة مثالية في النصر على الشر وحياة التكريس (٤) ، مثلاً حياً للعلمانيين . دعاهم جنود المسيح ، لابسى ثوب العرس في حديث دائم مع الملائكة .

في مقدمة العظات تسأل : ألم يكن انجيل واحد كاف أن يخبر بكل شيء ؟ وجاءت الإجابة : « حقاً أن انجيل واحد فيه الكفاية ، لكن أن كتب الأربعة الانجيليين ، ليس في وقت واحد ، ولا في مكان واحد ، ودون أن يلتقوا معاً ، ولا تناقشوا معاً ، ومع هذا جاء حديثهم في كل الأمور كأنها يصدر عن نم واحد ، فهذا برهان عظيم على الحق .

ربما يقال أنهم في بعض المواقع متهمون بعدم الاتفاق فيما بينهم . بلى ، فإن هذا الأمر عينه يمثل شهادة عظيمة جداً على الحق الذي لهم . فهاهم لو اتفقوا في كل الأمور تماماً حتى في الزمن والمكان وكل الكلمات لما صدق أعداؤنا هذا ، إنما كانوا يقولون أنهم اتفقوا معاً وكتبوا باتفاق بشرى فيما بينهم ... لكن ما قد يظنه البعض عدم اتفاق في أمور بسيطة ينزع الشك في وجود اتفاق فيما بينهم ، وهذا في صالح الكتاب (٥) .

في هذه العظات - كما في بقية تفاسيره - لم يركز على الجانب العقيدى والمجادلات اللاهوتية ، لكنه كان حريصاً أن يقدم العقيدة السليمة خلال كلماته الروحية ، ، كما كان يرد على الهرطقات المعاصرة أحياناً بطريقة

(1) In Mat , hom 7 PG 57 : 81 .

(2) N & PNF , ser . 1 , vol 10 , P lx .

(3) hom 8 .

(4) hom . 69 , 70 .

(5) hom 55 .

مباشرة وأخرى بطريقة غير مباشرة ، فرد على أتباع أريوس مؤكدا لاهوت السيد المسيح ومساواة الابن للآب . . . كما رد على أتباع ماني مفندا دعواهم بأن العهد القديم يختلف عن العهد الجديد ، وأن اله العهد القديم اله العدل واله العهد الجديد اله الحب . رد أيضا على دعواهم بأن الجسد هو مصدر الخطية ، اذ يقول : « لم يقل في أى موضع أن جسدنا معيب فى شيء ، بل فى كل موضع المتهم هو الذهن الشرير . العيب ليس شريرا بطبيعته بل فى الذهن والفكر (٦) . وأوضح أيضا أن الشيطان ليس شريرا بطبيعته الأصلية ، لكنه قبل الشر بارادته ، انما أصله احد الخلائق الصالحة (٧) .

٢ - عظات على انجيل يوحنا :

تحتوى ٨٨ عظة وهى اقصر من العظات على انجيل متى ، القيت فى وقت متأخر عنها ربما فى عام ٣٩١ م ، غالبا ما كانت تلقى فى الصباح (٨) . وهى أكثر جدلا من العظات على انجيل متى والسبب فى هذا أنه كثيرا ما يلتقى ببعض النصوص التى يستخدمها الأريوسيون لانكار مساواة الابن للآب .

فى العظة السادسة اوضح أن السيد المسيح هو الله ، ابن الله الوحيد الحقيقى واحد مع الآب فى الجوهر البسيط . . . كما يقول على لسانه : « لست أنا بالكائن الذى ينقص جوهره ، انما من أجل اهتمامى بخلاص الكثيرين نزلت الى هذا الاتضاع لأشهد لنفسى للانسان » .

وفى العظة الحادية عشر يقول : « صار ابن الله ابنا للانسان لكى يجعل من بنى البشر اولادا لله . غانه عندما يجتمع العالى مع الاقل لا يمس هذا كرامته ، انما يرتفع بالذى هو اقل وينقله من خسته الزائدة ، هكذا فعل الرب . بتنازله لم تنقص طبيعته شيئا ، انما رفعنا نحن الذين كنا نجلس فى العار والكلمة ودخل بنا الى مجد لا ينطق به » .

٣ - عظات على سفر الأعمال :

اشار اليها Cassiodorus فى القرن الخامس أنه بمساعدة اصدقائه قام بترجمتها الى اللاتينية . وقد وجد شكلا مختلفان لها من المخطوطات ، أما الطبعت فجاءت خليطا منهما .

تحتوى هذه المجموعة ٥٥ عظة القاها القديس فى اسابيع الفصح فى السنة الثالثة من اسقفية (٤٠٠ م) ، حيث كانت العادة أن يقرأ

(6) hom 1 : 5 — 6 .

(7) hom 17 : 3 .

(8) hom 19 : 10 .

هذا السفر في الفترة ما بين عيد الفصح وعيد البنطقستي . كانت القسطنطينية في ذلك الوقت معرضة لاضطرابات مستمرة من الغوصيين .

للأسف جاءت هذه العظات هزيلة بالنسبة لغيرها من عظاته وذلك لأن القليل منها أعدها كتابة ، أما أغلبها فجاءت مجرد ملاحظات سجلها بعض المستمعين له (٩) ، ولم يكن لدى القديس وقتا لمراجعتها بسبب مسئولياته الضخمة في عمله الجديد . حيات العظات بعض الأخطاء كما جاءت أحيانا بغير نظام أو ترتيب .

في هذه العظات انتقد الذين يهملون هذا السفر : « انى لا اترك كثيرا كهذا يبقى مخفيا عن الانظار ، فإنه بحق غائبة ليست بأقل ما للأناجيل . انه مفعم بالحكمة المسيحية والتعليم الصحيح خاصة ما ورد فيه عن الروح القدس . ليتنا لا نعبر عليه عبورا سريعا بل نفحصه بدقة (١٠) » .

انتقد تأخير العماد ، كما عالج موضوع المعجزات : طبيعتها وغايتها والفارق بينها وبين السحر ، موضحا أنه خير لنا ان نتألم من أجل المسيح ونطرد الخطية عن أن نطرد شيطاننا او نصنع المعجزات .

ركز على الاهتمام بالصلاة ودراسة الكتاب المقدس والصدقة والغضب والوداعة كما انتقد القسم وغير ذلك من العادات الشريرة (١١) .

{ — عظات على الرسالة الى اهل رومية :

تحتوى ٣٢ عظة ، تعتبر من أفضل كتاباته ، اذ يقول الأب اسيزورس Isidore of Pelusium أن « كنوز حكمة يوحنا المتعلم ظهرت على وجه الخصوص في تفسيره الرسالة الى اهل رومية . لست أظن أن أحدا يقدر أن يقول انى بهذا متعلقا إياه ، فإنه لو أراد بولس الالهى نفسه أن يشرح بلسانه التفصيح كتاباته ما كان يتكلم بغير ما قاله هذا السيد الشهير (١٢) » .

انتهى هذه العظات في أنطاكية ما بين عام ٣٨١ وعام ٣٩٨ ، غالبا بعد نهاية عظاته على انجيل يوحنا بفترة قصيرة .

بالرغم من أن الرسالة تعالج مشاكل تعليمية كثيرة إلا أن الذهبى الغم لم يكن لديه أى ميل للفكر اللاهوتى ، بل كان منجذبا نحو الاسئلة السلوكية . . .

(9) N & PNF , Series 1 , vol 11 , P IX .

(10) hom 1 .

(11) N & PNF , P XII .

(12) Epist . 5 : 32 .

بدا عظاته بعبارات الاعجاب بالرسول بولس وسار في التفسير هكذا وختم عظاته بمديح غائق له حتى أعلن شهوته ان يرى قبر الرسول بولس ليقبل تراب جسده ، يرى آثار العينين اللتين أعميتا بالمجد ثم شفيتا لأجل خلاص العالم ، العينان اللتان لم تعسرا لنوم بل سهرتا في نصف الليل ، ونظرنا الامور غير المنظورة . يرى آثار قدمي بولس الرسول اللتين كانتا تجريان في العالم بلا ضجر ، اللتان كانتا مقيدتين في المقطرة حين اهتزت أساسات السجن (١٣) .

في عظته ٢٣ حديث دافع عن الفكر المسيحي السياسي ، كيف يلتزم المسيحي أيا كان كاهنا أو راهبا أو من الشعب بالخضوع للسلطات الحاكمة في الرب ...

ويلاحظ ان القديس في تعليقه على رد ٥ : ١٤ (العظة المباشرة) أوضح نظرته الى « الخطية الجدية » او « الخطية الأصلية » ، انه بانسان واحد قد دبت الخطية في البشرية ... بهذا لم يحمل أى اتجاه بيلاجى كما ادعى يوليان استقف Eclanum البيلاجى .

ولتوضيح ذلك نقول ان الغنوسيين واتباع ماني حرموا الانسان من كل حرية اختيار ، يولد شريرا أو صلاحا ، لا خيار له في ذلك ... فجاء بيلاجيوس يحمل التطرف المضاد فقال ان الانسان يولد بلا خطية أصلية وبكمال حرته يبدأ هو الطريق ويقدر ان يخلص أو يهلك ... مقلدا من شأن النعمة الالهية . وقد استغل يوليان كلمات القديس في عظة له للمعمدين حديثا جاء فيها « لذلك نعمد حتى الاطفال الصغار بالرغم من انهم بلا خطايا » . وقد رد القديس اغسطينوس ان كلمة « خطايا » هنا بالجمع تشير الى الخطايا الفعلية الشخصية وليس الخطية الأصلية (١٤) ، مقدما ثمان مقتطفات من كلمات القديس اغسطينوس يتحدث فيها عن وجود الخطية الأصلية .

اما بخصوص حرية الارادة فقد تحدث كثيرا عن حرية الارادة وكيف ان الله يريدنا ان نبدأ بالعمل لكي يعمل هو غيتا ... لكنه في مواضع أخرى يوضح حتى بدايتنا هذه لن تتم بدون معونة الله (١٥) . فالقديس لم يحمل اتجاهها بيلاجيا ... خاصة وانه لا يتحدث في عظاته كمناضل لاهوتى وانما كواعظ يحث الناس على الجهاد (١٦) .

(13) hom 32 .

(14) St. Augustine : Cont . Julianum 1 : 22 .

(١٥) راجع الفصل الخاص بمنهجه السلوكي .

(16) N & PNF , Series 1 , vol 11 , P 332 .

٥ — عظات على الرسالتين الى اهل كورنثوس :

تحتوى ٤٤ عظة على الرسالة الاولى ، ٣٠ عظة على الرسالة الثانية ، وضعت في انطاكية (١٧) ، أما تاريخ وضعها فيصعب تحديده . العظات على الرسالة الثانية جاءت بعد أربع سنوات من العظات على الرسالة الاولى (١٨) .

« يرى المثقفون والأتقياء أن العظات على الرسالة الاولى الى اهل كورنثوس أفضل عينات تفكيره وتعليمه . في شكلها تحمل خليطاً ما بين التفسير والنصائح ... (١٩) » .

في العظة . ٤ على الرسالة الاولى اقتبس مقتطفاً من قانون الايمان الخاص بالمعمودية ... وتعتبر العظة سجلاً تاريخياً هاماً للليتورجية العماد في ذلك الحين .

بجانب هاتين المجموعتين كتب القديس ثلاث عظات (٢٠) على ١ كو ٧ : ١ وثلاث عظات (٢١) على ٢ كو ٤ : ١٣ وعظة على ١ كو ١٥ : ٢٨ قام بنشرها S. Haidacher عام ١٩٠٧ .

٦ — تفسير الرسالة الى اهل غلاطية :

في الاصل هي مجموعة من العظات ، لكنها حالياً في شكل تفسير حيث جرى شرح الرسالة آية آية .

كتبت في انطاكية حيث يشير الى عظته الخاصة بتغيير الاسماء (٢٢) ، ويرى نيومان J. H. Newman (٢٣) انه لا يمكن تحديد تاريخ كتابتها وان كان يبدو انها ليست قبل عام ٣٩٥ م .

٧ — عظات على الرسالة الى اهل افسس (٢٤) :

تحتوى على ٢٤ عظة ، القيت اصلاً في انطاكية اذ يشير الى قديسين محبوبين لهذه المدينة هما بابيلاس Babylas وجوليان (٢٥) ، كما أشار

(17) In 1 Cor, hom 21 : 9 ; 2 Cor, hom 26 .

(18) N & PNF , Series 1 , vol 2 , P IV .

(19) Ibid .

(20) PG 51 : 207 — 442 .

(21) PG 51 : 271 — 302 . (٢٢) تفسير غلا ١ : ١٦ .

(32) N & PNF , Series 1 , vol 13 , P XIII .

(24) N & PNF, Series 1, vol 13, P XIII.

Quasten : Patrology vol 3 , P 447 .

(٢٥) عظة ٩ ، عظة ٢١ : ٣ . أشار تيودرت (٤ : ٢٧) الى الآخر انه زار انطاكية مرة واحدة .

الى المؤسسات الرهبانية في الجبال المجاورة لأنطاكية (٢٦) والتي كان لها دور هام في حياته .

تعتبر العظة ٢٠ هامة جدا بالنسبة للتعليم عن الزواج .

٨ — عظات على الرسالة الى اهل فيلبى :

تحتوى ١٥ عظة . يرى Barr أنها القيت في انطاكية حيث كان له الوقت الكافى لتأليفها ، غير أن العظة ٩ : ٥ يتحدث فيها عن مسئولياته كأسقف ، لذا يرى البعض أنها القيت بالقسطنطينية .

في عظته السابعة عن في ٢ : ٥ — ١١ دافع عن التجسد الالهى ضد الهرطقة اتباع مرقيون . بولس السومسطائى وأريوس .

يتحدث عن وحدة اللاهوت مع الناسوت قائلا :

«لينا لا نخلط أو نقسم الطبيعتين . يوجد الله واحد ، مسيح واحد ، هو ابن الله . عندما أقول « واحد » أقصد اتحادا وليس خلطا ، الطبيعة الواحدة لا تتغير الى الأخرى ، بل متحدة معها (٢٧) » . ان كان لم يذكر صراحة أن للمسيح طبيعة واحدة متحدة من طبيعتين بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغير ، لكنه يحمل جوهر تعليمنا في طبيعة المسيح .

٩ — عظاته على الرسالة الى اهل كولوسى (٢٨) :

تعتبر هذه العظات مع عظاته على الرسالتين الى اهل تسالونيكي أقل من بقية عظاته على العهد الجديد في تكوينها الأدبى وسموها ، ربما لأنه كتب هذه العظات اثناء عمله الأسقفى ، فلم يكن له الوقت الكافى للاعداد مثلما كان له في أنطاكية وهو كاهن ...

لكن هذه العظات حملت روح كرازى قوى ، عظات ملتهبة ، تشهد لفيرته المتقدمة ... يتحدث فيها مع شعبه عن كل تفاصيل حياتهم ...

عظاته على الرسالة الى اهل كولوسى حوت ١٢ عظة ، يتحدث فيها عن نفسه كأسقف ، ألقاها بعد سقوط أتروبيوس وقبل اعدامه ، اى عام ٣٣٩ م .

في العظة الأولى تحدث عن انواع الصداقات بين البشر ، وفي الثانية

(27) PG 62 : 177 — 298.

(٢٦) عظة ٦ ، ١٣ .

(٢٨) عظة ٣ : ٤ .

اهتم بلاهوت السيد ، وفي الرابعة اجاب على السؤال : لماذا لم يأت السيد الى العالم في وقت مبكر ؟ وفي الخامسة عالج عجز العقل البشرى عن ادراك الأسرار الالهية ، وفي السادسة وصف موت المسيح كحل لرباطات الانسان ؛ وفي السابعة تحدث عن عمل المعمودية كتحطيم لأعمال الانسان القديم والتمتع بالانسان الجديد . وفي الثامنة شرح « الشكر » كفلسفة الحياة العظيمة وأوضح ان حياة الشكر تدخل في رتبة الاستشهاد . وفي التاسعة ركز على ضرورة قراءة الكتاب المقدس كما اشار الى أهمية المزامير والتسبيح .

١٠ — عظات على الرسالتين الى اهل تسالونيكي :

تحتوي ١١ عظة على الرسالة الاولى و ٥ عظات على الثانية ، وضعها في القسطنطينية ، اذ يتحدث عن نفسه كأسقف .

١١ — عظات على رسائل بولس الرعوية :

تحتوي ١٨ عظة على الرسالة الاولى الى تيموثاوس و ١٠ عظات على الرسالة الثانية ، القياها في انطاكية حيث لم يشر الى نفسه كأسقف أثناء حديثه عن العمل الأسقفي ، كما مدح المترشحين (الذين بجوار انطاكية) وشهد عن حرق معبد أبولو في Dapine (٢٩) ...

كما تحتوي ٦ عظات على الرسالة الى تيطس ، القيت بانطاكية ، و ٣ عظات على الرسالة الى غليمون ، حيث شجع فيها المسيحيون على تحرير العبيد والنظر اليهم كاخوة ... وهي غالبا القيت في انطاكية .

١٢ — عظات الرسالة الى العبرانيين :

تحتوي ٣٤ عظة وضعها في السنة الأخيرة من وجوده بالقسطنطينية ، لأن العنوان يشير الى أنها نشرت بعد نياحته ، عن مذكرات كتبها قسطنطين كاهن بانطاكية ...

١٣ — عظات أخرى :

ورد في الـ Catenac مقتطفات لعظات تشرح أجزاء من رسائل الجامعة تحت اسم الذهبي الفم ، لكن غالبا هذه المقتطفات لم تؤخذ عن عظات وضعها القديس عن رسائل الجامعة إنما هي مقتطفات أخذت عن مقالات له في مواضيع مختلفة .

(٢٩) عظة ٨ على ٢ تي ٣ .

عظّات غير تفسيرية

بجانب العظّات السابق الاشارة اليها الخاصة بتفسير الكتاب المقدس (العهدين) هناك عظّات اخرى القاها القديس في ظروف معينة منها :

١ - عظّات التماسيل (١) :

سبق الحديث عن ظروف القاها (١) .

القيت في انطاكية عام ٣٨٧ م ، تحوى ٢١ عظة ، وهى بدء انطلاق شهرته .

ويلاحظ في هذه العظّات :

(١) راي ان يربح الجموع ويدفع بهم الى حياة التوبة عوض ان يرتعبوا من الخطر القادم ، اذ يقول : « احزنوا الآن واندبوا ليس من اجل عظم الغضب المتوقع ، ولكن من اجل الجنون الزائد الذى به ارتكبت هذه الامور (٢) » .

(ب) طلب منهم ان يسلكوا بحكمة ، فلا يخرجوا في الاسواق والشوارع حتى لا يقبض على البريء مع المذنب ، ولكن يلزم الا يجد الخوف له مكان في قلبهم : « يجلس المؤمن على الصخرة فلا تقدر تيارات الامواج ان تقنف به (٣) » .

(ج) حذرهم من الاندفاع وراء الطمع ومحبة المال والكبرياء كما وجههم نحو تقديم الشكر لله عند سماعهم بخبر العفو الصادق من الامبراطور ...

(د) كشف عن ابوة الاب الاسقف الحانية ، الذى رغم شخوخته اسرع بالسفر الى الامبراطور يشفع في شعبه ... اذ يقول « اتى اعرف انه مجرد ان يراه امبراطورنا الورع ينطفئ غضبه لجرد نظره الى شكله وملامحه . فانه ليس فقط كلمات القديسين بل حتى ملامحهم الملوّنة نعمة ... سيقول له ما قاله موسى لله : « الآن اغفر لهم خطاياهم والا فاقتلنى معهم » خر ٣٢ : ٣١ ، ٣٢ . فانه هكذا هي احشاء القديسين ، انهم يحسبون الموت مع اولادهم اعذب من العيش بدونهم ! (٤) » .

(١) راجع الكتاب الاول : ٣ شموسيته وقسوسيته .
(٢) hom 2 . (3) hom 2 . (4) hom 3 : 2 .

٢ — عظتان عن أتروبيوس (٥) :

سبق لى الحديث عن أتروبيوس والمناسبة التى أقيمت فيها العظتان ،
كما قمت بترجمتهما وتبوييهما ونشرهما تحت عنوان « الكنيسة تحبك » .
فى العظتين يقارن بين أباطيل العالم والحق الذى فى الكنيسة ، بين
خداعات أهل العالم وحب الكنيسة للإنسان حتى وإن جرحته .

كشفت القديس أيضا عن مفهوم الكنيسة واسمائها وعملها ، وأوضح
عمل الإله المتجسد فينا وعطية الروح القدس والدخول بنا إلى الحياة
السموية التى بلا قلق .

٣ — عن طبيعة الله غير المدركة :

تتكون من مجموعتين ، الأولى تشمل خمس عظات أقيمت فى أنطاكية
عام ٣٨٦ — ٣٨٧ تهاجم أتباع أنوميوس Eunomius الأسقف
الأريوسى (٦) ، الذى أنكر ولادة الابن فى الطبع الإلهى إنما نظر إليه ككائن
أوجده الآب مباشرة وتقبل منه القوة الخالقة خلالها شابه الآب . وظن
أن الروح القدس له الأولوية بين الكائنات التى خلقها الابن ، وهو أداة
الابن فى تقديس النفوس (٧)

فند القديس تجاديفهم متحدثا عن مساواة الابن للآب كما أوضح أن
طبيعة الله لا ينطق بها وغير مدركة .

المجموعة الثانية القاها فى القسطنطينية عام ٣٩٧ م ، غالبا ليست ضد
اتباع أنوميوس .

٤ — عظات عن العماد :

خلال خدمته فى أنطاكية من عام ٣٨٦ — ٣٩٨ كان القديس يعهد
الموعوظين لقبول سر العماد . وللأسف لم يصلنا من هذا العمل غير مقالين
« مقالات عن الاستنارة Cotheses ad illuminandos » أقيمت خلال
الصوم الكبير ٣٨٨ م . وفى عام ١٩٠٩ نشر A . Popadopoulos - Kerameus

(٥) راجع الباب الأول : ٦ طريق الآلام .

(٦) هو فلاح كبادوكى ذهب إلى الإسكندرية وتلمذ على يدي
Aetius الأريوسى ثم عاد إلى أنطاكية حيث حضر مجمع أريوس عقده
Eudoxius ، ثم سيم شماسا ، وفى عام ٣٦٠ م سيم أسقفًا على
Cyzicus فى Mysia ، نفى أيام ثيودسيوس إلى Dahora حيث مات
هناك .

(7) Cross : Oxford Dict . of Christian Church, P 480.

لأول مرة مجموعة من أربع عظات موجهة الى طالبى العباد ، العظة الاولى مطابقة للمقال الاول من المقاتلين السابقين .

وفى عام ١٩٥٥ اكتشف A. Wenger مجموعة من ثمان مقالات خاصة بعماد بدير Stavronihita بجبل انوسى تام بنشرها عام ١٩٥٧ ، وعمر غنية بالمعلومات الخاصة بلينورجية العماد فى القرن الرابع فى انطاكية . ويلاحظ ان المقال الثالث جاء مطابقا للعظة الرابعة من العظات السابق الاشارة اليها وللعظة اللاتينية neophytos - في ملحق المجاد الثانى من طبعة Fronton (باريس ١٦٠٩) .

٥ — عظات ضد اليهود (٨) :

تحتوى ثمانية عظات ، مثرة للغاية ، قصد بها نصيح المسيحيين فى انطاكية بالامتناع عن ممارسة العادات والشعائر اليهودية الحرفية خاصة اعيادهم كما حذر الProtopaschietes من تعييد الفصح المسيحى مع اليهودى (عظة ٣) . القاها عام ٣٨٦ — ٣٨٧ م .

٦ — عظات اخلاقية :

مع ان كل عظاته تميل للجانب الاخلاقى لكنه خصص بعض عظات موجهة ضد الخرافات والرذائل ، أشهرها عظات (٩) In Kalendes التى يوبخ فيها على العادات الشريرة والخرافات التى تتم فى الاحتفال برأس العام الجديد . القاها فى انطاكية .

له ايضا عظة قوية القاها فى القسطنطينية فى ٣ يوليو عام ٣٩٩ . « ضد السيرك والألعاب والمسارح » فيها أعلن سخطه على الاشتراك فى سباق الخيل فى الجمعة العظيمة واقامة المسارح يوم السبت المقدس (سبت النور) . له تسع عظات (١١) De Poenitia القاها فى اوقات متعددة . وله عظة عن (١٢) « De eleemosyna » تقدم تفسيراً مطولاً عن (١ كو ١٦ : ١ — ٤) وأخرى (١٢) De futurorum delécius et praesentium vilitate ضد النظرة المادية للشعب .

٧ — عظات على الأعياد :

له مجموعة عظات على الأعياد نذكر منها :
عظة على عيد ميلاد عام ٣٧٨ (١٤) D . N . Jesu Christu In diem natalem
وقد حدث جدل طويل حولها .

(8) PG 48 : 843 — 942 .

(9) PG 48 : 953 — 962 .

(10) PG 56 : 263 — 270 .

(11) PG 49 : 277 — 350 .

(12) PG 51 : 261 — 272 .

(13) PG 51 : 347 — 354 .

- وعظة أخرى عن الميلاد (١٥) دافع عن C. Martin عن نسبتها له .
 عظة عن عيد الغطاس « الابيفانيا » (١٦) De Baptismo Christi Epiphania تبدو أنها أصيلة .
 عظتان عن خميس العهد (١٧) De Proditione Judae وثالثة ربما تكون مزيفة (١٨) .
 عظتان عن الجمعة الكبيرة De Coemetris et cruce .
 عظتان عن الجمعة الكبيرة (١٩) De cruce et latrone .
 عظتان عن الصعود (٢٠) يبدو أن الأولى أصيلة .
 عظة عن عيد البنطقستي (٢١) .

٨ — ميامر القديسين :

التي القديس عدة ميامر في مدح بعض قديسي العهد القديم مثل ايوب واليعازر والمكابيون وأمهم ، وأيضا في مدح الشهداء بصفة عامة وبعض الشهداء بصفة خاصة مثل رومانيوس ويوليان وبرلعمام وبيلاجين وبرنيس وبرسدوس ، وأيضا بعض اساقفة أنطاكية مثل أغناطيوس وبابيلاس وفلوجينوس ويوستاخوس وميليتوس ، وكتب ميمرا في مدح معلمه ديودر الطرسوسي في حضرته عام ٣٩٢ م .

التي سبع عظات عن القديس بولس حيث نظر إليه كقديس لم يفقه أحد قط في العهدين ، قارن بينه وبين رجال العهد القديم من هابيل حتى يوحنا المعمدان ليظهر أنه فاق الجميع (٢٢) .

٩ — عظة بمناسبة اختياره للكهنة :

القها في بدء عام ٣٨٦ م ، فيها شكر أسقف أنطاكية غلافيانوس الذي سامه كاهنا ، ومدحه من أجل روحه الرسولي ، وسأل الشعب أن يصلّي لجعله كاهنا صالحا .

(14) PG 49 : 351 — 362 .

(15) PG 56 : 385 — 396 .

(16) PG 49 : 363 — 372 .

(17) PG 49 : 373 — 392 .

(18) PG 50 : 715 — 720 .

(19) PG 49 : 393 — 418 .

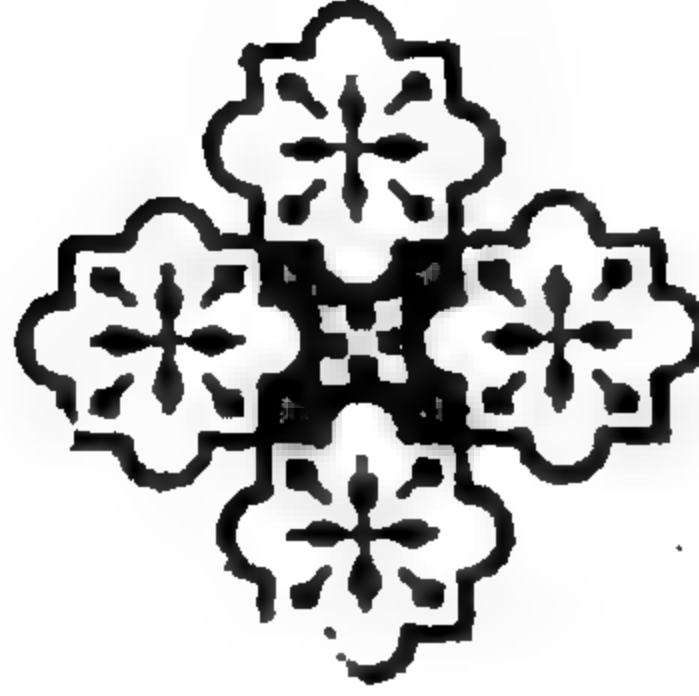
(20) PG 50 : 441 — 452 ; 52 : 773 — 792 .

(21) PG 50 : 453 — 470 .

(22) Hom . de Caudibus S . Pauli 2 .

١٠ — عظتان بمناسبة نفيه :

لقى الأولى على شعبه الفائز ليلة نفيه الأول عام ٤٠٣ حيث أعلن أن الكنيسة لا تغلب وأوضح الاتحاد الذي لا ينفصل قط بين الرأس والاعضاء (٢٣)، واذ عاد تحدث مع الجموع يشكرهم على ولائهم له مادحا الكنيسة كعروس الطاهرة (٢٤) .



(23) PG 52 : 427 — 430 .

(24) PG 52 : 443 448 .

[ثانياً]

مقالة

كتب كثير من مقالاته أثناء حياته الديرية وهو بعد شماس أو أثناس عملة ككاهن بأنطاكية ، وقد سبق أن اشرت لبعض هذه المقالات أثناء عرضي لسيرته في الفصلين ٢ ، ٣ ، ٤ . كما ترجمت بعض مقالاته الى العربية لذا رأيت عدم تكرار ما سبق الحديث عنه .

أهم هذه المقالات :

١ - عن الكهنوت De Sacerdotis

يحتوي ٦ كتب ، قامت كنيسة السيدة العذراء بالفجالة بترجمته . وهو يمثل حواراً بين القديس وصديقه باسيليوس . فيه يبرر خداعه لباسيليوس الذي تركه يقبل الكهنوت ثم هرب هو . كما تحدث عن كرامة الكهنوت ومسئوليته ، وسمات الكاهن كيف يلزم أن يكون أفضل من الراهب في كل شيء .

يعتبر هذا العمل « جوهرة الأدب المسيحي وفي نفس الوقت قطعة رائعة في فن البلاغة (١) » .

٢ - الحياة الديرية :

عشق القديس الحياة الرهبانية والفكر النسكى المعتدل حتى امتزجت كتاباته بهذا الاتجاه كل أيام حياته . لقد رأى في « اللجوء الى الدير هروب من الأرض الى السماء (٢) » ، والفاسك في نظره إنما يسكن في عالم آخر هو السماء عينها ، لا حديث له الا في السمويات وحضن ابراهيم واكالييل القديسين والطفمات المحيطة بالسيد المسيح (٣) .

وقد سبق أن عرضنا لوصفه الحياة الرهبانية (٤) .

للقديس مقالات دفاعية عن الحياة الرهبانية أو الديرية منها :

(1) W . A . Matt : A Rhetorical Study of St .

John Chrysostom's " De Sacerdotio " , Washington 1944 .

(2) In 1 Tim . PG 62 : 575 .

(3) In Mat . PG 58 : 643 .

(٤) الكتاب الاول : ٢ رهبانيته .

(١) رسالتان الى صديقه ثيودور الذي سقط في الخطيئة وكسر نذر الرهبنة ، فأرسل اليه بدعوة الى التوبة والعودة الى الحياة الرهبانية (٥) ، يعود اليهما في الفصل الخاص برسائله .

ب) كتابان عن الندامة De Compunctione : الأول موجه للراهب ديمتريوس والآخر للراهب ستيلخوس ، فيهما ينبه القديس الى خطورة نسيان روح الانجيل وتسلسل روح العالم الى الكنيسة كهنة وشعبا ورهبانا ، حتى بدت « حياة الامانة » او « الصلب » خيالا . كما أظهر طبيعة التسوية الحقيقية والحاجة اليها .

في هذا العمل يعلن حزنه الشديد على الذين يغتابون ويغضبون ولا يغفروا لأعدائهم ويتعدون قوانين العفة ويطلقون ويطلبون المجد الباطل ويتدينون بتهور ... موضحا أن التوبة تهب النفس جناحين فيلجأ المؤمن الى قمم « الوحدة الداخلية » ليكون حكمه على أمور العالم الباطلة صائبا ...

ج) ضد المعارضين على الحياة الديرية Aduersus oppugnatores vitae monasticae ، وضع ما بين عام ٣٧٨ ، ٣٨٥ م ، ويتكون من ثلاث كتب يرد فيها على أعداء الحياة الرهبانية مفندا حججهم ، ومشجعا الآباء أن يرسلوا اولادهم الى الرهبان لينالوا قسما من التعاليم السامية ، ويتدربوا على الحياة الفاضلة .

روى القديس قصة ضابط أراد أن يشجع ابنه على السلوك في الحياة العسكرية واذ خافت أمه عليه بسبب ما اتسم به الجيش في ذلك الوقت من أخلاقيات شريرة اتقنت زوجها أن يرسله الى أحد الرهبان لينال قسما من الحياة الفاضلة قبل دخوله الجيش . واذ أوعزت الى الراهب شجع ابنها على الحياة النسكية . وبالفعل عاد الشاب الى بيته ليجذب شبابا حوله للايمان ، وأخيرا خرج الشاب الى الجبل ليمارس الحياة الرهبانية .

أوضح القديس أن جماعات من الشبان كانوا يخرجون الى الجبل في أنطاكية يتدربون على حياة النسك تحت قيادة الرهبان ثم يعودون الى مدنهم كخميرة للحياة الفاضلة ... لكن الآباء ثاروا لأنهم رأوا في الرهبان أنهم يغيرون أفكار الشبان ... فاضطر القديس أن يكتب ليوضح محاسن الحياة الرهبانية على مستوى الجماعة والفرد ، مشجعا الآباء على إرسال أبنائهم للتدريب على أيدي الرهبان .

(5) PG 47 : 277 — 316 .

(6) PG 47 : 393 — 422 .

(7) PG 47 : 319 — 386 .

فى الكتاب الأول يقر القديس يوحنا امكانية الحياة الامينة فى العالم ، ولكن ان تلوث العالم حتى اصبح التحكم فى الحواس يكاد يكون مستحيلا ، فهل يهجره جميع السكان ؟ قطعاً لا ، لكن عليهم أن يكتفوا حياتهم دون أن يفقدوا روحانيتهم حتى لا يضطروا الى الهروب للحياة الرهبانية .

يقول القديس أن فى هذا الوقت رب البيت — وثنيا كان أم مسيحياً ، لا يجد معلمين لاولادهم أفضل من النساءك .

وفى الكتاب الثانى يفترض أن ابا وثنيا غنيا ذا كرامة له ابن وحيد صار راهباً . هنا يتحدث معه القديس بأسلوب يفهمه من أساطيره وفلسفته ويلجأ الى أمثلة من سقراط : وديوجنيتس وأفلاطون وأرسطو موضحاً له أن ابنه لم يفعل شيئاً سيئاً ، فإن ابنه سيبقى الابن المحب وتكون حياته أكثر نبلا وسلاماً .

وفى الكتاب الثالث يوجه حديثه الى أب مسيحى ، لذا كثيراً ما يلجأ الى الكتاب المقدس . وهو يعرض القضية بطريقتين :

أولاً : حالة ابن قبل الحياة الرهبانية الملائكية . فيظهر أن هذه الحياة أفضل من الحياة الجسدانية فى العالم ، ويرد على كل حجج الأب الراضى رهبة ابنه .

ثانياً : حالة ابن آخر يقضى فترة مؤقتة ، وهنا يؤكد القديس أهمية التربية المسيحية والأخطار التى يتعرض لها الشباب فى المدينة حتى وهم فى حضن عائلاتهم . تحدث عن ضرورة حث الشباب على البحث عن الحكمة ، فأنهم وإن عاشوا عشر سنين وسط الرهبان ثم عادوا الى الحياة اليومية يقدرّون أن يهدوا انطاكية خلال حياتهم المثالية الفاضلة .

(د) اذ قارن القديس بين راهب وملك فى الكتاب الثانى من المجموعة السابقة (٢ : ٦) ، عاد فقدم هذه المقارنة بأكثر تطور فى مقال قصير يدعى *Comparatio regis et monachi* سبق الإشارة اليه (٩) . وهو عمل مسيحى جاء على مثال مقارنة بين فيلسوف وطاغية لأفلاطون فى كتابه التاسع عن السياسة *Politica* . كتبه بعد شهر من دخوله الدير لذا حمل روعة فصاحته التى اتسم بها كما جاء مليئاً بالمشاعر الصادقة نحو عشقه للحياة الرهبانية ، قاصداً جذب أصدقائه اليها .

(٨) PG 47 : 387 — 392 .

(٩) راجع الكتاب الأول : ٢ رهبانيته .

٣ - المجد الباطل وتربية الأطفال :

سبق الحديث عنه (١٠) ، قصد منه الاهتم بتربية الاطفال وحمائتهم من جذور الفساد العميقة .

« يبقى فساد العالم بغير رادع ما دام لا يوجد من يصون أولاده ، ليس من يحدثهم عن الطهارة أو احتقار الفنى والمجد وعن وصايا الله (١١) » .

٤ - عن البتولية والترمل :

(١) وضع كتابا عن البتولية (١٢) جاءت أغلب فصوله (٢٤ - ٨٤) تفسيرا مطولا لكلمات الرسول في ١ كو ٧ : ٣٨ ، موضحا أن الزواج صالح لكن البتولية أفضل . وقد اشار القديس لهذا العمل اثناء عظاته على الرسالة الاولى الى اهل كورنثوس (١٢) التى القيت فى انطاكية .

(ب) فى القسطنطينية اصدر رسالتين رعويتين أو مقالين يعالجان مشكلة سكّنى الفسّاك والناسكات تحت سقف واحد والتى تدعى *virgines Subintroductae Syneisabtoi*

الرسالة الاولى (١٤) *Odversus eos qui opud se hapent subintroductas* موجهة الى الكهنة حيث يدين ما قد اعتاد عليه بعضهم من السماح لبعض العذارى ان يسكن معهم فى بيوتهم لخدمتهم تحت مظهر الحياة معهن كاخوات مكرسات .

والثانية (١٥) *Quod regulares feminae viris Cohabitare non debeant* تركّز على توضيح أنه لا يليق بنساء مكرسات ان يقطن مع رجال تحت سقف واحد .

كان عنيفا فى الرسالتين مما اثار عليه سخط بعض الكهنة الأشرار .
(ج) رسالته الى شابة أرملة يكشف فيها عن مفهوم الترمل (١٦) .

٥ - الالم وعناية الله :

(١) كتب القديس اثناء رهبنته ثلاث كتب لصديقه الراهب ستاجيروس عن عناية الله بنا وسط الالام (١٧) *Ad Stagirium*

(١٠) راجع الكتاب الأول : ٣ شموسيته وقسوسيته .
(11) De inani gloria et de educandis liberis 17 .

(12) PG 48 : 533 — 596 . (13) In 1 Cor , hom 19 : 6 .

(14) PG 47 : 495 — 514 . (15) PG 47 : 513 — 532 .

(١٦) نعود اليها عند الحديث عن رسائله .

(١٧) راجع الكتاب الأول : ٢ رهبانيته .

adaemone vexatum قامت احدى الخادمت بالكنيسة بترجمتها وتبويبها
وقمنا بنشرها تحت عنوان « العناية الالهية » .

(ب) كتب مقالين في فترة نفيه الأخير ما بين ٤٠٥ و ٤٠٦ م عالج
فيها الآلام البشرية ، في المقال الاول اظهر انه لا يقدر احد ان يؤذى انسانا
ما لم يؤذ الانسان نفسه (١٨) Juad nemo laeditur nisi a se ups

قامت بترجمته وتبويبه ونشره تحت عنوان : من يقدر ان يؤذيك ؟

والمقال الثاني (١٩) Ad eos qui scandalizati sunt ob adversitates
يعالج فيه الذين يتعثرون بواسطة المضايقين .

٦ - ضد الوثنيين واليهود :

له مقالان دفاعيان يبدو أنهما أصيلان بالرغم مما تعرضا له من
شكوك .

(١) المقال الأول عن الطوباوي بابيلاس وضد يوليان والامم
De S. Babylas, contra Julianum et Gentiles وضع حوالى عام ٣٨٢ م ،
فيه يظهر انهيار الوثنية في عصر دقيوس Decius موضحا ان انهيارها
لم يكن نتيجة اضطهاد لها ، وكتاباتنا أوشكت أن تختفى لو لم يحفظها
المسيحيون ، اظهر عظمة الكنيسة ممثلة في الأسقف بابيلاس الذي لم يرهب
الامبراطور الشرير بل في حزم معه من دخول الكنيسة .

استشهد القديس بابيلاس ونقلت رفاتة الى داغنيه Daphne
فانتهى مجد معبد أبولون اذ تباركت المدينة برفات الشهيد .

اوضح أيضا ان يوليانوس الكافر أمر بالعودة الى العبادة القديمة
لأبولون عام ٣٦٢ في منطقة داغنيه ، وفي ٢٤ أكتوبر من نفس العام احترق
المعبد ، وبعد ٩ شهور (٢٦ يوليو ٣٦٣) هلك يوليانوس نفسه .

(ب) المقال الثاني Contra Iudaeos et Gentiles quod Christus
sit Deus ، كتبه في أواخر فترة دياكونيته ، وهو ضد اليهود والامم معلنا
لاهوت السيد المسيح . . وقد انحصرت ردوده على الوثنيين في النقاط
التالية :

أولا : انتشار الايمان المسيحي وتحقيق النبوات الواردة في العهد
القديم عن شخص السيد المسيح ، ونجاح العمل الرسولي وتشتيت
اليهود .

(18) PG 52 : 459 — 480 .

(19) PG 52 : 479 — 528 .

ثانيا : يلجأ الى اقوال السيد المسيح عن خلود الكنيسة وانتشارها، بالرغم مما تعانيه من اضطهادات وعدم كفاية العمل البشرى فى حياة الرسل .

ثالثا : تحدث عن معجزات السيد المسيح ، لكنه لم يركز عليها كثيرا لأن الوثنيين قليلوا الحساسية لهذا النوع من الأدلة .

أشار أيضا الى أن يوليانيوس أصدر مرسوما لاعادة بناء الهيكل اليهودى ، فكانت نار تخرج من الأساسات وترهبهم . كما أوضح أن الصليب الذى كان علامة الموت المربعة قد صار سر بركة :

« خلع الملوك اكاليلهم ولبسوا الصليب ، رمز موت المسيح .

صار الصليب على ثيابهم الرسمية وفوق تيجانهم .

انه يوجد حيث تقوم صلواتهم ...

يوجد الصليب على المائدة المقدسة .

صار الصليب مشرقا فى العالم ، اكثر بهاء من الشمس » .

كما تحدث عن نصره السيد المسيح الكاملة قائلا : « اسم المسيح صار منتشرا ، يتعبد له ملوك وقادة وحكام ومشيرون وعبيد واحرار وأصحاب مراكز ، وحكام وبرابرة ، ومن كل الأجناس المتنوعة ، وفى كل موضع تشرق عليه الشمس خلال هذا المتسع العظيم . بهذا تعرفون معنى النبوة : وتكون راحته مجيدة (٢٠) » .

+ + +

(٢٠) اش ١١ : ١٠ .

[ثالثاً]

رسائله

وكتابات الأخرى

الرسائل في كتابات الآباء :

تعتبر القرون الثلاثة (من الثالث حتى الخامس) من أخصب القرون التي ظهرت فيها رسائل الآباء . هذه الرسائل تحسب من أفضل الكتابات الأبائية في الكشف عن حياة كاتبها وحياة المعاصرين لهم وروح العصر الذي يعيشون فيه .

رسائل القديس يوحنا :

بخلاف رسالتاه اللتان بعث بهما الى صديقه في الرهبنة ثيودور الذي سقط في حب سيدة يهودية وكسر نذر البتولية وجد له حوالي ٢٣٦ رسالة يرجع أغلبها ان لم يكن جميعها الى فترة نفيه . ولعل القديس يوحنا قد تشبه في ذلك بالرسول بولس الذي لم يكف عن أن يهتم بالكنائس وهو في السجن يبعث رسائل لهم . وقد علق القديس نفسه على تصرف الرسول بولس هذا قائلاً :

« ليس بعد المسافة ولا قيمة الوقت المطلوب ولا ضغط العمل ولا المخاطر أو الكوارث التي تحيق به واحدة تلو الأخرى تقدر أن تنتزع حبه أو تفكره لأولاده ... »

لم تكن يداه مقيدتان بالسلاسل بقدر ما كانت روحه مرتبطة ومسمرة بأولاده ، الأمر الذي أعلنه في مقدمة الرسالة (الى أهل فيلبى) قائلاً لأننى حافظكم في قلبى فى وثقى وفى المحاماة عن الانجيل وتثبيته (١) ...

كان بولس يقطن فى العسالم كله كما فى بيت واحد . هكذا كان دائم التفكير فى خلاص الكل ، غير مبال بشيء ...

ثم يعق حبه شيء بشرى ما دامت جنوره من فوق فى السماء وجزاؤه سماوى ... (٢) « .

(١) فى ١ : ٧ .

(٢) للمؤلف : الحب الرعوى ص ٦٧٧ — ٦٧٩ .

امتثل القديس بالرسول بولس فبعث رسائل الى أكثر من مئة شخص تشهد هذه الرسائل عن مدى اهتمامه الحي باخوته وأولاده الروحيين في سوريا وأنطاكية رغم بعد المسافة وقسوة الظروف التي أحاطت به . حملت هذه الرسائل شهادة صادقة عن غيرته الرعوية وامتدت الخدام بتميزات ، هؤلاء الذين كانوا في قلق وغقدوا الرجاء في حال الكنيسة بالقسطنطينية .

ولعل أكبر الرسائل وأعماقها هي السبعة عشر رسالة التي بعث بها الى شماسه أوليباس (٣) ، والتي سبق لنا الحديث عنها (٤) .

ومن الرسائل الهامة أيضا رسالتان الى الأسقف اينوشيت ، الأولى (٥) كتبها قبل نفيه وهو في القسطنطينية بعد فصح عام ٤٠٤ م ، والثانية كتبها وهو في النفي بجبال القوقاز في نهاية عام ٤٠٦ م .

رسائله الى الشمامسة أوليباس :

مع قلة عدد هذه الرسائل لكنها تحمل تنوعا ، فقد جاء منها .
١ — بعض الرسائل مثل الثلاث الأولى قصيرة ، كتبها لمجرد حفظ علاقته كأسقف بالشمامسة مع طلب استطلاعه عن أخبارها أو تقديم بعض أخباره لها .

٢ — يرتفع مستوى بعض الرسائل الى بحث لمشكلة الألم وتقرب بعضها مثل الرسائل ٧ ، ٨ ، ١٠ من مقاليه اللذين كتبهما في تلك الفترة ، أحدهما « الى الذين ينزعجون من الخصوم » ، والآخر « لا يقدر احد ان يؤذي انسانا ما لم يؤذي الانسان نفسه » .

٣ — حملت هذه الرسائل الكثير من الجوانب التاريخية الخاصة برحلته الى المنفى وحياته في أرمينيا . كما قدمت لنا فكرة واضحة عن حياته التقوية وسلوكه الروحي في هذه الفترة العصيبة ...

٤ — جاءت هذه الرسائل ، كل منها يكشف لنا عن ملامح جديدة في أعماق نفس البطريرك المنفى .

احس القديس بالآلام الشمامسة ، فكانت نصيحته لها هي قراءة هذه الرسائل ... وهو متألم كان يشاركها آلامها ، لكنه كان يدفعها للعمل الروحي والخدمة ...

(3) PG 52 : 549 — 623 .

(4) PG 52 : 529 — 536 .

(٥) راجع الكتاب الأول — فصل ٥ (أوليباس) .

هـ — كان الأب البطريرك يرى في بعض رجال الكتاب المقدس المتألمين نموذجا حيا أمامه ، بل دخل معهم في علاقة صداقة وحب روى . هذا الأمر لم يكن جديدا عليه ، فقد مارسه أثناء خدمته قبل النفي ، اذ نراه يتحدث في إحدى عظاته على سفر التكوين قائلا عن الرسول بولس المتألم : « انى اعشقه ! لهذا فان اسمه دائما على شفقتى ! (٦) » .

وفي رسالته الثامنة (٧) يطيل الحديث عن شخصية القديس بولس المتألم الذى تعلم أن يموت عن كل شئ محتملا الآلام .

رسالتان الى ثيودور الساقط :

كتبهما في فترة وجوده بالدير حين سمع عن صديقه قد سقط في محبة سيدة يهودية اغوته فترك الرهبنة ، وكان له الفضل في رده الى طريق الرهبنة بقوة خلال هاتين الرسالتين المملوءتين رجاءا (٨) .

جاء فيهما : « ان تسقط هذا امر بشرى ، اما ان تصر على الخطية فهذا عمل شيطانى ! السقوط ليس محطم للنفس ، لكن البقاء في السقوط على الأرض هو المحطم لها ! » .

رسالة الى شابة أرملة :

وهي أشبه بمقال ، غالبا كتبها عام ٣٨٠ م ، ليعزى أرملة شابة فقدت زوجها Therasius ، ويخرجها من حالة الترملم المحزنة الى « الترملم العامل » ...

قمت بترجمتها وتبويبها ونشرها تحت عنوان : رسالة تعزية .

مقال De non iterands coniugo فيه ينصح العذارى أن يبقين كما هن (٩) ، غالبا ما نشر هذا المقال كملحق للمقال السابق وفي نفس التاريخ .

+ + +

(6) In Gen , hom 11 : 5 . PG 3 : 95 .

(7) Epis 8 : 11 d , 12 d .

(٨) قمت بترجمتها ونشرها تحت عنوان : ستعود بقوة أعظم .

(٩) ١ كو ٧ : ٤٠ .

ليتورجية

بخلاف الأيام المعدودة في السنة الليتورجية لدى الكنيسة الروسية واليونانية والتي فيها يصلون القديس الباسيلي فان بقية أيام السنة يصلون بقديس يوحنا الذهبي الفم .

والليتورجية المدعوة باسمه في شكلها الحالي وضعت في وقت متأخر عن عصره . حتى القرن السابع كانت تسمى « ليتورجية الرسل » ويبدو انها أخذت اسمها ليس قبل القرن الثامن (١) .

ويلاحظ ان مجمع Quinisexta بالقسطنطينية عام ٦٩٢ م يتحدث عن ليتورجية القديس يعقوب وأخرى للقديس باسيليوس ولم تذكر ليتورجية باسم القديس يوحنا الذهبي الفم . ولعل صيتها الرائع جاء بسبب أنها خاصة بالعاصمة ، حلت محل الليتورجيات القديمة للقديس يعقوب وللقديس مرقس في القرن الثالث عشر .

انتشرت في شكلها اليوناني في الأديرة الباسيلية بإيطاليا وفي نصها السلافوتي البيزنطي في أغلب مناطق روسيا . أما أقدم ترجمة لاتينية فوجدت في مخطوط يرجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر في جنوب إيطاليا . كما وجدت ترجمة أخرى لاتينية وضعت في القسطنطينية حوالي عام ١١٨٠ بواسطة Pisan مفسر Les Tuscuss

الكتابات غير الأصلية

شهرة القديس جعلت كثير من الكتابات نسبت إليه ، فقد طبع حوالي ٣٠٠ عملاً غير أصيل منسوب إليه خطأ ، كما يوجد حوالي ٦٠٠ عمل في المخطوطات منسوب إليه .

من بين المقالات غير الأصلية مقال (٢) Opus imperfectum in Matthaeum ، نال شهرة عظيمة في العصور الوسطى ، وهو يمثل تفسير غير كامل في ٥٤ عظة . المؤلف الحقيقي أريوس من القرن الخامس ، وقد ظن اللاتين الى فترة طويلة انه عمل أصيل لذهبي الفم .

(1) Schaff , vol 3 , p 531 .

(2) PG 56 : 611 — 649 .

محتويات الكتاب

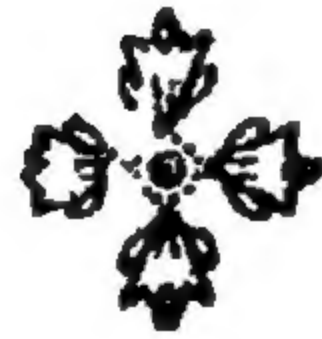
صفحة	
٤	مقدمة
	الباب الأول
	سيرته
٧	الفصل الأول : بدء حياته ..
١٥	الفصل الثاني : رهبانيته
٢١	الفصل الثالث: شموسيته وقسوسيته
٢٩	الفصل الرابع : أسقفية
٣٤	• الثماسة أولمبياس
٤٩	• طريق الآلام
٦٧	• مشكلة الأخوة الطوال
٨٥	• مجمع السنديان
٩٥	الفصل الخامس : نفيه
١٠١	• في نيقية
١٠٤	• الى قيصرية
١١١	• في كوكوزة
	الباب الثاني
	شخصيته - منهجه - لاهوتياته وافكاره
١٢٢	تقديم
١٢٣	الفصل الأول : شخصيته
١٢٩	الفصل الثاني : منهجه
١٣٠	١ - منهجه الانجيلي
١٣١	+ مفهومه للكتاب المقدس
١٣٦	+ منهجه الدراسي
١٤٢	+ ملامح عظاته التفسيرية


صفحة

٢ - منهجه الكرازي	١٤٨
+ مدرسة الخدمة	١٤٨
+ وحدة العمل	١٥١
+ خدمة الكلمة	١٥٣
+ منهجه الوعظي	١٥٥
+ الكرازة بالتوبة	١٦٣
+ الرعاية أبوة وتدبير	١٦٩
+ سمات الخادم المحب	١٧٧
+ الكهنوت مسئولية	١٨٩
+ الكرازة والمسيحي	١٩٤
+ الحفاظ على الايمان	٢٠٢
٣ - منهجه الكنسي	٢٠٦
+ كارز كنسي	٢٠٦
+ الكنيسة وابعادها	٢٠٨
+ العبادة الكنسية	٢١٨
+ الأسرار الكنسية	٢٢٨
- سر المعمودية	٢٣٠
- سر الافخارستيا	٢٣٩
+ الطقس الكنسي	٢٥٤
أ - مفهوم الطقس الكنسي	٢٥٥
ب - الطقس الليتورجي الافخارستي	٢٥٨
ج - الاعياد والأصوام	٢٦٤
د - رسم علامة الصليب	٢٦٩
هـ - طقوس أخرى	٢٧٢
٤ - منهجه السلوكي الايماني	٢٧٣
+ الحياة الفاضلة	٢٧٣
+ الحياة الفاضلة والعمل الالهي	٢٧٨
+ الحياة الفاضلة والجهاد	٢٨٠
+ حول الحياة الفاضلة	٢٨٦
٥ - لاهوتياته وافكاره	٢٩٣
+ الله	٢٩٣
+ رؤية الله وادراكه	٢٩٨
+ الأسم	٣٠٨
+ الكنيسة	٣٥٠

الباب الثالث
كتابات

تقديم	٣٣٠
أولا : عظامه	٣٣١
+ عظامه على العهد القديم	٣٣٣
+ عظامه على العهد الجديد	٣٣٥
+ عظام غير تفسيرية	٢٤٢
ثانيا : مقالاته	٣٤٧
ثالثا : رسائله	٣٥٣
ليتورجيته	٣٥٦
الكتابات غير الاصلية	٣٥٦



 **Bibliotheca Alexandrina**



0285299